ستة من كتاب أوروبا الكبار يحدثوننا عن إيمانهم بالشيوعية
ورحلتهم إليها... ثم عن رحلة العودة بعد أن يئسوا منها

رتشارد رايت

آرثر كستلر

اكناز سيلوني

أندريه جيد

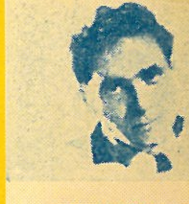
ستيفن سبندر

لويس فيشر

الصنم الذي هوى

نقله إلى العربية **فؤاد حمودة** المدرس في جامعة دمشق

الصنم الذي هوى

تأليف

ستة من كبار كتاب الغرب

وتعريب

فؤاد حمودة

المدرس بجامعة دمشق

منشورات المكتب الاسلامي

دمشق ـ الحلبوني

ص ب ـ ٨٠٠ ـ هاتف ١١٦٣٧

THE GOD THAT FAILED

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٣٨٠ – ١٩٦٠

المقدمة

بقلم : رتشارد كروسمان

ولد رتشارد كروسمان في الخامس عشر من كانون الاول (ديسمبر) عام١٩٠٧ . كان ابوه محاميا ثم قاضيا ، وتعلم هو في كلية ونشستر وفي اكسفورد حيثحصل على درجة الشرف الاولى في العلوم الكلاسيكية والفلسفية ، ثم بقي فياكسفورد مدة ثمان سنوات يدرس افلاطون والنظرية السياسية ، كما بدا في نفس الوقت يشق طريقه السياسي كعضو اشتراكي في مجلس بلدية اكسفورد .

وفي عام ١٩٣٧ أصبح مرشح حزب العمال لمنطقة كوفنتري ، ثم نجح فيها في انتخابات عام ١٩٤٥ .

وفي عام ١٩٣٨ أصبح مساعد رئيس تحرير جريدة نيو ستيتسمان وجريدة الوطن وما زال كذلك الى اليوم .

وقد عمل اثناء الحرب في وزارة الخارجية أولا ثم في اركان حرب الجنرال أيزنهاور كخبير في الشؤون الالمانية في مهمة تتعلق بأجهزة العدو للدعاية .

وفي عام ١٩٤٦ عمل في اللجنة البريطانية الاميركية لشؤون فلسطين ،واصبح نتيجة لذلك كبير المعارضين لسياسة مستر بيفن في فلسطين .

مؤلفاته : افلاطون اليوم – الحكومة والمحكومون – البعثة الفلسطينية .

خلال مناقشة حامية بين آرثر كستلر وبيني ، برزت فكرة هذا الكتاب ، فقد كنت معه في ويلز الشمالية حين قال محتدا أثناء احدى المناقشات السياسية العقيمة التي كانت تشكل جزءا من حياتنا وصداقتنا :

« اما أنك لا تستطيع أن تفهم ، أو لا تريد أن تفهم ، وهذا هو الشأن معكم دائما معاشر المنعّمين أعداء الشيوعية من الانكليز ، فأنتم ضيقوا الأفق لا تعجبكم آراؤنا وتنبؤاتنا وتأبون أن تعترفوا بنا كحلفاء لكم إلا أن الحقيقة رغم هذا ، هي أننا نحن الشيوعيين السابقين وحدنا أعرف الناس هنا بالشيوعية وما يتعلق بها » • وبعد ذلك انتقل الحديث الى بحث الأسباب التي دعت فلانا من الناس الى اعتناق الشيوعية ، ثم لماذا تركها أو لماذا بقي فيها ، فلما بدأت المناقشة تحتد مرة أخرى قلت له مقاطعا : « هلاّ خبرتني أنت بالذي حدث بالضبط وقت أن انضممت الى الحزب ؟ ولست أريد منك أن تحدثني عن شعورك الآن بل عن شعورك واحساساتك في ذلك الحين » • وبدأ كستلر يتلو علي قصة لقائه الغريبة مع الهر شنيللر في مصنع ورق شنيدمول ، وفجأة قاطعته قائلا « على رسلك ، ان هذا ينبغي أن يجعل في كتاب » • ومن ثم بدأنا نستعرض أسماء من تركوا الشيوعية بعد اعتناقها لنرى من أوتوا القدرة على أن يحدثونا عن أنفسهم وعن خبراتهم • وقد بدأنا بعدد كبير من الأسماء ، إلا اننا اتفقنا قبل أن ينقضي الليل ، على تحديد العدد على أساس ستة من الكتاب والصحفيين • ولم نكن نريد مطلقا أن نزيد من طوفان الدعاية المعادية للشيوعية ، ولا أن نهيء الفرصة لتبريرات والمعاذير الشخصية ، بل كان كل همنا دراسة الحالة الذهنية لمن مروا بهذه الخبرات ، مع دراسة المحيط الذي عاشوا فيه في الفترة ما بين ١٩١٧ ، ١٩٣٩ حين كان التحول الى الشيوعية أمرا شائعا • ولقد رأينا أن من الضروري لكل من يشارك في هذا الكتاب أن يكون لديه من سعة الخيال والقدرة البيانية ما يعينه على احياء هذه الفترة الماضية من حياته والحديث عنها حديث من يعيش الآن فيها ، متناسيا مايراه ويعتقده في الوقت الحاضر ، وعلى هذا فذو العقلية السياسية العملية لا يصلح

لغرضنا لأنه سيحكم على الماضي من خلال الحاضر ، كما أن التحليل العلمي سوف يضللنا إذ أنه يشرّح الشخصية ويرجع الأمر الى مجموعة من العوامل النفسية والاجتماعية ، ونحن نريد أن نصف العواطف والانفعالات ولا نريد أن نفسرها • لقد كان ما نطلب هو القدرة على استرجاع الخبرات الماضية بانصاف واعتدال ان لم يكن بسكينة ، وهذه موهبة لا يكاد يملكها الا ذوو الخيال من الكتاب •

إن الذي حدث هو ان عددا لا يحصى من رجال الفكر والأدب في أوربا وأمريكا آمنوا بالشيوعية واعتنقوها في السنوات التي وقعت بين ثورة أكتوبر (تشرين أول) وبين ميثاق ستالين ــ هتلر • ولا يعتبر هؤلاء بالطبع نموذجا لمن تحول الى الشيوعية ، إذ أنهم لكونهم من ذوي الحساسية الممتازة لا يعتبرون من الشيوعيين العاديين ، كما أن الأديب الكاثوليكي لا يعتبر كاثوليكيا عاديا • لقد كان لديهم إدراك زائد لروح العصر ، وكانوا يحسون بآلام الجيل وآماله أكثر من إحساس غيرهم من الناس ، ولذلك فان تحولهم هذا كان يعبر عن إحساسات يشاركهم فيها الملايين الذين احسوا أن روسيا كانت في جانب الطبقة العاملة ، إلا أن الملايين كانت احساساتها أشد خفاءا وأقل قدرة على التعبير عن نفسها ، على حين كانت احساسات هؤلاء الكتاب حارة عنيفة مؤرقة • إن رجل الأدب والفكر هو لدى أقرانه « غير مستقر » في معتقداته السياسية • إنه دائما يرمي ببصره الى زاوية الطريق المقبلة بينماهم لا يرفعون أعينهم عن الطريق • إنه دائما سابق لعصره فهو لهذا متطرف مغال ، فإذا حقق التاريخ تنبؤاته فبها ونعمت ، أما إذا سار التاريخ في درب آخر فعليه هو أن يستمر في طريقه الى نهايته ، أو أن يعود بذلة ليساير التاريخ ويتبرأ من أفكار قد أصبحت جزءا من نفسه •

وفي هذا الكتاب يحدثنا ستة من رجال الفكر عن ايمانهم بالشيوعية ورحلتهم اليها ، ثم عن رحلة العودة بعد أن يئسوا منها . لقد كانوا في البداية ينظرون اليها من بعيد كما كان إخوة لهم من قبل منذ مائة وثلاثين عاما ينظرون الى الثورة الفرنسية على أنها تحقيق لمملكة الله على الأرض ، وقد كرسوا جهودهم وملكاتهم للعمل في هذا السبيل كما فعل إخوتهم ويردسويرث وشيللي من قبل ، ولم يوهن من عزائمهم سخرية المعارضين ولا تلك المثبطات التي كانت تصدمهم من سلوك رجال الثورة المحترفين ، حتى اكتشف كل منهم الفجوة العميقة بين حقيقة الدولة الشيوعية وبين ما تخيلوه ، ووصلت حدة الصراع في نفوسهم حدا لم يستطيعوا معه البقاء فرجعوا .

إن قليلا جدا من الناس من يستطيعون أن يزعموا أنهم عرفوا هذه الحقائق قبل أن يكشفها التاريخ ، ومن هذا القليل برتراند راسل الذي استطاع أن يعيد نشر كتابه (البلشفية بين النظرية وبين التطبيق) الذي ألفه عام ١٩٢٠ دون أن يحتاج الى تغيير كلمة واحدة ؛ إلا أن معظم من يدعون الحكمة الآن ويظهرون غضبهم واحتقارهم للشيوعية ومعتنقيها كانوا وقتها إما غافلين عن معنى الثورة الروسية وحقيقتها ، أو مجرد أشخاص يتذبذبون مع حركة البندول ، يذمون ثم يمتدحون ، ويذمون مرة أخرى حسب ما تمليه السياسة العامة . إن الأحاديث الستة التالية تكشف عن خطر سياسة اللامبالاة فيما يتعلق بالشيوعية . إن كون الشيوعية قد استطاعت أن تجتذب لصفها مسيحيا مؤمنا مثل إكنازيو سيلوني وأشخاصا من ذوي الاتجاه الفردي مثل أندريه جيد وآرثر كستلر يكشف عن نقص خطير في الديموقراطية الأوروبية ، وإن كون رتشارد رايت الكاتب الزنجي المكافح عن الزنوج في شيكاغو قد دخل الشيوعية وكأنها مكانه الطبيعي ، هو في ذاته اتهام صارخ للمجتمع

الأميركي والحياة الاميركية . أما لويس فيشر فيمثل طبقة المراسلين الأجانب من انكليز وأميركان الذين وضعوا ثقتهم في روسيا وآمنوا بها يأسا من الديموقراطية الغربية ، ونفورا من سياسة التسكين والتهدئة التي اتبعها الغرب مع الفاشية والنازية ، قبل أن يكون ذلك إعجابا منهم بالشيوعية نفسها . أما الشاعر الانكليزي ستيفن سبندر فقد كان مدفوعا بعوامل لا تختلف كثيرا عن هذه ، لقد بدت الحرب الاهلية الاسبانية بالنسبة اليه ، كما بدت بالنسبة الى كل معاصريه تقريبا ، محك السياسة العالمية ، وكانت السبب في فترة إقامته القصيرة في الحزب الشيوعي ، كما كانت السبب في تبرّئه منه فيما بعد .

إن الصلة الوحيدة الجامعة بين هؤلاء الستة الذين اختلفت شخصياتهم وتباعدت ، هي أنهم جميعا قد اختاروا الشيوعية ، بعد نضال نفسي مضن ، لأنهم فقدوا ثقتهم في الديموقراطية ، وكانوا على استعداد للتضحية « بالحريات البورجوازية » في سبيل القضاء على الفاشية . وعلى هذا فمنشأ تحولهم هذا هو اليأس ، اليأس من القيم الغربية وجدواها . إنه لمن السهل أن يدرك المرء الآن أن هذا اليأس كان يأسا هستيريا عصبيا ، فإن الفاشية هزمت دون حاجة الى دخول الشيوعية والتضحية بالحريات الشخصية ، ولكن هل كان اكنازيو سيلوني يستطع أن يتنبأ بهذا في سنة ١٩٢٠ حين كانت الدول الديموقراطية ترضى موسوليني ، وكان الحزب الشيوعي الايطالي وحده هو الذي ينظم حركة مقاومة جدية ؟ وهل كان أندريه جيد وآرثر كستلر وقت أن آمنا بالشيوعية على خطأ حين رأيا ان الديموقراطية في ألمانيا وفرنسا كانت منحلة فاسدة ، وأنها لن تلبث أن تستسلم للفاشية ؟ إن بعض ما لهذا الكتاب من قيمة يرجع الى أنه يهزنا هزا عنيفا حين يذكرنا بماض مؤلم ؛ يذكرنا بالغربة القاسية التي كان يعانيها من عادوا الفاشية قبل أن يكون

للفاشية أعداء ، أولئك الذين فهموا الفاشية وعملوا على قتالها قبل أن يقدّر الناس من يقاتلها • لقد كانت هذه الغربة هي التي جعلتهم يستجيبون لنداء الشيوعية •

لقد كان هذا النداء قويا صارخا لدى أولئك الذين كانوا أكرم من أن يرضوا بالأوضاع السائدة • لقد كان لديهم احساس بأن العالم على شفا الهاوية ، ولذلك جعلوا يبحثون عن فلسفة تعينهم على تحليل أوضاع العالم المؤلمة ثم التغلب عليها ، وقد وجد كثير منهم بغيته في الشيوعية •

إن ما في الماركسية من جاذبية فكرية كان يرجع الى أنها استطاعت أن توضح بطلان كثير من الأفكار السائدة الفاسدة ، فعلمت الناس أن التطور لا يأتي آليا كما يظنون ، وأن نوبات الغلاء والتدهور الاقتصادي التي انتابت الدنيا لم تكن الا أثرا من آثار الرأسمالية ، وأن المظالم الاجتماعية والتمييز العنصري لا يمكن أن تعالج بمضي المدة ؛ ولو كان الاختيار يقع بين فلسفتين ماديتين لما اختار عاقل بعد عام ١٩١٧ نظرية التطور الآلي التي زعم الكثير من أهل النفوذ أنها الأساس الحقيقي للديموقراطية • لقد كان على الانسان ، فيما يبدو ، أن يختار بين أقصى اليمين الذي يصر على استعمال القوة لسحق الحرية الانسانية ، وبين اليسار الذي بدا مشوقا الى استعمالها في تحرير الانسانية • ان الديموقراطية الغربية اليوم ليست في مثل الحمق الذي كانت عليه في تلك الفترة الكئيبة بين الحربين العالميتين ، فقد احتاجت الى حربين عالميتين والى ثورتين لكي تدرك أن مهمتها ليست أن تدع التطور يسير في طريقه دون أن تحرك ساكنا ، بل أن تدبر الخطط لايجاد تعاون بين الشعوب الحرة في مواجهة الثورة العالمية •

لئن كان اليأس والغربه هي الدوافع الرئيسية وراء التحول الى الشيوعية ، فقد قواها وشد من أزرها الضمير الديني ، وهنا أيضا نجد

رجل الفكر ، وان كان لا يذهب الى الكنيسة ، يشعر بوخزات هذا الضمير أكثر حدة من جيرانه الغافلين الذين يواظبون على اقامة الشعائر ، فهو يشعر بالظلم الذي تنطوي عليه الامتيازات التي يتمتع بها ، سواء بسبب جنسه أو طبقته أو ثقافته • ان الجاذبية العاطفية التي للشيوعية تقع أولا في التضحيات المادية والروحية التي تطلبها من الفرد • قد تسمي هذا حب تعذيب الذات وقد تسميه الرغبة المخلصة في خدمة البشرية ، الا أن فكرة الزمالة في النضال بما تستتبعه من تضحيات شخصية ومن الغاء للفروق الطبقية والعنصرية قد كان لها في كل الديموقراطيات الغربية قوة لا تقاوم • ان الحزب السياسي العادي قد يجذب الأفراد اليه بما يقدمه لهم من خير ، أما جاذبية الشيوعية فتقع في أنها لا تقدم الى الفرد شيئا وتطلب منه كل شيء ، بما في ذلك حريته الشخصية والروحية •

وهنا نجد تفسير تلك الظاهرة التي حيرت المراقبين ، وهي كيف أمكن لهؤلاء الكتاب المفكرين أن يقبلوا تحكم ستالين واستبداده ؟ والجواب على هذا السؤال تجده مفرقا في صفحات هذا الكتاب • ان وسائل الراحة المادية عند رجل الفكر ليست ذات أهمية كبيرة ، إنما الاهمية الكبيرة للحرية الروحية ، وكما أن موطن القوة في الكنيسة الكاثوليكية أنها تطالب أتباعها بالتنازل الكامل عن هذه الحرية ، وتكره الروح المتكبرة ، فإن من يدخل الشيوعية يخضع روحه لشريعة الكرملين ويحس في ذلك شيئا من الخلاص •

واذا تم هذا فإن العقل ، بدلا من أن يعمل ويفكر بحرية ، يصبح عبدا للغاية العليا التي لاتناقش ولا تعارض ، ويصبح إنكار الحقائق الواضحة شعيرة وعبادة ، وهذا هو السبب في عدم جدوى بحث أية وجهة نظر سياسية معينة مع الشيوعي ، فإن كل جدال منطقي معه يتضمن تحديا لعقيدته الأصيلة المستقرة في نفسه ، فيصبح كمن يناضل

عن روحه • إنه لأسهل على الانسان أن يقدم حريته وروحه على مذبح الثورة العالمية من أن يعود فيستردهما من جديد •

ولعل هذا بعض السبب في أن نجاح الشيوعية في الدول الكاثوليكية كان أكبر من نجاحها في الدول البروتستانتيه بشكل واضح • إن البروتستانتي لا يسمح لنفسه بأن يخضع روحه لأية سلطة كهنوتيه ، وهو يزعم أنه يعرف الخطأ من الصواب عن طريق بصيرته الداخلية ، فالديموقراطية بالنسبة اليه ليست مجرد شكل ملائم من أشكال الحكم ، بل هي ضرورة تقتضيها الكرامة الانسانية • إني لأسائل نفسي أحيانا لماذا لم أحس بأية رغبة في قبول دعوة الزعيم الشيوعي ويللي منزنبرغ لزيارة روسيا رغم أنني كنت شابا صغير السن وكنت أقطن معه في برلين • لقد أسرتني شخصيته الممتازة — التي يتحدث عنها آرثر كستلر في هذا الكتاب — كما أن الماركسية كانت تبدو مكملة للفلسفة السياسية الافلاطونية التي كانت موضوع دراستي • لقد كنت في ذلك الحين — كان ذلك في صيف عام ١٩٣١ — على ثقة بأن الاشتراكية الديموقراطية الالمانية سوف تتحطم أمام النازية ، وأن مجيء هتلر الى الحكم معناه الحرب لا محاله ، فلماذا لم تكن لدي استجابة داخلية للاغراء الشيوعي ؟ إن الجواب على ما أعتقد أن السبب هو مجرد العناد الذي تركب في طبع المنشقين عن الكنيسة الرسمية ، أو قل هو الكبرياء • انه عدم الرغبة في الاعتراف بالبابا سواء كان بابا روحيا أو دنيويا • ان الانسان يستطيع أن يرى نفس الاحاسيس لدى ستيفن سيندر الذي لم يكد ينضم الى الحزب الشيوعي حتى كتب مقالة في جريدة الديلي ووركر لا تتفق مع خطة الحزب • انه العناد أيضا دفعه الى هذا • إنني أعتقد أن هذا الموقف منه بريطاني أصيل كموقف ذلك الرفيق البريطاني الذي تحدث عنه اكنازيو سيلوني ، والذي سبب استنكاره الساذج البرىء لكذبة متعمدة ، قهقهة

اهتزت لها جنبات الكرملين • اننا نحن البريطانيين ، كأمة ، ننتج من الضالين والمارقين ما يفوق حصتنا ، وذلك لأننا ، قبل غيرنا من الامم لا نعترف بعصمة لأحد •

ولنعد الآن الى أوروبا • إن من أعجب ما كشفت عنه هذه السيّر موقف الشيوعيين المحترفين تجاه المتحولين الى الشيوعية من رجال الفكر • انهم لم يكتفوا بالاستياء منهم والشك فيهم ، بل كانوا فيما يبدو يتعمدون تحقيرهم وتعذيبهم فكريا ونفسيا ، وكانت هذه المعاملة في البداية تثبت رجل الفكر وتزيد من شعوره بالضعة أمام أبناء الطبقة العاملة الحقيقيين ، فكان عليه أن يسعى كي يحصل بطريقة ما تلك الصفات التي يعتقدها أصيلة في الطبقة العاملة ، وذلك بتدريب عقله وتغيير أفكاره ، إلا أن هذا الاتجاه الذهني كان يتغير بالطبع حالما يتعرف رجل الفكر الشيوعي على الاحوال والاوضاع في روسيا ، فقد كان يحل محل الشعور بالضعة إيمان بأن على الغرب أن يجلب النور والثقافة للشرق ، كما أن على الطبقة الوسطى أن تجلب النور والثقافة للطبقة العاملة • وقد وضح اكنازيو سلوني هذا المعنى أكثر من غيره ، ولعله مأخوذ عن كارل ماركس الذي كان كثيرا ما يتحدث عن تأخر الجنس السلافي وانحطاطه • وكان هذا الايمان بداية الصحو واليقظة كما كان في الوقت نفسه حجة للبقاء في الحزب ؛ كان بداية الصحو لأن الدافع الرئيسي لتحولهم الى الشيوعية كان اليأس من المدنية الغربية التي وجدوا الآن أن فيها من القيم ما هو لازم لانقاذ روسيا الشيوعية ؛ وكان حجة للبقاء في الحزب اذ يمكن أن يقال : اذا انسحب الأثر الغربي من الميدان فإن الوحشية الشرقية سوف تجعل من الدفاع عن الحريات الانسانية أداة بغيضة للطغيان والاستبداد •

وهنا نجد صراعا نفسيا آخر أشد عنفا من سابقه يتحدث عنه

أندريه جيد في بحثه العلمي عن القضية الغربية في مواجهة الشيوعيــة الروسية[1] • ان انسحاب جيد وكفره بالشيوعية كان المفروض أن تتبعه موجة من الانسحابات تشمل ألوفا من رجال الفكر والادب في أواخر عام ١٩٣٠ لولا الحرب الاهلية الاسبانية وسياسة عدم التدخل التي اتبعها الغرب فيها • ان مأساة الحرب الاسبانية وحملة «الجبهة الشعبية» ضد الفاشية جعلت جيلا كاملا جديدا من أهل الغرب اما أعضــاء في الحزب الشيوعي أو على تعاون وثيق معه ، وأخرت انسحاب عدد كبير ممن هالهم وأفزعهم ما مر بهم من أحداث داخل الشيوعيــة ، اذ ان انسحابهم منها في ذلك الحين كان معادلا لتأييد هتلر وتشامبرلين • وعلى كل فإن هذا الصراع النفسي لم يلبث أن انتهى بالنسبة الى كثير منهم بتوقيع ميثاق ستالين ــ هتلر فخرجوا على الشيوعية من ذلك الحين •

ان قصة رتشارد رايت ذات أهمية خاصة اذ انها تعرض علينا مسائل الروح الاستعمارية والعنصرية في إطار أميركي • كان باعتباره زنجيا من سكان أحياء شيكاغو الفقيرة ، يحس أكثر من غيره بالحاجة الملحة الى عقيدة يجــد فيهــا الحل النهائي لمشكلة المظالم الاجتماعية والعنصرية • ان الكتاب

(١) بعد أن كان السيد أندريه جيد قد أبدى استعداده للمشــاركة في هذا الكتاب ، حالت حالته الصحية دون اتمام المهمة ، ولما كنت حريصا على الا يفوتنا هذا الجزء الهام في دراستنا فقد سرني أن الدكتورة أنيــد ستاركي وافقت على القيام بمهمة تحرير الجزء المخصص للسيد أندريه جيد في هذا البحث . ولقد قامت بهذه المهمة مع المراجعة المستمرة للسيد جيد الذي وافق على الصيغة النهائية . ان البحث بحثها الا أنه بني على تحليل وشرح لرسالتين كتبهما جيد عام ١٩٣٦ بعد عودته من الاتحاد السوفيتي ، بالاضافة الى نصوص مأخوذة من « يومياته » ومن مناقشة جرت في باريس في جمعية « الاتحاد للبحث عن الحقيقة » عام ١٩٣٥ . وأحب هنا أن أعبر عن شكري وشكر الناشرين للدكتوره ستاركي على المهارة التي أنجزت بها هذه المهمة الدقيقة .

الخمسة الآخرين كانوا بتقبلهم للنظام الشيوعي يضحون بمنزلتهــم الشخصية وحريتهم الفردية ، الا أن الدخول في النظام الشيوعي كان بالنسبة الى رتشارد رايت نوعا من الانطلاق لطاقات حبيسه ، وكانت تضحيته الحقيقية حين ترك الحزب الشيوعي في النهاية • انه يقول :

« فقد كنت الآن على ثقة من أنني لن أستطيع أن أكتب هكذا مرة ثانية ، لن أتمكن بعد اليوم من أن أجد في نفسي تلك الاستجابة المتفتحة البسيطة لكل ما في الحياة ، لن أستطيع بعد الآن أن أعبر عن مثل هذا الأمل الجياش أو أن أهب نفسي بكل هذا الاخلاص للمبدأ من جديد »

إن هذا الاقرار الحزين يذكرنا بأن الشيوعية ، وان كانت قد فقدت سحرها في الغرب ، لا تزال تعتبر قوة تحررية كبرى بين الشعوب الملونة التي تشكل الاغلبية العظمى للجنس البشري • ان رتشــارد رايت ، باعتباره زنجيا أميركيا ينتسب الى الديموقراطية الغربية ولا ينتسب إليها، فهو إنما اصطدم بالجهاز الشيوعي باعتباره كاتبا اميركيا قد تشرب معنى الكرامة الانسانية والقيم الفنية ، الا أنه كزنجي يتلفظ بهذه الجملة بعد تركه للحزب «سوف أكون لهم وان كانوا علي» • ان الملايين من الملونين لم يمروا بهذا الصراع النفسي المعقد الذي عاناه رتشارد ريت ، وان الديموقراطية الغربية بالنسبة اليهم لا تزال تعني « سيادة الرجل الابيض » ، بينما لا تزال الشيوعية انجيل التحرير بالنسبة لهذه الشعوب ، ويستطيع رجل الفكر الصيني أو الافريقي أن يتقبلها دون أن يحتاج الى اهدار نصف شخصيته •

ولعل هذا يفسر عدم المبالاة الذي يبدو من الجهاز الشيوعي تجاه الاجيال الغربية الواعية ، فلعلهم يقدرون أنه يمكن اهمال هذا الجيــل الذي لا يعتمد عليه لأن الصراع العالمي التالي لن يكون بين طبقة وطبقة داخل الامة الواحدة ، وانما سيكون بين أمم الطبقة العاملة وبين أعدائهم •

ومهما كان الامر فان وحشية المعاملة التي يلقاها رجل الفكر الغربي أمر لا جدال فيه ، ولو أن الكومنترن قد أظهر أي قدر من التقديروالاحترام خلال الثلاثين عاما الماضية ، لأمكن أن يكسب تأييد القسم الأكبر من الفكر التقدمي في العالم الغربي ، الا أنه بدلا من ذلك كان كأنما يكره هذا التأييد ،بل ويبذل كل محاولةللخلاص منه . اناحدا من الكتاب الستة الذي شاركوا في هذا الكتاب لم يترك الحزب الشيوعي عن نفس طيبة وضمير مرتاح ، ولو أن الحزب أظهر أي نوع من الفهم والتقدير لتمسكهم بالحرية الانسانية والكرامة البشرية لما ترددوا في العودة الى صفوفه ، الا أن جهاز الحزب كان دائبا في بعثرة بذور الثقافة الغربية والمحافظة على قشورها بهمة لا تلين .

ما الذي يحدث للشيوعي حين يضطر الى التبرؤ من الشيوعية ؟ ان لويس فيشر وستيفن سبندر وأندريه جيد لم يعملوا أبدا في جهاز الحزب الداخلي ، بل ان لويس فيشر لم ينضم الى الحزب الشيوعي في أي وقت ؛ لقد كانوا جميعا يؤيدون ويعاونون ولكن بعيدا عن صفوف الحزب فلم يصغ الحزب شخصياتهم ويشكل حياتهم حسبما يريد،ولهذا فان انسحابهم رغم ما صحبه من ألم وأسى لم يترك على شخصياتهم آثارا دائمة . أما اكنازيو سيلوني وآرثر كستلر ورتشارد رايت فلن يتخلصوا أبدا من طابع الشيوعية . انهم سوف يحيون حياتهم كلها في نطاق فلسفة الحزب ، وسوف تكون معركتهم مع الاتحادالسوفييتي دائما انعكاسا للصراع الاليم داخل نفوسهم . ان من يترك الشيوعية بعد أن كان فيها قلبا وقالبا لا يمكنه أبدا أن يعود شخصية متكاملة منسجمة . لقد كان هذا الصراع الداخلي بالنسبة الى آرثر كستلر هو منبع كل اتجاه المبدع ، وليست الكتابة بالنسبة اليه عملا من أعمال التنقية والتصفية يجلب وراءه سكينة النفس ، بل هو استجواب لا رحمة فيه لنفسه

الغربية من قبل نفس أخرى قاسية . أما اكنازيو سيلوني فقد استطاع برجوعه الى عقيدته الدينية التي بدأ منها أن يحصل على نوع من الاتزان النفسي يجعله الى حد ما « بعيدا » عن الصراع . ان معتقده الاساسي اليوم هو « ايمان بكرامة الانسان ، وشعور بالاجلال لذلك الدافع الداخلي الذي يحثه دائما على التقدم والتطور وهو أساس ذلك التبرم والقلق الذي لا ينفك عنه » .

هناك شيء واحد يتضح من دراستنا للخبرات المختلفة التي مر بها كتابنا الستة . لقد كان سيلوني يمزح عندما قال للرفيق توكلياتي : ان المعركة الفاصلة ستكون بين الشيوعيين وبين من خرجوا على الشيوعية، الا ان أحدا ممن لم يصطرع مع الشيوعية كفلسفة ، ومع الشيوعيين كمعارضين سياسيين ، لا يمكنه أن يعرف قدر الديموقراطية الغربية وقيمتها . لقد كان الشيطان يعيش في السماء من قبل ، وليس من السهل على من لم يلتقوا به أن يميزوا الملاك اذا رأوه .

القسم الاول

المنتسبون :

١ ـ آرثر كستلر

٢ ـ أكنازيوسيلوني

٣ ـ رتشاردرايت

آرثر كستلر

ولد آرثر كستلر في الخامس من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٠٥ في بودابست من أب هنغاري وأم من فيينا ، وتلقى دروسه في فيينا ، ثم أصبح بعد تجوال سنتين في الشرق الادنى مراسل دار نشر «الشتين» في برلين .

انضم الى الحـزب الشيوعي في آخر يوم من شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣١ ، ثم انفصل عنه في ربيع عام ١٩٣٨ ، بعد أن كانت سلطات فرانكو قـد سجنته خلال الحرب الاهلية في اسبانيا (وهو يتحدث عن هذا في كتابه « الوثيقة الاسبانية ») .

مؤلفاته : ظلام في الظهيرة ـ أرذال الناس ـ الاتصال والانفصال ـ لصوص في الليل ـ الفقير الهندي ورئيس الادارة ـ البصر والبصيرة .

ان العقيدة لا تأتي عن طريق الاستدلال أو الاستنتاج ، فان الانسان لا يدخل الكنيسة نتيجة اقتناع منطقي ؛ ان المنطق قد يحمي العقيـدة ويدفع عنها ولكن بعد أن تكون العقيدة قد تكونت ورسخت • وقد يلعب الاقتناع دورا في ايمان الانسان بعقيدة ما ؛ ولكنه دور الوصول بالعقيدة الى ذروتها الواعية بعد ان تكون قد نضجت وتكونت في مناطق بعيدة عن نطاق المنطق أو الاقتنـاع • ان العقيدة لا تحصـل وتكتسب ، ولكنها تنمو كنمو الشجرة فرعها في السماء وأصلها عميق في ماضي الانسان ، تغذيه عصارة من ثرى الاسلاف والجدود •

وليس هناك فرق كبير بين العقيدة الثورية والعقيدة التقليدية من

وجهة نظر علم النفس ، فان كل ايمان حقيقي لا بد وأن يكون صلبا لا يلين ومتطرفا وحريصا مدققا ؛ ومن ثم فان المؤمن التقليدي الحقيقي يكون دائما غيورا وثوريا في مواجهة المجتمع الخـامد المنافق الـذي يعيش فيه •

وفي مقابل هذا نجد أيضا أن المثل الاعلى للثوري ، وان بدا ثورة كاملة على الماضي ، هو دائما مصاغ على صورة الفردوس المفقود ، أي على صورة عصر ذهبي أسطوري • ان المجتمع الشيوعي الذي لا طبقات فيه هو حسب ما يرى ماركس وانجلز احياء وتجديد للمجتمع الشيوعي البدائي الاول • وهكذا فان كل عقيدة حقة تتضمن ثورة على المحيط الاجتماعي لصاحب العقيدة كما تتضمن مشروعا لمثل أعلى ، مقتبس في أصله من الماضي السحيق • ان كل المثل العليا تتغذى من منابع الاساطير القديمة ، وليست تصميمات المهندس الاجتماعي الا طبعـات منقحة للنسخة القديمة •

واذن فان الاخلاص للمثل الاعلى والثورة على المجتمع المدنس هما القطبان اللذان تستمد منهما العقائد المكافحة قوتهـا ، ولا معنى لان تساءل من أي القطبين يأتي الفيض الحالي — من الانجذاب الى المثل الاعلى ام من النفور من المحيط الاجتماعي — فهذا يشبه التسـاؤل القديم عن البيضة والدجاجة أيتهما أسبق الى الوجود • ان كلا الامرين — الشوق الى المثل الاعلى ، والثورة على الاوضـاع القائمة — عند الطبيب النفساني مظهران لسوء التكيف الاجتماعي ، وهما عند المصلح الاجتماعي مظهران لاتجاه منطقي سليم • ان الطبيب النفساني عرضة لان ينسى أن التكيف المرن مع مجتمـع ممسوخ انما يخلق افراداً ممسوخين ، والمصلح الاجتماعي بدوره عرضة لان ينسى أن الكراهية ، وان كانت موجهة نحو شيء يستحق الكراهية ، لا تنتج ذلك البر والعدل

اللذين لا قيام للمثل الاعلى بدونهما ، وهكذا فان كلا من وجهتي نظر الطبيب النفساني والمصلح الاجتماعي تعبر عن نصف الحقيقة .

صحيح أن الموقف المقبول الوحيد في مواجهة المظالم الاجتماعية المنفرة هو الثورة ، وترك التأمل الباطني لاوقات أخرى ، الا اننا اذا استعرضنا التاريخ ، وقارنا بين الاهداف السامية التي قامت الثورات باسمها وبين النهاية المؤسفة التي وصلت اليها ، فاننا نرى في كل مرة كيف أن الحضارة الملوثة تلوث أيضا أبناءها الثائرين .

اننا اذا ربطنا بين نصف الحقيقة الذي يمثله الطبيب النفسي وبين النصف الذي يمثله المصلح الاجتماعي ، أمكن أن تنتهي الى أنه اذا كانت الحساسية الزائدة بالظلم الاجتماعي ، والشوق المجنون الى المثل الاعلى دليل سوء تكيف عصبي ، فان المجتمع قد يصل الى حالة من البلى والفساد يصبح معها هذا الثائر المريض أقرب الى الله من ذلك المدير الحكيم الذي يأمر باغراق الخنازير تحت أعين قوم يموتون جوعا . لقد كان هذا هو الدافع فعلا في المدنية الغربية عندما انضممت في كانون الاول من عام ١٩٣١ وفي سن السادسة والعشرين الى الحزب الشيوعي في المانيا .

* * *

تحولت الى الشيوعية لان نفسي كانت مستعدة لقبولها ، ولانني كنت أعيش في مجتمع منحل يتعطش الى عقيدة ، الا ان اليوم الذي تسلمت فيه بطاقة القبول في الحزب لم يكن الا ذروة تطور كان قد بدأ قبل أن أقرأ عن الخنازير المغرقة ، أو أسمع بأسماء ماركس ولينين بوقت طويل . ان جذور هذا التحول تمتد الى وقت الطفولة ؛ ورغم

أن لكل منا نحن الذين عشنا في هذه الايام جذورا فردية تختلف شعيراتها وانحناءاتها عن شعيرات الآخرين ، الا أننا جميعا بشكل عام نتاج نفس الجيل ونفس البيئة الثقافية ، وهذا الذي يجعلني آمل أن تكون قصتي ذات نفع ومغزى .

ولدت في بودابست عام ١٩٠٥ ، وعشت مع أهلي هناك الى عام ١٩١٩ حين تحولنا الى ڤيينا ، والى أن وقعت الحرب العالمية الاولى كانت حالتنا المادية طيبة كحالة أسر الطبقة المتوسطة التي كنا ننتمي اليها، فقد كان والدي المندوب الهنغاري لجماعة من اصحاب المصانع البريطانيين والالمان ، فلما جاء شهر ايلول من عام ١٩١٤ ، توقف فجأة هذا النوع من العمل ولم يعد له بقاء ، ولم يستطع والدي بعدها أن يقف على قدميه ، فقد قام بمحاولات كثيرة فاشلة أفقدته ثقته بنفسه في هذه الدنيا المتغيرة ، ولم يلبث رأس ماله أيضا أن ضاع في التضخم المالي الذي حدث في النمسا في ذلك الحين . وقد اضطررت وأنا في الواحدة والعشرين أن أغادر البلدة ، وأصبحت من يومها العائل الوحيد لوالديّ .

جعلتني هذه الكارثة الاقتصادية التي حلت بوالدي أحس وأنا في سن التاسعة وطأة الاوضاع الاقتصادية . ورغم أن والديّ استمرا يدللاني لاني كنت طفلهما الوحيد ، الا أن قلبي كانت تمزقه الشفقة على والدي المسكين الذي كانت تجتمع فيه سذاجة الاطفال مع طيب النفس واستقامة الطبع . كنت أحس بالذنب كلما اشترى لي كتبا أو لعبا ، واستمر هذا الاحساس يعاودني بعد أن كبرت وصارت كل حلة أشتريها تعني نقصا من المبلغ الذي أرسله اليهم في البيت . كذلك نما في نفسي شعور بالكراهية للاغنياء المترفين ، لا لان في استطاعتهم أن يشتروا ما يشاءون (ان دور الحسد في الصراع الاجتماعي أقل مما يظن

الناس) ولكن لان قلوبهم كانت من القساوة بحيث لا يحسون بتأنيب الضمير • من أجل ذلك نشأ في نفسي نوع من السخط على أوضاعنا الاجتماعية كلها •

ما كانت هذه طبعا الوسيلة الصحيحة لاكتساب وجهة نظر اجتماعية معينة ، الا أنه لما كان الصراع بالنسبة الي ذا طبيعة شخصية داخلية فقد أصبح الاتجاه الذي نشأ عنه أيضا جزءاً لا يتجزء من خبرتي ونفسي •

بقي هذا الاتجاه في نفسي سنوات طويلة دون أن يتبلور على هيئة عقيدة سياسية ، بل اتخذ في البداية شكلا عاطفيا أليما • كنت لا أحتمل الاتصال بمن هم أفقر مني وأسوأ حالا ، فقد كانت رؤية الطالب الذي لا يجد قفازا لاصابعه المتورمة مثلا ، أو رؤية مساعد والدي في تجارته قديما بعد أن أصبح يستجدي طعامه من هنا وهناك ، تزيد من الشعور بالاثم الذي يثقل كاهلي • ولم يكن يعجز المحلل النفسي أن يتبين أن جذور عقدة الذنب هذه أبعد وأعمق من الازمة المادية التي كان بيتنا يعانيها • كان أشد ما يثير سخطي أولئك المترفون اللاهون الذين لا يحسون بأحزان جيرانهم وآلامهم •

ومما زاد في سخطي ما علمت من أن الغلال كانت تحرق والثمر يتلف والخنازير تغرق في سنوات الكساد الاقتصادي ، لكي تبقى الاسعار عالية ويتمكن الرأسماليون المترفون من التمتع بلذائذهم ومسراتهم ، بينما كانت أوربا تموج بالعمال المتعطلين ، وبينما كان والدي يخفي أطراف أكمامه تحت حافة الطاولة حتى لا نرى ما فيها من تمزق وبلى • لقد اختلطت الصورتان ، صورة الخنازير المغرقة ، وصورة الاكمام الممزقة في اطار عاطفي واحد اشتعل عندما اتصل به فتيل المثل الاعلى الجديد • كنا نتغنى بالمثل الاعلى الجديد وننشد « الانترناسيونال » (١)

(١) هو النشيد الشيوعي « المترجم »

الا أن الكلمات لم تكن تختلف عن القديمة « الويل للرعاة الذين يطعمون أنفسهم ولا يطعمون أغنامهم » •

وتظهر القصة في جوانبها الاخرى أيضا أكبر دلالة مما قد يبدو • ان قسما كبيرا من أسر الطبقات المتوسطة في أوروبا الوسطى قد أصابه ما أصابنا من فقر وخراب نتيجة للتضخم المالي ، فكان هذا بداية التداعي في أوروبا كلها • كانت النتيجة الحتمية لتحلل الطبقات المتوسطة وذوبانها أن أفرادها الذين أصابتهم المحنة بدأوا يتجمعون حول أحد قطبين ، اما قطب اليمين أو قطب اليسار ، فأما أولئك الذين رفضوا الاعتراف بأنهم فقدوا كيانهم ومركزهم وتمسكوا بأرستقراطيتهم الفارغة فقد انضموا الى النازية ووجدوا سلواهم في القاء تبعة ما أصابهم على معاهدة فرساي وعلى اليهود ، بل ان بعضهم لم يجدوا حتى هذه السلوى ، واستمروا يحيون بدون هدف كسرب من ذباب الشتاء الكسول يزحف على نوافذ أوروبا المعتمة ؛ كانوا أفرادا في طبقة لم يعد لها مكان في التاريخ •

أما النصف الآخر فاتجهوا الى اليسار محققين بذلك نبوءات « المنشور الشيوعي » :

« ان أقساما كاملة من الطبقات الحاكمة قد طوح بها داخل طبقة العمال أو أصبحت على الاقل مهددة في كيانها ووجودها • انهم ••• يمدون الطبقة العاملة بعناصر جديدة متطورة متنورة » •

لقد استخف بي السرور عندما اكتشفت انني كنت من « العناصر الجديدة المتطورة المتنورة » ، وطالما كنت على شفا الموت جوعا فقد ظللت أعتبر نفسي ذرية بورجوازية لم يعد لها مكان في التاريخ ، فلما استطعت أخيرا أن أحصل على دخل ملائم عام ١٩٣١ ، وجدت أن الوقت قد حان كي أنضم الى صفوف الطبقة العاملة ، ولم يظهر لي ما في هذا من تناقض الا فيما بعد •

« ان الاسرة البورجوازية سوف تختفي بشكل طبيعي باختفـاء رأس المال ... أما التهريج البورجوازي عن الاسرة واهميتها في التربية، وعن أهمية العلاقة بين الولد وأبويه ، فهو مما يثير الاشمئزاز . ان تقدم الصناعة الحديثة سوف يقطع كل الصلات العائلية بين أفراد الطبقة العاملة » .

هكذا استرسل « المنشور الشيوعي » . لقد كانت كل صفحة من ماركس ومن انجلز بشكل أخص تعني بالنسبة الي كشفا جديدا ومتعة عقلية لم أصادف مثلها الا عند أول معرفة لي بكتابات فرويد . ان الفقرات السابقة وهي منفصلة عن أصلها وسياقها بهذا الشكل تبدو سخيفة ؛ أما اذا نظرنا الى المسألة على أنها جزء من نظام متكامل يعطي الفلسفة الاجتماعية صورة شاملة واضحة ، فان بيان أن الدساتير والمثل العائلية الطبقية والوطنية والخلقية كانت أهميتها نسبية فقط وليست دائمة كان لها أثر مسكر فاتن ، هو أثر التحرر المفاجيء من القيود العتيقة التي كانت تكبل عقولنا نحن أبناء الطبقة المتوسطة قبل عام ١٩١٤ . ان من الصعب على الانسان اليوم ، وبعد أن انحدرت الفلسفة الماركسية حتى تحولت الى طقوس بيزنطية والتوى القائمون بالامر بكل مبدأ في المذهب الماركسي حتى أصبح يعنى عكس مدلوله ، أقول ان من الصعب على الانسان اليوم ان يستعيد حالة الغيرة العاطفية والغبطة العقلية التي كنا نحس بها في ذلك الحين .

لقد كنت مهيأ للتحول الى الشيوعية نتيجة لخبراتي الشخصية ، كذلك كان الالوف غيري من الشبّاب المثقف ومن الطبقات المتوسطة مهيئين لهذا التحول نتيجة لخبرات شخصية مغايرة ، الا أنه مهما كان هناك من تغاير في الخبرات الشخصية فان الاسباب تعود الى عاملين : التدهور السريع لدى أهل أوروبا في فترة ما بعد الحرب

في القيم الخلقية التي كان يؤمن بها المجتمع قبل ١٩١٤ ، ثم الاغراء الذي جاء في الوقت نفسه من الشرق نتيجة للكشف الجديد .

انضممت الى الحزب (انه بالنسبة الى كل من انضم اليه مرة لا يزال يسمى « الحزب ») في عام ١٩٣١ ، في بداية فترة التفاؤل والنهضة الروحية القصيرة الاجل التي ظهرت خلال ذلك العقد الذي أصبح يسمى « العقد الوردي » . كان نجوم هذا الفجر الكاذب باربوس ورومان رولان وأندريه جيد ومالرو في فرنسا ؛ بسكاتر وبخر ورين وبرخت وايسلر وساغرس في المانيا ؛ أودن وايشروود وستيفن سبندر في انكلترا ، دوس باسوس وسنكلير وستينبك في الولايات المتحدة (لم يكونوا جميعا بالطبع أعضاء في الحزب الشيوعي) . كان الجو الثقافي مليئاً بمؤتمرات الكتاب التقدميين،والمسارح التجريبية، ولجان السلام لمواجهة الفاشية ، وجمعيات العلاقات الثقافية مع روسيا ، ثم الافلام الروسية ، ومجلات الطليعة . ان العالم الغربي الذي كان يتلوى من آثار الحرب ويسوطه التضخم المالي والكساد الاقتصادي والبطالة وفقدان العقيدة والهدف ، بدا فعلا كأنما هو على وشك أن :

ينفض عن كاهله أدران النفاية والتشوش .
ويلم شعث ارادته الضائعة المرتجفة .
يجمعها ثم يطلقها على وجه الارض .
كي تؤسس في النهاية عدالة بشرية .

(أودن)

كان نجم بيت لحم الجديد قد ظهر في الشرق ، وكان في استطاعتك بقليل من المال أن تقوم بسياحة تعطيك فكرة عن أرض الموعد .

كنت في ذلك الحين أعيش في برلين ، وكانت قد مضت علي خمس سنوات وأنا أعمل تابعا لدار إلشتين للنشر ، كمراسل أجنبي في فلسطين والشرق الاوسط أولا ثم في باريس ، وأخيرا في عام ١٩٣٠ انضممت

الى هيئة التحرير في برلين . ولكي يتمكن القراء من تمام ادراك الصفحات التالية يلزم أن نعطي فكرة موجزة عن دار إلشتين للنشر التي كانت تعتبر رمزا لجمهورية ويمار .

كانت دار إلشتين للنشر شركة كبرى تعتبر أكبر دار من نوعها في أوروبا ، بل وفي العالم على الأرجح . كانوا يصدرون أربع جرائد يومية في برلين وحدها ، اشتهرت بكثرة التوزيع ودقة الاخبار ، بالاضافة الى ما يزيد عن اثنتي عشرة مجلة اسبوعية وشهرية ، كما كانوا يعتبرون من أكبر ناشري الكتب المختلفة . كان يمتلك هذه الدار الاخوة إلشتين . كانوا خمسة مثل اخوان روتشيلد ، وكانت نظرتهم السياسية ديموقراطية حرة ، أما في الامور الثقافية فقد كانوا تقدميين الى حد يعتبرون معه طليعةلغيرهم . كانوا يكرهون الروح العسكرية العدوانية، ولا يميلون الى التعصب والغلو في الوطنية ، وكان من أثرهم في الرأي العام أن سياسة التقارب الفرنسية الالمانية أصبحت على لسان جمهرة الطائفة التقدمية في الشعب الالماني . لم تكن دار إلشتين قوة سياسية فقط ، بل كانت تمثل كل شيء تقدمي وانساني في جمهورية ويمار . كان الجو في هذه الدار أشبه بجو الوزارات منه بجو مكاتب التحرير.

كان السبب في نقلي من باريس الى هيئة التحرير في برلين يرجع الى مقال كتبته بمناسبة منح جائزة نوبل في الفيزياء لامير بروغلي ، رأى رؤسائي على أثره أن لدي براعة خاصة في تقريب المعلومات العلمية لعقلية الجمهور (كنت من دارسي العلوم في ڤيينا) ، ثم عينوني المحرر العلمي لاحدى الجرائد اليومية ، والمستشار في الامور العلمية بالنسبة لكل مطبوعاتهم . وصلت برلين في ذلك اليوم المشؤوم يوم ١٤ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٠ يوم انتخابات الريخستاغ التي زاد فيها عدد نواب الحزب الاشتراكي الوطني في قفزة واحدة من ٤ الى ١٠٧ . لقد سجل الشيوعيون أيضا في هذه الانتخابات مكاسب كبيرة على حين أن أحزاب

الوسط الديموقراطية سحقت تماما . كانت هذه بداية النهاية بالنسبة لويمار ، وقد صدر في هذا الحين كتاب ألفة نيكر بوكر يعتبر عنوانه تلخيصا واجمالا للموقف « المانيا — إلى الفاشية أو السوفييتية » ، فلم يكن هناك احتمال ثالث .

قمت بعملي في دار النشر ، اكتب عن الالكترونات والكروموزمات وسفن الفضاء ورجال نياندارتال والسديم الحلزوني ، الا أن ضغط الاحداث كان يزداد بسرعة مذهلة . كانت ألمانيا ، وقريب من ثلث عمالها متعطلون ، تعيش في حالة حرب أهلية مستترة ، وقد أصبح على المرء أن ينحاز الى أحد الجوانب ، الا اذا شاء أن يأخذه التيار المقبل ضحية بريئة لا حول لها ولا قوة . كان حزب ستريسمان قد مات ، وكان الاشتراكيون يتبعون سياسة للترضية لا توصف بأقل من أنها انتهازية ، فلو أن الانسان قام فقط بعملية اقصاء وابعاد للاحزاب غير الصالحة لما بقي أمامه بعد هذا سوى الشيوعيين ، ومن ورائهم تلك القوة الجبارة : الاتحاد السوفيتي ، فقد بدا أنهم وحدهم القوة التي تستطيع أن تقف فيوجه البرابرة حاملي الصليب المعقوف . إلا أنني لم أصبح شيوعيا نتيجة اقصاء الاحزاب غير الصالحة ؛ كنت قد ضقت ذرعا بالاليكترونيات وسفن الفضاء وبدأت أقرأ ماركس وانجلز ولينين قراءة جادة نهمة ، فما ان انتهيت من « فيورباخ » و « الدولة والثورة » حتى اهتز عقلي واهتزت نفسي كأنما بفعل مفجر فكري . هل أقول انني حينئذ « رأيت النور » ؟ إنه اذن لتعبير هزيل لا يعبر عن تلك النشوة العقلية التي لا يعرفها الا من تحول الى عقيدة جديدة (مهما كانت هذه العقيدة الجديدة) . ان النور الجديد يبدو كأنما يخترق الجمجمة من كل ناحية ، وينتظم الكون كله فجأة كما يتضح اللغز المحير مرة واحدة . أصبح الآن لكل سؤالجواب،أما الشكوك والصراع فقد أصبحتجزءاً

من ماض اليم – ذلك الماضي البعيد الذي كنا فيه في جهل موحش مقبض في عالم لا طعم له ولا لون ، عالم أولئك الذين « لا يعلمون » . لم يعد من الممكن لشيء أن يقلق أمننا وسلامنا الداخلي – إلا الخوف من أن نفقد هذه العقيدة فنفقد معها كل ما يجعل للحياة قيمة ، ونعود الى الظلام الدامس من جديد حيث لا نرى إلا العويل والزئير . ولعل في هذا تفسيرا لموقف الشيوعيين الذين لا يزالون يجدون الايمان في قلوبهم رغم أن لهم عيونا ترى وعقولا تفكر . ان الاقلية الضئيلة فقط في كل عصر وفي كل عقيدة هي التي تستطيع أن تعرض نفسها للطرد والحرمان وتقضي على عواطفها في سبيل الحقيقة المجردة .

★ ★ ★

من السهل أن أتذكر التاريخ الذي تقدمت فيه بطلب العضوية في الحزب الشيوعي الالماني . كان ذلك يوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣١ ، فكانت حياتي الجديدة تبدأ مع ابتداء السنة الجديدة . تقدمت للعضوية عن طريق خطاب موجه الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الالماني فيه عرض مختصر لتاريخ حياتي وخبراتي ، واعلان عن استعدادي لخدمة المبدأ في أي مجال يراه الحزب مناسبا .

لم يكن من المعتاد أن يتقدم المرء بطلب عضويته الى اللجنة المركزية مباشرة ، لكنني فعلت هذا بناء على نصيحة صديق كان على صلة وثيقة بالحزب . أما الاجراء الطبيعي فهو أن ينضم المرء الى واحدة من خلايا الحزب ، فان الخلية هي الوحدة الاساسية في جهاز الحزب . وهناك نوعان من الخلايا : « خلايا العمل » وتضم أعضاء الحزب الذين يعملون في المصانع والمكاتب وغيرها ثم «خلايا السكن » وقد نظمت

حسب مناطق السكن . وكان معظم العمال ينتمون الى خلية العمل في المصنع الذي يعملون فيه ، ثم الى خلية السكن في المنطقة التي يعيشون فيها . كان هذا النظام معمولا به في كل الدول التي للحزب فيها كيان شرعي ، ومن القوانين الصارمة أن كل فرد ينبغي أن ينتمي الى خلية مهما بلغ من ارتفاع مرتبته في الحزب ، حتى لقد بلغنا أنه توجد « خلية عمل » في الكرملين نفسه ويبحث فيها أعضاء المكتب السياسي للحزب بالاشتراك مع الحارس وخادمة اليومية سياسة الحزب في ديموقراطية أخوية ، وقد يفصل ستالين نفسه من عضوية الخلية اذا نسي أن يسدد اشتراك العضوية .

على كل فان صديقي « ن » الذي لعب دورا حاسما في تحولي الى الشيوعية ، أوصاني وشدد علي ألا أنضم الىخلية بالطريقة العادية المتبعة (أنا أدعوه « ن » لأنه غادر الحزب من سنوات ويعيش الآن في دولة قد تسبب المتاعب لأي أجنبي كانت له علاقة بالشيوعية ، وان كان الآن قد دفن ماضيه وتبرأ من الشيوعية) . كان « ن » يعمل في السابق صبيا عند سباك ، واستطاع عن طريق الدراسات المسائية والمثابرة على القراءة الليلية أن يحصل على الشهادة ويصبح من الكتاب السياسيين المعروفين . كان يعرف كل شيء عن ماركس ولينين ، وكان يحمل ذلك الايمان المطلق الذي يضفي على صاحبه السكينة ، ويجعل له قوة مغناطيسية على عقول الآخرين . قال موضحا وجهة نظره : « لا تكن أحمق . انك لن تلبث بعد أن تنضم الى خلية ويصبح من المعروف للناس أنك أصبحت عضوا في الحزب حتى تفقد وظيفتك في دار إلشتين ، وهي وظيفة يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة للحزب » .

كنت قد عينت في تلك الاثناء محررا للشؤون الخارجية باحدى جرائد الدار بالاضافة الى أعمالي السابقة وكانت هذه الوظيفة تمنح

حاملها نفوذا سياسيا وتسهل له معرفة الكثير من الأخبار السياسية الخفية ٠

وهكذا ، بناء على نصيحة « ن » ، كتبت الى اللجنة المركزية مباشرة ٠ ولم يلبث أن جاءني الجواب بعد أسبوع في شكل خطاب أصابني بقليل من الحيرة ٠ كان مكتوبا على الآلة الكاتبة ولا يحمل عنوان الكاتب فكان قريبا من الآتي :

سيدي العزيز

ردا على خطابكم الموقر في ٣١ كانون أول ، سوف يسرنا أن تلتقي بممثل شركتنا الهر شنيللر في مكاتب مصانع ورق شنيدمول في الساعة الثالثة من مساء يوم الاثنين القادم ٠

المخلص

(توقيع غير مقروء)

كانت مصانع ورق شنيدمول معروفة للجميع في ألمانيا ، إلا أنه لم يمر بخاطري أبدا أن لها علاقة بالحزب الشيوعي ، ولم أدرك الى الآن طبيعة تلك العلاقة ؛ الا أن مكاتبها في برلين كانت تستعمل فعلا كمكان خفي للاجتماعات الخاصة ٠ ورغم أنني لم أستطع أن أفهم الداعي لكل هذا الأسلوب التآمري السري ، الا أنه كان يهزني ويثير مشاعري ٠ ولما وصلت في الموعد المحدد الى مصانع شنيدمول وسألت موظفة المكتب عن الهر شنيللر تفرست فيّ بعينين فارغتين بليدتين كعيني السمكة ٠ (وقد قابلتني أمثال هذه النظرة كثيرا فيما بعد في مواقف مشابهة ؛ فكلما تصادمت الرغبة في الاخوة والصداقة مع الشك والخوف يتبادل الناس نظرات ليست نفاذة ولا متفحصة وإنما يحملق بعضهم في بعض بعيون بليدة كعيون السمك) ٠

قالت متسائلة « ألديك موعد مع إرنست ؟ »

قلت « لا — مع الهر شنيللر »

ويبدو أن هذه الغباوة مني أقنعتها بحسن نيتي ، إذ أخبرتني أن الهر شنيللر لم يصل بعد وطلبت اليّ أن أنتظره ، وقد انتظرته فعلا أكثر من نصف ساعة ٠ كانت هذه أول معرفة لي بهذه الصفة (صفة عدم الدقة في المواعيد) التي تعتبر صبغة لازمة لكل كبار المسؤولين في الحزب ٠ ان الروس بطبيعتهم لا يهتمون بالمحافظة على الموعد ، ولما كان جهاز القيادة في كل حزب شيوعي يحاول بشكل شعوري أو لا شعوري أن يقلد الطريقة الروسية فان هذه العادة لم تلبث أن رشحت وانتقلت من الكومنترن الى كل حزب شيوعي في أوروبا ٠

وأخيرا ظهر الرجل وقدم نفسه اليّ قائلا « شنيللر » وأجبته « كستلر » ثم تصافحنا ودعاني الى مقهى قريب بعد أن اعتذر لي بقلة اكتراث بأنه قد « تأخر قليلا » ٠ كان رجلا رفيع القوام بادي العظام في نحو الخامسة والثلاثين ، وكانت ابتسامته وحركاته غريبة توحي بشخصية قلقة غير مستقرة ٠ لقد حسبته في بداية الأمر شخصا لا أهمية له في الحزب ، ثم علمت فيمابعد أن اسمه فعلاً إرنست شنيللر ، وأنه عضو في اللجنة المركزية الالمانية ، وأنه رئيس الدعاية والاثارة ، بل وعلمت بعد ذلك بفترة طويلة أنه رئيس أحد أجهزة المخابرات الخمسة المستقلة والتي كان الحزب الشيوعي الالماني يدير بعضها ، على حين أن بعضها الآخر كان يدار من قبل الشرطة الروسية مباشرة ٠ ولا أدري الى اليوم هل كانت مهمة جهاز شنيللر هذا تتعلق بالمخابرات العسكرية ، أو أنه كان نوعا من التجسس البريء على الصناعة ؟ أما شنيللر نفسه فقد حكم عليه في العهد النازي بالأشغال الشاقة مدة ست سنوات ومات أو قتل في سجنه ٠

لم أكن بالطبع أعلم شيئا من هذا عندما التقيت بالرجل ذلك اللقاء الذي كان أول صلة لي بالحزب . والذي أذكره من حديثنا في هذا المقهى الصغير هو ما ذكره من أنه نباتي لا يأكل اللحم وإنما يعيش على الخضراوات والفاكهة ، فرأيت في هذا تفسيرا لهذا الوجه الملوح ذي العظام البارزة . كذلك أذكر أنه أجاب على سؤال لي عما إذا كان قد قرأ مقالة معينة في احدى الجرائد ، بأنه لا يقرأ الجرائد البورجوازية ؛ كان لا يقرأ الا جريدة « روت فاخن » لسان حال الحزب ، مما أكد ظني بأن اللجنة المركزية قد أرسلت اليّ رجلا متعصبا ضيق الأفق ، فلما علمت فيما بعد وظيفة الرجل ، عجبت كيف يكون رئيس جهاز الدعاية رجلا لا يقرأ الا جريدة الحزب الرسمية . ولم يوجه الرجل اليّ أسئلة كثيرة ، غير أنه أراد أن يعرف وضعي في دار إلشتين بشكل دقيق مفصل . وقد أخبرت شنيللر في هذا اللقاء برغبتي في أن أستقيل من عملي كي أتفرغ للعمل للحزب كداعية مثلا أو كسائق للجرارات في الاتحاد السوفيتي (كانت هذه أيام المزارع الجماعية الاجبارية ، وكانت صحف الاتحاد السوفيتي تعلن عن حاجتها الماسة الى سائقي الجرارات) . كان صديقي « ن » قد استنكر هذه الفكرة التي سماها : « خيالية بورجوازية تافهة » وأخبرني بأن عرض هذه الفكرة أمام أي من المسؤولين في الحزب سوف يعرضني للسخرية ، الا أنني لم أر عيبا في أن يكون المرء سائق جرارات لسنة أو سنتين ما دامت هذه هي الحاجة الماسة العاجلة لجبهة الانشاء والتعمير الاشتراكية . على كل لقد أوضح لي شنيللر بصبر وهدوء أن أول واجب للشيوعي هو أن يعمل على اتمام الثورة في بلده ؛ فأما الذهاب الى الاتحاد السوفيتي حيث نجحت الثورة فعلا فهو امتياز نادر مخصص لرجال الحركة القدامى ، وكذلك أخبرني أن استقالتي من عملي ليست من الصواب في شيء اذ أن في امكاني أن

أكون أعظم نفعا للحزب باستمراري فيه مع اخفاء معتقداتي السياسية ، فلما تساءلت كيف يمكن أن أكون مفيدا وأنا طبعا لا أستطيع أن أحول الجريدة التي أحررها الى جريدة شيوعية ، ولا أن أغير سياسة دار إلشتين للنشر ؟ أجاب بأن هناك وسائل كثيرة يمكنني أن أؤثر بها في سياسة الجريدة عن طريق لمسات خفيفة ؛ فيمكن مثلا أن أبرز الخطر على السلم العالمي الذي يكمن في عدوان اليابان على الصين (مخاوف روسيا الرئيسية في ذلك الحين كانت من عدوان اليابان على أراضيها) . وقد اقترح شنيللر أن نلتقي كل اسبوع اذا شئت ، لبحث أمثال هذه الامور ، أو أن ينيب عنه شخصا آخر أقل منه مشغلة يقوم بمهمة توجيهي في الناحية السياسية ، ويكون تحت تصرفي في أي وقت ، ويمكنني بالاضافة الى هذا أن أنقل الى الحزب عن طريق هذا الرجل أية معلومات سياسية ذات أهمية خاصة تصل الى علمي . ثم أضاف شنيللر أن الحزب قد يضطر في وقت قريب أن يعمل بشكل سري ، وان حدث هذا فان أشخاصا مثلي ، في مراكز هامة ، ولا تحيطهم الشكوك ، يمكن أن يكونوا أعظم من غيرهم قيمة في صراع الحياة والموت مع الفاشية والعدوان التوسعي . لقد بدا هذا الكلام كله منطقيا ومقبولا فلم يلبث أن تحول ازدرائي لشنيللر في البداية الى تقدير وإعجاب بطريقته البسيطة اللبقة في الجدال . واتفقنا على أن نلتقي بعد أسبوع حيث يقدمني الى مرشدي السياسي المقبل ، وقد سألت « ومن ياترى سيكون هذا الشخص ؟ » فأجاب : « رفيق يدعى إدكار » .

تذكرت بعد أن ودعت الرجل أننا لم نذكر شيئا عن قبولي الرسمي في الحزب أو عدم قبولي ، فقد تركنا الأمر غامضا بحيث وجدتني أتساءل : هل أنا الآن شيوعي حقيقي أم لا ؟ وجريت خلف شنيللر حتى لحقت به وسألته ، فنظر الي بابتسامته الغامضة ثم قال : « اذا كنت

مصرا فسوف نجعلك عضوا في الحزب ، بشرط أن يبقى أمر عضويتك سرا مكتوما ، ولن ترتبط بأي خلية ، وستعرف بالحزب باسم مستعار » .
لقد وافقت على هذا بشيء من الاسى ،فإن معنى عدم الارتباط بخلية أن أظل بعيدا عن حياة الحزب الداخلية وروح الاخوة وجو المحبة فيه .
قال شنيللر : « خبرني بالاسم المستعار الذي تختاره لنفسك ، وسوف أحضر معي بطاقتك الحزبية في المرة القادمة » ، فكان الاسم الذي ورد الى ذاكرتي في هذه اللحظة هو : « إيفان ستينبرغ » ، ولعلي تخيرت اسم ايفان لأنه يبدو روسيا ، أما ستينبرغ فهو اسم صديق لي يعمل محللا نفسيا لم أكن قد رأيته أو سمعت عنه من سنوات، وكان دائما يحاول اقناعي باتمام دراستي الجامعية التي كنت قد توقفت عنها في ڤيينا ، ولقد قال لي مرة « انك اذا لم تتخرج فسوف تبقى طول عمرك متشردا ، ومهما حصلت من مراكز فسوف يشم الناس فيك دائما رائحة جوّاب الآفاق » .

التقيت بشنيللر مرة ثانية في نفس المكان بعد أسبوع ، وكان قد أحضر معه بدلا من إدكار فتاة قدمها اليّ باسم الرفيقة « پولا » زميلة إدكار . كانت فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها سمراء خشنة المظهر في عينيها حول خفيف . وذهبنا أيضا الى المقهى الصغير حيث أوضح لي شنيللر أن پولا سوف تعمل واسطة اتصال بين إدكار وبيني ؛ ان إدكار — كما قال — يصعب الوصول إليه ، أما پولا فيمكنني أن أتصل بها عن طريق الهاتف في أي وقت ، وهي بدورها تستطيع دائما الاتصال بإدكار، وكان معنى هذا أنني لم أكن بعد مؤتمنا على هوية إدكار وعنوانه .

ينبغي أن نذكر أن الحزب الشيوعي كان لا يزال الى ذلك الحين — كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٢ — حزبا شرعيا معترفا به في ألمانيا ، وكان نوابه ومن بينهم شنيللر ، يجلسون في الريخستاغ ؛ وكانت صحفه

تدعو الناس علانية في كل صباح الى الاضراب والى الثورة ؛ وكانت اجتماعاته الجماهيرية العامة تلقى من الشرطة الحماية المعتادة ؛ وكانت منظمته شبه العسكرية إحدى الفرق الخاصة الأربعة المعترف بها رسميا لدى الحكومة .

إلا أن الحزب في الوقت نفسه كان يعد نفسه للمرحلة السرية ، وكانت معظم مجالات النشاط فيه ذات طابع سري غير مشروع . كان العضو الجديد يجد نفسه منغمسا في عالم غريب ، وكأنما هو في زيارة لمعرض الأحياء المائية بأضوائه اللامعة وما فيه من أشكال متفلتة مراوغة . كان عالما يسكنه أناس يعرفون بأسمائهم الأولى فقط ، أما أسماء أسرهم أو عناوين سكناهم فلم يكن لها وجود . كان الجو هنا متناقضا ، فهو خليط من الزمالة الأخوية والارتياب المتبادل ، ويمكن أن تقول ان الشعار هنا هو : أحبب رفيقك ولكن لا تثق فيه أنملة ؛ لصالحك ، لأنه قد يشي بك ؛ ولصالحه ، اذ من الخير له ألا تعرضه للإغراء والوشاية » . وهذا القول ينطبق طبعا على كل حركة سرية ، ولقد كان هذا الوضع معروفا ومسلما به حتى أن أحدا لم ينتبه الى ما لا بد أن يسببه طول المكوث في الحزب من تحول تدريجي في الشخصية، وتبدل في العلاقات البشرية .

كان هذا اللقاء الثاني مع شنيللر آخر لقاء لي معه ، وقد ذهبنا أيضا الى المقهى الصغير حيث سجلت رقم هاتف پولا ، واتفقنا على اللقاء في بيتي بعد يومين . وبعد ذلك قدم لي شنيللر بطاقة الحزب باسم الرفيق إيفان ستينبرغ ، وتصافحنا بارتباك . ونظرت اليّ پولا نفس النظرة البليدة التي خبرتها من الفتاة في مصنع الورق . لقد أحسست أنه لابد من مرور وقت طويل قبل أن أحصل على ثقة فتاة من هذا الطراز . كنّ جميعا يلبسن الثياب الرثة ، ويهملن العناية

بنظرهن ، كأنما يعتبرن النظافة اختراعا بورجوازيا ، كما كانت لهن جميعا هذه النظرة الجريئة التي تعلن أنه لا سبيل الى خداعهن •

وقبل أن نفترق قال شنيللر : « والآن وقد أصبحت عضوا في الحزب فيلزم أن تناديني أنا وبولا بالاسم المجرد » ، ولقد شعرت وقتها بنشوة الفارس الذي رجع من حفلة تعميده •

في الساعة المحددة حضر الى البيت عندي إدكار وبولا في سيارة « تاكسي » ، وكانت مع بولا آلتها الكاتبة • كان إدكار شابا أشقر في نحو الثلاثين ، هادىء الطبع كثير الابتسام • وتحدثنا في السياسة فقد كانت لدي مآخذ وشكوك حول سياسة الحزب ، فلم لا نتفاهم مثلا مع الاشتراكيين في مواجهة خطر هتلر ؟ ولماذا نصر على تسميتهم « الاشتراكيون الفاشيست » مما يثيرهم ويجعل التعاون معهم مستحيلا؟ وقد أوضح لي إدكار بصبر وهدوء أن الحزب لا يسره شيء قدر مايسره إنشاء جبهة عمالية متحدة مع جماهير الاشتراكية الديموقراطية ، الا أن هذه الوحدة ينبغي أن تبدأ من القاعدة لا من القمة • ان قادة الاشتراكية الديموقراطية قوم خونة على استعداد لأن ينقضوا أية اتفاقية يبرمها الحزب معهم ، وعلى هذا فالطريقة الوحيدة لتحقيق هذه الجبهة المتحدة هي أن نفضح هؤلاء القادة لكي نكسب الأتباع •

كان يناقش الأمر بمهارة وإقناع ، فما انقضت خمس دقائق حتى كنت مؤمنا بأن الأحمق وحده هو الذي يمكن أن يؤيد التعاون بين حزبَي الحركة العمالية في مواجهة النازية • وسألني إدكار عما إذا كنت أحتاج الى الاستنارة في أي موضوع آخر ، فأجبته بالنفي ، ثم اقترح علي أن أنقل إليه أية أخبار سياسية أو أحاديث ذات قيمة يمكن أن التقطتها في دار إلشتين للنشر • وبعد دقيقة أو دقيقتين سألني هل لدي اعتراض على قيام بولا بتسجيل ما قلته على الآلة الكاتبة ، إذ أن هذا

— كما قال — « يوفر مجهودا » ؟ فقلت : « لا اعتراض لدي » •

خلال الأسابيع القليلة التالية ، لم يكن لي من نشاط في الحزب سوى إملاء التقارير على بولا مرة أو مرتين كل أسبوع ، وكان إدكار يأتي أحيانا ليستمع وعلى وجهه ابتسامته الرقيقة الهازئة وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولما كانت لدي أنا الآخر عادة السير في الغرفة أثناء الإملاء ، فقد كنا أحيانا نسير عبر الغرفة في خطين متقاطعين مما كان يوحي بجو من التعاون والأخوة ، وكان هذا تقريبا أقصى ما أفدته من الحزب في هذه الفترة من شعور بالحرارة والدفء •

أما بولا فانها لم تكد تخرج أبدا عن صمتها العبوس ،ولقد حدث أن تحدثت في الهاتف مرة أو مرتين مع رفاق لها ، فكانت تتحول في كل مرة الى شخص آخر ممتلىء بالحيوية والمرح والقهقهة • لم يكن بيني وبين بولا تجاذب مادي ، وكنت أعلم أنها من الناحية الروحية أيضا لا يمكن أن تتقبلني في عالمها • لقد كنت بالنسبة اليها رجلا دخيلا ذا فائدة للحزب ، وقد أكون محلا للثقة وقد لا أكون ، إلا أنني على كل حال رجل أجنبي دخيل جاء من العالم البورجوازي الفاسد • كنا إذا دخلنا المقهى أصرت على أن تدفع لنفسها ، وكنت أحيانا أراها تنظر الى ملابسي نظرة احتجاج واستنكار •

وأما إدكار فقد كان أكثر رقة وحكمة ، غير أنني ما أركبته في سيارتي مرة إلا وأصر على أن ينزل في أحد المنعطفات ، كي لا أستدل على المكان الذي يقصده ، وكان علي إذا التقينا في مقهى أن أدعه يغادره أولا ، وألا أقوم أنا إلا بعده بخمس دقائق ، مما يوحي بأنه كان يخشى أن أتعقبه الى منزله ، وكان يقول مبتسما :إن هذه مجردشكليات وروتين حزبي ، وإنني أنا أيضا سوف أعتادها وأتصرف على مقتضاها بشكل آلي طبيعي •

ورغم أنني تقبلت هذا الحذر والتشكك على أنه ضرورة لابد منها ، إلا أن شعوري بفشلي وخيبتي كان يزداد يوما بعـــد يوم • كنت أعدو وراء الحزب متعطشا إلى أن ألقي بنفسي بين ذراعيه ، وكان هو يزداد مراوغة وبعدا كلما ازددت أنا مجاهدة وعدوا ، وهكذا صرت ككل الخطاب ، أنهك فكري في البحث عن الهدايا والوسائل التي تلين قلب المحبوب وتجلب الابتسامة الى شفتيه : عرضت أن أضحي بوظيفتي وأحيا حياة متواضعة بسيطة أسوق أحد الجرارات في سهول روسيا ، فقيل : هذه « خيالية بورجوازية تافهة » ، وألححت على إدكار أن يضمني إلى إحدى الخلايا حيث لا يعرفني أحد ، على أن أعرف هناك باسمي المستعار • فقال : إنني قد أُكتشفت ويفقدالحزب ما يستفيده من ورائي ، وطلبت إليه ان يدلني على أي نشاط آخر يمكن أن أقوم به ، فقال : سوف أفكر في الأمر ومرت الأسابيع دون أن يستجيب •

في تلك الأيام وضعت الجريدة التي كنت أعمل فيها في عهدتي شابا يريد أن يبدأ حياته العملية كصحفي • كان النبيل « ا » ابنا لرجل من كبار رجال السلك الدبلوماسي ، وكان في الحادية والعشرين من عمره ، وكان عليه أن يقضي تحت إشرافي في مكتب الشؤون الخارجية بالجريدة عدة شهور في التمرين بأجر اسمي • كان يجلس قبالتي ، وكنا إذا انتهينا من عملنا اليومي في الجريدة ، نخرج سوية حيث نؤدي بعض التمارين الرياضية في صالة الألعاب التي أنشأتها دار إلشتين لصالح موظفيها • ولما كان الفرق بيننا في العمر لا يزيد على خمس سنوات ، فقد أصبحنا بعد فترة وجيزة صديقين حميمين • كنت أشرح له المذهب الماركسي وأحببه إليه ، ولما كنت في مركز معلمه ووصيه فقد كان أثر محاوراتي وحججي كبيرا ، ولما انقضى قريب من أسبوعين ، قررت أنه قد وصل الى مرحلة من التقدم يمكن معها أن نستفيد منه في خدمة العقيدة •

لم أخبره طبعا بأنني عضو في الحزب ؛ وإنما أخبرته بأن بعض أصدقائي أعضاء في الحزب ، وأنني أنقل إليهم من حين إلى آخر ما يصل الى سمعي من أحاديث في السياسة وفي غيرها • إنه لم يخطر ببالي مطلقا ان هذا لم يكن التصوير الحقيقي لما يدور بيني وبين إدكار وپولا ، فقد كنت بدأت أجني حصاد التحول الى العقيدة الجديدة : ضمير نقي سعيد لا يتراجع ولا يهتز •

كانت أسرة النبيل « ا » تحيا حياة اجتماعية نشطة وكان يأتي لزيارتها عدد من الضباط والدبلوماسيين الألمان ، فسألت صديقي الشاب أن يحتفظ بأذنيه مفتوحتين ، وأنينقل إليّ — في سبيل مصلحة المبدأ — أية معلومـــات ذات أهمية ، وخاصـــة ما يتعلق منها بالإعداد للحرب العدوانية ضد روسيا من قبل ألمانيا أو من قبل أية قوة أخرى • وقد وعدني الشاب ، وهو فخور بالثقة التي وضعتها فيه ، أن يفعل ما في وسعه •

وهكذا أصبحت التقارير التي أُمليها على پولا أكثر أهمية وحيوية؛ كانت مليئة بالتعليقات الدبلوماسية والأحاديث العسكرية عن العودة الى التسلح والمعلومات الخطيرة حول المؤامرات التي كانت تحاك بين الأحزاب الألمانية المختلفة في آخر سنة من جمهورية ويسار ، ولا زالت تعلق بذهني حتى الآن حادثة بسيطة وقعت في ذلك الحين • كانت صحافة الحـــزب الشيوعي قد دأبت منذ أسابيع على الهجوم على الحكومة الألمانيـــة (الاشتراكية الفاشية كما كانت تسميها) والسخرية منها بسبب عـــدم استعدادها لاتخاذ اجراءات فعالة ضد منظمة القمصان السمر النازية ، التي كانت تتجهز للثورة والفتنة بشكل يكاد يكون علنيا مكشوفا ، وذات يوم علمت من رينر المراسل الدبلوماسي لاحدى صحف الدار ، أن الشرطة الالمانية سوف تقوم بغارة مفاجئة على مراكز القمصان السمر

في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ، وتستولي على أسلحتهم وسجلاتهم وتحرم لبس الزي النازي ، فقمت على عجل بنقل هذه الأنباء الى بولا وإدكار . وقامت الشرطة فعلا بغارتها حسب الخطة الموضوعة ، إلا أنه بينما كانت برلين كلها تبحث في وجل واضطراب امكانية نشوب حرب أهلية بين النازيين والحكومة الاشتراكية ، ظهرت جريدتنا الشيوعية « روت فاخن » وهي تتحدث في عناوينها البارزة عن تساهل الحكومة الاشتراكية الديموقراطية تجاه النازيين ، مما جعلها محل سخرية الناس واستهزائهم ، ولما سألت إدكار عن السبب في أنهم أهملوا تحذيري وتنبيهي ، أجاب بأن موقف الحزب من الاشتراكيين الديموقراطيين هو نتيجة سياسة ثابتة دائمة لا يمكن أن تتغير نتيجة حادثة تافهة . قلت معترضا : « ولكن كل كلمة في الصفحة الأولى كانت مناقضة للحقائق الواضحة » ، فقال إدكار وهو يبتسم بهدوء وتسامح : ألا زلت تنظر الى الأمور تلك النظرة الآلية ؟ ثم شرع يوضح لي التفسير « المنطقي الجدلي » للحقائق ؛ قال : ان عمل الشرطة ما هو إلا خدعة للتغطية على تواطؤ الجماعتين واتفاقهما ؛ وحتى لو كان بعض قادة الاشتراكية معادين للفاشية بصفتهم « الشخصية » الا أن الحزب الاشتراكي هو « من الناحية الموضوعية » أداة في يد النازي ، بل ان الاشتراكيين هم في الحقيقة أعداؤنا الحقيقيون ، لأنهم هم الذين شطروا الطبقة العاملة قسمين . ورغم أن ما سمعت أرضاني وأقنعني ، إلا أنني لعدم رغبتي في الاعتراف بالهزيمة قلت : « إن الحزب الشيوعي في الحقيقة هو الذي انشق عن الاشتراكيين في عام ١٩١٩ » فأجاب إدكار : « ها هي ذي النظرة الآلية مرة ثانية . إننا من الناحية الشكلية كنا حقاً أقلية ، ولكننا كنا وحدنا الذين نمثل الرسالة الثورية الحقيقية للطبقة العاملة ، وعلى هذا فإن الزعماء الاشتراكيين برفضهم السير وراءنا قد تسببوا في شطر الطبقة العاملة ، وأصبحوا أعوانا للرجعية » .

وهكذا تعلمت بالتدريج ألا أثق بتفسيري « الآلي » للحقائق ، وأن أنظر الى الدنيا من حولي في ضوء التفسير « المنطقي الجدلي » الجديد . ولقد كان هذا الوضع مرضيا وهنيئا ؛ انه يكفي أن تتشرب هذه الخطة وتهضمها فلا تعود الحقائق تزعجك أو تقلق بالك ، اذ أنها لا تلبث أن تصطبغ آليا باللون الجديد ، ثم تأخذ الوضع الملائم للخطة العامة . كان الحزب في رأينا معصوما من الخطأ أدبيا ومنطقيا : أدبيا لأن أهدافه سليمة صائبة تساير منطق التاريخ ، وهذه الاهداف السليمة تبرر كل وسيلة ؛ ومنطقيا لأن الحزب هو طليعة الطبقة العاملة ، والطبقة العاملة هي العنصر الحي الفعال في التاريخ .

أما المعارضون للحزب ، ابتداء من الرجعيين الى الاشتراكيين الفاشيين ، فليسوا الا نتاجا لبيئتهم ، وليست أفكارهم وآراؤهم إلا انعكاسا للمجتمع البورجوازي المنحرف الذي يعيشون فيه ، وأما المنشقون عن الحزب فهم أرواح ضالة سقطت من الفردوس ؛ ومجرد الانصات اليهم ، بله محادثتهم ومجادلتهم ، تعني التعامل مع قوى الشر .

كانت أيام جمهورية ويمار معدودة ، وكان أمام كل منا نحن أعضاء الحزب الشيوعي مستقبل محتوم في سجون ألمانيا ومعتقلاتها ، إلا أننا كنا جميعاً نعيش سعداء في سراب خادع من الأوهام (المنطقية الجدلية) يخفي عن أعيننا حقائق الحياة . كنا نسلم بأن الفاشيين الكلاب هم الفاشيون الكلاب ، إلا أن التروتسكيين الضالين والاشتراكيين المنشقين كانوا شغلنا الشاغل . لقد تعاون الحزب الشيوعي مع النازية عام ١٩٣١ في البيان الذي أصدروه ضد الحكومة الاشتراكية ، كما تعاون معها مرة أخرى في إضراب عمال النقل في برلين عام ١٩٣٢ ، أما هينز نيومان الزعيم الشيوعي صاحب الشعار المعروف : « اضرب الفاشيين اينما وجدتهم » فقد كان يمر بفترة التشهير التي سبقت طرده من الحزب ،

وكانت سياسة الحزب مضطربة مذبذبة كما حدث في الفترة التي سبقت ميثاق مولوتوف ــ ريبنتروب ، إلا أن الحزب كان قد حدد سنة ١٩٣٢ باعتبارها السنة التي سوف تشهد انتصار الثورة العمالية في ألمانيا ؛ لقد كان لدنيا الإيمان ــ ذلك الإيمان الصحيح الذي لم يعد يأخذ هذه الأماني والوعود مأخذ الجد ــ وكنا سعداء ، فقد كنا وحدنا المستقيمين الصالحين وسط عالم كله الفساد والالتواء .

سألني إدكار ذات يوم : « هل زرت اليابان ؟ » فقلت : « لا » ، قال : « فهل تحب أن تذهب الى هناك ؟ » قلت : « نعم فأنا أحب التجوال » . قال : « ألا يمكنك أن تقنع دار إلشتين بأن تبعث بك كمراسل لها في اليابان ؟ » قلت : « لا ، فإن الدار لها مراسلون هناك ، وأنا بالذات لا أعرف شيئا عن اليابان » ، فقال إدكار بصوت رقيق : « قد تكون في اليابان أنفع للحزب منك هنا ، فهل تستطيع أن تقنع جريدة أخرى بأن تجعلك مراسلا لها هناك ؟ » قلت : « قد لا يكون الأمر ميسورا ، فما هو العمل الذي ينتظر أن أقوم به هناك ؟ » وبدا أن هذا التساؤل قد آلم إدكار قليلا ، ولكنه أجاب : « سوف تؤدي بالطبع عملك للجريدة وتحيا حياة طيبة كالتي تحياها هنا ، وتستمر بالطبع في توصيل المعلومات التي تهمنا عن طريق أصدقاء سوف نعرفك بهم ؛ فهل تحب أن تفكر بالأمر ؟ » قلت : « ليس الأمرَ في حاجة الى بحث أو تفكير ، وإذا كان الحزب يريد مني أن أذهب فأنا على استعداد لأن أذهب في الحال ، إلا أن فرص الحصول على توكيل من جريدة ذات شأن تكاد تكون معدومة » فسكت إدكار قليلا ثم قال : « اذا استطعنا أن نزودك بالتوكيل المطلوب فهل أنت على استعداد لأن تسافر ؟ يمكنك أن تفكر في الأمر » . فقلت له مرة أخرى : « ليس هناك ما يستدعي التفكير ، فاذا كان الحزب يريد مني أن أذهب فسوف أذهب » .

قال إدكار في نهاية حديثنا إنه سوف يطلعني بعد بضعة أيام على ما يستقر عليه الرأي ، إلا أنه لم يحدثني في هذا الأمر بعد ذلك ، ولما كنت أنا قد خبرت الحزب وتشربت أساليبه فإني لم أسأله أبدا .

بعد ذلك بفترة ، وقعت حادثة أخرى غريبة ، إذ بينما كنت في مكتبي ذات يوم طلبتْ آنسة تدعى « ماير » أن تلقاني ، وكتبت في البطاقة التي ينبغي للزائر أن يملأها عبارة : « صديقة قديمة » أمام خانة « الغرض من الزيارة » . كانت فتاة ضئيلة الجسم قبيحة الوجه لم يحدث أن التقيت بها من قبل ، إلا أن إهمالها المتعمد لهندامها ، وطريقتها العنيفة في ولوج الغرفة ، أنبأتني على الفور أنها إحدى الرفيقات . جاءت هذه الفتاة تسألني أن أقبل وظيفة « رئيس التحرير المسؤول » لوكالة صحفية أنشئت حديثا . لقد كان القانون الالماني يحتم على كل وكالة للنشر أن يكون لها رئيس تحرير مسؤول يعتبر مسؤولا من الناحية القانونية عن كل مطبوعاتها ، أما فيما يتعلق بالمجلات الصغيرة والمطبوعات الهزيلة فلم يكن لرئيس التحرير هذا أية علاقة بتحرير المجلة ؛ إنما هو رجل ذو مركز اجتماعي معين تفيد المجلة من اسمه ومركزه . طلبتْ من الآنسة ماير أن توضح لي أهداف هذه الوكالة الصحفية ومقوماتها لأنني لم أكن قد سمعت بها من قبل ، فهزت كتفيها بنفاذ صبر وقالت « ألم تفهم ؟ إن أصدقاءنا هم الذين أرسلوني ، وإن توقيعك أمر شكلي لا أكثر » . فقلت أسألها بدافع من الحذر الذي تعودناه : « أي أصدقاء ؟ » وهنا زادت ضيقا وتبرما حتى خفت أن تسب وتلعن . كانت من النوع الذي كثر وجوده في الحزب الشيوعي الألماني في ذلك الحين ــ الفتاة البورجوازية التي لم تلق النجاح في مجتمعها فتحولت بمشيئتها الى الطبقة العاملة . طلبت إليها أن تذكر أسماء الأصدقاء الذين أرسلوها فقالت على مضض وهي تتفحص مكتبي كأنما تبحث عن مكبرات

مخبوءة : « حسنا ، جورج طبعا » . ولم أكن الى ذلك الحين قد عرفت من الحزب غير إرنست وإدكار وپولا ، أما اسم جورج فلم يكن قد مر علي ، فلما أخبرتها بذلك قالت هادرة : « كيف سولت لهم أنفسهم أن يضيعوا وقتي مع شخص مثلك ؟ » ثم انطلقت خارجة من الغرفة .

وعندما التقيت بپولا بعد ذلك ذكرت لها هـذه الواقعة فبدت في وجهها الحيرة ووعدت بأن تتحرى عن الآنسة « ماير » هذه ، إلا أنهـا أخبرتني عندما التقينا في المرة الثانية أنها لم تجد وقتا للتحري عن هذا الأمر ؛ فلما سألتها في مرة تالية أجابت بضيق وتبرم : « لا بد وأن التباسا قد وقع ، ومن الخير أن تنسى الأمر كله » . لقد صادفت الكثير مـن أمثال هذه الوقائع الغريبة وإن كانت تافهة لا تستحق الذكر ، ومـن يدري فلعل اقتراح إدكار بالسفر إلى طوكيو لم يكن إلا اختبارا نفسيا ، أو لعله كان يعني ما يقول ولكن رؤساءه لم يثقوا في ، ولعل الآنسـة ماير كانت فعلا من قبل إدكار المعروف لديها باسم جورج (كانت أمثال هذه الالتباسات كثيرا ما تحدث في الحزب) ؛ أو لعلها كانت من قبل إحدى منظمات الحزب المنافسة التي تحاول الاعتداء على مجال نشاط إدكار . لقد لاحظت في مناسبات متعددة ان الجهاز الشيوعي أقل كفاءة ونظاما مما يظن أعداؤه ، وأن وسائله محدودة إلى حد بعيد ، إلا أن هنـاك في الوقت نفسه عوامل نفسية ثلاثة لا يقدرها الناس حق قدرها ، وهي المثالية والسذاجة والجرأة التي يمتاز بها أعوان هيئة الخدمات السوفييتية السرية الذين يتطوعون بالألوف لخدمتها .

إن صلتي بجهاز شنيللر لم تتجاوز في مدتها شهرين أو ثلاثة ، وكانت صلة سطحية فقط ، إلا أن السبب في عدم اندماجي الكامل في الجهـاز لا يعود إلى فضل في نفسي . لقد كنت على استعداد كامل لأن أصبح عضوا في الجهاز ؛ كنت واحدا من عذارى الثورة الذين لو طلبتهم هيئة

الخدمات السوفيتية السرية لقدموا لها أنفسهم وأرواحهم دون تردد ، وأنا أذكر هذا الأمر لأني أعتبر حالتي مثالا ونموذجا لحالات أخـرى كثيرة . لقد كان الكومنترن وهيئة الشرطة الروسيـة تتاجر في الرقيق الأبيض ، وضحاياها الشباب المثاليون ذوو السذاجة والجرأة .

أعود فأقول إن نجاتي من مخالب الجهاز لا تعود إلى براعة خاصة من جانبي ، وإنما تعود الى براءة النبيل الشاب « م » الذي كان يعمل تحت إشرافي في دار إلشتين . ذكرت لكم أنه كان في الواحدة والعشرين ، وأنه كان يكن لي ذلك التقدير الذي يكنه من في مثل سنه لمن يعتبره رائده وشيخه في العمل و في العقيدة الماركسية . ولقد ظلت الأمور تسير بيننا على خير ما يرام عدة اسابيع ، ثم لا حظت نوعا من الفتور يعتري موقفه مني ، إلا أن الأمر لم يشغل بالي كثيرا ؛ وأذكر أنه ذكر لي مرة أو مرتين بشيء من الحياء أنه يريد أن يحدثني « حديثا طويلا مستفيضا »، إلا أنني كنت في ذلك الحين غارقا في المشاغل والمشاكل ، فضلا عن أنني كنت قد بدأت أضيق بتمثيل دور الشيخ والرائد فجعلت في كل مـرة أؤجل هذا « الحديث الطويل المستفيض» . ولقد تبينت فيما بعد أن هذا التأجيل كان من الأمور التي تهيئها العناية الإلهية ، كما يحدث عندما يعجز المسافر عن اللحاق بالطائرة التي قدر لها أن تحترق .

فبينما كنت ذات يوم أملي بعض الرسائل على أحد موظفي المكتب ، اندفع النبيل « م» الى داخل الغرفة وطلب أن يتحدث الي في الحال على انفراد . كانت ذقنه مهملة لم تحلق ، وكانت عيناه حمراوين منتفختين ، وكان منظره من الغرابة بحيث أن الموظف أسرع بمغادرة الغرفة مرتاعا . قلت وأنا أحس شيئا من الوجل « ماذا حدث ؟ » قال النبيل « م » :

« لقد انتهيت إلى وجوب تنفيذ أمر من اثنين : إما أن أطلق النار على نفسي ، أو أن أخبر أصحاب الشأن بنشاطنا وأعمالنا ، وعليك أنت أن

تختار » قلت : « أي نشاط تعني ؟ » فأجاب النبيل الشاب بشكل مسرحي : « النشاط الذي يسمى خيانة عظمى » ثم بدأ يحكي قصته ، وأخبرني أن الشكوك بدأت تساوره منذ أسبوع حول مشروعية مايفعله وأنه في الليلة الماضية لم يراوده النوم وإنما جعل يقلب الأمر على وجوهه حتى أصبحت هذه الشكوك حقائق : لقد أصبح على يقين من أنه جاسوس وخائن ، ولم يعد أمامه إلا أن يقتل نفسه أو يدلي باعتراف كامل وليكن بعد ذلك ما يكون .

وقد أخبرت النبيل الشاب بأن كلامه هذا ضرب من الهذيان ، وأن الجاسوس هو الرجل الذي يسرق الوثائق العسكرية ، أو يبيع أسرار الدولة الى الدول الأجنبية ، أما هو فلم يفعل أكثر من نقل بعض الأحاديث التي تدور في بيته الى صديق من أصدقائه .

فقال النبيل « م » في لهجة تهجمية عنيفة لم أعتدها منه : « وماذا صنعت أنت بالمعلومات التي أعطيتك أياها ؟ »

قلت : « أخبرت بها أصدقائي على علاتها »

قال : « أصدقاء ! لعلك تعني عملاء الاجنبي هؤلاء ؟ »

قلت له : « ان الحزب الشيوعي الألماني هو حزب الطبقة العاملة الألمانية ، وهو لا يقل أصالة في ألمانيته عن الحزب النازي »

فقال مندفعا : « إن الجميع يعلمون أنهم أدوات في أيدي الروس »

وتساءلت : ما ذا أصاب الرجل ؟ هل أصبح نازيا بين عشية وضحاها ؟ غير أنني لم ألبث أن تبينت أنه لم يغير ميوله السياسية ، وكل مافي الأمر أنه اكتشف أن هناك فرقا بين أن يكون الانسان اشتراكيا أو ماركسيا وبين أن ينقل الأخبار والأسرار الى قوى أجنبية .

قال وهو يهز كتفيه : « لعلنا من الناحية الرسمية لا نعتبر جواسيس، إلا أن هذا لا يغير من واقع الأمر شيئا ، فقد كان تصرفنا كله الغدر

والخيانة ، ولن يقر لي قرار حتى أعلن الحقيقة كاملة . لقد كتبت اعترافاتي فعلا في الليلة الماضية ، الا أنني لن أتقدم بها الا بعد موافقتك» .

وأخرج من جيبه خطابا طويلا وضعه أمامي على الطاولة وطلب مني أن أقرأه . كان الخطاب من ثماني صفحات مكتوبة باليد وموجهة الى مدير الدار .

ونظرت الى السطور الاولى من الخطاب — « رأيت أنا الموقع أدناه، أن من الواجب علي أن أضع الحقائق التالية تحت أنظاركم . الخ ... » — ثم رأيت في نفسي عزوفا عن اتمام القراءة فتوقفت . كان الشاب الواقف أمامي يبدو شاحب الوجه بغرته السوداء على جبينه الأبيض وعينيه المحمرتين المنتفختين . لقد بدا واضحا أنه بالغ كثيرا في تقدير قيمة الموقف ، وأنه قد يتصرف بحماس المراهقين واندفاعهم ، وكم من المراهقين يقتلون انفسهم لأسباب تبدو لغيرهم تافهة ، وقد بدا لي أن هذا الشاب قادر فعلا على أن يقتل نفسه إن لم ندارك الموقف .

لقد بدا لي الموقف مضحكا ومؤلما في آن واحد ، مضحكا لأن النبيل الشاب كان فيما يبدو لي قد بالغ في تقدير قيمة نفسه وبالغ في تقدير قيمة الموقف الى حد كبير ،بينما كنت أرى أن ما فعلناه لا يتعدى فضولا سياسيا نصفه جد ونصفه عبث ، غير أنني مع ذلك لم أجد في نفسي قدرة على محاججته ، بل ولم أجد قدرة على قراءة الخطاب الذي كان يعنيني أكثر من غيري ولعل مستقبلي يتوقف عليه ، وعندما التقيت بإدكار فيما بعد وحدثته بالقصة لم أستطع أن أعلل عدم قراءتي للخطاب (وكان هذا فيما أحسب هو الذي جعل الجهاز يهمل أمري ويعتبرني حالة ميئوسا منها) أما اليوم فان شرح الأمر سهل يسير : انني لم أستطع أن أواجه سجلا مكتوبا للاعمال التي كنت أقوم بها وأفضل أن أنظر اليها من خلال غمامة حزبية جدلية تهون من شأنها وتقلل من خطرها ،

ويضاف الى هذا أنني رغم اقتناعي بأن النبيل الشاب كان في تصرفه هذا سخيفا أحمق على حين كنت أنا العامل المخلص في سبيل القضية ، إلا أنني أحسست بأنني أذنبت في حقه ، وخشيت أن يقوم فعلا باطلاق النار على نفسه ، فدسست الخطاب في جيبه ، وطلبت منه أن يغرب عن وجهي ويسلم الخطاب لمن يريد .

قال النبيل الشاب : « أتعني حقا أنك توافق على تسليم الخطاب ؟ » لقد بدا دهشا مسرورا لا يريد أن يفلت الفرصة من يده ، مما جعلني أشعر أنني تصرفت بحمق ، وأنني كنت أستطيع بقليل من المنطق الجدلي الذي تعلمناه أن أخرج به من هذه الورطة ، إلا أنني كنت قد فقدت ثقتي بنفسي كرائد وشيخ ، فلم أستطع أن أصنع شيئا . وعاد النبيل الشاب من مكانه بجوار الباب ليشد على يدي بشيء من الحرارة والمودة ، ثم انطلق في سبيله أكثر هدوءاً وتمالكا لنفسه .

كان هذا الحادث نهاية علاقتي بدار إلشتين ، وبداية سبع سنوات عجاف . لقد كنت على استعداد لأن أضحي بوظيفتي في سبيل الحزب ، لا أن أفقدها بهذه الطريقة الخرقاء .

وكان هذا الحادث أيضا نهاية صلتي بالجهاز ، فإنهم ، بعد أن فقدت أهميتي بالنسبة إليهم بهذه الطريقة التي أثبتت عدم صلاحيتي لأعمال المخابرات ، لم يلبثوا أن أهملوا شأني دون احتفال ، فلم أعد أرى إدكار أو يولا . أما يولا فقد علمتُ فيما بعد أن النازيين قتلوها في رافنزبروك ، وأما إدكار فلا زالت شخصيته الحقيقية غير معروفة لديّ إلى اليوم .

ويمكن أن تسمى الطريقة التي فصلتني بها دار إلشتين طريقة مهذبة ، أو أن تعتبر مثالا للنفاق البورجوازي حسب الزاوية التي ينظر منها المرء . لقد كنت أتوقع ، بعد أن غادرني النبيل الشاب « ا » ليسلم رسالته ، أن ادعى في أية لحظة لمقابلة المدير ، وكنت قد أعددت الجواب : « نعم

إنني فعلا طلبت من الشاب أن ينقل اليّ أية أحاديث سياسية تصل إلى أذنيه ، وكنت أحيانا أنقل هذه الأحاديث إلى أصدقاء لي في الحزب الشيوعي الألماني ، فأي ضير في هذا ؟ إن الجميع يتناقشون في المسائل السياسية ويتبادلون الأحاديث مع أصدقائهم ، وليس للدار أن تعترض على ميولي السياسية الخاصة طالما أنها لا تعوقني على أداء مهام وظيفتي ... الخ ... الخ » . كان إدكار هو الذي اقترح هذا النهج ؛ ولقد بدا لي مستساغا مقبولا حتى أنني بعد أن أفقت من صدمة لقائي مع النبيل الشاب جعلت انتظر بنفاد صبر هذا الموقف بيني وبين المدير ، مسلحاً بالسخط والغضب ، معتبرا نفسي الضحية البريئة وهم المعتدون الظالمون ؛ إن الانسان إذا عاش طويلا في ظلمات معرض الأحياء المائية يصعب عليه أن يميز بين الأخيلة والحقائق .

إلا أن الأيام مرت دون أن يحدث شيء ، وبعد قريب من عشرة أيام وجدت على مكتبي ذات صباح خطابا من الدار يذكر كاتبه بكل تلطف وأدب أنه نظرا للتخفيض العام في عدد الموظفين ، والذي اضطرتهم إليه الأزمة الاقتصادية الراهنة . الخ .. الخ ... فقد أصبح من الضروري الاستغناء عن خدماتي في هيئة التحرير ، ويخيرني بين أن أستمر في الكتابة لصحف الدار كأي كاتب حر آخر بمرتب شهري مضمون أو أن أتسلم مبلغا إجماليا عن الفترة الباقية من عقدي مع الدار ، ولم يذكر الكاتب كلمة واحدة عن النبيل « ا » أو عن الحزب الشيوعي أو عن خيانة العهد . لقد كان من الواضح أن دار إلشتين حريصة على ألا تثير فضيحة ، ويبدو أن الحزب أيضا كان من هذا الرأي ، فإن إدكار نصحني أن أقبل ما عرضوه دون اعتراض ، وكانت هذه ، كما ذكرت من قبل ، آخر مرة أرى فيها إدكار .

وهكذا تخلصت أخيرا — بعد أن فقدت وظيفتي — من كل قيود

العالم البورجوازي • أما المبلغ الإجمالي الذي تسلمته من دار إلشتين فقد أرسلته الى والديّ؛ ولما كان يكفيهما سنتين أو ثلاثة ، فقد أصبحت متحررا من كل التزاماتي الى ما بعد الثورة المظفرة وبزوغ فجر « العهد الجديد » ، وقد أبقيت لنفسي من هذا المبلغ ما يكفي لدفع تكاليف انتقالي إلى روسيا السوفيتية متى أذن لي الحزب بالهجرة الى هناك • وتركت البيت الذي كنت أقطنه في الحي الارستقراطي ، وانتقلت إلى حي آخر فقير معظم سكانه من الفنانين المعدمين ذوي الأفكار والمذاهب المتطرفة يعرف باسم « الحي الأحمر » ، ولقد كانت الشهور الثلاثة التي قضيتها هناك أسعد فترة مرت علي من بين السنوات السبع التي أمضيتها عضوا في الحزب •

بعد أن أصبحت عديم الفائدة للجهاز ، لم يعد هناك اعتراض على اشتراكي في إحدى الخلايا والاستمتاع بكل ما يستمتع به العضو الرسمي في الحزب • والحقيقة أن إدكار كان قد أذن لي من قبل بالانضمام الى خلية « الحي الأحمر » تحت اسمي المستعار « ايفان ستينبرغ » مكافأة لي على التقارير الطويلة التي كنت أمليها على بولا ، وكنت وقتها لا أزال أسكن في الحي الأرستقراطي الذي يبعد كثيرا عن الحي الأحمر ، ولذلك قدروا أن أحدا لن يعرف حقيقة الرفيق إيفان ستينبرغ • لقد كان هذا من بين الأخطاء الغليظة التي كان يقع فيها الجهاز ، فان الحي الأحمر كان بشابة مستعمرة الكتاب والفنانين ، فلم أكد أقدم إليهم في الخلية باسم الرفيق إيفان ستينبرغ حتى رأيت عددا من الوجوه المألوفة تبتسم لي مرحبة •

فلما انقطعت صلتي بدار إلشتين بعد ذلك بأيام ، لم يعد هناك من حاجة لإبقاء عضويتي في الحزب سرا مكتوما ، فألقيت بنفسي روحا وجسدا في جو الخلية الأخوي • كان أعضاؤها قريبا منعشرين ، يلتقون

بانتظام مرة أو مرتين في الأسبوع ، وكانت كغيرها من الخلايا يديرها ثالوث : القائد السياسي ، والمنظم الإداري ، والمسؤول عن الإثارة والدعاية • أما قائدنا السياسي فكان ألفريد كانتروفكز ، وهو الآن مدير تحرير مجلة أدبية تصدر في برلين تحت الكفالة السوفيتية ، وكان في ذلك الحين في نحو الثلاثين من عمره طويلا نحيلا في عينيه حول،وكان يعمل ناقدا غير مرتبط بصحيفة معينة ، كما كان يكتب المقالات ذات الموضوعات المختلفة ، وكان سيؤلف قصة سماها : « رواية هذه الأيام » إلا أنها لم تخرج الى الضوء أبدا • لقد كان هذا الرفيق طيب القلب الى حد كبير ، يحب أصدقاءه ويضحي في سبيلهم بالقليل والكثير ، كما كان لديه عزة النفس وروح الفكاهة معا ، ولم يكن ينقصه إلا الشجاعة الأدبية • لقد بقيت أنا وهو أصدقاء طوال السنوات التي كنا فيها لاجئين في باريس ، ولما استقلت من الحزب كان الوحيد الذي لم يبصق في وجهي • إنه الآن أديب كبير القدر تحت رعاية السوفيت وأسأل الله أن تحميه براءته ووداعته من أن يقع في شباك الأفكار المضادة للثورة أو شباك الأممية البورجوازية أو شباك التساهل الإباحي ، وهي الشباك التي طالما نصبت للمغضوب عليهم من الشيوعيين •

أما منظمنا الإداري ماكس شرودر فكان أيضا من رجال الأدب يعيش على سمعته التي اكتسبها من عدد من القصائد القيمة التي نشرت له في سن التاسعة عشرة ، أي قبل خمسة عشر عاما ، إلا أنه كان أيضا رجلا ممتازا • كان من ذلك النوع البوهيمي اللطيف الذي وجد في غيرته على الحزب الشيوعي وإخلاصه له عوضا عن خيبته في شئون الأدب والنساء والمال •

أما وظيفة المسؤول عن الإثارة والدعاية فقد أسندت إليّ حالما انضممت إلى الخلية ؛ ولا زلت أعتقد أن بعض الوريقات التي كتبتها

كانت حقا تبث روح الفتنة والإثارة • وأذكر من بين أعضاء الخلية الآخرين الدكتور ولهلم رايخ مؤسس معهد « السياسة الجنسية » • لقد كان ماركسيا من أتباع فرويد ، وكان تحت تأثير مالينوفسكي قد أصدر كتابا سماه « وظيفة الشهوة الجنسية » شرح فيه النظرية التي تزعم أن الفشل الجنسي يسبب تعطيل الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة ، وأن هذه الطبقة لن تتمكن من تحقيق إمكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية إلا بإطلاق الحافز الجنسي دون حدود أو قيود ، وهو كلام يبدو الآن أكثر اعوجاجا وسخفا مما كان يبدو لنا في ذلك الحين • ورايخ هذا هو الذي نشر بعد انتصار هتلر دراسة نفسية رائعة للعقلية النازية ، إلا أن الحزب لم يرض عنها ، وانتهى الأمر بانفصاله من الحزب ، وهو الآن مدير معهد للأبحاث العلمية في الولايات المتحدة • كذلك كان معنا في الخلية اثنان من الممثلين في مسرح من مسارح الطليعة يدعى « مصيدة الفيران » ، وبعض الآنسات ذوات الآمال الأدبية الغامضة ، وموظف في إحدى شركات التأمين ، والصبي إرنست بن بائع الفاكهة في حينا ثم عدد من العمال •

كان نصف نشاطنا في الخلية شرعيا والنصف الآخر غير شرعي ، وكانت الاجتماعات تفتتح بمحاضرة سياسية يلقيها القائد السياسي بتوجيه المسؤولين في قيادة المنطقة ، أو يلقيها موجه من قبل مركز القيادة ذاته ، وكان الهدف من هذه المحاضرة عرض سياسة الحزب ورأيه في المشاكل القائمة • ولقد حدثت خلال ربيع عام ١٩٣٢ المشؤوم وصيفه سلسلة من الانتخابات رجت القطر كأنها الزلازل ، كانتخابات الرئاسة ، وحملتان انتخابيتان للرايخستاغ وانتخاب مجلس النواب الألماني ؛ أربع حملات انتخابية عنيفة وقعت خلال ثمانية أشهر في بلد على حافة حرب أهلية • واشتركنا نحن الشيوعيين في هذه الانتخابات تتصيد الأصوات

من باب الى باب ونوزع آثار الحزب الأدبية ونكتب المقالات والنشرات • أما تصيد أصوات الناخبين فكان أكثر هذه المهام مشقة ، وكان معظمه يتم صبيحة أيام الآحاد حيث يتوقع أن يكون الناس في بيوتهم • كان عليك أن تدق جرس الباب ثم تدس قدمك في فتحته وتقدم إلى الساكن نشراتك ومقالاتك ، ثم تدعوه بلطف إلى الدخول في مناقشة سياسية، أي أننا كنا نبيع الثورة العالمية كما تباع المكانس الكهربائية • ولم تكن ردود الفعل عند الناس في أكثر الأحوال ودية ، إلا أنها لم تكن كذلك عدائية إلا في أحوال نادرة ؛ لقد انصفق الباب في وجهي عدة مرات ، ولكن لم ينشب بيني وبين أحد من الناس عراك • كنا نتجنب أبواب من عرفوا بالنازية ، وكان معظمهم معروفين لدينا كما كنا معروفين لديهم عن طريق شبكاتنا وخلايانا المتنافسة • لقد كانت ألمانيا كلها ، ريفها وحضرها ، مغطاة بهاتين الشبكتين المحكمتين ، ولا زلت أعتقد إلى اليوم انه لولا الهزات التي كانت تأتينا من موسكو فتعرقل شباكنا وتطوح بها من أيدينا لكانت فرص النجاح أمامنا كبيرة ، فقد كان لدينا المبدأ والاستعداد للتضحية وتأييد الجماهير •

لقد فقدنا المعركة لأننا لم نكن الصيادين كما ظننا ، بل كان الطعم الذي يتدلى من الشص ، غير أننا لم نستطع أن ندرك هذا ، فقد كانت عقولنا وأفكارنا مقلمة ومهيأة بحيث تتقبل كل أمر يأتي من فوق ـ مهما بلغ من سخفه وخطله ـ على أنه من أسمى رغباتنا ومعتقداتنا • رفضنا أن نتفق مع الاشتراكيين في تعيين مرشح موحد للرئاسة ، فلما أيد الاشتراكيون هندنبرغ ضد هتلر باعتباره أهون الشرين ، رشحنا نحن « ثالمان » رغم ثقتنا بأنه لن ينجح إلا في تقسيم أصوات الطبقة العاملة ومساعدة هتلر على الفوز • ولقد قام الموجه بالقاء محاضرة علينا أثبتت فيها أنه لا وجود لما يسمونه « أهون الشرين » وان هذه العبارة

ما هي إلا مغالطة فلسفية واستراتيجية وتكتيكية ، وأنها فكرة تروتسكية مناهضة للثورة تعمل على تحويل الاتجاه وتصفية التجمع ، فبدأنا من ذلك الحين نحس بالشفقة والاحتقار لكل من يذكر هذه العبارة المشؤومة ، بل وبدأنا نقتنع بأننا كنا دائما مقتنعين بأن هذه العبارة من فعل الشيطان ، إذ كيف يمكن أن يغيب عن بال أحد من الناس أن بتر الساقين جميعا خير من محاولة إنقاذ إحداهما ، وأن السياسة الثورية الصحيحة هي أن تطيح بعكازي الجمهورية المقعدة ! إن الإيمان قوة عجيبة حقا ؛ إنه ليس قادرا فقط على زحزحة الجبال ، إنه يستطيع أن يجعلك تؤمن بأن سمكة « الرنجة » حصان سباق •

لم يكن تفكيرنا فقط هو الذي أصابه التقليم والتهيئة ، بل ان ألفاظنا لقيت نفس المصير • أصبحت بعض الكلمات من المحرمات ، مثل كلمة « أهون الشرين » مثلا أو كلمة «تلقائي» التي حرمت لأن« المظاهر التلقائية للوعي الطبقي الثوري » كانت جزءاً من نظرية«تروتسكي»عن « الثورة الدائمة » ، بينما أصبحت بعض الألفاظ والعبارات الأخرى محببة وشائعة متداولة ، ولست أعني الكلمات التي اشتهرت عن الشيوعيين وعرفوا بها كعبارة « الجماهير الكادحة » ، وإنما أعني كلمة مثل « مُحكَم » أو « طائفي » في مثل قولهم « إجعل سؤالك محكما أكثر من هذا أيها الرفيق » أو «إنك تتبنى اتجاها يساريا طائفيا أيها الرفيق» ، بل لقد شاعت بعض الكلمات مثل كلمة « هيروستراتي » على ما فيها من غموض، وذلك لأن لينين كان قد ذكر في بعض كتبه « هيروسترات» الاغريقي الذي أحرق معبدا لأنه لم يجد وسيلة أخرى للحصول على الشهرة ، فكنا كثيرا ما نسمع ونقرأ أمثال هذه العبارات : « الجنون الهيروستراتي الإجرامي لأعداء الثورة الذين يخربون ويحطمون المجهودات البطولية التي تقوم بها الجماهير الكادحة في مسقط رأس

الطبقة العاملة لانجاز مشروع السنوات الخمس الثاني في أربع سنوات » •

لقد كان في إمكان المرء أن يكتشف من بين الشيوعيين أتباع تروتسكي أو الاصلاحيين أو أتباع براندلير أو بلانكست عن طريق كليشاتهم وعباراتهم المفضلة ، كما كان الشيوعيون أيضا يكشفون عن أنفسهم أمام الشرطة أو «الجستابو» من خلال عباراتهم وكلماتهم، وأعرف فتاة كان الجستابو قد التقطها بطريقة شبه عرضية دون أن تكون لديهم قرائن ضدها ، وكانت كلمة « محكم » هي التي أوقعتها في الهلاك • لقد ظل ضابط الجستابو يستمع إليها بشيء من الملل والضجر وهو شبه مقتنع بأن أعوانه قد أخطأوا بالقبض عليها ، حتى استعملت هذه الكلمة المشؤومة للمرة الثانية فأرهف أذنيه وقال يسألها : « من أين التقطت هذا التعبير ؟ » وكانت الفتاة الى ذلك الحين متمالكة لأعصابها ، فلما وجه إليها هذا السؤال أصابها الاضطراب ، وما دامت قد اضطربت فقد ضاعت •

أما أذواقنا الأدبية والفنية والموسيقية فقد أصابها التقليم أيضا كما أصاب غيرها • قال لينين مرة إنه عرف عن فرنسا من خلال قصص بلزاك أكثر مما عرفه من كتب التاريخ مجتمعة ، فأصبح بلزاك عندنا أعظم الأولين والآخرين ، بينما كانت كتابات غيره من القصصين الماضيين مجرد انعكاسات « للقيم الشائهة التي أنتجها مجتمع منحل » • أما في الناحية الفنية فقد كان المذهب « الحركي الثوري » هو السائد المتحكم ، فكانت الصورة التي تخلو من مصنع يتصاعد دخانه أو مدخنة أو جرار تعتبر صورة تهربية غير واقعية • أما في الموسيقى والتمثيل فقد كان ينظر الى « الجوقه » على أنها أسمى وسائل التعبير ، لأنها تمثل الاتجاه الجمعي كشيء مضاد للاتجاه الفردي البورجوازي ، إلا أنه

لما كان من غير الممكن إلغاء الشخصية الفردية من المسرح ، فقد نزعت عن هذه الشخصيات صفاتها الفردية ، وأصبحت مجرد نماذج ورموز . كذلك أصبح علم النفس مبسطا الى أقصى حد ، فكانت الدوافع العاطفية المعترف بها لا تتعدى دافع التضامن الطبقي والدافع الجنسي ، أما ما سواهما فبورجوازية ميتافيزيقية ، أو نتائج للسياسة الاقتصادية الرأسمالية التنافسية ، كما كانوا يقولون عن الطموح ونشوة السلطان .

أما بخصوص الدافع الجنسي فقد كان مقررا ومعترفا به ، إلا أننا كنا في حيرة بشأنه . كان الاقتصار على زوجة واحدة ، بل كان نظام الأسرة كله عندنا أثرا من آثار النظام البورجوازي ينبغي نبذه لأنه لا ينمي إلا الفردية والنفاق والاتجاه الى اعتزال الصراع الطبقي ، بينما الزواج البورجوازي لم يكن في نظرنا إلا شكلا من أشكال البغاء يحظى برضاء المجتمع وموافقته . إلا أن السفاح والاتصال الجنسي العابر كان يعتبر أيضا شيئا سيئا غير مقبول ، وكان هذا النوع الأخير قد شاع وانتشر داخل الحزب سواء في روسيا أو خارجها إلى أن أعلن لينين تصريحه الشهير الذي يهاجم فيه « نظرية كأس الماء » (النظرية التي تزعم أن العملية الجنسية ليست أكثر خطرا وأثرا من عملية إطفاء العطش بكأس من الماء) . من هذا نرى أن الفضيلة البورجوازية كانت تعتبر شيئا سيئا كما أن السفاح والاتصال الجنسي العابر كان سيئا كذلك ، أما الموقف الصائب الذي ينبغي أن تتخذه نحو هذا الدافع الجنسي فهو الفضيلة العمالية التي تتلخص في أن الإنسان ينبغي له أن يتزوج ، ويخلص لزوجته وينجب أبناء عماليين . فإذا تساءلت : « أليست هذه هي الفضيلة البورجوازية التي استنكرناها من قبل ؟ » قيل لك : « إن هذا التساؤل أيها الرفيق يدل على أنك لازلت تفكر بالطريقة الآلية لا بالطريقة المنطقة الجدلية ، إذ ما هو الفرق بين البندقية

في يد رجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية؟ إن الفرق بين البندقية في يد رجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية، هو أن رجل الشرطة من أعوان الطبقة الحاكمة وبندقيته أداة للعدوان ، بينما هذه البندقية نفسها في يد عضو الطبقة العاملة الثورية أداة لتحرير الجماهير المضطهدة ، وهذا القول يصدق عن الفرق بين ما يسمونه « الفضيلة » البورجوازية وبين الفضيلة العمالية . إن نظام الزواج الذي يعتبر في المجتمع الرأسمالي مظهرا من مظاهر الفساد والتحلل يتحول « منطقيا » إلى عكس ذلك في المجتمع العمالي السليم ، فهل فهمت أيها الرفيق ، أم تحب أن أعيد جوابي بطريقة « محكمة » أكثر من هذه ؟ »

كان تكرار المعنى الواحد بأساليب مختلفة ، وطريقة إلقاء السؤال ثم الجواب عليه مع تكرار السؤال كله في الجواب ، واستعمال صفات بعينها كالكليشيهات لا تكاد تتغير ، ونبذ الحقائق وإغفالها بحيلة بسيطة تتلخص في وضع الكلمة بين قوسين وإعطائها جوا من السخرية والمرارة (ماضي تروتسكي « الثوري » ، الهذيان « الانساني » للصحافة « الحرة » الخ) كان هذا كله جزءا أساسيا من الاسلوب الذي بز فيه ستالين ، والذي كان لشدة إملاله يفعل في النفس فعل التنويم المغناطيسي . إن ساعة من هذا الهذيان « المنطقي الجدلي » كانت تدع الإنسان لا يدري أفتى هو أم فتاة ، وتجعله مستعدا لاعتناق أي منهما بمجرد ظهور الأخرى بين قوسين . لقد كنا على استعداد لأن نؤمن بأن الاشتراكيين هم : (ا) أعداؤنا الحقيقيون ، (ب) حلفاؤنا الطبيعيون ؛ وأن الدول الاشتراكية والدو الرأسمالية : (ا) يمكنها أن تعيش مع بعضها بسلام ، (ب) لا يمكنها أن تعيش مع بعضها بسلام ؛ وأن انجلز عندما قال إنه لا يمكن قيام الاشتراكية في دولة بمفردها كان يعني عكس ذلك تماما . بل لقد تعلم الواحد منا أن يبرهن

بالاستدلال المنطقي على أن كل من يخالفه في الرأي هو عميل للفاشية ، لأنه : (ا) بمخالفته لك في الرأي يساعد على تفتيت وحدة الحزب (ب) بعمله على تفتيت وحدة الحزب يساعد على انتصار الفاشية ؛ فهو إذن (حـ) من الناحية الموضوعية عميل للفاشية ولو كان من الناحية الشخصية قد تعرض للتعذيب في معسكرات الاعتقال على أيدي الفاشيين . إن كلمات « عميل » أو « الديموقراطية » أو « الحرية » الخ كانت تعني عندنا في الحزب شيئا آخر يختلف تماما عن معناها في الاستعمال العام ؛ بل كان معناها عندنا يتغير بعد كل تحول في سياسة الحزب ، فكان موقفنا من هذه التغييرات كموقف اللاعبين في لعبة الكروكي (١) بين الملكة وأتباعها حيث كانت الأطواق تتنقل عبر الملعب والكرات قنافذ حية ، مع اختلاف واحد هو ان اللاعب عندنا إذا أخطأ وأضاع دوره وقالت الملكة « اقطعوا رأسه » كان الأمر ينفذ بكل جد . لقد كان علينا جميعا لكي نعيش أن نصبح مهرة في كروكي بلدالعجائب .

كانت الظاهرة الواضحة في الحزب في تلك الفترة عبادة الطبقة العاملة واحتقار الطبقة المستنيرة ، مما كان يشكل كابوسا وعقدة مؤلمة لكل رجال الفكر والأدب الشيوعيين الذين انحدروا من الطبقة المتوسطة . لقد كان ينفث في روعنا وعقولنا ليل نهار أننا عالة على هذه الحركة ولسنا من أهلها ؛ كانوا مضطرين أن يحتملونا لأن لينين قال بهذا ، ولأن روسيا لم تكن تستطيع الاستغناء عن الأطباء والمهندسين والعلماء الذين ينتمون إلى الطبقة المستنيرة لجيل ماقبل الثورة . كما

(١) الكروكي لعبة يقوم فيها اللاعبون بضرب كرات من خشب بمضارب في أيديهم لكي تمر من أطواق خشبية ثابتة والكاتب يشير الى قصة خيالية من أشهر قصص الاطفال وهي « أليس في بلد العجائب » وكانت الملكة واتباعها في القصة المذكورة يلعبون الكروكي بهذه الطريقة العجيبة التي يذكرها الكاتب (المترجم) .

لم تكن تستطيع الاستغناء عن الخبراء الأجانب البغيضين ، ولم نكن نحظى من ثقة الدولة واحترامها بأكثر مما حظيت به في دولة الرايخ الثالثة طائفة « اليهود النافعين » الذين سمح لهم بأن يبقوا أحياء وركبت لهم حول أذرعهن أساور تميزهم عمن سواهم من اليهود حتى لا يرمى بهم في غرف الغاز قبل أن تحصل الدول على كل ما عندهم من نفع وفائدة . كان أفراد الطبقة العاملة هم « ذوو الدم الآري » في الحزب وكان للمنشأ والأصل والآباء والأجداد من الأهمية سواء عند الانتساب الى الحزب أو خلال عمليات التطهير الروتينية السنوية مثل ما كان للدم الآري عند النازيين . أما النموذج الأسمى للطبقة العاملة فكان عمال المصانع الروسية ، والمختار من بين هؤلاء عمال مصانع بوتيلوف في لينينغراد وعمال حقول الزيت في باكو . وكان المثل الأعلى للطبقة العاملة في كل الكتب التي قرأناها أو كتبناها دائما رجلا عريض المنكبين تبدو في تقاطيع وجهه الصراحة والبساطة ، كما كان ذا وعي طبقي كامل وذا تحكم في غريزته الجنسية ؛ وكان قويا صموتا رقيق القلب فإذا لزم الأمر كان قاسيا عنيفا ، وكان ذا قدمين كبيرتين ويدين خشنتين وصوت عميق جميل يساعده على ترتيل الأغاني الثورية . ولم نكن ننظر إلى غير الشيوعيين من أفراد الطبقة العاملة على أنهم من الطبقة العاملة الأصلية . ولما لم يكن من الممكن أن توجد حركة دون بطل يمثلها ، فقد كان بطلنا الرفيق إيفان إيفانوفتش من مصانع بوتيلوف .

ولم يكن من الممكن لفرد من الطبقة المستنيرة أن يصبح عضوا أصيلا في الطبقة العاملة ، ولكن كان من واجبه أن يصبح قريبا من هذا المثل الأعلى قدر المستطاع ، فكان بعضنا لكي يصلوا إلى هذا الهدف يتخلون عن ربطة العنق ، ويلبسون صديريات تشبه صديريات العمال ، ويسودون أظافرهم .

إلا أن هذا الاسلوب كان يقابـل بالاستنكار باعتباره نوعا من الاحتيال والتعاظم وتقليد الكبار، وإنما الطريق الصحيحة ألا يكتب الانسان أو يقول أو يفكر في شيء لا يستطيع أن يحيط به الكناس في الطرقات. لقد كنا نلقي بمتاعنا العقلي كما يفعل المسافرون في سفينة أشرفت على الغرق ، حتى لم يبق لنا إلا الحد الأدنى الضروري من العبارات المعدة والكليشات « المنطقية الجدلية » والمقتبسات الماركسية التي يتألف منها أسلوب ستالين ومن يقتدون بهديه . لقد كان مما يسبب للانسان تأنيب الضمير دائما أن يكون قد تلقى نوعا من التربية البورجوازية ، أو أن يجد من نفسه القدرة على أن يرى للمشكلة الواحدة جوانب متعددة لا جانبا واحدا كما هو المطلوب . كنا نسعى جاهدين لأن نكون موحدي التفكير بسطاء العقول ، وكنا نعتبر هذا الخصاء العقلي ثمنا زهيدا ندفعه راضين في سبيل التشبه بمثلنا الأعلى إيفان إيفانوفتش .

★ ★ ★

ولنعد الى الحياة في الخلية . كانت الاجتماعات تبدأ كما قلت من قبل بمحاضرة أو محاضرتين لتوضيح خطة الحزب وسياسته ، ثم تتلو ذلك المناقشة ، إلا أنها كانت مناقشة من نوع غير مألوف ، فإن من القواعد الأساسية في النظام الشيوعي أن كل انتقاد يوجه الى قرار اتخذه الحزب تجاه مشكلة معينة يعتبر نزعة الى الانحراف والتخريب . ان من المسموح به من الناحية النظرية مناقشة أي موضوع قبل صدور القرار فيه ، ولكن لما كانت كل القرارات تفرض علينا من فوق ، من البرج العاجي ، دون أن تستشار في ذلك أية هيئة تمثل عامة الناس ، فقد كان من نتيجة ذلك أن لم يعد للعامل العادي أي أثر سياسي، بل لم تعد له أية فرصة للتعبير عن رأيه في أمر من الأمور ؛ كذلك لم تعد للقيادة وسيلة للتعرف على مـزاج

الجماهير وآرائهم . إن من بين شعارات الحزب الشيوعي الألماني شعار يقول : « ليس في الصف الامامي مجال للمناقشة » وشعار ثان يقول : « حيثما وجد الشيوعي فهو دائما في الصف الامامي » .

وإذن فقد كانت جميع مناقشاتنا تظهر إجماعا كاملا في الرأي بيننا ، وكانت تتم على الشكل الآتي : يقوم أفراد الخلية واحدا وراء واحـد ليسردوا على الحاضرين جملا على طريقة ستالين تتنوع أساليبها وإن كانت تتفق جميعا في أنها تأييد وتحبيذ للرأي الذي عرضـه المحاضر . ولكن لعل التعبير بكلمة « يسردوا » غير دقيق في هذا المجال ، لقد كان الواحد منا يدور بلهفة في ثنايا عقله يتلمس التبريرات للخطة التي ارتآها الحزب ، وليس هذا فقط ، بل كنا نتحسس أفكارنا وآرائنا السابقة علنا نستطيع أن نبرهن لأنفسنا أن الرأي المطلوب هو رأينا من قديم الزمان ، والغريب أننا كنا ننجح في هذا الى حد بعيد . قد تكون الدهشة مثلا أصابتني عندما سمعنا من « الموجه » أن شعار الحزب وهتافه الرئيسي في الانتخابات النيابية القادمة سيكون « تأييد الطبقة العاملة الصينية ضد عدوان القراصنة اليابانيين» بدل أن يكون عن ملايين العمال العاطلين في ألمانيا أو خطر جنود العاصفة النازيين ، فان كانت الدهشة قد أصابتني فعلا فانني اليوم لا أذكر ذلك ، وإنما الذي لا زلت أذكره أنني كتبت نشرة انتخابية بليغة صادقة أوضح فيها كيف أن ما يجري في شنغهاي أكثر أهمية للطبقة العاملة الألمانية مما يجري في برلين ؛ ولا زلت أحس بالفخر والسرور كلما تذكرت كلمة التشجيع التي تلقيتها على هذه النشرة من المسؤولين — ولست أملك التغلب على هذا الاحساس .

كان أفراد الطبقة العاملة من أعضاء خليتنا يجلسون عادة طوال المحاضرة كمن يغالبون النعاس ؛ فكانوا ينصتون ، وعيونهم شبه مغلقة فعل المتربص المرتاب ، الى ما يقوله المثقفون يحاولون به توضيح أسباب

موافقتهم ؛ وأخيرا يقوم أحدهم بعد وكزات التنبيه من رفاقه ليكرر بطريقة غليظة مقصودة وبنوع من التحدي أهم الشعارات التي وردت في حديث الموجه ، دون أن يزعج نفسه بمحاولة تغيير العبارات أو الكلمات ، وكنا نحن ننصت اليه بسكون واهتمام الى أن يجلس بين غمغمات الموافقة والاستحسان ، فإذا جاء دور الموجه لكي يلخص الجلسة واجراءاتها لم ينس أن يشير الى أن الرفيق (فلان) من بين الحاضرين جميعا قد صاغ المسألة في أحسن شكل وأوفقه ، وبعبارات « محكمة » تماما .

كان صيف عام ١٩٣٢ كما ذكرت من قبل فترة انتقال ، وكان الحزب يعد نفسه لفترة نشاط سري ، وهو لهذا يعيد تنظيم صفوفه استعدادا للطوارىء فقد نصبح بين عشية وضحاها خارجين على القانون . ولقد رتب الأمر بحيث تتوقف جميع الخلايا عن العمل في اللحظة التي يصبح الحزب فيها غير قانوني ، ويحل محلها جهاز جديد يعم الأمة كلها وهو « جماعات الخمسة » . إن الخلايا التي كان يتراوح أعضاؤها بين العشرة والثلاثين كانت أكبر من أن تصلح للتنظيم السري ، إذ كان من السهل على المخبرين والجواسيس أن يجدوا مجالا لنشاطهم بين هذا العدد الكبير ، في حين أن تقسيم المجموعات على اساس الخمسة كان نوعا من اللامركزية التنظيمية يقلل من المخاطر ، فقد كان لقائد المجموعة وحده أن يعرف شخصيات الأربعة الآخرين وعناوينهم ، كما كان هو وحده الذي يتصل بالطبقة الأعلى عن طريق رجل الاتصال فيها ، فان قبض عليه لم يستطع أن يدل إلا على زملائه الأربعة ورجل الاتصال .

وهكذا بينما كانت الخلايا مستمرة في عملها كان كل عضو يضم سرا الى إحدى مجموعات الخمسة ؛ وكان المبدأ ألا يعلم أحد من هذه المجموعات بتشكيل المجموعات الأخرى ، إلا أننا في الحقيقة لتجاورنا في المسكن كنا نعرف أي مجموعة تجتمع الآن في بيت (فلان) ؛ ويوم

أن وجه جورنج ضربته القاضية الى الحزب الشيوعي ليلة حريق الريخستاغ ، تبعثرت المجموعات وهوى الصرح كله . لقد كنا نعجب من براعة زعمائنا في التنظيم السري ، ورغم أننا جميعا كنا قد قرأنا كتبا عن حروب العصابات وتدبير الثورات ، إلا أن ملكة النقد عندنا كادت تكون معدومة ، فلم نشعر بعناصر المأساة التي اختبأت وراء خطتنا ومنهاجنا . إن استعداد الحزب لحياة سرية طويلة الاجل وتشكيل مجموعات صغيرة بطريقة لامركزية يعني أن قادتنا أعتبروا انتصار النازية أمرا حتميا لا بد منه ، كما أن التقسيم الى هذه المجموعات الصغيرة كان يوحي بأن الحزب لن يقوم بمقاومة جدية مسلحة يوم يستولي هتلر على الحكم ، وإنما هو يستعد بدلا من ذلك لمناوشات فردية على نطاق ضيق .

إلا أننا نحن عامة أعضاء الحزب ما كنا ندري من هذا شيئا ، وكنا خلال صيف عام ١٩٣٢ الطويل الخانق مشتبكين في معارك مبعثرة مع النازية ، فما كان ينقضي يوم إلا ويقتل في برلين رجل أو رجلان . أما ميادين المعارك فكانت تلك الحانات الصغيرة المعتمة داخل أحياء العمال ، فقد كان بعضها يستعمل مكانا لاجتماع النازيين بينما البعض الآخر يستعمل مكانا لاجتماعنا نحن ، وكان دخول أحدنا حانة من النوع الاول يعني الدخول في صفوف الاعداء . وكان النازيون من حين الى آخر يطلقون النار على واحدة من حاناتنا على طريقة عصابات شيكاغو ، فكان جماعة من جنود العاصفة النازيين يسوقون سياراتهم ببطء من أمام الحانة وهم يطلقون النار خلال النوافذ والابواب ، ثم يختفون بسياراتهم بسرعة جنونية ، ولم نكن نحن نملك من السيارات إلا عددا قليلا ، ولذلك كانت عملياتنا الانتقامية تتم في معظم الأحوال بسيارات مسروقة أو مستعارة من بعض المؤيدين ، وكان يقوم بها نقابة المحاربين الشيوعيين . وكانت سيارتي تستعار أحيانا من قبل رفاق لم أر وجوههم

ن قبل ، ثم تعاد بعد ساعة دون سؤال مني أو تفسير منهم . كانت سيارة « فيات » صغيرة حمراء مكشوفة طراز ٥٠٩ ولا تناسب هذه الأغراض مطلقا ، غير أن الخلية لم يكن فيها من يملك سيارة سواي . لقد كانت آخر ما تبقى من ماضيّ البورجوازي ، وهاهي ذي اليوم تخدم ثورة الطبقة العاملة . لقد كنت أقضي نصف يومي أسير بها في مصالح الحزب المختلفة : أنقل النشرات والمقالات من مكان الى مكان ، أو أتعقب سيارة نازية أعطيت أوصافها ، وكان علي في أحدى المرات أن أنقل معدات مطبعة يدوية كاملة من محطة القطار الى قبو تحت محل بائع خضروات .

كان رجال نقابة المحاربين الشيوعيين الذين يأتون في طلب سيارتي لأغراضهم الانتقامية في كثير من الأحيان من طغام الناس الذين يبدو الشر في وجوههم ، وكانوا يأتون عادة إثر مكالمة تليفونية أو رسالة شفوية من مركز الحزب ، وكان يندر أن يأتي أحدهم مرتين . أما في المهام الأقل خطرا فقد كان يطلب الي أحيانا أن أسوق السيارة بنفسي ، وكنا في هذه الحالة نمر على مهل بسيارتنا عبر بعض حانات النازيين لنراقب ما يجري ، أو نحرس إحدى حاناتنا عندما يأتينا خبر من أحد جواسيسنا في معسكر النازيين بأنهم ينتوون مهاجمتها ، وكانت هذه المهمة الأخيرة مزعجة فقد كان علينا أن نوقف السيارة في مكان قريب ثم نطفىء الأنوار ونترك الماكينة دائرة ، فإذا اقتربت سيارة كنت أسمع حركة زناد البندقية وأسمع صوتا ينصحني بأن أطأطىء رأسي جيدا ، غير أنه لم يحدث في مرة من هذه المرات أن وقع تبادل اطلاق النيران .

وأذكر مرة أن جماعة المحاربين الشيوعيين الذين قدموا في طلب السيارة تنكروا في بيتي قبل أن يبدأوا مهمتهم ، فلصقوا شوارب على شفاههم ، ووضعوا عوينات ، ولبسوا قبعات

عالية سوداء ثم انطلقوا . وقد بدا منظرهم غريبا — منظر أربعة من الأشراف المهيبين ذوي القبعات السوداء وهم متلاصقون في سيارتي الصغيرة المضحكة ، فقد كانوا كمن يسيرون في موكب جنائزي . وقد عاد هؤلاء بعد مضي أربع ساعات ، وأزالوا تنكرهم ، ثم انطلقوا بعد أن صافحوني في صمت وسكون . وكانت لدي تعليمات إذا أخذت الشرطة رقم سيارتي بأن أقول انها سرقت مني ، وأني وجدتها ثانية في طريق مهجورة .

كانت تسري من حين الى آخر شائعات بأن النازيين ينوون مهاجمة « الحي الأحمر » كما هاجموا غيره من التجمعات الشيوعية المعروفة ، فكنا نبقى متيقظين ويأتي بعض رجال نقابة المحاربين الشيوعيين للحراسة . وفي ليلة من هذه الليالي الحرجة كان يسهر في بيتي الصغير ما يقرب من ثلاثين رجلا مسلحين بالبنادق والهراوات وأنابيب الرصاص . وصادف أن جاء صديقي إرنست من فيينا ليقضي عندي بضعة أيام ، وهو عالم شاب ذو ذهن حاد ونفس رقيقة حييه ، وكان البيت عند حضوره مملوءاً بسحب من دخان اللفافات ، والرجال جالسون أو نائمون في نواحي البيت كلها ، فوق الأسرة وعلى الأرض ، وأنابيب الرصاص والهراوات وزجاجات الخمر تحيط بهم من كل جانب ، فلما جاء دوري للحراسة في الطريق ، أخذت إرنست معي فقال متعجبا : « ولم تعيش هكذا كرجال العصابات ؟ » فلما شرحت له الموقف قال : « أعلم هذا ، ولكن لماذا تصنع هذا بنفسك ؟ » قلت : « انني أساعد على التمهيد للثورة » فقال : « إن ما أراه لا يوحي بهذا » قلت : « ولم ؟ » قال : « أنا في الحقيقة لا أدري فلست أعرف شيئا عن كيفية قيام الثورات ، إلا أن المنظر الذي رأيته في بيتك بدا لي أقرب الى فلول جيش مهزوم » .

ولقد كان على صواب . كنا نحسب أنفسنا طليعة الثورة ، إلا أننا

كنا في الحقيقة مؤخرة حركة عمالية محطمة . لقد قام «فون بابن» بانقلابه بعد ذلك بأسابيع ، واستطاع ثمانية رجال يقودهم ملازم أن يطردوا الحكومة الاشتراكية من الحكم ، فلم يصنع الحزب الشيوعي بملايينه الثمانية شيئا ، أما نقابات العمال التي كانت القيادة فيها للاشتراكيين فلم تحرك ساكنا ولا هي دعت الى الاضراب أو الاحتجاج ، أما نحن الشيوعيين ، نحن الذين تعاونا قبل سنة واحدة مع النازيين ضد هذه الحكومة الاشتراكية ذاتها والذين كنا لا نسأم من تكرار القول بأن الاشتراكيين هم العدو الرئيسي للحركة العمالية ، فقد دعونا في الحال الى إضراب عام ، غير أن صرختنا لم تلق في طول البلاد وعرضها إلا آذانا صماء . كانت ثرثرتنا قد فقدت معناها لدى الجماهير كما تفقد أوراق النقد المتضخم قيمتها ، وهكذا خسرنا المعركة ضد هتلر قبل أن تبدأ المعركة ، وأصبح واضحا لكل من عدانا ، بعد العشرين من تموز (يوليو) ١٩٣٢ ، أن الحزب الشيوعي الألماني ، وهو أقوى حزب شيوعي في أوروبا كلها ، إن هو إلا مارد خصي يملأ الدنيا زهوا وضجيجا ليخدع الناس عن فحولته الضائعة ورجولته المفقودة .

لقد طلعت علينا صحافة الحزب صبيحة اليوم الذي تلى يوم الاضراب الفاشل تؤكد أنه كان نصرا مدويا ، وأن الحزب الشيوعي بدعوته الناس الى الإضراب حين وقف الاشتراكيون عاجزين ، قد كشف النقاب تماما عن خيانة هؤلاء القادة الاشتراكيين الفاشيين .

لم ينقض سوى بضعة أشهر حتى انتهى كل شيء . وتبين في ساعات قلائل أن السنوات الطوال التي انقضت في تدريب على النظام السري ، واستعداد للطوارىء ، كانت عديمة الجدوى ، إذ لم يلبث العملاق الضخم أن أصطكت ركبتاه ، ثم هوى كأنه تمثال في الكرنفال . فأما زعيم الحزب ثالمان وأعوانه فقد اكتشفت مخابئهم المعدة بعناية فائقة ،

وقبض عليهم في الأيام الأولى ، وأما أعضاء اللجنة المركزية ففروا ، وهبط فوق ألمانيا ليل طويل لا يزال جاثما الى اليوم بعد مضي كل هذه السنوات .

وأخيرا ، بعد أن وصل هتلر الى الحكم ، وألقى ثالمان في السجن ، وقتل آلاف من أعضاء الحزب ، ووضع عشرات الآلاف في معسكرات الاعتقال ، بدأ الكومنترن يتنبه لمسؤولياته ، وقامت المحاكم الحزبية في الخارج ولجنة الشرطة الروسية في الاتحاد السوفيتي تصدر أحكامها القاسية على « العدو الداخلي » ، على اللصوص عملاء الفاشية الذين كانوا يتهامسون بانتقاداتهم لسياسة الحزب الرسمية التي نظرت الى الحزب الاشتراكي على أنه عدو الطبقة العاملة الألمانية رقم ١ ، وزعمت أن الحزب الشيوعي لم يهزم وإنما تقهقر حسب خطة موضوعة .

★ ★ ★

إن ذاكرة الانسان عادة تضفي رواء على الماضي ، إلا أن العكس هو الذي يحدث حين يتبرأ الانسان من عقيدة اعتنقها ، أو يكشف خيانة صديق عزيز ، فإن كل الخبرات الماضية تفقد براءتها في ضوء هذا الكشف الجديد ، وتصبح في ذاكرة الانسان عفنة منتنة . ولقد حاولت في هذه الصفحات أن استعيد الحالة النفسية التي كانت تغشاني وقت حدوث هذه الخبرات التي أقصها — وأنا أعلم أنني فشلت في هذه المحاولة ، فإن المرارة والغضب والخجل كانت دائما تقحم نفسها وتفسد عليّ محاولتي ، حتى ليبدو أن المشاعر التي أحسستها في ذلك الحين قد انقلبت الى أضدادها ، فأصبحت أنظر الى ذلك اليقين الداخلي الذي كنت أحس به في ذلك الحين على أنه العالم الخاص الذي يحيط به مدمن المخدرات نفسه . إن أولئك الذين وقعوا في حبائل الوهم العظيم الذي عشنا فيه

ثم عاشوا حتى رأوا زوال الوهم وظهور الحقائق الأليمة قد انتهى بهم الأمر الى واحد من طريقين : إما أن يستسلموا الى إدمان من نوع جديد يخالف الاول ، وإما أن يظلوا بقية حياتهم في ذلك التعلق والتشتت الذهني الذي يلازم المدمنين السابقين ؛ « إنهم المقابر المتحركة لرفاقهم القتلى ، إنهم يرفعون أكفانهم عوضا عن اللواء » .

ولعل هذا هو السبب في أن مدمن المخدر السياسي عصيّ على العلاج .

في أواخر صيف عام ١٩٣٢ منحت تأشيرة الدخول الى الاتحاد السوفيتي أخيرا ، وقد حصلت عليها استنادا الى دعوة من منظمة الكتّاب الثوريين الدولية للتجول في الاتحاد السوفيتي وتأليف كتاب عنه ، وكان المفروض أن يكون عنوان الكتاب : « البلاد السوفيتية من خلال أعين بورجوازية » ، وكانت الفكرة أن يصف الكتاب كيف أن السيد « ك » المراسل البورجوازي المتحامل على الاتحاد السوفياتي ، قد تغيرت نظرته بالتدريج عندما رأى نتائج مشروعات الانشاء والتعمير السوفيتية خلال مشروع السنوات الخمس الاولى ، حتى أصبح في النهاية الرفيق « ك » .

انطلقت الى الاتحاد السوفيتي قبل مجيء هتلر الى الحكم بستة أشهر مسلحا بتوصية الى الرفيق غوبنر ، وهو في ذلك الوقت رئيس اللجنة التنفيذية للشيوعية الدولية في موسكو ، فأمدتني هذه اللجنة التنفيذية بدورها بخطاب « قوي » يطلبون فيه من كل السلطات السوفيتية ان تعاونني على إنجاز مهمتي « كمندوب عن الكتاب العماليين الثوريين في ألمانيا » .

إن مثل هذا الخطاب له في روسيا أثر القانون ، فقد مكنني من أن

أتجول في أنحاء البلاد دون مرشد ودون عراقيل ، وأن أحصل على تذاكر السفر دون وقوف في الصف ، وأن أتمتع بوسائل الراحة والنوم في « قصور الضيافة » وبالطعام في المطاعم المخصصة للموظفين الرسميين ، كما مكنني أيضا من أن أدفع جميع نفقات رحلتي ثم يتوفر لي في النهاية بضعة آلاف من الروبلات . واليكم التفاصيل .

كنت إذا وصلت الى عاصمة من عواصم الاقاليم كمدينة تفليس مثلا أذهب الى « اتحاد الكتاب » المحلي ، حيث أقدم لهم خطاب التوصية ، فيقوم أمين السر بتدبير الولائم والاجتماعات المعتادة مع القادة السياسيين والجيل المثقف في المدينة ، ويعين لي من يدبر لي أموري واحتياجاتي ، ثم يصلني برئيس تحرير المجلة الأدبية المحلية ومدير دار الدولة للنشر — وهي في حالتنا هذه دار الجمهورية الكردية السوفيتية . أما رئيس تحرير المجلة الادبية فيعلن أن أعز أمانيه أن ينشر قصة من قصصي ، فأسلمه نسخة من قصة (نشرت لي في ألمانيا حديثا) ويصل باسمي الى الفندق صك بثلاثة آلاف روبل . وأما مدير دار الدولة للنشر فيطلب الحصول على امتياز نشر ترجمة كردية للكتاب الذي سوف أقوم بتأليفه ، ويطلب إلي التوقيع على صيغة اتفاق مطبوعة ، ويصلني صك آخر بثلاثة آلاف روبل أو أربعة آلاف (كان الأجر الشهري للعامل في المتوسط ١٣٠ روبل) . وهكذا بعت القصة القصيرة ذاتها الى عشرة من المجلات الأدبية المختلفة بين لينينغراد وطشقند كما بعت حقوق نشر الكتاب الذي لم أكتبه بعد بالروسية والألمانية والأكرانية والكردية والأرمنية مقابل ثروة تسلمتها مقدما . ولما كان كل ذلك قد تم بتشجيع من السلطات الرسمية ، ولما كان الكتاب الآخرون يعاملون بهذه الطريقة ، فقد كان في إمكاني أن أقسم من كل قلبي أن الاتحاد السوفيتي هو جنة الكتاب والمؤلفين ، وأن الكاتب أو الفنان المبدع لن يجد في أي مكان آخر مثل هذا الأجر أو مثل هذا التقدير . إن طبيعتي البشرية قد أعمتني

عن الحقيقة فلم يخطر ببالي أن العقود التي دفعتها والنقود التي تسلمتها مقدما لم تمنح لي بسبب سمعتي الأدبية ، بل لأسباب مختلفة تماما ٠

لم اكن في ذلك الوقت قد نشرت كتابا واحدا ، ولا كان اسمي معروفا لدى أحد من الناس الذين دفعوا كل هذه النقود في سبيل قصة لم يقرؤوها وكتاب لم يكتب بعد ، ولكنهم كانوا موظفين حكوميين يتصرفون حسب التعليمات ٠ ان المحررين والناشرين والنقاد الادبيين في دولة تملك حكومتها كل دور النشر يصبحون في الواقع مجرد موظفين حكوميين ، يؤيدون وينتقدون ويكتبون طبقا لما يتلقون من أوامر ، فإذا أرادوا رفع كاتب نشروا له كتبه الجديدة وأعادوا طبع القديمة وسموه تولستوى الجديد ، وإن أرادوا القضاء عليه منعوا نشر كتبه ونعتوه بأحط النعوت ٠

غير أن الكاتب الاجنبي الزائر لا يكاد يعرف من هذه الامور كلها شيئا ، واذا هدته بصيرته الى ان يخمن بعضا منها فإن الغرور المركب في طبيعة البشر سرعان ما يجعله ينسى ، اذ ان القوم الذين يلتقي بهم في الولائم والحفلات يبدو من حديثهم كأنما يحفظون مؤلفاته عن ظهر قلب ، ولا يمكن لعاقل ان يتصور أنهم جميعا لقنوا هذه الاحاديث استعدادا للقاء به ٠ ان « دار النشر الحكومية المركزية » تقدم له عقدا لحساب كتابه المقبل مع مبلغ على هيئة عربون يعطى ربحه على اساس بيع ١٥٠٠٠٠ نسخة ؛ فإذا كان الضيف المبجل شديد الامانة فسوف يذكر لهم بتواضع وخجل أن هذا يساوي أكثر من عشرة أضعاف عدد النسخ التي يقدم العربون على اساسها لمشاهير الكتاب في الغرب ، وحينئذ يذكره المدير مبتسما : ان هذا فعل الناشرين الرأسماليين ، أما في الاتحاد السوفيتي فإن كل مشروعات النشر يمتلكها الشعب ، والمواطن السوفيتي العادي يشتري ٢٣١,٥٧٪ أكثر مما يشتريه الاميركي العادي ، وبعد انتهاء مشروع السنوات الخمس الثاني فإن هذه النسبة سوف

تزيد على ٣٦٥٪ ، فمن الطبيعي إذن أن يعيش الكاتب الذي يكرمه الاتحاد السوفيتي ويعرف له قدره في شقة كاملة من غرفتين ولها مغتسل خاص ،بدل أن يعيش في الغرفة العليا كما يحدث في الدول الرأسمالية، فإذا انزعج الكاتب الزائر من هذه الاشارة ، فانه لايلبث أن يرى في هذا الانزعاج غرورا بورجوازيا تافها ، ويوقع على العقد ، ثم ينطلق الى بلاده حيث يعلن للناس أن الكاتب المبدع لن يجد في أي مكان آخر مثل هذا التقدير والاحترام الخ ٠٠٠ ومع أنه لايستطيع أن يأخذ روبلاته معه ، إذ أنها غير قابلة للتحويل الى نقد أجنبي ، الا أنه يستطيع ان يشتري بها بعض السجاجيد الفاخرة من بخارى ، ثم يترك البقية في بنك الدولة بموسكو ، فإنه مما يسر له الانسان أن يكون له رأس مال في هذه الدولة الاشتراكية التي تشكل سدس العالم ، بل ان في امكان دار النشر الحكومية في الحالات الاستثنائية أن تحول بعض هذا المبلغ الى النقد المحلي للكاتب وترسله اليه على هيئة اقساط شهرية ، ولقد عرفت كاتبين ألمانيين شهيرين ممن لجأوا الى فرنسا ، وقد ظلوا عدة سنوات يتسلمون أقساطا شهرية من هذا النوع ، رغم أن أحدهما لم ينشر له كتاب في روسيا على الاطلاق ٠ لقد كان كلاهما ممن ينتقدون الفساد الديموقراطي بحماس وبراعة ، وما توجه واحد منهما مرة بكلمة نقد للنظام السوفيتي ٠ ولست أعني بهذا أن هذين الكاتبين يتناولان الرشوة ، فلست معنيا هنا بمثل هذا الكيد الرخيص ، وإنما يعنيني تحليل ذلك اللاشعور بصوته الداخلي الخفي الذي يهمس لصاحبه بأن الناشرين في العالم الرأسمالي مصاصو دماء لايهمهم ماتكتبه طالما أن مؤلفاتك تباع ، على حين أن الناشرين في بلاد السوفييت هم الشعب، ومن حقهم ألا يتقبلوا أي انتقاد لبلدهم الحر ٠

إن روسيا حقا جنة الكاتب ، ولكنها جنة من الاشجار المحرمة ، يحرسها ملائكة غلاظ شداد ذوو سيوف حداد ٠

مكثت في الاتحاد السوفيتي سنة كاملة أمضيت نصفها مسافرا متنقلا ، وقضيت النصف الآخر في خاركوف وموسكو أؤلف الكتاب، وقد ظهرت طبعته الالمانية فعلا في خاركوف تحت عنوان آخر ، أما النسخ الروسية والكردية والارمنية الخ ••• فإنها ــ على ماأعلم ــ لم تر الضوء حتى الآن •

لقد قادتني رحلاتي خلال المراكز الصناعية على طول الفولغا ثم باتجاه الشمال خلال اوكرانيا وعبر جمهوريات ما وراء القفقاس (جورجيا وأرمينيا وأذربيجان) الى باكو ، ثم عبر بحر قزوين ، وخلال جمهوريات آسيا الوسطى (تركمانستان وأزبكستان) الى حدود الأفغان ، ثم عن طريق طشقند وعبر كزاكستان الى موسكو مرة ثانية • لقد كان مارأيته وخبرته صدمة ، إلا أنها مؤجلة المفعول بطيئة الاثر ، فإن تربيتي الحزبية كانت قد زودت عقلي بواقيات قوية تمتص الصدمات وبخطوط دفاع مرنة تشكل كل شيء أراه وأسمعه بحيث يأخذ مكانه الملائم في الفكرة العامة دون تعارض أو تناقض •

كنت أتحدث الروسية بطلاقة ، إلا أنني ، رغم أنني كنت أسافر وحدي ، نادرا ماكنت أجد المناسبة لأتحدث مع أحد من غير الموظفين الرسميين ، فإن المواطن الروسي العادي يدرك أن رؤية الناس له وهو يتحدث مع أجنبي أمر خطير كلمس المجذوم • أما من تحدث منهم معي فعلا في المطاعم أو في صالون القطار فقد كانوا يستعملون «الكليشات» المحفوظة التي تستعملها جريدة البرافدا ، حتى ليخطر في بال الانسان أنهم يقرأون من كتاب في أساليب الانشاء الحديث • ولقد كنت ألاحظ هذه المظاهر بالرضى والموافقة ، فقد كانت عندي دليلا طيبا على النظام الثوري والتيقظ البلشفي • ولقد رأيت ماصنعته مجاعة ١٩٣٢ ــ٣٣ بالناس في إقليم أوكرانيا : كنت أرى حشودا من العائلات

في أسمال بالية ممزقة يتسولون على أرصفة محطات القطار ، فالنساء يرفعن الى نوافذ المقاصير أطفالهن وقد هدهم الجوع والهزال ، فأطرافهم هزيلة كمقارع الطبول ، ورؤوسهم كبيرة وبطونهم منتفخة يذكرون المرء بالاجنة قد أخرجت من زجاجات الكحول ؛أما الرجال الكبار فقد كنا نرى أصابع أقدامهم التي أكلها الصقيع وقد برزت من أحذيتهم الممزقة • لقد أخبرت بأن هؤلاء هم الكولاك الذين قاوموا نظام المزارع الجماعية ، فتقبلت ما سمعت ؛ لقد كانوا أعداء للشعب يفضلون التسول على العمل • كذلك أغمي على الفتاة التي كانت ترتب غرفتي في فندق ريجينا بخاركوف بسبب الجوع، وشرح لي المدير أنها قدمت حديثا من الريف ولم تتسلم بطاقة تموينها بعد بسبب بعض العقبات الفنية ، فتلقيت هذه العقبات الفنية بالقبول •

ولم أستطع إلا أن ألاحظ مظاهر التخلف الآسوي ،كمظاهر الخمول والبلادة التي رأيتها عند الجماهير في الطرقات ومحطات القطار والترام ، واحوال الاسكان الفظيعة التي تجعل المدينة الصناعية الكبيرة تبدو كلها كحي من الاحياء الفقيرة (كان الزوجان والثلاثة يعيشون في غرفة واحدة يفصل بينهم حبل من حبال الغسيل ثبتت به قطعة من القماش) ، والطعام الذي توزعه المزارع الجماعية والذي لايكاد يمسك الرمق ، وما علمته من أن ثمن الكيلو غرام الواحد من الزبد في السوق الحرة يوازي الاجر الشهري للعامل العادي ،وأن ثمن زوج من الاحذية يوازي أجر شهرين • إلا أنني كنت قد دربت على ألا أنظر الى هذه الحقائق من ناحية « قيمتها الاسمية » أو الاستاتيكية ، بل على أساس ديناميكي ماركسي • حقا ان مستوى المعيشة منخفض ، إلا أنه كان أشد انخفاضا في عهد القيصرية ، وحقا ان الطبقات العاملة في الدول الاستعمارية أحسن حالا منها في روسيا ، غير أن هذه المقارنة الاستاتيكية لا تصح ،

اذ ان مستوى المعيشة هنا يرتفع بشكل مستمر بينماينخفض هناك بشكل مستمر ايضا ، ولن تنتهي فترة مشروع السنوات الخمس الثانيـة حتى يتساوى المستويان ، وكل مقارنة تتم قبل ذلك الحين تعتبر مضللة وضارة بالروح المعنوية للشعب السوفيتي • وإذن فأنا لم أكتف بأن اعتبرت المجاعة أمرا حتميا لا سبيل الى الخلاص منه ، بل وافقت أيضا على لزوم تحريم دخول الاجانب والصحف والكتب الاجنبية ، وعلى وجوب نشر هـذه الصورة المشوهة المضحكة عن الحياة في العالم الرأسمالي • لقد صدمت في البداية عندما سئلت بعد احدى المحاضرات أسئلة كهذه : « عندما تركت دار النشر البورجوازية ، هل سحبوا منك بطـاقة تموينك وطردوك في الحال من غرفتك ؟ » «ما متوسط عدد اسر الطبقة العاملة الفرنسية التي تموت جوعا ا ــ في المناطق الريفية ب ــ في المدينة ؟ » « ما الوسائل التي مكنت رفاقنا في الغرب من درء الحرب التي يعمل المولون الرأسماليون على اشعـالهـا بمساعـدة الاشتراكيين الفـاشيين أعـداء الطبقـة العاملة ؟ » لقد كانت الاسئلة دائما مصوغة بعناء وعناية حسب الاسلوب الستاليني الجديـد ، ولم ألبث أن وجدتها أسئلة عادية طبيعية ، فقـد كانت دائما تشتمل على قدر ولو ضئيل من الحقيقة ــ كانت هذه الحقيقة طبعا مبالغا فيها كثيرا أو مبسطة حسب مقتضيات الدعاية ومستلزماتهـا الضرورية ، ولكن هل يستطيع الاتحاد السوفيتي أن يحيا دون دعاية وهو المحاط بالاعداء من كل جانب ؟

قد يبدو الكذب والافتراء ، ولو كانا ضروريين ، وارهاب الجماهير وتخويفها لمنعها من الوقوع في الخطأ ، والتصفية الضرورية للجماعات المعارضة والطبقات المعادية ، والتضحية اللازمة بجيل كامل في سبيل الجيل الذي يليه ــ قد يبدو كل ذلك فظيعاً هائلا ، الا ان تقبله يسير على من يسير في درب الايمان ولا يعرف دربا غيره • ولقد وقع مثل هذا في الكنيسة

المسيحية في العصور الوسطى ، وفي بيزنطة ، وفي زوايا الفرق الصوفية السرية ، الا أن الجو العقلي الذي يعيش فيه مدمن المخدرات يصعب كشفه وتوضيحه للغريب الذي عاش بعيدا عن المجال السحري ، ولم يشترك في لعبة كروكي بلد العجائب •

غادرت روسيا في خريف عام ١٩٣٣ ، إلا أنني بقيت في الحزب قريبا من خمسة أعوام أخرى فلم أغادره إلا في ربيع عام ١٩٣٨ • لقد تزعزع إيماني كثيرا بسبب هذه الزيارة ، ولكنني بفضل ما كنت مزودا به من واقيات مرنة تمتص الصدمات لم أشعر بما حدث من تلف وعطب إلا بعد مرور وقت طويل ، وقد ساعدت بعض الأحداث الخارجية والتبريرات الداخلية على بقائي في الحزب وأخرت خروجي منه وانشقاقي عنه •

أما أهم هذه الاحداث فهو المؤتمر السابع للكومنترن في عام ١٩٣٤ الذي تقرر فيه اتباع سياسة جديدة تخالف السياسة القديمة تماما ــ إلا أن القائمين على السياسـة الجديـدة كالمعتاد هـم نفس الاشخاص القائمين على السياسة القديمة • لقد ألغيت بجرة قلم ، طبقا للسياسـة الجديدة ، كل الهتافات الثورية وكل الحديث عن نضال الطبقات أو عن دكتاتورية الطبقة العاملة ، وحل محلها واجهة جديدة كتب عليها « الجبهة الشعبية للسلام وضد الفاشية » ، وأصبح بابها مفتوحا لكل ذوي النيات الطيبة من اشتراكيين وكاثوليكيين ومحافظين ووطنيين ، وبدأنا نعتبر كل قول بأننا كنا مؤيدين للثورة أو للعنف فرية دنيئة يروجها الرجعيون تجار الحروب ، ولم نعد نسمي أنفسنا « بلاشفة » بل ولا شيوعيين (فقـد أصبحت حتى هذه الكلمة تلقى الاستنكار داخل صفوف الحزب) وانما نحن مجرد قوم بسطاء شرفاء محبون للسلام ومعادون للفاشية ومدافعون عن الديموقراطية • وفي يوم الباستيل من عام ١٩٣٥ بحضور جمهور

كبير من النظارة وقف الزعيم الشيوعي القديم مارسيل كاشان يعانق ليون بلوم (الأفعوان الاشتراكي الفاشي كما كنا نسميه) ويقبله في وجنتيه • لقد بكى من هذا المنظر نصف الحاضرين وأنشد النصف الآخر نشيد « المارسيليز » ثم « الانترناسيونال » • وإذن فقد توحدت الطبقة العاملة مرة ثانية • وقد أحرزت الجبهة الشعبية في انتخابات عام ١٩٣٦ في أسبانيا وفرنسا انتصارات رائعة •

كان هذا كله بالطبع نتيجة مباشرة للتغيير في سياسة روسيا الخارجية، ودخولها عصبة الامم ، واشتراكها في مفاوضات للتحالف مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ، وانتصار سياسة لتفينوف • وهنا أيضا يجد الانسان أن ذكرياته عن أيام الجبهة الشعبية يلوثها ويسممها ما اطلع عليه فيما بعد من نفاق مرير يختبىء وراء هذه الواجهة الجميلة ، ومن نتائج أليمة أعقبتها ؛ إلا أن هذه الجبهة الشعبية طالما كانت قائمة كانت ذات جاذبية عاطفية وسر غامض باعتبارها حركة جماهيرية جماعية • لقد كانت بالنسبة إليّ شهر عسل ثان أقضيه مع الحزب •

بينما كنت في روسيا وصل هتلر الى الحكم فانضممت في خريف عام ١٩٣٣ الى رفاقي الشيوعيين في المنفى بباريس ، وقد وجدت هناك في فنادق « الشط الايسر » جميع رفاق الحي الاحمر باستثناء من قبض عليهم الجستابو • وكانت السنوات الخمس التالية بالنسبة الى سنوات من الجوع والمسغبة ، يتخللها نشاط سياسي قلق محموم ، مركزه وقوته الدافعة « ويللي منزنبرغ » رئيس قسم « الاثارة والدعاية » في ألمانيا وغرب أوروبا • كان رجلا قصيرا ممتلئا منشؤه من الطبقة العاملة ، وكان شخصية مغناطيسية فاتنة ذات قوة دافعة هائلة ، وقد انشق عن الكومنترن في عام ١٩٣٨ بعد انشقاقي بستة أشهر ، وقتل في صيف عام ١٩٤٠ في نفس الظروف الغامضة المعتادة حيث لا يعرف القتلة ولا توجد

الا دلائل غير مباشرة تشير كلها الى اتجاه واحد ، كما تشير ابرة المغناطيس الى القطب •

كان ويللي هو الأعجوبة الحمراء للحركة الدولية المعادية للفاشية ، فقد نظم هو « المحاكمات المضادة » للرايخستاغ ــ تلك المحاكمات العلنية التي وقعت في باريس ولندن عام ١٩٣٣ ، وكانت أول شيء نبه الأذهان الى الفظائع التي تحدث في الرايخ الثالث ، ثم جاءت سلسلة « الكتب السمراء » ثم سيل من النشرات والجرائد التي كان يمونها ويوجهها وان لم يظهر اسمه في أي منها • لقد كان يخرج اللجان الدولية والمؤتمرات كما يخرج الساحر الارانب من جرابه ، وأذكر من ذلك لجنة الترفيه عن ضحايا الفاشية ولجان الشرطة الاهلية والادارة الديموقراطية ومؤتمر الشباب الدولي •• الخ • وكان أعضاء هذه المنظمات واللجان من الاسماء اللامعة الشهيرة بين دوقات انكليزيات وصحفيين أميركيين وعلماء افرنسيين لم يسمع معظمهم باسم مونزنبرغ ولا عرفوا عن الكومنترن الا أنه غول اخترعه جوبلز (وزير الدعاية النازي) •

وبعد ذلك التغير في السياسة العامة الذي تقرر في المؤتمر السابع ، وبعد بزوغ فجر « الجبهة الشعبية » أصبحت أعمال ويللي باهرة حقا ؛ فهو الذي نظم اللجنة لاجل السلام وضد الفاشية التي سميت (حركة امستردام ــ بلييل والتي كان يرأسها باربوس ، كما نظم « منظمة الكتاب للدفاع عن الثقافة » و « لجنة البحث في المخالفات المزعومة لاتفاقية عدم التدخل في أسبانيا » وسلسلة أخرى من المنظمات الدولية الموقوتة • لقد كان منزنبرغ عبقرية تنظيمية هائلة ، وداعية موهوبا ، ولم يكن في وسائله يغفل المبادىء الخلقية الا بالقدر الذي يمكنه من أن يعيش بين مؤامرات الكومنترن المسمومة • ولو قدر لتاريخ حياة ويللي منزنبرغ أن يكتب لكان من أعظم الوثائق دلالة على طبيعة فترة ما بين الحربين •

عملت مع ويللي في الأيام الأولى من فترة المنفى ، ثم خلال فترة محاكمات الرايخستاغ وسلسلة « الكتاب الاسمر » ثم خلال الحرب الاسبانية ، وأخيرا عام ١٩٣٨ بعد انشقاقه عن الكومنترن حين أصدرنا سويا جريدة مضادة لستالين وللفاشية تدعى « داي زوكونت » • أما فيما بين هذه الفترات فقد كنت أعمل مراسلا صحفيا حرا ، وأصدرت مجلة هزلية للحزب في فترة استفتاء اقليم السار (لم يلبث الحزب أن أغلقها بعد صدور العدد الاول على أساس أنها ماجنة) • وكذلك عملت في ادارة بليت لأبناء العمال الشيوعيين في ألمانيا ، ثم في وكالة للاخبار يديرها ألكس رادو (الذي أصبح فيما بعد رئيس المخابرات العسكرية السوفيتية في سويسرا ، ثم تخلص منه المسؤولون في روسيا بعد الحرب العالمية الثانية) ، ثم عملت مديرا لمعهد يسمى « معهد الدراسة الفاشية » لمدة سنة محمومة سعيدة ، وان كانت عجفاء لقيت فيها الجوع والمسبغة ، وكان هذا المعهد عبارة عن مكتب للسجلات والبحوث المضادة للفاشية يديره الكومنترن وان كان لا يموله • كانت الفكرة هي خلق مركز للبحوث الجادة في النظام الفاشي الداخلي وعوامله ودوافعه يكون منفصلا عن دعاية منزنبرغ ومشروعاته ، وكان المال يأتينا على هيئة هبات من نقابات العمال الفرنسية ومن الدوائر الفكرية والاكاديمية الفرنسية ، وكنا جميعا نعمل بدون أجر أكثر من عشر ساعات يوميا ؛ ومن حسن الحظ أن مسكننا في ٢٥ شارع بوفون كان معه مطبخ تقدم فيه للموظفين ساعة الظهر وجبة يومية من حساء البازلاء السميك ، فقد كان هذا غذائي الوحيد في معظم الايام • وكنت في ذلك الحين أنام في مخزن للتبن يبعد عن محل العمل كثيرا ، لانه المكان الوحيد الذي أستطيع أن أنام فيه دون أن أدفع إيجارا ، وان كنت اضطر الى السير الى مكتبي بضعة أميال في الذهاب وفي الاياب •

حقا ان العمل مخدر عظيم الأثر ، وخير وسيلة يخدع بها المرء ضميره هي أن يشعر نفسه بأنه يؤدي عملا نافعا صادقا مخلصا للناس لا لنفسه • ان فضائح جهاز ستالين ونظام الكومنترن لا تلبث في زحمة الصراع أن تتضاءل وتتضاءل ، وتصبح الأهمية الاولى لذلك النضال الدائر ضد النازية وضد الحرب المتوعدة ، وما كنت أعلم وقتها أنها كانت معركة ظلال وأشباح ، وكنا نحن فيها الظلال والاشباح •

كان هناك عامل نفسي ثان ساعد على بقائي في الحزب بعد عودتي من روسيا ، وهو ذلك الاعتقاد ، الذي كان يشاركني فيه خيرة أصدقائي ورفاقي الذين تركوا الحزب من أنفسهم أو تخلص الحزب منهم • اننا كنا نضع غمامات على أعيننا الا أننا لم نكن عمياً ، بل لقد كان أشدنا تعصبا لا يملكون الا أن يلاحظوا أن الامور لم تكن على ما يرام ، الا أننا كنا دائما نحدث أنفسنا ونتحدث فيما بيننا بأن الحزب لا يمكن تغييره الا من الداخل ، أما الخارج فذلك مستحيل • ان المرء يستطيع أن يستقيل من أي ناد أو حزب عادي اذا لم ترقه سياسته ؛ الا أن الحزب الشيوعي كان شيئا يختلف عن هذا تمام الاختلاف : لقد كان طليعة الطبقة العاملة وتجسيد ارادة التاريخ ذاته ، فاذا انسحبت خارجا منه فقد أصبحت وراء الاسوار ، ولم يعد لأي شيء تقوله أو تفعله أثر على سيره ؛ واذن فالطريقة الوحيدة السليمة هي أن تبقى في الداخل ، وتغلق فمك ، وتزدرد غضبك ، ثم تنتظر اليوم الذي يهزم فيه العدو وتنتصر فيه الثورة العالمية ، ويصبح من الممكن أن تكون روسيا والكومنترن منظمات ديموقراطية ، وحينئذ فقط يمكن أن نطلب من القادة والزعماء أن يقدموا حسابا عن أعمالهم : عن الهزائم التي كان يمكن تلافيها ، والتضحيات التي ضاعت هدراً ، وعن أمواج الافتراء والتشهير التي هلك في تيارها نخبة رفاقنا • أما قبل ذلك اليوم فعليك أن تقوم بدورك

في اللعب، تؤكدوتنكر ، وتفضحوتتراجع،وتأكل ماتقول،وتلعق ماتقيء • كان هذا هو الثمن الذي يلزم أن تدفعه كي يسمح لك بأن تشعر أنك لا زلت ذا فائدة ، وبهذا تبقي على احترامك لنفسك عن هـذا الطريق المنكوس •

★ ★ ★

في الثامن عشـر من تموز (يوليو) ١٩٣٦ قام الجنرال فرانكو بانقلابه ، فذهبت ومعي جواز سفري المجري للقاء ويللي ، وطلبت اليه أن يعينني في الانضمام الى الجيش الجمهوري الاسباني ، وكان هذا قبل تشكيل الفرق الدولية • ونظر ويللي الى جواز السفر بشرود ، فانه كداعية أصيل لم يكن يتحمس كثيرا لفكرة اشتراك الكتاب في المعارك ، وتضييعهم أوقاتهم في حفـر الخنادق • كان في داخل الجواز بطاقتي الصحفية باعتباري مراسلا باريسيا لجريدة « پستر لويد » • ولم أكن كتبت كلمة واحدة لجريدة « پستر لويد » الا أن كل مهاجر مجـري يحترم نفسه كان مجهزا دائما ببطاقة صـحفية من جريدة من جرائد بودابست لكي يحصل بها من وقت الى آخر على « تذاكر » الدخول المجانية الى المسرح والسينما ، وفجأة رأيت عيني ويللي تلمعان فعلمت أنه قد عرضت له فكرة •

قال مقترحا : « ولم لا تقوم برحلة الى مركز قيادة الجنرال فرانكو من قبل جريدة « پستر لويد » ؟ ان المجر بلد نصف فاشي وســوف يستقبلونك بأذرع مفتوحة » •

ورأيت بدوري أنها فكرة رائعة ، وان كان طريقها لا يخلو مـن عقبات ، أولها : أن جريدة « پستر لويد » لن توافق مطلقا على إرسالي ، ولكن لم يكن من الضروري أن نخبرها بذهابي فليس من المحتمل أن

يشغل أحد نفسه بالتأكد من صحة تفويضي في زحمة الحرب الأهلية • ثانيها : أن المراسلين الاجانب الآخرين قـد يشكون في أن تستطيـع صحيفة مجرية فقيرة ارسال مراسل خاص الى اسبانيا ، غير أنه أمكن التغلب على هذه العقبة أيضا ، فقد كان لدى أصدقاء في جريدة النيوز كرونيكل اللندنية التي لم يكن لديها أمل في أن يكون لها مراسل لدى فرانكو بسبب عداوتها الشديدة له ، وقد وافق محرر الشؤون الخارجية في الجريدة على أن أكون مراسلا خاصا له في حالة وصولي الى القسم الذي يحكمه فرانكو من أسبانيا •

وقد وصلت فعلا عن طريق لشبونة الى اشبيلية ، وكانت يومئذ مقر قيادة الجنرال فرانكو ، الا أن اقامتي فيها كانت قصـيرة ، اذ أنني في اليوم الثاني من وصولي اليها كشف أمري وعرف أنني شيوعي ، ولكنني بفضل الفوضى الضاربة أطنابها استطعت الهرب في اللحظة الاخيرة عن طريق جبل طارق • ورغم قصر الفترة التي قضيتها في البلاد فقد رأيت الطائرات الالمانية والطيارين الالمان في جيش الجنرال فرانكو ، ونشرت هذه الحقائق في جريدة النيوز كرونيكل وفي نشرة خاصة ، فجلبت بذلك على نفسي عداوة خاصة من قبل حكومة فرانكو ، فلما قبضت علي قوات الجنرال فرانكو بعد ذلك بستة أشهر باعتباري مراسلا مصاحبا للجيش الجمهوري ، كان خير ما آمله أن أقتل دون تعذيب •

وقد أمضيت أربعة أشهر في السجون الاسبانية بملقا وأشبيلية في زنزانات منفردة ، وكنت مقتنعا معظم الوقت بأن نصيبي الاعدام ، فلما أفرج عني فجأة في حزيران (يونيو) عام ١٩٣٧ بفضل تدخل الحكومة البريطانيـة ، لم يكن قد أبيض شعري ولا تغيرت ملامحي أو أصبت بنوع من الهوس الديني ، وانما عرفت نوعا جديدا من الحقيقة غـير نظرتي الى الأمور ، وغير القيم التي عرفتها ؛ ولقد تم هذا التغير بشكل

لأشعوري عميق ، حتى لقد عجزت عن ادراكه في الأيام الأولى التي تلت الافراج • كانت المشاعر التي تسببت في وقوع هذا التغير هي الخوف والشفقة وشيء ثالث ليس من السهل أن أصفه • أما الخوف فلم يكن من الموت ، وانما من التعذيب والاذلال ووسائل الموت المنفرة — أعدم غارسيا أتاديل رفيقي في التدريبات البدنيـة بالمختقة بعد الافراج عني بوقت قصير • وأما الشفقة فقد كان مبعثها صغار الفلاحين الاندلسيين الذين كنت أسمعهم يبكون وينادون أمهاتهم بينما يساقون في الليـل لمواجهة فرقة الاعدام • أما الاحساس الآخر فقد كان عبارة عن حالة عقلية ونفسية لا يستطيع أن يصفها الا أهل التصوف ، وهي حالة كانت تعاودني على غير انتظار ، وتدخل على حالة من السلام الداخلي لم أكن عرفتها من قبل ، ولا أنا عرفتها من بعد •

ان الدرس الذي يتعلمه الانسان من خبرة كهذه لا يكاد الانسـان يضعه في كلمات حتى يبدو أمرا عاديا • لقد تعلمت أن الانسـان هو الحقيقة ، أما الانسانية فتجريد ، وأن الناس لا يمكن أن يعاملوا على أنهم وحدات في عملية حساب سياسية ، لأنهم يتصرفون كرموز الصفر واللانهائي التي تعطل كل العمليات الرياضية ، وأن الغاية لا تبرر الواسطة الا في حدود ضيقة الى أبعد الحدود ، وأن علم الاخلاق ليس شيئا تابعا للمنفعة الاجتماعية ، وأن البر ليس عاطفة بورجوازية تافهـة ، بل هو القوة الجاذبة التي تمسك المدنية في مدارها • لقد كان كل ما تعلمتـه يتناقض مع العقيدة الشيوعية التي آمنت بها •

★ ★ ★

لو كانت هذه القصة من تأليف كاتب قصصي لوجب أن تصل الآن الى ختامها ، اذ نرى بطل القصة ، بعد أن يعاني تحولا نفسيا وروحيا ، يودع رفاقه بالأمس ، ثم يمضي في سبيله ، وعلى وجهه ابتسامة هادئة •

غير أنني ما كنت أعلم حين أفرج عني أنني لم أعد شيوعيا ؛ بل لقد كان أول شيء فعلته بعد وصولي الى الحدود عند جبل طارق أن أرسلت برقية الى الحزب في أولها هذا البيت من شيللر « اني أعانقك ، أيتهـا الملايين » ، والأعجب من ذلك أنني أضفت قولي « لقد شفيت من كل آلام المعدة » ، وكانت عبارة « آلام المعدة » هي الكلمة التي نعبر بها عن شكوكنا وملاحظاتنا حول سياسة الحزب •

الا أن هذه كانت فترة قصيرة تشبه صحوة الموت ، فقد قضيت مع بعض الاصدقاء في انكلترا ثلاثة أشهر هادئة أؤلف فيها كتابا عن أسبانيا ، ثم قمت برحلة قصيرة في الشرق الاوسط لحساب جريدة النيوزكرونيكل ، وهي رحلة لم يكن فيها مجال للاحتكاك مع الحزب ، وبعدئذ بدأ الصراع والاحتكاك الذي لم يكن أبدا دراماتيكيا أو عنيفا • قمت بجولة لالقاء المحاضرات في أنحـاء انكلترا لحساب « نادي الكتاب اليساري » ، وكنت كلما سألني سائل ، في هـذه الجموع التي يشكل الشيوعيون أغلبيتها العظمى ، عن تفاصيل النشاط الغادر لذوي الميول التروتسكية في أسبانيا — وكان الحزب يتهمهم بأنهم « عملاء فرانكو » — أجبتـه بأن سياستهم الانشقاقية قد تكون ضارة بالقضية ، الا أنهم بدون شك ليسوا خونة • والمدهش أن الأمر مضى بسلام ، اذ يبدو أن الحزب الشيوعي البريطاني متهاون الى أقصى الحدود في التبليغ عن الانحرافات الى الجهات المسؤولة •

ثم علمت أن صهري واثنين من أعز أصدقائي قد قبض عليهم في حركة التطهير الجماعي في روسيا • أما صهري الدكتور ارنست آشر فقد كان يعمل طبيبا في أحد مستشفيات الحكومة بجمهورية الفولغا الألمانيـة ، ورغم أنه كان عضوا في الحزب الشيوعي الالماني الا أنه كان ساذجا في الامور السياسية ولا يشغل نفسه بها • وكانت الاتهامات التي وجهت

ضده ، كما علمت فيما بعد ، أنه مخرب يحقن مرضاه بجراثيم الزهري [1] ، وأنه يوهن عزيمة الشعب بادعائه أن الامراض التناسلية غير قابلة للعلاج ، وأنه ، طبعا ، عميل لجهة أجنبية . ومن ذلك الحين ، أي منذ اثنتي عشرة سنة ، ولم نسمع عنه شيئا .

أما الصديقان الآخران فهما أليكس ويسبرغ وزوجته إيفا ، ويلزمني أن أقص قصتهما بشيء من التفصيل لأسباب سوف تظهر فيما بعد . كان إليكس يعمل كعالم طبيعي في « معهد أوكرانيا للعلوم الطبيعية والتطبيقية » وكنت على معرفة به وبزوجته منذ زمن طويل ، كما كنت قد قضيت فترة اقامتي في خاركوف في بيتهم ، ولما غادرت روسيا في عام ١٩٣٣ صحبني إليكس الى القطار ، وكان آخر ما سمعته منه : « ارفع لواء الاتحاد السوفيتي عاليا مهما حدث » . وفي عام ١٩٣٧ قبض عليه ، كما علمت بعد ذلك بزمن طويل ، بتهمة استئجار عشرين من قطاع الطريق ليكمنوا لستالين وكاجانوفتش عند رحلة صيدهما الثانية في القوقاز ، ورفض آن يوقع على اعتراف بذلك ، فمكث ثلاث سنوات في مختلف السجون ، ثم سلمته الشرطة الروسية الى الجستابو بعد ميثاق ريبنتروب ـ مولوتوف في عام ١٩٤٠ مع مائة آخرين من الشيوعيين النمساويين والالمان والمجريين (من بينهم زوجة الزعيم الشيوعي الالماني هاينز نيومان وزوجة أخ ويللي منزنبرغ والعالم الطبيعي فيسل هوترمانز) ، الا أنه استطاع رغم ذلك أن يبقى على وجه الحياة واشترك في ثورة وارسو ، وقد ألف كتابا سوف يصدر بالانكليزية قريبا .

أما إيفا زوجة أليكس فقد كانت تصنع الخزف ، وقد قبض عليها قبل زوجها بعام واتهمت في أول الامر بأنها أدخلت رسم الصليب المعقوف في

(١) كانت التهمة الموجهة الى جاكودا (الرئيس السابق لهيئة الشرطة الروسية) وثلاثة من الاطباء انهم سموا مكسيم غوركي بدخان الزئبق .

نماذج فناجين الشاي التي وضعت تصميمها لانتاج الجملة ، ثم اتهمت بأنها أخفت تحت سريرها مسدسين لاستعمالهما في قتل ستالين في المؤتمر التالي للحزب . وقد قضت ثمانية عشر شهرا في معتقل لوبيانكا ، حيث حاولت الشرطة الروسية أن تدفعها الى الاعتراف والتوبة ، استعداداً لمحاكمات بوخارين الصورية ، فقطعت شريانها ، ولكنها أنقذت ، ولم تلبث أن أفرج عنها بفضل المجهودات الهائلة التي بذلها قنصل النمسا في موسكو الذي كان على معرفة بوالدتها .

لقد التقيت بإيفا بعد أن أفرج عنها وأبعدت عن روسيا ، في ربيع عام ١٩٣٨ ، وقد أمدني حديثها عما مر بها من خبرات في سجون روسيا ، وخاصة حديثها عن الوسائل التي تتبعها الشرطة الروسية للحصول على اعترافات ضحاياها ، أمدني ذلك بالمادة التي اعتمدت عليها في تأليف جزء كبير من كتاب « ظلام في الظهيرة » [1] . وقد وعدت إيفا بأن أفعل ما في استطاعتي لانقاذ زوجها اليكس الذي كان العلامة البرت اينشتين قد تدخل من قبل لصالحه ؛ وقد أعددت برقية بعناية فائقة وأرسلت بها الى ستالين بعد أن حصلت على توقيعات ثلاثة من الحاصلين على جائزة نوبل في الطبيعيات هم پيرين ولانجفين وجوليوت ـ كوري ، وكانت البرقية ، التي أرسلنا نسخة منها الى النائب العام للدولة فيشينسكي ، ترجو أن تعلن على الملأ الاتهامات الموجهة الى ويسبرغ ، وأن يحظى بمحاكمة علنية . ومن الاشياء التي لها دلالتها أن لانجفين وجوليوت ـ كوري رغم أن كلا منهما كان من المؤيدين للاتحاد السوفيتي ، بل وأصبحا فيما بعد عضوين في الحزب ، الا أن ثقتهما في العدالة السوفيتية لم تكن كبيرة ، لأنهما سلما ببراءة أليكس دون جدال رغم أنهما ما كانا قد سمعا به من

(١) هي قصة ظهرت للمؤلف وترجمت الى اللغة العربية بعنوان « ظلام في النهار » (المترجم)

قبل ، ورغم أن معرفتهما بي كانت معرفة عابرة • وقد وقع على البرقية أيضا بولاني في مانشستر ، وكان العالم الطبيعي الوحيد الذي طلبت اليه التوقيع فرفض هو الاستاذ بلاكيت ، وهذا أمر أذكره لأن بلاكيت صنع كل ما في وسعه لانقاذ مساعده السابق هوترمانز صديق ديسبرغ العزيز، ولعله خشي أن توقيعه على احتجاجين قد يضيع عليه فرصة انقاذ ضحية من ضحايا قبضة « الوطن الاشتراكي » القاتلة •

ان المغزى وراء هذه القصة هو أن جوليوت — كوري وبلاكيت وبقية علمائنا الماركسيين لا يستطيعون أن يدعوا الجهل بما يدور في روسيا ، فانهم يعرفون بالتفصيل قصة اثنين على الأقل من زملائهم ، وكل منهما جندي مخلص للاتحاد السوفيتي ، قبض عليهما بتهم مضحكة، ومكثوا في السجون سنوات دون محاكمة ، ثم سلموا في النهاية الى الجستابو • وهم يعرفون أيضا أن هاتين الحادثتين ليستا استثنائيتين ، بل انهم يستطيعون اذا شاءوا أن يطلعوا على مئات من أمثالها وقعت في الأوساط العلمية الروسية • ومثل هذا القول يصدق أيضا على الشيوعيين أو المؤيدين للشيوعية سواء كانوا كتابا أم صحفيين أم من رجال الفكر الآخرين • ان كل واحد منا يعرف على الاقل صديقا له هلك في معسكرات السخرة في شبه القارة القطبية ، أو أعدم على أنه جاسوس ، أو اختفى ولم يترك وراءه أثرا • لكم كانت أصواتنا تهدر بالاستنكار الحق ، ونحن نتحدث عن الخلل والنقص في سير العدالة في ديموقراطياتنا الهانئة؛ ولكم خمدت هذه الاصوات وسكنت ونحن نرى رفاقنا يقضى عليهم دون محاكمة أو حكم في السدس الاشتراكي من العالم • ان كلامنا يحمل هيكلا عظيما في خزانة ضميره ؛ ولو ضم مافي خزاناتنا الى بعضه لتكونت منها دهاليز من العظام يضل فيها المرء أكثر مما يضل في سراديب الأموات في باريس •

إنه لم يحدث في أي وقت من الاوقات ولا في أية دولة من الدول أن قتل أو استعبد مثل هذا العدد الذي رأيناه في روسيا السوفيتية • وان منظر هذا الخداع البهلواني لأنفسنا والذي يفعله رجال ذووا ذكاء ونيات طيبة ، ليبدو لي ، أنا الذي بقيت سبع سنوات اختلق المعاذير لكل سخافة وكل جريمة ترتكب تحت اللواء الماركسي ، أشد ايلاما للنفس وتثبيطا للعزم من البربرية والوحشية التي يرتكبها البسطاء من الناس •

في الايام التي علمت فيها باعتقال أليكس ، هرب أحد الرفاق الى باريس من ألمانيا بعد أن قضى مدة خمس سنوات من الاشغال الشاقة في سجونها ، وكان قبل القبض عليه يعمل في أحد فروع « الجهاز » ، فلما خرج من سجنه وجد أن زعماء « الجهاز » قد أقصوا على أساس أنهم جواسيس ، ثم وجد صديقي نفسه وزوجته يشهر بهما ويتهمان بأنهما عملاء للجستابو ، وتنشر صورهما في صحف الحزب ومعها التحذير من أي تعامل معهما ، دون ان توجه اليهما تهم معينة ودون أن يمنحا فرصة للدفاع عن أنفسهما • كنت من قبل اذا سمعت أمثال هذه الامور، أنفض آثارها عن كاهلي واستمر في طريقي ؛ أما اليوم فقد أصبح أمر هذين الفردين أهم عندي من القضية التي باسمها يضحى بهما ، ولذلك وقفت الى جانبهما •(١)

ولم يتخذ الحزب ضدي اجراءات معينة ، اذ أنهم كانوا يستغلون اسمي في الفترة التي قضيتها في السجن لأغراض دعايتهم ويتحدثون عني كشهيد من شهداء الفاشية ، فلم يكن بد من مرور بعض الوقت قبل أن يتمكنوا من الحديث عني كعميل لفرانكو أو الميكادو •

وأخيرا جاءت النهاية بطريقة هادئة سهلة • كان مطلوبا مني في ربيع عام

---

(١) انهما يعيشان الآن في احدى المستعمرات البريطانية تحت أسماء مستعارة ، وأذكر بهذه المناسبة أن الفتاة هي التي اكتشفها الجستابو بسبب استعمالها كلمة « محكم » .

١٩٣٨ أن ألقي محاضرة عن اسبانيا في « جمعية الكتاب المهاجرين الالمانية » في باريس ، فجاء قبل المحاضرة مندوب عن الحزب ، وطلب مني أن أضمن محاضرتي هجوما على ذوي الميول التروتسكية في اسبانيا ، فلما رفضت ذلك هز كتفيه استخفافا ، ثم تساءل عما اذا كان يناسبني أن استعرض معه نص المحاضرة للتباحث في شأنها ، فرفضت . وأقيم الحفل في صالة « جمعية الصناعات الفرنسية » بحضور مائتين أو ثلاثمائة من رجال الفكر المهاجرين ، نصفهم من الشيوعيين . وكنت أعلم أن هذا آخر حديث عام لي باعتباري عضوا في الحزب ، وكان موضوع المحاضرة عن الاوضاع في أسبانيا ، وما كانت تتضمن أي هجوم أو نقد للحزب أو لروسيا ، ولكنها تضمنت عبارات ثلاثة اخترتها عن عمد ، لعلمي أنها تعتبر بالنسبة للرجل العادي شيئا بديهيا لاجديد فيه وان كانت بالنسبة الى الشيوعي بمثابة اعلان للحرب . أما العبارة الاولى فهي : « ليس لأية حركة أو حزب أو فرد أن يدعي العصمة » ، واما الثانية فهي : « ان اضطهاد الصديق الذي يسلك الى هدفكما المشترك طريقا غير طريقك لا يقل حماقة عن استرضاء العدو ومهادنته » ، وأما العبارة الثالثة فهي مقتبسة من توماس ثان : « لحقيقة ضارة خير من كذبه نافعة » .

وكان هذا فصل الخطاب . ولما انتهيت من محاضرتي صفق غير الشيوعيين من المستمعين ، على حين جلس الشيوعيون في صمت ووجوم ، وقد عقد أكثرهم ذراعيه فوق صدره ، ولم يكن هذا السلوك منهم استجابة لأمر صدر إليهم ، بل كان رد فعل تلقائيا على هذه العبارات التي يراها غيرهم بديهيات . إن من يقول مثل هذا الكلام أمام جمهور من الشيوعيين كمن يقول أمام جمهور من النازيين « إن كل الناس قد ولدوا متساويين مهما كانت أجناسهم أو عقائدهم » .

وبعد ذلك ببضعة أيام أرسلت إليَّ اللجنة المركزية للحزب خطاب استقالتي .

★ ★ ★

لعل هذا الوضع أيضا مما يناسب أن تنتهي عنده القصة ، غير أن المسألة قد بقيت لها ذيول . لقد كان خطابي وداعا للحزب الشيوعي الالماني وللكومنترن ولنظام ستالين وحكومته ، إلا أنه انتهى باعلان الولاء للاتحاد السوفيتي . لقد أوضحت في الخطاب معارضتي لنظام الحكومة ، وللاستبداد الذي يزداد وينمو نمو السرطان ، وللاعتداء على الحريات المدنية وانتهاكها ، إلا أنني أعلنت إيماني بأن الاسس التي قامت عليها « دولة العمال والفلاحين » قد بقيت ثابتة راسخة ، وأن تأميم وسائل الانتاج هو الضمان بأن هذه الدولة ستعود في النهاية الى طريق الاشتراكية الصحيحة ، وأن الاتحاد السوفيتي لا يزال رغم كل شيء « يمثل أملنا الأخير وأملنا الوحيد على ظهر هذا الكوكب الذي يسرع اليه الفساد » .

إذن فقد كان الحبل الذي تعلقنا به طويلا قد انقطع وتلقفتني من تحته « شبكة الأمان » ، فلما استقر بي المقام في الشبكة وجدتني في صحبة مختلطة — شيوعيون قدامى فقدوا اتزانهم « المنطقي الجدلي » ، وتروتسكيون ، ومؤيدون ولكن يستنكرون ما يقع من أخطاء ، وجمهوريون محدثون ... الى آخرماهنالك — كلهم قد استلقوا داخل الشبكة في أوضاع مختلفة . لقد كنا جميعا معلقين في أرض حرام نلقى العناء الشديد ، الا أننا على الاقل لم نكن وصلنا الى القاع . ولقد بقيت في هذا الوضع المعلق الى اليوم الذي رفع فيه الصليب

المعقوف على مطار موسكو تكريما لريبنتروب ، ورفع الجيش الأحمر عقيرته بالإنشاد لدى وصوله الى المطار ؛ لقد كانت هذه هي النهاية الحقيقية ؛ ومنذ ذلك الحين لم يعد يهمني أن يسميني حلفاء هتلر عدوا للثورة .

وليس يعنيني هنا أن أفضح « أكذوبة الأسس الراسخة » أي الاعتقاد بأن السياسة الاقتصادية الرأسمالية لأية دولة لا بد وأن تقود الى نظام اشتراكي ، فقد تحدثت عن ذلك في أماكن أخرى [1] ، وما تحدثت عن هذه الخاتمة لأيامي الحزبية ، وعن تمسكي بآخر خيط من هذا الوهم البالي ، الا لأن هذا الموقف نموذج للجبن العقلي الذي لا يزال مسيطرا على اليساريين . ان الإدمان والانعكاف على الأسطورة السوفيتية مرض متشبث وعصي على العلاج كأي إدمان آخر ، ولايكاد الانسان يهبط من الفردوس حتى يعاوده الإغراء بأن يتذوق منها ولو نقطة واحدة ، ولو كانت مغشوشة بالماء وتباع تحت اسم آخر ؛ ولن يعدم الإنسان أن يجد في سوق الكومنترن السوداء عددا من الأسماء والعناوين الجديدة للمبادىء القديمة . إن الكومنترن يتاجر في العناوين والشعارات كما يتاجر مروجو الخمور الممنوعة في أنواعها الزائفة المقلدة ؛ وكلما كان العميل أقرب الى السذاجة ، كلما سهل عليه أن يصبح ضحية لأنواع الخمور الفكرية التي تباع تحن عناوين « السلام » و « الديموقراطية » و « التقدم » وما شئت من هذه الأسماء .

لقد خدمت الحزب الشيوعي سبع سنوات ، وهي نفس المدة التي قضاها « يعقوب » يرعى غنم « لابان » لكي يحظى بابنته

(1) كتاب : الفقير الهندي ورئيس الادارة .

« راشيل » ، فلما انقضت المدة سيقت العروس الى خيمته المعتمة ؛ ولم يكتشف الا في صباح اليوم التالي أنه قد أضاع كل حرارته وشوقه ، لا على محبوبته « راشيل » ، بل على اختها القبيحة « لياه » .

وإني لأتساءل هل استطاع يعقوب أن يفيق من هذه الصدمة ؟ صدمة قضائه الليلة مع وهم من الأهام ؟ وهل كان فيما بعد يصدق بأن هذا الوهم كان بالنسبة اليه في وقت من الأوقات حقيقة . واني لأتساءل أيضا هل تتكرر النهاية السعيدة التي انتهت بها الأسطورة ؟ ؛ فإن يعقوب أعطى « راشيل » فعلا بعد خدمة سبع سنوات أخرى ، وأصبح الوهم حقيقة .

لقد بدت السنوات السبع الأخيرة بالنسبة إليه أياما لعظم الحب الذي كان يكنه لها .

اكنازيو سيلوني

نبذة عن حياته :

ولد اكنازيو سيلوني في شهر مايس ١٩٠٠ ، في قرية من قرى اقليم « أبروزي ابناين » . وكان أبوه من صغار الملاك ، وأمه حائكة ، وخلال الحرب العالمية الأولى ، حين كان لا يزال في السابعة عشرة ، عين سكرتيرا (كاتم سر) لعمال الأراضي في اقليم أبروزي ، ثم قدم للمحاكمة لتنظيمه مظاهرة عنيفة ضد الحرب . وفي عام ١٩٢١ شارك في تأسيس الحزب الشيوعي في ايطاليا ، وكان يحرر مجلة آفانجارديا الاسبوعية في روما ، وجريدة لافوراتور اليومية في تريستا . ولقد بقي في ايطاليا حتى فيما بعد صدور « القوانين الخاصة » التي كانت موجهة ضد أعداء الفاشية ، يقوم باصدار صحف ممنوعة ، وفي عام ١٩٣٠ ، بعد أن كان قد سجن ثم طرد من دول أوروبية متعددة ، استقر في سويسرا حيث بقي الى عام ١٩٤٤ عندما عاد الى ايطاليا مرة أخرى . كان قد ترك الحزب الشيوعي في عام ١٩٣٠ وبعد ذلك بعشر سنوات أي عام ١٩٤٠ قبل رئاسة القسم الأجنبي بالحزب الاشتراكي الايطالي ، وهنالك أوجد فكرة « الجبهة الثالثة » .

مؤلفاته : فونتا مارا (قصة) ١٩٣٠ – الخبز والخمر (قصة) ١٩٣٧ – مدرسة الدكتاتورية (محاورات) ١٩٣٨ – البذرة تحت الجليد (قصة) ١٩٤٠ – لقد أخفى نفسه (تمثيلية) ١٩٤٤ .

في مســاء ذلك اليوم من نوفمبر (تشرين الثــاني) بعد صدور « القوانين الخاصة » مباشرة ، أفلت بعضنا من الاعتقال بالالتجاء الى « ڤيلا » صغيرة في ضاحية من ضواحي ميلان ، كان قد استأجرها منذ عهد قريب أحد الرفاق بزعم أنه رسام . وكانت الشوارع في ذلك العهد في أحياء العمال مهجورة ، والحانات مغلقة وساكنة ، والبيوت في ظلام ، مما كان يعطي هذا الوقت البارد الرطب من العــام جوا من الكآبة ، وكانت الشرطة تقوم بسلسلة من الغارات على المساكن المشتبه في أمرها ، وكأنها كانت معسكرات للأعداء ، وكان عدد المقبوض عليهم كبيراً جداً ، ويزداد يوما بعد يوم كلما توصلت الشرطة الى أسماء وعناوين جديدة ، سواء نتيجة لهذه الغارات ، أو لوشاية الجواسيس وأعوانهم ، أو نتيجة للاعترافات التي كانت تأتي من بعض المقبوض عليهم ممن لم يحتملوا قسوة التهديد والتعذيب .

وكان مثل ذلك يحدث في المدن والأقاليم الأخرى . وقد أُمرت الجرائد التي كان لا يزال في استطاعتها الصدور (جرائد المعــارضة الصريحة كانت قد عطلت في ذلك الحين) ألا تذكر شيئا عن هــذه الاعتقالات ، وأن تسرد عرضا عن ذلك ما كان يعبر عنه بعض ممثلي الحرية والديموقراطية البارزين من إعجاب بالدكتاتورية الايطالية ، الا أن التقارير المبنية على المعلومات التي كان يجمعها رسل الحزب وناقلوا الأخبار من ممثلينا المحليين في المناطق الهــامة ، وتجلب الى المكاتب السرية المركزية ، لم تكن تدع مجالا للشك في أن الدكتاتورية تنوي أن تستأصل كل أثر للمعارضة . ولم تكن جماعة من الجماعات تمتلك أي تنظيم سري له قيمته سوى الحزب الشيوعي ، ولكن الشرطــة استطاعت في كثير من الأقاليم عن طريق غاراتها العديدة ، ودون أن تعلم بذلك أحيانا ، أن تحطم شبكة اتصالاتنا ، فكان يأتينا عدد من الرفاق الذين

أفلتوا من الاعتقال ، يطلبون منا أن نؤويهم في مدينة غير التي هربوا منها ، وأن نزودهم بوثائق زائفة تعينهم على أن يرحلوا ويبدأوا نشاطهم من جديد .

فأما من كان منا يحيا من قبل تحت أسماء مستعارة ، ويخفي نشاطه غير المشروع تحت ستار عمل عادي بريء ، فقد كانوا الآن في وضع أفضل بكثير ، ولكننا مع ذلك لم نكن آمنين تماما ، إذ أن أية خيانة أو إهمال من جانب أحد المقبوض عليهم يمكن في أي وقت أن تجعل الدليل في أيدي الشرطة ، وأن تضع أقدامهم على آثارنا . وهكذا وصلني أنا أيضا في ذلك المساء من تشرين الثاني إنذار مفاجيء بألا أعود الى البيت ، إذ يبدو أن الشرطة كانت تراقبه ، ووجدت أنا وبعض الرفاق ممن كان في مثل موقفي مأوى مؤقتا في الفيلا الريفية التي كان قد استأجرها صديقنا الرسام الزائف ، وبعد أن وضعنا رجلا للحراسة قريبا من المكان ، وأعددنا ما يمكن أن نصنع في حالة هجوم الشرطة المفاجيء ، تهيأنا للنوم على المقاعد ، اذ لم يكن في هذه الفيلا الصغيرة سوى سرير واحد . كان معنا فيما عدا الرسام الزائف وزوجته سائح اسباني زائف ، وطبيب أسنان زائف ، ومهندس زائف ، وفتاة ألمانية وطالب زائف . كنا قد عرفنا بعضنا منذ سنتين تقريبا ، الا أن علاقاتنا حتى ذلك الحين كانت مقتصرة تماما على المشاركة في العمل في فروع منظمتنا غير المشروعة ، ولم نكن قد وجدنا الوقت أو المناسبة لكي نصبح أصدقاء ، وكان أقصى مايعرفه الواحد منا عن الآخر هو أصله العائلي ومركزه الاجتماعي ، لما لهذه الأمور من أثر وانعكاس في أوضاعنا المعقدة وحياتنا الخارجة على القانون . لماذا اذن ترك هذا اللقاء العابر في ذلك المساء من شهر تشرين الثاني مثل هذا الأثر العميق في ذاكرتي ؟

الذي حدث هو أن الطبيب قال ملاحظا :

ـ لقد مررت بمسرح « لاسكالا » هذا المساء ، ووجدت جمهورا ضخما من الناس واقفا في صفوف لحجز بطاقات الدخول للحفلة الموسيقية التالية ، ووقفت هنيهة أراقبهم ، فانتابني شعور بأن هذا موكب مجانين .

فتساءل السائح الاسباني : ولماذا تراهم مجانين ؟ أفي رأيك أن الموسيقى جنون ؟

قال الطبيب : أما في الأحوال العادية فلا ، ولكن كيف يستطيع الناس أن يتسلوا بالموسيقى في مثل هذه الظروف ؟ انهم ولا بد مجانين حقا .

فقال السائح الاسباني ملاحظا : ان الموسيقى ليست دائما مجرد تسلية .

وهنا أضاف الرسام قائلا : لو أمكن لمجانين الموسيقى هؤلاء أن يطلعوا علينا وعلى ما نصنع لاعتبرونا بدورهم مجانين ، وليس من السهل أن يكتشف الإنسان من هم المجانين حقا ، فهذا من أصعب العلوم وأشق الأمور .

ولم يرق للطبيب هذا التحول في المناقشة ، فقال بعنف : إن الإنسان لا يستطيع أن يخاطر بحياته وحريته كما نصنع نحن الآن ثم يناقش الأمر ويفلسفه وكأن هذا الصراع لا يمسه ولا يعنيه .

أجاب الرسام : يمكنك أن تلقي بنفسك في الصراع ، وتضرب معارضيك بيديك ورجليك كما تشاء ، ولكنه ليس من الضروري أن تنطحه برأسك ، أليس من الأفضل أن تدخر الرأس لاستعمالات أخرى ؟

فتساءل السائح الأسباني : أليس صراعنا صراع أفكار ومبادىء ؟ أولا يتضمن ذلك رأسك أيضا ؟

فأجاب الرسام مبتسما : بلى إنه يتضمن رأسي طبعا ، ولكنه لا يتضمن عيني ، بمعنى أنني أفضل أن أظل أنظر إلى الأمور بعيني أنا .

فقال الطبيب : إنني لست أفهمك ، ولست أدري لماذا تخاطر إذن ببقائك معنا هنا إن لم يكن من أجل العقيدة . إن العمل القليل الذي تؤديه يبدو لي غير متناسب مع الخطر العظيم الذي تتعرض له .

ثم تلت ذلك فترة سكوت حائرة ، وكنا نستطيع أن نرى خلال النافذة ثلاث سيارات مليئة برجال الميليشيا [1] تمر فوق الطريق الرئيسية . وأخيرا قامت مضيفتنا وأغلقت مصراعي النافذة ، ثم قدمت إلينا بعض القهوة اللذيذة .

وهنا أراد السائح الأسباني أن يعيد الوفاق الى المجموعة فقال :

ـ في عصرنا هذا جميع الطرق تؤدي الى الشيوعية ، إلا أنه لا يمكننا أن نكون جميعا شيوعيين بنفس الطريقة .

فقال الرسام يوضح مقصوده : إنني قد وقفت حياتي ورهنتها على ثورة الطبقة العاملة ، فإن كنت لم أرهن عيني أيضا فلأني أحب أن احتفظ لنفسي بحق مراقبة ما يجري لحياتي ، وإن كانت حياتي ذاتها مرهونة فعلا . ولكي أزيد الأمر وضوحا أقول إن زميلة لي في الدراسة قد أصبحت راهبة ، أي أنها ـ بنفس الطريقة التي اتبعتُها ـ قد رهنت حياتها في سبيل الجنة ، أعني جنة السماء ، حتى لا يختلط الأمر بجنتنا الأرضية . وأستطيع أن أؤكد لكم أنني لن أسحب رهاني ، ولن أنكل

(١) نوع من الجيش المرابط أو الحرس الوطني (المترجم) .

عن العهد ، ولماذا أفعل ؟ إنه ليس لأحد الحق في أن يتشكك في مروءتي .

فقال الطبيب معلقا بشيء من العنف : ولكن ثورة الطبقة العاملة ليست لعبة من ألعاب الحظ .

قال الرسام : أنا أعلم تماما أن النصر في هذه اللعبة لا يعتمد على الحظ ، ولكن على قوة اللاعبين ومهارتهم وعلى كل شيء آخر مما نقرأ في دراساتنا الحزبية ، ولهذا أقوم بدوري لا كمقامر فقط ، ولكن أيضا كلاعب قد اندمج في اللعبة تماما ورهن نفسه كلها ، كلها كما أقول فيما عدا العينين .

فقال الطبيب :لا زلت غير قادر على أن أفهم .

فاستطرد الرسام : أي أنني ، بالاختصار ، أرفض أن أعصب عيني . لسوف أقوم بكل مهمة يطلب إليّ أداؤها ، ولكن بعينين مفتحتين .

فقال السائح الأسباني بدوره : حسنا ، ولكنني لا أدري ما اذا كان يهمك حقا ما تقامر عليه ، فاسمح لي أن أسأل ، ألم يكن من الممكن في ظروف أخرى أن تقامر على شيء آخر يختلف عن هذا تماما كالحرب مثلا أو استكشاف القطب الشمالي أو العناية بالمجذومين أو تجارة الرقيق الأبيض أو تزييف العقود ؟

فأجاب الآخر ضاحكا : ولم لا ؟ على أنني في كل هذه المهن المحتملة كنت بالتأكيد سأحاول أن أبقي عيني مفتوحتين ، أي أحاول دائما أن أفهم .

قالت الفتاة الألمانية معترضة : إن الانسان يولد شيوعيا .

فقال الرسام معلقا : ولكنه ينمو ويصير رجلا .

وهنا سأل الطبيب : حسنا ، هل تستطيع أن تحدثنا عن الظروف التي جعلتك تقف حياتك على الشيوعية ؟

قال الرسام بجد : هـذه قصة طويلة وسوف يكون بعضها – بصراحة – غير معقول لديكم .

قالت الفتاة الألمانية بإصرار : نريد أن نسمع قصتك الطويلة غير المعقولة ، وسوف نشرب القهوة ونظل مستيقظين حتى ننتهي من سماعها .

فتساءل الرسام مبتسما : وهل تحدثونا بقصصكم أيضا ؟

فقال الطبيب : اتفقنا وسوف نبقى صاحين نشرب القهوة .

فقال الرسام محذرا : فكروا في الأمر بجد قبل أن تبدأوا ، فقد يكون من الخطر أن تنظروا إلى الوراء ، ولعله من الخطر بالنسبة لكل انسان في زحمة الصراع أن يسأل نفسه ، لم ؟ ولماذا ؟ ثم ينظر الى الوراء ، إن اللعبة تكون في بعض الأحيان قد بدأت ولا يمكن إيقافها ، فهل يمكن أن يدع الإنسان الرقص والرقصة دائرة ؟

قال السائح الأسباني : ولكن هل يستطيع الإنسان أن يفصل بين المعركة وبين الدوافع التي دفعته إليها ؟ وهل من الخطورة أن يذكّر الانسان نفسه بالدوافع التي جعلته شيوعيا ؟

قالت الفتاة الألمانية : إن الليل طويل . دعنا نحكي قصصنا غير المعقولة . سوف نشرب القهوة لنظل مستيقظين .

وهكذا قضينا تلك الليلة نحاول أن نوضح لأنفسنا الأسباب التي جعلت منا شيوعيين ، ولم يكن هذا التوضيح مستوعبا ولا كاملا ، إلا أننا قبل أن يصبح الصباح كنا قد أصبحنا جميعا أصدقاء ، وقلنا لأنفسنا : حقا إن أي طريق يمكن أن يؤدي الى الشيوعية في هذه الأيام .

في السنة التالية قبض على الطبيب الزائف ، وعذب فرفض أن يشي بشركائه ، ومات في السجن ، واستمر الرسام الزائف يقوم بمهامه السياسية الى أن سقطت الفاشية وانتهت الحرب ، وأعتقد أنه اعتزل النشاط السياسي بعد ذلك ، واكتفى بحياته العائلية ، أما الفتاة الألمانية فلم يعرف عنها شيء بعد ذلك .

وكنت بعد ذلك كثيرا ما أتفكر فيما تبادلناه في هذا اللقاء من أسرار وأحاديث ، وكانت قد تملكتني من ذلك الحين رغبة عاتية في أن أفهم وأتحقق ، وأقارن بين تطورات المهام التي كنت مشتغلا بها ، وبين الدوافع الأولى التي قادت إليها ، حتى لم تترك لي هذه الرغبة العاتية سلاما .

وإذا كان لانتاجي الأدبي الضئيل أي معنى لدى التحليل والتمحيص فهو هذا : لقد أتى عليّ زمان كانت الكتابة فيه بالنسبة إليّ تعني ضرورة تلح عليّ بأن أبين ، وحاجة ملحة بأن أخلص نفسي من فكرة مسيطرة ، فكرة أن أوضح وأحدد أسباب انقطاع حاسم ولكنه أليم[1] ، وأسباب ارتباط وولاء جديد مستمر أوسع نطاقا من سابقه[2] . لم تكن الكتابة أبدا بالنسبة إلي ، ولا يمكن أن تكون – إلا في لحظات إنعام نادرة – متعة جمالية صافية ، بل كانت على العكس من ذلك اتصالا أليما لصراع داخلي بيني وبين نفسي ؛ فأما عن الصعوبات والنقائص التي كان عليّ أن أعانيها أحيانا في محاولة التعبير عن نفسي فلم يكن منشؤها عدم مراعاة قواعد الأسلوب الجيد ، بل كان منشؤها الصراع الذي كان دائرا في ضمير يصر باستمرار على أن تحترم نزاهته وتذكر الحقائق كاملة ، بينما يحاول من جانب آخر أن يمسح على جروح

(١) يقصد الكاتب انفصاله عن الشيوعية . (المترجم)
(٢) يقصد ارتباطه بالمذهب الاشتراكي . (المترجم)

خبيثة معينة لعلها لا تبرأ أبدا • إنه من الواضح أنه لا يكفي لكي يكون الإنسان صادقا أن يكون مخلصا •

★ ★ ★

في مؤتمر تأسيس الحزب الشيوعي الايطالي (ليكهورن ، ١٩٢١) جلبت معي ولاء الجانب الأكبر من جماعة « الشباب الاشتراكي » التي كنت أنتمي اليها منذ عام ١٩١٧ ، ولم يثر هذا الأمر أية دهشة ، لأن موقفنا منذ بداية الحرب قد كان شديد المعارضة والنقد لجماعة الاشتراكية الديموقراطية •

ولما أردت في تلك الليلة من ليالي تشرين الثاني في ميلان أن أوضح لأصدقائي السبب الذي جعلني أتمسك باشتراكية (زمروالد) وأنا بعد تلميذ في السابعة عشرة من عمري ، كان عليّ أن أرجع بالذاكرة خطوة خطوة الى بداية عهد المراهقة ، بل كان عليّ أحيانا أن أذكر بعض ما حدث في طفولتي من نوادر ، كي استكشف الأصول المبكرة لوجهة نظر اجتماعية متطرفة اتخذت بعد ذلك شكلا سياسيا • إن الانسان في سن السابعة عشرة ، وفي وقت الحرب ، لا ينضم الى حركة ثورية تضطهدها الحكومة إلا أن تكون دوافعه الى ذلك عميقة الجذور •

نشأت في إقليم جبلي في إيطاليا الجنوبية ، وكانت الظاهرة التي أثرت فيّ كثيرا عندما بلغت سن التمييز هي التباين الشديد ، التباين السخيف الهائل غير المقبول بين الحياة العائلية والخاصة — وقد كانت على العموم مهذبة شريفة حسنة السير — وبين العلاقات الاجتماعية التي كانت في أكثر الأحوال فجة سخيفة مملوءة بالكراهية والخداع • إن الناس يعرفون الكثير من القصص عن البؤس واليأس في الأقاليم

الجنوبية (وقد قصصت أنا بعضها) ولكنني لا أقصد هنا أن أشير الى الأحداث التي تسبب شغبا واضطرابات ، بقدر ما أريد الكلام عن الأحداث الصغيرة اليومية • ولقد كانت هذه الأحداث الصغيرة العادية هي التي تبين الطبيعة المزدوجة العجيبة للقوم الذين كنت أعيش بينهم ، وكانت ملاحظتي لتصرفات هؤلاء الناس العجيبة من الأمور التي تعذبني في صباي •

كنت طفلا لا أتجاوز الخامسة ، أعبر ميدان قريتنا الصغير في يوم أحد ويدي في يد أمي ، عندما شاهدت المنظر السخيف القاسي •• منظر رجل من أشراف الإقليم وقد سلط كلبه الضخم على امرأة فقيرة كانت لتوها خارجة من الكنيسة • لقد انطرحت المرأة البائسة على الأرض وقد أوذيت أذىً شديداً ، وتقطع ثوبها مزقا • وكان السخط في القرية على هذه الحادثة عاما ولكنه صامت لا يعلن عن نفسه ، ولم أستطع أن أفهم من أين جاءت المرأة تلك الفكرة المؤسفة •• فكرة اتخاذ الاجراءات القانونية ضد الشريف ، فقد كانت النتيجة الوحيدة لذلك أن أضيف الاستهزاء بالعدالة نفسها الى ما وقع من ضرر وأذى • ومع أن كل الناس — كما قلت — قد أسفوا لها ، وساعدها بعضهم سرا ، إلا أن المرأة التعسة لم تجد رجلا واحدا على استعداد لأن يدلي بشهادته أمام القاضي ، أو محاميا يتولى أمر الادعاء ، على حين أن محامي الشريف قام بمهمته ، يعاونه في ذلك جماعة من الشهود المرتشين الذين قصوا القصة بطريقة ممسوخة قلبت الحق باطلا ، واتهموا المرأة بأنها هي التي أثارت الكلب • وأما القاضي ، الذي كان في حياته الخاصة مثلا للفضل والأمانة ، فقد برأ الشريف ، وأدان المرأة المسكينة، وأمرها أن تدفع تكاليف القضية •

وقد دافع القاضي عن نفسه بعد ذلك ببضعة أيام في منزلنا قائلا :
« لقد سار الأمر على عكس ما كنت أشتهي وأتمنى ، وأقسم لكم بشرفي

أنني أسفت لذلك كثيرا ، ولكن حتى لو كنت من بين من حضروا هذه الحادثة المنفرة وانتقدت فاعلها باعتباري مواطناً عاديا ، إلا أنني كقاض كنت ملزما بأن أحكم حسب البيانات التي أمامي ، وكانت كلها لسوء الحظ في صالح الكلب » . وكان هذا القاضي يحب دائما أن يقول : « إن القاضي الحقيقي ينبغي أن يكون قادرا على إخفاء عواطفه الذاتية الخاصة ، وأن يكون محايدا » . وقد اعتادت أمي أن تعلق على ذلك بقولها : « حقا .. يالها من مهنة فظيعة ، لخير للإنسان أن يبقى في بيته ويغلق عليه بابه » وكانت دائما تقول لي : « يا بني ، عندما تكبر اختر أي مهنة تحب ، الا مهنة القاضي » .

ويمكنني أن أذكر أحداثا أخرى تشبه حادثة الشريف والكلب والمرأة ؛ إلا أنني لا أريد بنقل أمثال هذه القصص أن أوحي بأننا كنا غافلين عن مفاهيم العدالة والصدق ، أو مستخفين بها ، بل إن هذه الأمور كانت دائما موضع بحث ومناقشة ، سواء في المدرسة أو الكنيسة أو الاحتفالات العامة ، ولكن بأسلوب تجريدي معنوي ، وإذا أردنا أن نصف موقفنا الغريب هذا بدقة أكثر قلنا إنه كان مبنيا على خداع نشعر به جميعا بما في ذلك الأطفال ، ومع ذلك نثابر على هذا الخداع ، لأنه بني على شيء منفصل تماما عن جهالات الأفراد وسخافاتهم .

إنني أذكر مناقشة حية حامية وقعت ذات يوم في درس الوعظ بين قس الأبرشية وبيننا نحن التلاميذ ، وكان موضوع المناقشة عرضاً (للقره قوز) كنا قد حضرناه مع القس في اليوم السابق . كان العرض يروي مخاطرات طفل يضطهده الشيطان ؛ ولقد حدث خلال هذا العرض أن الطفل ظهر على المسرح يرتعد فرقا ، ثم اختبأ تحت سرير في جانب المسرح لكي يهرب من الشيطان الذي كان يبحث عنه ، ولم يلبث أن ظهر الشيطان على المسرح ، وجعل يبحث عن الطفل دون جدوى ، وأخيرا قال :

— ولكنه هنا بغير شك ، فأنا أشم رائحته . والآن سوف أسأل عنه هؤلاء المتفرجين الطيبين . ثم التفت الينا وقال :

— يا أطفالي الأعزاء ، هل رأيتم هذا الطفل الخبيث الذي أبحث عنه مختفيا في مكان ما ؟ وفي الحال أجبنا جميعا في صوت واحد بكل ما لدينا من حماس :

— لا . لا . لا .

قال الشيطان في إصرار : فأين هو إذن ؟ إنني لا أستطيع أن أراه .

فصرخنا جميعا : لقد غادر المكان . لقد ذهب من هنا . لقد ذهب إلى لشبونة (لازالت لشبونة إلى يومنا هذا تعتبر عند قومنا أبعد مكان على سطح الأرض) .

ينبغي أن نذكر هنا أن أحدا منا لم يكن يتوقع عندما ذهبنا إلى المسرح أن الشيطان في القره قوز سوف يسأله ، وإذن فقد كان سلوكنا غريزيا وتلقائيا تماما ، والذي أتصوره أن الأطفال في أي مكان آخر من سطح الأرض في مثل موقفنا كانوا سيتصرفون مثل هذا التصرف . إلا أن قس كنيستنا ، وهو رجل على قدر كبير من الفضل والثقافة والتقوى ، لم يعجبه منا هذا ، وأخبرنا بوجه مهموم منزعج ، بأننا قد اقترفنا جريمة الكذب ، حقا لقد كذبنا لغاية طيبة ، ولكنها مع ذلك لا زالت كذبة ، وينبغي على الانسان ألا يكذب أبدا ، فسألنا في دهشة :

— ولا على الشيطان ؟

فأجاب : إن الكذب جريمة في كل الأحوال .

فسأله أحد التلاميذ : ولا على القاضي ؟

فزجره القس بعنف وقال :

— إنما أنا هنا لأعلمكم العقيدة المسيحية ، لا للعبث والكلام الفارغ ، إن ما يحدث خارج جدران الكنيسة لا يهمني .

ثم بدأ يتحدث بلغة فصيحة عن الصدق والكذب عموما ؛ ولكننا في هذا اليوم بالذات لم نكن مشغولين بفكرة الكذب « عموما » كنا نريد أن نعلم : هل كان ينبغي علينا أن نخبر الشيطان بمكان اختفاء الطفل ؟ نعم أم لا ؟ ، ولكن القس المسكين جعل يكرر بشيء من الحرج والضيق :

— ليس هذا هو المهم ، إن الكذبة دائما كذبة ، وقد تكون إثما عظيما ، وقد تكون إثما معتدلا ، وقد تكون إثما صغيرا ضئيلا ، ولكنها دائما إثم ، ولا بد وأن يسجد الصدق والحقيقة دائما .

قلنا : إن الحقيقة هي أن الشيطان كان في جانب والطفل في جانب آخر ، وأردنا نحن أن نساعد الطفل ضد الشيطان ، هذه هي الحقيقة :

وظل القس يكرر :

— ولكنكم كذبتم . أنا أعلم أنكم كذبتم لغاية نبيلة ، ولكنه كذب على كل حال . ولكي أنهي هذا الجدال قدمت سؤالا فيه كثير من المكر ، وفيه بالنسبة الى صغر سني ، كثير من النضج والذكاء ، قلت :

— لو حدث أن رأينا قسا في مكان الطفل ، فكيف ينبغي أن يكون جوابنا للشيطان ؟

فاحمر وجه القس ، وتحاشى الإجابة ، وجعلني أقضي بقية الدرس جاثيا على ركبتي كعقاب على سفاهتي ، وعند نهاية الدرس سألني :

— آآسف أنت ؟

قلت : طبعا ، وإن سألني الشيطان عن عنوانك لأعطينه إياه في الحال .

ولم يكن شيئا مألوفا بالطبع أن يحدث جدال بهذا الأسلوب في درس الوعظ ، رغم أن حرية المناقشة كانت شيئا عاديا مألوفا في محيط الأسرة وبين الأصدقاء . إلا أن هذه الحيوية الفكرية لم تثر أي تحرك أو تيقظ في ركود حياتنا الاجتماعية المخزي .

★ ★ ★

كان النظام الديموقراطي (كما يسمونه) قد أدخل قبل فترة من الزمن على العلاقات بين المواطن والدولة تعديلا جديدا ، هو نظام التصويت السري ، ورغم أن هذا لم يكن يكفي لتغيير الأمور تغييرا جوهريا ، إلا أنه كان أحيانا يحدث نتائج مدهشة ، وإن كانت من وجهة نظر النظام الحكومي فاضحة شائنة . ورغم أن أمثال هذه الأحداث كانت فردية وليست لها عواقب مباشرة إلا أنها مع ذلك كانت مقلقة .

كنت في السابعة من عمري عندما حدثت في إقليمنا أول حملة انتخابية تعيها ذاكرتي ، ولم نكن الى ذلك الحين قد عرفنا نظام الأحزاب السياسية ، ولذلك لم يثر إعلان قيام هذه الحملة الانتخابية اهتماما كبيرا من الناس ، إلا أن الشعور العام بدأ يزداد اهتمامه عندما أذيع أن « الأمير » كان أحد المرشحين ، ولم يكن الناس في حاجة الى السؤال عن الاسم لكي يعرفوا من هو « الأمير » المقصود ، لقد كان مالك الضيعة الكبيرة التي تكونت عن طريق الاستيلاء التعسفي الجائر على بقاع واسعة من الأرض تقلصت عنها بحيرة فوسينو في القرن الماضي . إن ما يقرب من ثمانية آلاف أسرة تشكل غالبية سكان المنطقة لا تزال تستخدم إلى اليوم في زراعة أرض الضيعة التي بلغت مساحتها أربعة عشر ألفا من الهكتارات[1] . وقد تفضل الأمير وطلب من أسره

(١) الهكتار عشرة آلاف متر مربع . (المترجم)

وعائلاته) أن يصوتوا لانتخابه نائبا عنهم في البرلمان ، وكان وكلاء هذه الضيعة الذين يعملون للأمير يتحدثون بعبارات لا تخطىء الأذن ما فيها من تساهل وحرية فكر ، يقولون :

ــ لن يُرغم أحد طبعا على التصويت لصالح الأمير كما هو مفهوم ، والأمير بدوره لا يمكن أن يرغمه أحد على السماح لمن لا يصوتون له بالعمل في أراضيه ، فنحن الآن في عهد الحرية الحقيقية للجميع ، أنتم أحرار ، والأمير حر كذلك •

لقد سبب إعلان هذه الآراء « الحرة » ذعرا بين الفلاحين المزارعين ، لأن الأمير كان ، كما هو المنتظر ، أبغض خلق الله الى الناس في إقليمنا • وطالما كان الأمير باقيا في سمائه كآلهة الأولمب بعيدا عن الأنظار (لم يكن أحد من المستأجرين قد رآه أبدا ولو على البعد) فقد كانت الكراهية له أمرا شائعا ومباحا ، كاللعنات التي توجه الى الآلهة المقموتة، وهي وان كانت لا تفيد إلا أنها تشفي النفوس ، أما الآن فقد بدأت السحب تتمزق ، ولن يلبث الأمير أن ينزل من سمائه ليخالط البشر ، وسوف يكون لزاما على الناس من ذلك الحين أن يحصروا لعناتهم وكراهيتهم في حدود ضيقة من حياتهم الخاصة ، بينما يتهيأون لاستقبال الأمير في شوارع القرية بالحفاوة والتكريم اللازمين •

لقد بدا والدي غير مستعد لتقبل هذا النوع من المنطق • كان صغير إخوته الكثيرين ، كما كان أكثرهم تبرما وحركة ، وأشدهم ميلا الى التمرد والعصيان • ولقد جاءه اخوته الكبار ذات مساء يحثونه، من أجل مصلحة الجميع ، على أن يكون حكيما حذرا • لقد كان هذا المساء من أكثر الأمسيات تنويرا لعقلي وتفتيحا لذهني ، رغم أن أحدا من الحاضرين لم يلتفت إليّ ، اذ أن الكبار دائما يظنون أن الصغار لا يدركون أمثال هذه الأمور •

قال الأخ الأكبر مسلما : انها لمهزلة حقا أن يكون الأمير مرشحا • ان الترشيح للانتخابات السياسية ينبغي أن يكون مقصورا على المحامين وأمثالهم من الثرثارين ، ولكن بما أن الأمير من المرشحين فعلا فليس أمامنا إلا أن نؤيده •

فقال أبي : اذا كان ترشيح الأمير مهزلة ، فلست أفهم اذن لماذا يلزم أن نؤيده ؟

قالوا : لأننا تابعون له ومعتمدون عليه كما تعلم جيدا •

قال والدي : أما في السياسة فلا • نحن في السياسة أحرار •

فأجابوا : نحن لا نزرع السياسة ، نحن نزرع الأرض ، وباعتبارنا زراعا للأرض نعتمد على الأمير •

قال والدي ان عقود الارض التي في ايدنا ليس فيها ذكر للسياسة، بل للبنجر والبطاطا ، فنحن كناخبين نعتبر أحرارا •

قالوا : وسوف يكون نائب الامير حرا أيضا في ألا يجدد عقودنا ، ومن :أجل هذا يجب أن نؤيد الامير •

قال والدي : أنا لا يمكنني أن أنتخب أحدا لانني مجبر على هذا ، انني حينئذ أشعر بالخزي •

قالوا : لن يعلم أحد أين يذهب صوتك • انك تستطيع في الخلوة التي في غرفة الانتخابات أن تعطي صوتك لمن تريد وبحرية كاملة ، أما أثناء الحملة الانتخابية فلا بد وان نكون جميعا في جانب الامير •

قال والدي : لو لم يكن الامر مخزيا لفعلت ذلك عن طيب خاطر ، ولكن صدقوني أنني لن استطيع احتمال هذا •

وأخيرا وصل أعمامي ووالدي الى حل وسط ينهي هذا الخلاف ، فاتفقوا على الا يظهر والدي مع الامير ولا مع خصمه •

وقامت السلطات المدنية ، بما في ذلك الشرطة والخفراء ووكلاء الضيعة،

باعداد جولة الامير الانتخابية • وفي يوم أحد تفضل الامير بالمرور خلال القرى الرئيسية في دائرته الانتخابية ، دون ان يتوقف أو يلقي أية أحاديث • ولقد ظل الناس في اقليمنا يذكرون هذه الجولة لفترة طويلة ، وخاصة لانها كانت في سيارة ، ولم نكن قد رأينا سيارة من قبل ، بل ان كلمة « سيارة » لم تكن قد وجدت لنفسها مكانا بعد في لغتنا اليومية ، ولذلك سماها المزارعون « عربة بغير حصان » • وقد سرت بين الناس أساطير عجيبة عن القوة الخفية التي حلت محل الحصان ، وعن السرعة الجهنمية التي يمكن أن تسير بها هذه العربة ، وعن الاثر المدمر الذي تتركه رائحتها الخبيثة في الكروم خاصة • كان أهل القرية جميعا قد خرجوا في يوم الاحد هذا ليستقبلوا الامير في الطريق الذي توقعوا قدومه منه ، كما كانت هناك دلائل ظاهرة على الاعجاب الجماعي والود للامير • كان الناس قد لبسوا خير ثيابهم ، ووقفوا في حالة من التنبه والتوقع ظاهره • وقد وصلت « العربة بغير حصان » متأخرة عن موعدها ، وجعلت تهدر في سيرها خلال القرية وبين الجماهير دون ان تتوقف ، بل دون ان تخفف من سرعتها ، تاركة وراءها سحابة من الغبار الابيض ، وقد جعل وكلاء الامير بعد ذلك يشرحون لمن يهمه أن يستمع ، كيف ان هذه الـ « عربة بغير حصان » تسير ببخار البترول ، ولا يمكنها ان تتوقف الا عند نفاذ البترول ، ويقولون :

ـ انها ليست كعربة الحصان حيث لاتحتاج الى أكثر من جذب العنان لكي تتوقف • انها تسير بغير عنان •• هل رأيتم فيها اية اعنة ؟

بعد ذلك بيومين وصل من روما رجل مسن ضئيل الجسم غريب الهيئة كان يضع نظارات على عينيه ، ويحمل في احدى يديه عصا وفي الأخرى حقيبة صغيرة ، وزعم أنه طبيب عيون ، وأنه قد رشح نفسه ضد الأمير ، فتجمع حوله بعض الناس من باب الفضول ، وكان معظمهم من

الأطفال والنساء الذين لم يكن لهم حق التصويت ، وكنت أنا ، في سراويلي القصيرة ، وكتبي المدرسية تحت إبطي ، من بين الاطفال المتجمعين • وطلبنا من الرجل أن يلقي علينا خطبة ، ولكنه قال :

ـ ذكروا آباءكم بأن التصويت سيكون سريا • وهذا كل شيء •

ثم أضاف :

أنا رجل فقير أعيش من مهنتي كطبيب للعيون ، إلا أنني على استعداد لمعالجة المريض من بينكم دون مقابل •

فأحضرنا له عجوزا مريضة بعينها كانت تبيع الخضراوات ، فغسل لها عينيها وأعطاها قارورة صغيرة فيها دواء ، وشرح لها كيفية استعماله ، ثم التفت الينا نحن الاطفال وقال :

ـ ذكروا آباءكم بأن التصويت سري ، ثم ذهب •

ولكن انتخاب الامير كان مؤكدا في رأي كل من رأى الحشود الضخمة التي رحبت به في جولته الانتخابية ، حتى ان السلطات المدنية ووكلاء الضيعة أذاعوا قبل الانتخابات برنامجا كاملا للاحتفال بالنصر المرتقب • ولم ينحز والدي الى أحد الجانبين مراعاة للاتفاق بينه وبين إخوته ، إلا أنه تمكن من أن يجعل نفسه بين القائمين على فرز الاصوات • وكم كانت دهشة كل انسان عظيمة ، عندما ظهر أن الأغلبية العظمى من الأصوات كانت ضد الأمير ، وفي صالح منافسه طبيب العيون المجهول • لقد كانت هذه فضيحة ، وقالت السلطات عن هذا انه محض خيانة ، إلا أن الخيانة كانت ذات نسبة عالية جدا لم يستطيع معها وكلاء المقاطعة أن يثأروا من أحد •

عادت الحياة الاجتماعية بعد ذلك سيرتها الاولى ، ولم يسأل أحد من الناس نفسه بعد ذلك لماذا لاتعبر إرادة الناس عن نفسها إلا بهذه الطريقة المبعثرة ؟ ولم لا تصبح شيئا دائما وثابتا يعاد تنظيم الحياة العامة

على أساسه ؟ إلا أنه من الخطأ مع ذلك أن يستخلص أحد من النادرة التي رويناها آنفا أن العقبة الرئيسية لم تكن سوى الخوف ، إذ أن قومنا في الحقيقة لم يكونوا ابدا جبناء ولا ضعفاء ، بل على العكس من ذلك كانت قسوة المناج وخشونة الأعمال وصعوبة النضال من أجل البقاء ، قد جعلتهم من أشد الناس في أيطاليا قوة ، وأكثرهم صلابة ، وأقدرهم على الاحتمال . ومن أجل ذلك نرى في حوليات الاقليم التاريخية من الأحاديث عن الثورات العنيفة المدمرة (وان كانت محلية وقصيرة العمر) أكثر مما هناك من ذكر للمفاجآت الساسية المماثلة لمفاجأة الانتخابات السرية . إن هؤلاء القوم المستذلين المستضعفين كان في إمكانهم أن يحتملوا أرذل الإساءات دون تذمر ، كما كان في امكانهم أن ينفجروا بينما لا يتوقع أحد منهم انفجارا .

كان يعيش في قريتنا ، في الوقت الذي أتحدث عنه، مايقرب من خمسة آلاف نسمة ، ويقوم بحفظ النظام فيه قريب من عشرين خفيرا برأسهم ملازم ، وهذا العدد الكبير من الخفراء هو في نفسه دليل . ولم يكن هنالك الكثير من التعاطف بين جنود الجيش والخفراء خلال الحرب العالمية الأولى ، لأن الأخيرين كانوا يقومون بعملهم في المؤخرة ، وأشيع أن بعضهم كان يبدي اهتماما زائدا بزوجات الجنود الذين كانوا في الجبهة ، وأمثال هذه الاشاعات تتخذ في الأماكن الصغيرة طابعا شخصيا . وإذن فقد حدث ذات مساء أن ثلاثة من الجنود الذين قدموا من الجبهة في اجازة قصيرة ، تعاركوا مع بعض الخفراء ، الذين قبضوا عليهم وأودعوهم السجن ، ورغم أن هذا التصرف كان في ذاته سخيفا ولا مروءة فيه ، إلا أن قائد الخفراء زاده بشاعة بأن الغى إجازات هؤلاء الجنود وأمر بإعادتهم الى الجبهة . وكنت صديقا لأحد هؤلاء الجنود الثلاثة (وقد قتل بعد ذلك في الحرب) فجاءت أمه إلينا تبكي وهي تحدثني عن

الواقعة . ورجوت كلا من المحافظ والقاضي والقس أن يتدخل ولكنهم جميعا أجابوا بأن الأمر خارج عن اختصاصهم ، فقلت :

ـ اذا كان الأمر كذلك فليس هناك من سبيل غير « الثورة »

وكنا دائما نستعمل في لهجتنا هذه الكلمة التاريخية المشؤومة لنعبر بها عن مجرد تظاهرة عنيفة ، فإنه كان قد وقع مثلا في سنوات الحرب هذه « ثورتان » في قريتنا ، إحداهما ضد المجلس البلدي بسبب نظام توزيع الخبز ، والأخرى ضد الكنيسة لأنها حولت مقعد الأسقفية الى منطقة أخرى . أما الثالثة ، التي أنا بسبيل وصفها الآن ، فهي مسجلة باسم « ثورة الجنود الثلاثة » .

كان المفروض أن ينقل الجنود الثلاثة الى القطار محروسين في الساعة الخامسة ، ولذلك دبرت الثورة قبل هذا الموعد بنصف ساعة مقابل الثكنات ، إلا أنها لسوء الحظ أخذت دورا أخطر مما كان مدبرا لها . لقد بدأت كدعابة من ثلاثة منا نحن الصبية ، كانوا من الجرأة بحيث شرعوا فيها ، ففي اللحظة المتفق عليها صعد أحدنا الى برج الجرس وبدأ يقرع الجرس الكبير ، وكان ذلك في إقليمنا يعني حريقا خطيرا أو خطرا عاما ، أما الشخصان الآخران فقد انطلقا يلقيان المزارعين ليشرحا لهم مايحدث . والذي حدث أن المزارعين فعلا أزعجتهم دقات الجرس الخطر ، فتركوا أعمالهم وأسرعوا وجلين ناحية القرية .

وفي دقائق قليلة كان قد تجمع مقابل الثكنات جمهور متوعد كثير العجيج والضجيج ، بدأوا أولا بالسباب والتهديد ، ثم بإلقاء الأحجار والقذف بها الى أن انتهى الأمر الى اطلاق النار . واستمر حصار الثكنات إلى الليل ، وكنت لاأكاد أميز رفاقي الفلاحين لكثرة ماغيرهم الهياج والغضب . وفي النهاية اقتحمت أبواب الثكنات والنوافذ ومر الخفراء عبر البساتين والحقول متسترين بالظلام . أما الجنود الثلاثة ، الذين كان

الجميع قد نسيهم ، فقد عادوا الى بيوتهم ، دون أن يشعر بهم أحد ، وهكذا وجدنا أنفسنا نحن الصبيان سادة الموقف لليلة كاملة ، فسألني بقية الصبية قائلين :

ـ والآن .. ماذا سنفعل ؟ (كان نفوذي بينهم يأتي بالدرجة الاولى من كوني أعرف اللاتينية)

قلت من المؤكد أنه سيعاد احتلال القرية في صباح الغد بمئات ومئات من الرجال المسلحين والخفراء ورجال الشرطة من أفيزانو وسلمونا وأكويلا بل ومن روما نفسها .

فقال الصبية بإصرار :

ـ ولكن ماذا سنفعل هذه الليلة ، قبل وصول هؤلاء ؟

قلت وأنا أحسب أنني أعرف مايدور بخلدهم :

ـ من الواضح أن ليلة واحدة لاتكفي لتغيير الاوضاع ، ولكن ألا يمكننا أن نغتنم فرصة نوم الجميع لكي نقيم الاشتراكية ؟

لقد كان هذا هو الاقتراح الذي سعى اليه الصبية الآخرون ، ولعلهم كانوا في حماس زائد بسبب هذه الأمسية الثائرة ، أو لعلهم كانوا يؤمنون فعلا بأن كل شيء قد أصبح الآن ممكنا .

قلت لهم : أنا فعلا لاأعتقد أنه من الممكن إقامة الاشتراكية في ليلة واحدة ، ولو كان الجميع نائمين .

وأخيرا قال أحد الصبية مقترحا :

إن ليلة واحدة على العموم قد تكفي لأن ينامها الانسان في بيته قبل أن يأخذونا الى السجن .

ولما كنا جميعا متعبين ، فقد وجدنا هذه النصيحة معقولة ومقبولة .

لقد كانت أمثال هذه الأحداث العنيفة بما يعقبها دائما من اعتقالات جماعية ومحاكمات ومصاريف قضائية وأحكام بالسجن تعزز في نفوس

المزارعين الارتياب والتهيب والتشكك . لقد أصبحت الدولة بالنسبة اليهم ربيبة الشيطان ، وعلى المسيحي الطيب ، الذي يطلب خلاص روحه ، أن يتجنب كل اتصال بالدولة بقدر الامكان ، فإن الدولة دائما تمثل التدليس والكيد والتفرقة بين الناس ، وليس من الممكن أن تمثل شيئا آخر ، كما لا يمكن للقانون أن القوة أن يغير من ذلك شيئا ، فان لحق بها مصادفة جزاء أو عقاب فإنما هو ناموس الله وقدره .

★ ★ ★

في عام ١٩١٥ وقع في اقليمنا زلزال بلغ أشد حالات العنف ، فهدم جزءا كبيرا من الاقليم ، وقتل في ثلاثين ثانية قريبا من خمسين ألف نسمة . وقد أدهشني أن أرى إلى أي حد اعتبر أهل القرية هذه الكارثة المهولة شيئا طبيعيا لا غرابة فيه ، على حين أن شروح الجيولوجيين المعقدة التي نشرت في الجرائد قد أثارت سخطهم . في إقليم كأقليمنا ، حيث تقع الكثير من المظالم دون أن يلقى مقترفوها الجزاء ، ينظر الناس الى الزلازل المتكررة على أنها ظاهرة لا تحتاج بعد ذلك الى ايضاح ، بل ان مما يدهشهم أن الزلازل ليست كثيرة كما ينبغي . إن الزلزال يدفن تحت حطام البيوت المهدمة غني الناس وفقيرهم ، ومتعلمهم وجاهلهم ، كما يدفن رجال السلطة مع الشعب سواء بسواء ، وإذن فهنا التفسير الحقيقي لما عرف عن الايطاليين من جلد وطاقة يقفون بهما في مواجهة غضب الطبيعة ونوائبها . إن الزلزال ينجز ما تعد به القوانين ولا تنفذه عمليا ـ المساواة بين بني الانسان . إن لنا جارة كانت تدير مخبزا ، وقد دفنها الزلزال تحت الانقاض عدة أيام دون أن تصاب بأذى ، ولما لم تكن المرأة أدركت أن الكارثة عامة ، بل ظنت أن بيتها وحده هو الذي تهدم إما لبعض النقص في بنائه وتركيبه أو

لأن لعنة أصابته لسبب من الأسباب ، فقد أصيبت المرأة بكرب شديد الى حد أنها رفضت تماما أن تخرج من بين الأنقاض عندما وصلت اليها جماعة الانقاذ ، فلما أخبرت بأنه كان زلزالا عاما ، وأن عددا هائلا من البيوت الاخرى قد انهار ، هدأت ، ولم تلبث أن استردت عزمها ورغبتها في الحياة وفي تجديد بناء البيت .

إن ماحدث بعد الزلزال كان عند قومنا المساكين كارثة أشد من أي جائحة طبيعية . إن برنامج إعادة البناء والانشاء الذي قامت به الدولة كان يرافقه ويلازمه عدد لايحصى من المؤامرات والسرقات والاحتيال والاختلاسات والخيانة بكل أنواعها ، ولقد أبلغني أحد معارفي ،وكان قد طرد من إحدى الهيئات الحكومية صاحبة الشأن ، أبلغني أخبارا من هذا النوع عن بعض الاعمال الاجرامية التي اقترفتها رئاسة المهندسين في هذه الهيئة ، وقد أسرعت أنقل الأخبار لبعض ذوي السلطان ممن عرفت فيهم الاستقامة والأمانة ، كي يفضحوا أمر هؤلاء المجرمين . ولم ينكر هؤلاء الاصدقاء الفضلاء صحة ما أخبرتهم به ، بل أكدوا لي أنه صحيح ، ثم نصحوا لي بالابتعاد عن الخوض في هذا الأمر ، وألا تدفعني بساطتي وسذاجتي إلى الاشتغال بأمور لاشأن لي بها .

قالوا بمودة وحنان : إنك شاب صغير وراءك دروس تنجزها ومستقبل تفكر فيه ، فلا تعرض نفسك لأمور ليست من شأنك .

قلت : إنه من الأفضل طبعا أن يقوم قوم ناضجون مثلكم من ذوي السلطان بكشف خبيئة هؤلاء المجرمين ، بدل أن يقوم بذلك صبي في السابعة عشرة .

فأجابوا بفزع : أو تحسبنا مجانين ؟ إننا سوف نهتم بشؤوننا الخاصة لاشأن الآخرين .

تحدثت في الأمر بعد ذلك الى بعض القسس الموقرين ، ثم الى

بعض أقاربي ممن عرفت فيهم الشجاعة أكثر من الآخرين ، إلا أنهم جميعا رغم علمهم السابق بالأمور المخزية التي وقعت ، نصحوني بألا أضع يدي في خلية النحل ، وأن أفكر في دراستي وعملي ومستقبلي . فلما قلت لهم :

إنني على استعداد لأن أدع هذا الآمر بكل سرور ، ولكن أليس منكم أنتم من هو على استعداد لفضح هؤلاء اللصوص وكشف ألاعيبهم ؟ أجابوا بفزع :

ـ أتحسبنا مجانين ؟ وما شأننا نحن بهذه الأمور ؟

وهنا بدأت أتساءل : أليس من المفيد أن ندبر مع بعض الصبية الآخرين « ثورة » جديدة تنتهي بإحراق مكاتب المهندسين المرتشين؟ الا أن صديقي الذي أمدني بالبراهين على سلوك المهندسين المعوج ، صرف نظري عن هذا بأن أشار الى أن النار سوف تحرق الأدلة على إداتتهم ،ثم اقترح بأن تنشر هذه الفضائح والجرائم في إحدى الجرائد .

قلت : وأي الجرائد على استعداد لنشر هذه الأمور ؟

قال : هناك جريدة واحدة يهمها أن تنشر هذا ، وهي جريدة الاشتراكية .

وشرعت فعلا في الكتابة إلى أن دبجت مقالات ثلاثة ، ولعلها كانت أول شيء أكتبه ، ذكرت فيها تفاصيل المخازي والفضائح التي ارتكبها مهندسو الدولة في إقليمنا ، ثم أرسلتها الى جريدة « أفانتي » . ولقد نشرت المقالتان الأوليان في الحال ، وأثارتا الكثير من التعليق والحديث بين قراء الجريدة ، الا انها لم تحدث عند المسؤولين تعقيبا ولا أثرا . أما المقالة الثالثة فلم تظهر على الاطلاق ، وقد علمت فيما بعد أن أحد الزعماء الاشتراكيين توسط لدى هيئة التحرير فمنعت نشرها . ولقد تبينت من ذلك أن جهاز الخداع والسرقة الذي كان يثقل كواهلنا كان

أعظم مما يبدو لأول وهلة ، وأن فروعه وشعبه الخفية قد امتدت الى الاشتراكية نفسها .

ومع أن هذه الاتهامات التي ظهرت في الجريدة دون توقع كانت تحمل من الأدلة ما يكفي لإثارة عدد من الدعـاوى ، أو على الأقل لتكوين لجنة تحقيق ، إلا أن شيئا من ذلك لم يقع . أما المهندسون الذين اتهمتهم بأنهم لصوص وقاطعوا طريق ، ووجهت اليهم اتهامات محددة واضحة ، فانهم لم يحاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، أو أن يصدروا تكذيبا . ومضت فترة قصيرة من الترقب ثم عاد كل الى شأنه .

★ ★ ★

أما الطالب الذي كان من الجرأة بحيث ألقى بهذا التحدي ، فقد نظر اليه حتى فضلاء الناس الطيبون على أنه صبي متسرع غـريب الشأن . وعلينا أن تتذكر أن العوز الاقتصادي المنتشر في الأقـاليم الجنوبية لم يكن فيه مجال واسع للشباب الذين يتخرجون من المدارس بالالوف في كل عام ، فكانت مهنتنا الوحيدة الهامة هي وظائف الدولة. ولم تكن تلك الوظائف تتطلب تميزا وذكاءا ، وإنما كانت تتطلب طبعا وديعا واستعدادا للمسايرة في الأمور السياسية . لهذا كان الشباب في الجنوب الذين شبوا في هذا الوسط الذي بيناه ولديهم قدر من الادراك للعلاقات البشرية يميلون بطبعهم الى الفوضوية والثورة . ان صيرورة الانسان موظفا للدولة بالنسبة لمن هم على عتبة الشباب كان يعني القاء السلاح والتسليم ، وأن تلبس أرواحهم الحداد . لهذا يقول الناس : فوضويون في العشرين ومحافظون في الثلاثين . ولم تكن التربيـة التي تعطي في المدارس ، سواء كانت حكومية أو خاصة ، بحيث تقوى

في الإنسان شخصيته . لقد قضيت معظم السنوات الاخيرة من حياتي الدراسية في معاهد كاثوليكية خاصة ، فكانت اللاتينية واليونانيـة تدرس هناك بشكل ممتاز ، وكان تعليم العادات الخاصة أو الشخصية مبسطا ونظيفا ، الا أن التربية المدنية والاجتماعية كانت محزنة حقا ، كان مدرسوا التاريخ يعارضون وينتقدون وجهات النظر الرسمية علنا ، فكان مازيني وغاريبالدي وفكتور عمانويل الثاني وكافور محل سخريتهم ومذمتهم ، كمـا أن الأدب الذي كان سـائدا في ذلك الحين (أدب كاردوكي ودانتزيو) كان محل احتقارهم .

ولقد كانت لهذه الطريقة في التعليم فوائدها من حيث تنمية روح النقد عند التلاميذ ، الا أن نفس هؤلاء القسس المدرسين ، لماكان عليهم أن يعـدونا لامتحانات الدولة — وكانت شـهرة مجامعهم ومعاهدهم تعتمد على النتائج التي تحصل عليها — كانوا أيضا يوصوننا بأن ندعم ونؤيد في امتحاناتنا وجهات النظر التي تخالف تماما ما كانوا يعتقدون. أما المتحنون الذين كانت تعينهم الدولة ، وكانوا يعلمون أننا جئنا من مدارس كاثوليكية ، فقد كانوا يتلذذون بسؤالنا عن أشد الموضوعات حرجا ، ثم يتدحوننا بسخرية على الطريقة الحرة غير المتحيزة التي علمنا بها ، ولقد كان الزيف والنفاق في كل هذا من الوضوح بحيث يزعج كل من له قدر من الاحترام للثقافة والتربية ، الا أنه كان من الحتمي بالنسبة للطالب العادي المسكين أن يعتبر الحصول على الدبلوم وعلى وظيفته المستقبلة في مكاتب الحكومة مطلبا أسمى وغاية عليا .

★ ★ ★

لقد اعتاد طبيب في قرية مجاورة لقريتنا هو الدكتور ف.ج. أن يقول :

ـ ان من يولدون في هذا الاقليم ذوو حظ سيء حقا ، فليس أمام الواحد منهم طريق وسط • ان عليك اما أن تثور ، أو تصبح شريكا في الاثم ومتواطئا •

أما هو فقد ثار ، وأعلن نفسه فوضويا ، وكان يخطب الفقراء ويحرضهم ، حتى صار فضيحة المنطقة كلها ، ينفر منه الاغنياء ، ويحتقره الفقراء ، ويشفق عليه في الخفاء عدد قليل • وأخيرا أخذت منه وظيفته كطبيب حكومي ، ومات فعلا من الجوع •

★ ★ ★

أنا على ثقة من أن التسلسل الذي اتبعته في هذه الصفحات من الاختصار بحيث لا يمكن أن يكون وافيا بالغرض ، ولئن كنت أتناول هذا الموضوع الآن فليس الغرض من ذلك أن أبين بطلان ما فيه من تعليلات أو صدقها • انني أستطيع أن أطمئن الى مافي هذه التعليلات من أمانة ولكنني لا أستطيع أن أطمئن الى صدقها من الناحية الموضوعية • ان مما يدهشني أحيانا ، عندما استرجع مع معاصري ورفاقي هذه الفترة الغابرة من حياتنا ، أن أكتشف أنهم لا يكادون يذكرون أحداثا كانت ذات أثر حاسم في حياتي ، بينما يتذكرون في وضوح وجلاء أمورا كانت تبدو بالنسبة الي تافهة عقيمة ، فهل كل هؤلاء الزملاء المعاصرين شركاء متواطئون ولكن لا يشعرون ؟ وبأي خاصة كامنة أو قدر محتوم يتخير الانسان في سن معينة بين أن يصير « شريكا متواطئا » أو « ثائرا » ؟ ومن أي نبع يستقي بعض الناس ما نرى فيهم من ثورة على المظالم وان كانت تقع على غيرهم من الناس ؟ أو ذلك الشعور بالذنب الذي يحس به بعض من يجلسون الى الموائد الحافلة بينما غيرهم يقاسون من الجوع ؟ أو تلك العزة التي تجعل البعض يفضلون الفقر والسجن على العار ؟ لست أدري ، ولعل أحدا لا يدري • ان أعمق الاعترافات والشروح

وأدقها تبدو في بعض الظروف مجرد تقرير للواقع وليست جوابا • ان كل من صرف همه الى التفكير بجد في ذات نفسه أو في الآخرين ، يدرك كم تكون بعض القرارات عميقة بعيدة الغور ، وكم تكون بعض الهواتف والنداءات غامضة يصعب تعليلها •

لقد اعتقدت منذ أول اتصال لي بالحركة العمالية ، أنني وجدت السبيل للتخلص من سيئات مجتمعنا ، ولانشاء مجتمع حر منسق • لقد كان هذا الاتصال بالنسبة الي نوعا من الهرب والخلاص من وحدة قاتلة • كان كرؤية الملاح للارض بعد طول تجوال • كان كاكتشاف عالم جديد • الا أنه لم يكن من السهل التوفيق بين روح في ثورة ضد أوضاع اجتماعية مستقرة فاسدة ، وبين متطلبات مبدأ سياسي مقنن مفصل •

ان الانضمام الى حزب ثورة الطبقة العاملة لم يكن بالنسبة الي مسألة التوقيع على ورقة الانتساب الى حزب من الاحزاب ، بل كان انقلابا شاملا ، ووقفاً للحياة والجهد والمال في سبيل المذهب الجديد • كان اعلان الشخص عن نفسه في تلك الايام أنه اشتراكي أو شيوعي يعني أن يلقي المرء بنفسه في وجه الأعاصير ، يعني أن تنقطع الصلات بينه وبين أبويه ، وأن يبحث عن عمل فلا يجد • ولئن كانت العواقب المادية ثقيلة قاسية ، فان صعوبات التكيف النفسي والروحي لم تكن أقل إيلاما • لقد اهتز كياني الداخلي واهتزت معتقداتي التي ورثتها عن بيئتي من الاساس كأنما بفعل زلزال • لقد ألقي بكل شيء في بوتقة الانصهار ، وأصبح كل شيء بالنسبة الى مشكلة تحتاج الى حل • ان كلمات « الحياة » و « الموت » و « الحب » و « الخير » و « الشر » و « الصدق » و « الحق » كلها قد تغيرت معانيها أو فقدت كل معنى • ان من السهل ان يتعرض الانسان الى المخاطر حينما لا يكون وحيدا ،

ولكن من ذا الذي يستطيع أن يصف القنوط الذي يصيب من ينبذ الى الأبد ايمانه بخلود روح الانسان ؟ لقد كان الأمر من القساوة على نفسي بحيث لم يكن من الممكن أن أتعرض للخوض فيه مع أحد من الناس . كان رفاقي في الحزب جديرين بأن يجدوا في هذا الأمر موضوعا للسخرية ، ولم يكن قد بقي لي من الاصدقاء غير هؤلاء . وهكذا أخذت الدنيا كلها تتخذ في عيني وجها جديدا ، دون أن يشعر أحد ممن حولي . ما أجدر الانسان بالشفقة والرثاء !

كانت الظروف المعيشية التي فرضت على الشيوعيين بعد استيلاء الفاشية على الحكم عنيفة قاسية ، الا أنها مع ذلك ساعدت على تثبيت بعض نظريات الشيوعيين السياسية ، وهيأت الفرصة لخلق طراز من التنظيم يتلاءم تماما مع العقلية الشيوعية . وكان علي أنا أيضا أن أحيا لسنوات غريبا في بلدي . كان على المرء أن يغير اسمه ، وأن يقطع كل صلة سابقة بالعائلة أو الاصدقاء ، وأن يحيا حياة مستعارة كي يبعد عنه كل شك وريبة . وهكذا أصبح الحزب هو العائلة والمدرسة والكنيسة والمعسكر ، أما العالم الخارجي فقد كان عليه أن يتهدم ليبنى من جديد . كان الجو النفسي الذي نعيش فيه يدفع كل فرد منا آليا الى زيادة الاندماج في التنظيم الجماعي يوما بعد يوم ، بنفس الطريقة التي تحدث في بعض المذاهب الدينية أو الكليات العسكرية . كانت كل تضحية من الأفراد تتلقى بالترحاب باعتبارها ضريبة فردية لأداء « ثمن الخلاص الجماعي » ؛ وينبغي أن نذكر هنا أن الصلات التي كانت تربطنا بالحزب كانت تزداد توثقا على مر الايام ، لا أقول رغم الاخطار والتضحيات ، ولكن بسبب الاخطار والتضحيات ، ولعل هذا يفسر ما للشيوعية من جاذبية على فئات من الشبان ، وعلى المفكرين ، وعلى ذوي الحساسية العميقة من بني الانسان ، الذين يعانون الكثير بسبب ما يرونه في

المجتمع البورجوازي من اسراف وعدوان . ان من يظن أنه يستطيع أن يفطم عن الشيوعية خيرة شبابها العاملين ، عن طريق دعوتهم الى قاعة مريحة دافئة ، حيث يلعبون « البلياردو » هو بغير شك ضيق الأفق بعيد عن ادراك الطبيعة البشرية .

لم يكن من الغريب أن الأزمات الأولى التي رجّت « الشيوعية الدولية[١] » لم تكد تترك في نفسي أثرا . كان منشأ الأزمات أن الجماعات الرئيسية التي افضت الى هذه الدولية الجديدة ، رغم موافقتها الشكلية على الشروط الاحدى والعشرين التي اشترطها لينين قبل قبولها في « الشيوعية الدولية » ، لم تكن متجانسة أو منسجمة . كان الجميع يتفقون في كراهيتهم للحرب الاستعمارية ونتائجها ، وفي عدم موافقتهم على الآراء الإصلاحية التي أصدرتها « الدولية الثانية[١] » ، أما فيما عدا ذلك فقد كانت كل جماعة تعكس وتمثل التطور التاريخي الخاص بالبلد الذي جاءت منه ، ومن أجل ذلك كانت هناك فروق واضحة في الرأي بين البلشفية الروسية التي نشأت في جو لا يبيح الحرية السياسية ، وبين الأجنحة اليسارية للجماعات الاشتراكية في دول الغرب . من أجل ذلك كان تاريخ « الشيوعية الدولية » تاريخا للانشقاقات ، كما كان تاريخا للدسائس والعجرفة من قبل المجموعة الروسية المتحكمة تجاه أي تعبير حر عن الرأي من قبل الجماعات المنتسبة الأخرى ، حتى أضطرت هذه أن تنفصل عن « الشيوعية الدولية » واحدة اثر واحدة ، فانفصل التيار الذي يمثل التمسك بالنظم الديموقراطية البرلمانية

(١) تطلق هذه الالفاظ على التنظيمات التي قصد بها اصدار قرارات بشأن العمال في كل الدول وأولها الدولية الاولى أي الماركسية (١٨٦٢ — ١٨٧٣) ثم الدولية الثانية وهي الاشتراكية الفرنسية من سنة ١٨٨٩ — ثم الدولية الثالثة أو الشيوعية الدولية التي تسمى الكومنترن (١٩١٩ — ١٩٤٣) (المترجم) .

(يمثلهم فروسارد) ، وانفصل من يمثلون التمسك بالوسائل القانونية الشرعية ولا يبررون المخادعة السياسية (پول ليڤي) ، وانشقت العناصر المؤيدة لحرية الرأي التي خدعت في الديموقراطية السوفييتية (رولاند ــ هولست) ، وانفصلت النقابات العمالية الثورية التي لم تقبل الخضوع لاستبداد الحزب الشيوعي (پيير مونات ، أندريه نين)، وانفصلت الجماعات التي لم يرقها أن تقطع كل تعاون بينها وبين الاشتراكية الديموقراطية (براندير ، برنكولف ، تاسكا) ، وانفصل الجناح اليساري المتطرف الذي لم يحتمل أن يوافق على حيل أو تدبيرات انتهازية (بورديكا ، روث فيشر ، بوريس سوڤارين) ٠

وقعت هذه الازمات الداخلية في محيط بعيد جدا عن محيطي ، فلم تترك في نفسي أثراً كبيراً ٠ ولست أقول هذا للتبرير أو المباهاة ، ولكن تقريرا للواقع ٠ ان تحول « الشيوعية الدولية » التدريجي إلى أداة للاستبداد والطغيان كان يملؤني نفورا وضيقا ، الا أن أسبابا قاهرة كانت تدفعني الى التردد وعدم الانشقاق : منها الشعور بالتضامن مع رفاق قد قتلوا أو هم في السجون ، ومنها أن ايطاليا في ذلك الحين كانت خالية من أية قوة منظمة أخرى في مجابهة الفاشية ، ومنها ما كان يلاحظ فيمن كانوا قد تركوا الشيوعية من انحلال سياسي سريع ، بل ومن انحلال أدبي وخلقي في بعض الاحيان ، ومنها أخيرا ذلك الوهم الذي كان يراود نفسي أن تتمكن الدولية الشيوعية من أن تسترد عافيتها من جديد عن طريق أزمة تحدث داخل نظام الحكم السوڤييتي ٠

ولقد ذهبت في مناسبات متعددة بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧ الى موسكو ، واشتركت في عدة مؤتمرات واجتماعات للجنة التنفيذية باعتباري عضوا في الوفد الشيوعي الايطالي ، وكان أشد ما استرعى انتباهي في الشيوعيين الروسيين ، حتى في الشخصيات الممتازة حقا مثل

لينين وتروتسكي ، هو عجزهم الكامل عن أن يكونوا منصفين في مناقشة الآراء التي تعارض آراءهم ٠ ان المخالف لهم كان يصبح خائنا وانتهازيا ومأجورا لمجرد أنه تجرأ على المعارضة ، فالشيوعي الروسي لا يستطيع أن يفهم معارضة عن نية حسنة ٠

عندما كنت على وشك مغادرة موسكو في عام ١٩٢٢ قالت لي أليكساندرا كولنتاج :

ــ « اذا حدث أن قرأت في الصحف أن لينين أمر باعتقالي بتهمة سرقة الملاعق الفضية في الكرملين ، فان معنى هذا أنني أختلف معه حول بعض المسائل الزراعية ، أو حول السياسة الصناعية » ٠ كانت كولنتاج قد اكتسبت هذه اللهجة الساخرة في الغرب ، ولم تكن تستعملها الا مع أشخاص من الغرب ٠ وحتى في هذه السنوات المحمومة ، حين كان نظام الحكم الجديد لا يزال في مرحلة البناء ، ولم تكن العقيدة الجديدة قد استولت تماما على الحياة الثقافية ، كم كان من الصعب أن تصل الى وفاق في الرأي مع شيوعي روسي حول المسائل التي تبدو لنا في غاية من البساطة والوضوح ، بل كم كان من الصعب أن يفهم بعضنا بعضا حين تتحدث عما تعنيه الحرية بالنسبة للرجل الغربي ولو كان من العمال ٠ لقد صرفت في أحد الأيام ساعات أحاول أن أبين لاحدى مديرات دار النشر الحكومية لماذا ينبغي على الأقل أن تخجل من جو الارهاب والتثبيط الذي يعيش فيه الكاتب الروسي ، ومع ذلك لم تستطع أن تفهم ما كنت أقول ٠

قلت محاولا أن أوضح قولي بضرب الأمثلة : ان الحرية هي امكانية الشك ، امكانية الوقوع في الخطأ ، امكانية البحث والتجريب وامكانية ان يقول الانسان : « لا » لكل سلطة ، أدبية كانت أو فنية أو فلسفية أو اجتماعية أو سياسية أيضا ٠

فتمتمت هذه القائمة على الثقافة قائلة في فزع : ولكن هذا ... هذا مضاد للثورة .

ثم أضافت كأنما لتثأر لنفسها : انه ليسرنا أن ليست لدينا هذه الحرية التي تتحدث عنها ، الا أننا نملك بدلا من ذلك المصحات والمستشفيات .

فلما قلت معلقا ان كلمة « بدلا من ذلك » لم يكن لها معنى « لان الحرية ليست سلعة يمكن استبدالها » ، وأخبرتها بأنني رأيت مصحات ومستشفيات في دول أخرى ، ضحكت في وجهي وهي تقول :

— يبدو أن عندك اليوم استعدادا للمزاح .

لقد أذهلتني بساطتها واخلاصها بحيث لم أجرؤ على معارضتها مرة ثانية .

لقد كانت مراقبة حماس الشباب الروسي في هذه السنوات الاولى من انشاء العهد الجديد ، الذي كنا نأمل جميعا أن يكون أقرب الى الخير والمرحمة من سابقة ، تملأ النفس ثقة واطمئنانا ، وكم كانت الصدمة قاسية مريرة بعد أن مرت السنين وثبت النظام الجديد أركانه ، وتوقف العدوان المسلح من الخارج ، أن نرى الديموقراطية التي وعدنا بها طويلا تبتعد وتبتعد ، وأن نرى الدكتاتورية عوضاً عن ذلك تبرز طبيعتها القامعة المتوعدة .

لقد حدثني ذات مساء واحد من أعز الاصدقاء هو لازار شاتزكي ، رئيس الشباب الشيوعي الروسي ، عن أسفه العميق لأنه ولد متأخرا فلم يستطع أن يشارك في ثورة ١٩٠٥ ولا ثورة ١٩١٧ ، فقلت مواسيا :

— ان الثورات لن تنتهي فسوف تكون هناك دائما حاجة الى الثورات حتى في روسيا نفسها .

وكنا عندئذ في الساحة الحمراء ، غير بعيدين عن قبر لينين ، فقال متسائلا :

— أي نوع من الثورة تعني ؟ وكم سيكون علينا أن ننتظر ؟

وهنا أشرت الى قبر لينين ، الذي كان الى ذلك الحين لا يزال من خشب ، والذي اعتدنا أن نرى أمامه في كل يوم موكبا لا ينتهي من الفلاحين الفقراء ذوي الملابس الممزقة البالية يمرون في بطء .

قلت : أعتقد أنك تحب لينين . لقد عرفته أنا أيضا ، ولا زالت ذكراه حية في مخيلتي ، ولا شك أنك تعترف معي بأن هذه العبادة الخرافية لجثة الرجل انما هي اهانة لذكراه وعار بالنسبة الى مدينة ثورية كموسكو ، وأنا أقترح أن نحصل على قدر من البترول ، ثم نقوم بـ « ثور صغيرة » نحرق فيها هذا المعبد .

ولم أكن أتوقع منه طبعا أن يتقبل اقتراحي في الحال ، وانما ظننت أنه على الاقل سيتلقى اقتراحي بالضحك ، الا أن صديقي المسكين شحب وجهه ، وبدأ جسده يرتعد بشكل أزعجني ، ثم رجاني ألا أتحدث بأمثال هذه الامور الشنيعة أمامه أو أمام أحد من الآخرين . (بعد ذلك بعشر سنوات ، وبينما كانت الشرطة تبحث عنه بتهمة التواطؤ مع زينوفيف ، انتحر هذا الشاب بأن ألقى بنفسه من الطابق الخامس في البيت الذي كان يسكن فيه) .

لقد حضرت استعراضات ضخمة للشعب والجيش في هذه الساحة الحمراء ، الا أن ذكرى هذا الصديق وذكرى صوته المرتجف الودود قد بقيت أوضح في ذهني من كل صورة أخرى .

انه ليس من السهل تتبع تاريخ « الشيوعية الدولية » بشكل ناضج كامل ، وكيف يمكن للانسان أن يستخلص الهام من التافه في كل مؤتمراتها واجتماعاتها ومناقشاتها التي لا تنتهي ؟ وأي هذه الخطب

ينبغي أن تقدم الى ذوي الوعي من الناس الذين يسعون الى الاطلاع والمعرفة ، وأيها ينبغي أن تترك في المحفوظات للجرذان ؟ لست أدري ، فقد يبدو ما تسترجعه ذاكرتي وتنتخبه من هذه الامور شاذا وغريبا بالنسبة الى البعض . لقد كانوا يناقشون في يوم من الايام ، وفي لجنة خاصة تابعة للجنة التنفيذية ، ذلك القرار الذي اصدرته اللجنة المركزية لاتحادات العمال البريطانية بالتنبيه على فروعها المختلفة بعدم تأييد اتجاه الاقليات التي يقودها الشيوعيون ، تحت طائلة الفصل والابعاد . وبعد أن قام ممثل الحزب الشيوعي البريطاني ببيان ما لكلا الحلّين من سيئات، اذ أن أحدهما يعني تصفية اتجاه الاقليات التي يقودها الشيوعيون ، بينما الآخر يعني انفصال هذه الاقليات عن اتحادات العمال — قام المندوب الروسي بتقديم اقتراح بدا له جليا ظاهرا كبيضة كولومبوس ، قال : « على الفروع أن تعلن أنها تخضع للقرار الذي صدر ثم تتصرف على عكس ذلك تماما » ، فقال الشيوعي الانكليزي مقاطعا « ولكن هذا يعتبر كذبا ! » . وقد قوبل ذلك الاعتراض النزيه المستقيم بعاصفة الضحك الصادق الصادر من القلب والذي لا أحسب مكاتب الشيوعية الدولية الكئيبة قد سمعت مثله من قبل . وقد ذاعت هذه « النكتة » سريعا في طول موسكو وعرضها ، اذ ان إجابة الانكليزي التي لا تصدق لم تلبث أن نقلت بالهاتف الى ستالين وكبار الموظفين في روسيا ، وكانت تستثير في كل مكان عاصفة من الانبساط والضحك . ان هذا الانبساط العام قد أعطى اعتراض الشيوعي البريطاني معناه الحقيقي ، ولعل هذا هو السبب في أن عاصفة الضحك التي أثارتها هذه الملاحظة الساذجة « ولكن هذا يعتبر كذبا » قد طغت في ذاكرتي على كل الخطب الغزيرة الثقيلة التي استمعت اليها في جلسات « الشيوعية الدولية » حتى أصبحت بالنسبة الي رمزا له أهمية كبيرة .

كانت زياراتي لموسكو — كما قلت سابقا — قليلة في حدود مهمتي كعضو في الوفد الشيوعي الايطالي ، ولم أكن في يوم من الايام عضوا في منظمة « الشيوعية الدولية » ، الا أنني استطعت أن أرقب تدهورها السريع من مراقبتي لبعض معارفي الذين كانوا من أعضائها . ومن الأمثلة البارزة « جاك دوريوت » الافرنسي . لقد كان عندما التقيت به لأول مرة في موسكو عام ١٩٢١ ، رجلا عظيم المروءة شديد الحساسية ، وكانت دماثة طبعه ولين عريكته سببا في اختياره للمنظمة الدولية بدلا من شبان شيوعيين فرنسيين آخرين كانوا أكثر منه ذكاءً وثقافة ، ولكنهم أقل منه محافظة على التقاليد . لقد كان مركز هذا الرجل ومرتبته في المنظمة تزداد في كل عام أهمية وقوة ، الا أنني كنت أجده في كل لقاء بيننا يسير من سيء الى أسوأ ، حتى أصبح متشككا متشائما مستهترا يميل الى الأساليب الفاشية في خطته السياسية وفي علاقاته بالناس ، ولو تهيأ لي في يوم من الايام أن أكتب تاريخ حياة جاك دوريوت ، فسوف يكون تحت عنوان « شيوعي مكافح ينقلب الى فاشي » .

لقد التقيت مرة بدوريوت في موسكو بعد عودته من مهمة سياسية في الصين ، فجعل يحدثني أنا وبعض الاصدقاء عن الاخطاء التي تقع فيها الشيوعية الدولية في الشرق الأقصى ، حتى أعطانا صورة قاتمة للوضع هناك ، فلما كان اليوم التالي ووقف يتحدث أمام اللجنة التنفيذية بكامل أعضائها ، جعل يؤكد عكس ماسمعناه منه تماما ، وقد تحدث الي بعد ذلك على انفراد فقال وهو يبتسم ابتسامة الحكيم : « لقد كان عملا تقتضيه الحكمة السياسية » . ان حالة دوريوت استحقت التنويه لأنها لم تكن حالة فردية منفصلة ؛ إن بعض التغيرات الداخلية التي حدثت فيما بعد في الحزب الشوعي الفرنسي سببت ترك دوريوت للشوعية الدولية، وبذلك تهيأت له الفرصة لأن يظهر في لونه الحقيقي ؛ إلا أن كثيرين غيره

ممن لا يختلفون في أساسهم عن دوريوت ، قد بقوا على رأس أحزابهم الشيوعية • لقد أشار الشيوعي الايطالي بالميرو توكلياتي إلى ظاهرة النفاق والفساد الخلقي بين شخصيات الشيوعية الدولية في خطبته أمام المؤتمر السادس ، وطلب الى الحاضرين أن يأذنوا له بترديد الكلمات التي قالها جوته وهو فيسكرات الموت : « أريدنورا ، كثيرا من النور » •

لقد كانت هذه الخطبة إلى حد بعيد (صحوة الموت) بالنسبة إلى توكلياتي ؛ فقد ظل بعدها عاما أو عامين يواصل بذل الجهد لكي يعمل حسب ما تمليه دوافعه الداخلية ، ويوفق بين كونه شيوعيا وبين الإفصاح عن رأيه بحرية ، إلى أن جرفه التيار في النهاية ، واضطر الى الاستسلام والخضوع •

لقد كانت الشيوعية الدولية تعاني أيضا من انعكاسات المشاكل والصعوبات التي تواجه الدولة السوفيتية ، بجانب ما كانت تعانيه من اختلافات داخلية منشؤها عدم التجانس في كيانها • لقد بدا واضحا ، بعد وفاة لينين ، أن الدولة السوفيتية لن تستطيع تجنب المصير الذي ينتظر كل نظام دكتاتوري ، وهو الضيق التدريجي المستمر في الهرم السياسي ؛ وإن الحزب الشيوعي الروسي الذي ألغى الأحزاب المنافسة ، وقضى على إمكانية قيام أي نقاش عام حول الأمور السياسية في الجمعيات السوفياتية ، بدأ الآن يعاني ما يشبه هذا المصير ، فإن الآراء السياسية التي كانت تظهر عند الأعضاء لم تكن تلبث أن تلقى النبذ والإبعاد من قبل جهاز الحزب السياسي ، وصار كل اختلاف في الرأي بين الجماعة الموجهة ينتهي ببتر الأقلية وإبعادها • إن الثورة التي نجحت في إبادة أعدائها قد بدأت الآن تلتهم أبناءها البرره ، ولم تكن الآلهة العطشى تسمح بهدنة أو إمهال •

في مايس (مايو) عام ١٩٢٧ ، اشتركت مع توكلياتي ، باعتباري نائبا عن الحزب الشيوعي الايطالي ، في اجتماع غير عادى للجنة

التنفيذية للشيوعية الدولية • كان توكلياتي قد جاء من باريس ، حيث كان يدير السكرتارية السياسية للحزب ، وجئت أنا من إيطاليا حيث كنت مسؤولا عن المنظمة السرية هناك ، ثم التقينا في برلين ، وذهبنا معا إلى موسكو • إن الاجتماع ــ الذي دعي إليه في الظاهر لمناقشة السياسة التي ينبغي أن تتخذها الأحزاب الشيوعية في نضالها « ضد الحرب الاستعمارية الوشيكة » ــ كان يقصد به في الحقيقة العمل على تصفية تروتسكي وزينوفيف ، الذين كانا إلى ذلك الحين عضوين في اللجنة التنفيذية للشيوعية الدولية • ولتجنب المفاجآت كانت الجلسة العامة مسبوقة كالمعتاد بجلسة خاصة يحضرها رؤساء الوفود وحدهم ، وفيها تبحث تفاصيل الأمور التي ستعرض في الجلسة العامة • وقد أصر توكلياتي على اصطحابي معه في هذه الاجتماعات الخاصة ، رغم أن القوانين لم تكن تسمح إلا له وحده بأن يحضر عن الوفد الايطالي ، وذلك لما كان يتوقعه توكلياتي من معضلات توشك أن تظهر ، فأحب أن يجد سندا وعونا من ممثل المنظمة السرية • لقد انتابني في أول جلسة حضرتها شعور بأننا وصلنا متأخرين • كنا في حجرة صغيرة من حجرات مركز إدارة الشيوعية الدولية ، وكان الاجتماع يرأسه الألماني ثالمان ، الذي لم يلبث عقب دخولنا أن بدأ يقرأ مشروع قرار موجه ضد تروتسكي ، لإبداء الرأي فيه قبل عرضه على الجمعية العمومية في جلستها العامة • كان هذا القرار يستنكر بعنف شديد مذكرة تقدم بها تروتسكي إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي ، وكان الوفد الروسي في اجتماع ذلك اليوم وفدا استثنائيا من ستالين وريكوف وبوخارين ومانويلسكي • وعند الانتهاء من تلاوة مشروع القرار ، تساءل ثالمان عما إذا كان الجميع يوافقون على ما جاء فيه ، فاعترض الفنلندي أوتومار كوسنين على اللهجة « المعتدلة » التي صيغ بها

القرار ، وقال مقترحا « ينبغي أن يذكر صراحة أن المذكرة المرسلة من قبل تروتسكي الى المكتب السياسي للحـزب الشيوعي الروسي ذات طبيعة مناقضة لروح الثورة ، وتدل بوضوح على أن صاحبها لم يعد يمثل الطبقة العاملة • » ولما لم يتقدم واحد آخر للحديث قمت ، بعد استشارة توكلياتي ، أعبر عن اعتذاري لأنني وصلت متأخرا بحيث لم أتمكن من رؤية المذكرة المشار إليها • وهنا أعلن ثالمان بصراحـة : « أقول لك الحقيقة ، إننا نحن أيضا لم نر هذه المذكرة • »

ولم أكد أصدق أذني فأعدت اعتراضي بأسـلوب آخر ثم قلت : « قد يكون من الحكمة والصواب أن نستنكر مذكرة تروتسكي هذه ، ولكنني لا أستطيع طبعا أن أستنكرها دون أن أقرأها » •

وهنا عاد ثالمان يقول :« نحن أيضا لم نقرأها ، ولا قرأها غالب المندوبين الحاضرين هنا فيما عدا الروسيين » • كان ثالمان يتحـدث بالألمانية ، وكانت كلماته تترجم إلى الروسية لستالين ، وإلى الفرنسية لأجلي ولأجل شخصين آخرين ، فلما ترجمت لي كلماته لم أصدق أذني فالتفت إلى المترجم قائلا : « لا يمكن أن يكون ثالمان قد قال مثل هذا الكلام ، وأنا أطلب إليك أن تعيد ما قاله على مسمعي كلمة كلمة » •

عند هذا تدخل ستالين في الحديث ، وقد كان واقفا في جانب من جوانب الغرفة ، وكان يبدو الشخص الوحيد من بيننا الذي استطاع أن يتمالك نفسه ويحتفظ بهدوئه واطمئنانه •

قال ستالين : « إن المكتب السياسي للحزب قد رأى من غير الملائم أن تترجم مذكرة تروتسكي وتوزع على أعضاء اللجنة التنفيذية ، لأنها تشتمل على إشارات إلى سياسة الدولة السوفيتية • » (نشر تروتسكي هذه المذكرة الخفية في أوروبا فيما بعـد في كتيب بعنوان « مشاكل الثورة الصينية » ، ويمكن لمن يشاء أن يتأكد بنفسه من أنها خالية من

أية إشارة إلى سياسة الدولة السوفييتية ، وإنما تشتمل على هجوم منطقي دقيق على السياسة التي كان يتبعها ستالين ومعه الشيوعية الدولية فيما يتعلق بالصين •

كان ستالين قد تغنى بمدح شيانج كاي شيك ، وأعرب عن ثقته الشخصية في الحزب الوطني الثوري (الكومنتنج) ، في خطبة له في موسكو في الخامس عشر من نيسان (إبريل) عام ١٩٢٧ ؛ ولم يكد ينقضي أسـبوع ، حتى اتخذ الزعيم الوطني الصيني وحزبه خطتهم الجديدة المعادية للشيوعية ، فطرد الشيوعيون من « الكومنتنج » ، وقتل عشرات الألوف من العمال في شنغهاي ، ثم في وهان بعد ذلك بشهر واحد ، فكان من الطبيعي إذن أن يحرص ستالين على تجنب بحث هذه الأمور ، كي يحمي نفسه وراء ستار من « السياسـة العليا ») •

سألني إرنست ثالمان عما إذا كنت قد اقتنعت بتوضيحات ستالين ، فقلت : « إنني لا أماري في حق المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي بإبقاء ما يشاء من المذكرات سرية لا يطلع عليها أحد ، ولكن الذي لا أفهمه هو كيف يطلب إلينا استنكار مذكرة لم نقرأها » • وهنا قوبلنا أنا وتوكلياني ، الذي بدا متفقا معي في الرأي ، بعاصفة من السخط والاستنكار لا تعرف حدودا ، وخاصة من جانب الفنلندي الذي ذكرته من قبل ومن جانب البلغاري والهنغاري •

صرخ الفنلندي كوسفين وقد احمر وجهه غضبا « إنه شيء لا يتصور أن يكون لدينا داخل قلعة الثورة العالمية نفسها أمثال هذه البورجوازية الحقيرة » ، وقد تلفظ بكلمتي « البورجوازية الحقيرة » بنغمـة من السخط والإزدراء تثير الضحك • أما الشخص الوحيد الذي بقي هادئا لا يهتز فهو ستالين ، الذي قال : « إنه لا يمكن عرض هذا القرار المقترح

:

طالما هناك مندوب واحد لا يوافق عليه » ، ثم أضاف قوله : « لعل رفاقنا الايطاليين لم يتبينوا وضعنا الداخلي تماما ، لهذا أقترح أن يؤجل الاجتماع إلى غد ، وأن يتكفل أحد الرفاق الحاضرين بمهمة شرح وضعنا الداخلي لهم في هذا المساء » • وقد كلف البلغاري فاسيل كولاروف بهذه المهمة الشاقة •

ولقد قام كولاروف بما كلف به بلباقة وبشاشة ، فدعانا إلى كأس من الشاي نشربه في حجرته في فندق لوكس ، ثم دخل في هذا الموضوع الشائك دون مقدمات ، فقال مبتسما : « دعونا نتحدث بصراحة ، هل تعتقدون أنني قرأت هذه المذكرة ؟ لا والله ما قرأتها ، بل ولا يهمني أمرها كثيرا ، بل وأزيد على ذلك أن تروتسكي لو أرسل إليّ نسخة منها سرا لرفضت أن أقرأها • يا صديقي العزيز ، إن المسألة ليست مسألة مذكرات • إنني أعلم أن ايطاليا هي بلد الأكاديميات والقواعدوالآصول، ولكننا لسنا في أكاديمية هنا • إننا هنا نشهد صراعا بين جماعتين متنافستين داخل قيادة الحزب الشيوعي الروسي ، والمسألة هي : إلى أيٍّ من هاتين الجماعتين المتنافستين ننحاز ؛ فليس للمذكرات فيها قيمة ، إن مهمتنا ليست أن نجد الحقيقة التاريخية فيما يتعلق بثورة صينية فاشلة ، وإنما علينا أن نختار وجهتنا بين جماعتين متعاديتين متنافستين • أما أنا فقد عرفت طريقي ؛ أنا مع جماعة الأغلبية مهما فعلت الأقلية ومهما كتبت من مذكرات • إن المذكرات لا تعنيني فلسنا في أكاديمية » وهنا ملأ كؤوسنا مرة ثانية ونظر إلينا متفحصا ، نظرة المعلم إلى تلميذين متمردين عليه أن يعالجهما ، وأخيرا نظر إليّ خاصة وقال : « هل وضح لكم الأمر ؟

قلت : « لقد وضح الأمر حقا » قال : «فهل اقتنعتما؟» قلت : « لا » فقال متسائلا : « ولم لا ؟ » قلت : « هذا سؤال تقتضيني الإجابة عليه

أن أشرح لك أسباب عدائي للفاشية » ، فتظاهر كولاروف بالغضب ، بينما عبر توكلياتي عن رأيه بأسلوب أكثر اعتدالا ، وإن لم يكن أقل بلاغة ، قال : « إن الإنسان لا يستطيع أن يعلن نفسه مع الأغلبية أو مع الأقلية هكذا مقدما ، فلا مندوحة من بحث الأساس السياسي للمسألة » •

وأنصت إلينا كولاروف وعلى وجهه ابتسامة فيها التسامح وفيها الشفقة ، ثم قال وهو يصحبنا إلى الباب : « إنكم لا زلتم قليلي الخبرة بالسياسة ومتطلباتها » •

وفي صبيحة اليوم التالي تكرر المنظر السابق ، وتسلط على الحجرة الصغيرة ، التي حشد فيها اثنا عشر شخصا ، جو من التهيج والعصبية • قال ستالين يسأل كولاروف « هل أوضحت الموقف لرفاقنا الايطاليين ؟ » فأجاب : « أوضحته تماما » ، فعادستالين يكررقوله : « إنهلايمكنعرض القرار المقترح الى الجمعية العمومية طالما هناك مندوب واحد لا يوافق عليه ، فإن قرارا يؤخذ ضد تروتسكي لا بد وأن يكون إجماعيا ، فهل وافق رفاقنا الايطاليون على القرار المقترح ؟ »

فقمت ، بعد استشارة تدكلياتي ، وقلت « قبل بحث هذا القرار المقترح لا بد من رؤية المذكرة المقصودة » وقام الفرنسي ألبرت ترنت والسويسري جولز همبرت دروز وألقيا تصريحات مماثلة (انشق كل منهما فيما بعد على الشيوعية الدولية) •

قال ستالين : « سحبنا القرار المقترح • وبعد ذلك تجدد نفس المنظر الهستيري الذي عرفناه في اليوم السابق ، بين السخط والغضب والاعتراض من كوسفين وراكوزي وبيبر والآخرين • وقد استخلص ثالمان من موقفنا « المخزي » أن خطتنا في محاربة الفاشية في إيطاليا كانت كلها خاطئة ، وأننا نحن السبب في أن الفاشية لا زالت ثابتة

الأركان في إيطاليا ، وطلب لذلك أن ينظر المجتمعون في سياسة الحزب الشيوعي الايطالي ويغر بلوها ، كي ينفوا خبثها • ولقد قام المجتمعون بذلك فعلا ، واكتشف هؤلاء الباحثون المتعصبون ، كعقوبة على موقفنا الوقح ، أن الخطوط الرئيسية لنشاطنا ، والتي كان يتبعها في السنوات السابقة أنتونيو غراموكي ، كانت مشوبة الى حد خطير بروح بورجوازية حقيرة • بعد ذلك رأى توكلياتي أن من الحكمة لكلينا أن نرسل خطابا الى المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي ، نفسر فيه موقفنا في ذلك الاجتماع • وكان مضمون الخطاب أن أحداً لا يستطيع أن يمارس من أفضلية رفاقنا الروس وأحقيتهم في قيادة الشيوعية الدولية ، إلا أن هذه الأفضلية تلقي على رفاقنا الروس مسؤوليات خاصة ؛ فليس يحق لهم أن يمارسوا هذه الحقوق الممنوحة لهم بطريقة آلية تعسفية • وكان الذي تلقى الخطاب هو بوخارين الذي استدعانا في الحال ونصحنا بأن نسحب هذا الخطاب الذي قد يزيد موقفنا حرجاً وسوءاً •

وتلت ذلك أيام كانت بالنسبة إلي كئيبة قاتمة ، وجعلت أسائل نفسي : هل انحدرنا الى هذا القرار ؟ وهل ضحى بأنفسهم أولئك الذين ماتوا أو يموتون في السجون من أجل هذا ؟ ولم تلبث الكآبة والهبوط النفسي أن وصلا الى الحد الذي تصبح فيه الارادة مشلولة ، ويعجز الجسد عن المقاومة فينهار •

قبل مغادرة موسكو ، جاء لزيارتي عامل ايطالي كان قد التجأ الى روسيا هربا من سجن طويل المدى كانت قد حكمت عليه به احدى المحاكم الفاشية • (أعتقد أنه لا يزال شيوعيا الى اليوم) • جاء هذا العامل يشكو من الأحوال المخزية التي يعيش فيها العمال في المصنع الذي يعمل به • لقد كان على استعداد لأن يحتمل العجز والنقص في الأحوال المعيشية المادية مهما عظم ، مادام علاج هذه الأحوال لم يكن في طاقة

الأفراد ، إلا أنه لم يستطع أن يفهم لماذا يكون العمال تحت رحمة ادارة المصنع الى هذا الحد ، دون أن تكون لهم منظمة تحمي مصالحهم ، ولماذا يكونون حتى في هذه الناحية أسوأ حالا من العمال في الدول الرأسمالية • إن معظم ما يتحدثون عنه ويفخرون به من حقوق للطبقة العاملة هي أمور نظرية محضة لا أثر لها في عالم الواقع •

لما كنت في برلين ، في طريق عودتي ، قرأت في الصفيحة خبرا مؤداه أن اللجنة التنفيذية للشيوعية الدولية قد أنبت تروتسكي بلهجة شديدة على مذكرة له تتعلق بالأحداث القريبة في الصين ، وقد ذهبت في حينها الى مكاتب الحزب الشيوعي الألماني أطلب توضيحا من ثالمان وقلت له بحدة « ان هذا غير صحيح ! »

ولكنه أوضح لي أن دستور الشيوعية الدولية يخول للجنة الدائمة ، في حالة الضرورة ، أن تتخذ أي قرار باسم اللجنة التنفيذية • وفي الأيام القليلة التي كان علي أن أقضيها في برلين حتى ينتهوا من إعداد وثائقي ومستنداتي الزائفة ، قرأت في الصحف أن الأحزاب الشيوعية الأميركية والهنغارية والتشيكوسلوفاكية تأسف أشد الأسف للمذكرة التي كتبها تروتسكي ، فقلت أسأل ثالمان « إذن فقد ظهرت المذكرة الخفية أخيرا » فأجاب « لا ، وآمل أن يكون هذا التصرف من الأحزاب الشيوعية الأميركية والهنغارية والتشيكوسلوفاكية قد علمك معنى النظام في الشيوعية » ولم يكن في نغمته أي أثر للتهكم أو السخرية ، وإنما قال ما قال بجد موحش مقبض يلائم الكابوس الذي كان يجثم على النفس •

★ ★ ★

اضطررت بعد ذلك الى دخول مصحة سويسرية طلبا للعلاج الصحي ، فكان من اللازم أن تؤجل كل القرارات السياسية • وقد

التقيت في هذه الفترة ، وفي قرية قريبة من المصحة التي كنت أعالج فيها ، بتوكلياتي الذي جعل يفسر لي بكل صراحة ووضوح أسباب الخطة التي قرر أن ينتهجها ، وملخص ما قاله : أن وضع الشيوعية الدولية الحالي لم يكن فعلا مرضيا ولا مناسبا ، ولكن كل نوايانا الطيبة لا يمكن أن تغير من ذلك شيئا ، وينبغي أن ندخل في حسابنا أن المشكلة تتضمن أوضاعا تاريخية موضوعية لا يمكن تجاهلها ، إن نظام الثورة العمالية وقوانينها ليست تعسفية ، فإن لم تكن تتلاءم مع ما نشتهي فهو من سوء حظنا نحن ، وهل لدينا ما هو خير وأفضل ؟ ألا ترى كيف انتهى الأمر بمن انشق على الحزب ؟ ألا ترى وضع الاشتراكية الديموقراطية الفزع .

ولم تكن اعتراضاتي على آراء توكلياتي متماسكة قوية ، ولعل السبب الرئيسي في هذا أنها كانت آراء سياسية خالصة ، بينما كان الاضطراب الذي أثارته في نفسي هذه الأحداث القريبة التي مرت بي أعمق جذورا ، فما هذه « الأوضاع التاريخية » التي ينبغي أن ننحني أمامها ؟ وهل هي إلا طبعة جديدة من الواقع الأليم الذي ثرنا عليه يوم أعلنا أنفسنا اشتراكيين ؟ لقد أحسست كرجل أصيب بضربة هائلة على رأسه ولكنه بقي على قدميه يمشي ويتحدث دون أن يدرك تماما طبيعة ما حدث .

ثم جاء الإدراك فيما بعد في غضون السنوات التالية بطيئا أليما ، ولا زلت الى اليوم أدير الأمر في ذهني أحاول أن أزداد له فهما . وإن كنت قد كتبت كتبا فهي محاولة لأن أفهم وأساعد الآخرين على أن يفهموا ، وما أحسبني وصلت إلى غاية الجهد في هذا السبيل . لقد كان اليوم الذي تركت فيه الحزب الشيوعي يوما كئيبا حقا ، كان يوم حداد عميق .. حداد على شبابي الضائع ، ولقد ولدت في اقليم يلبس أهله الحداد مدة طويلة . وليس من السهل أن يحرر الانسان نفسه من مثل

هذه الخبرات العنيفة التي تمر بالمرء في المنظمة السرية للحزب الشيوعي ، فإن أثر هذه الخبرات يترك على الشخصية طابعا يصحب الانسان طول حياته ، حتى ليستطيع المرء أن يميز الشيوعيين السابقين عن غيرهم من الناس . إنهم يشكلون طائفة متميزة كطائفة القسس السابقين والضباط المتقاعدين ، ولقد صار عددهم اليوم كبيرا . وقد قلت مرات لتوكلياتي ضاحكا « إن الصراع النهائي سيكون صراعا بين الشيوعيين الحاليين والشيوعيين السابقين » .

لقد ظللت ، بعد أن تركت الحزب الشيوعي ، حريصا على ألا أنتهي بالانضمام الى إحدى المجموعات العديدة التي كونها الشيوعيون السابقون ، وما ندمت على هذا أبدا ، لأنني أعرف المصير الذي يحكم هذه المجموعات ، ويجعلهم فرقاً وطوائف فيها كل ما في الشكلية الشيوعية من سيئات التعصب والمركزية والنزعة الى التجريد ، وليس فيها الصفات والمزايا التي يستمدها الشيوعيون من ضخامة أعدادهم وكثرة أتباعهم . إن منطق المعارضة لأجل المعارضة قد حمل كثيرا من الشيوعيين السابقين بعيدا عن النقطة التي بدأوا منها ، حتى صاروا أقرب الى الفاشية .

إن طول التدبر في الخبرات التي مرت بي قد قادني الى تعمق في الدوافع التي أدت الى انفصالي عن الحزب ، والتي هي أعمق وأبعد من الأسباب العارضة التي انتجته . غير أن إيماني بالاشتراكية (الذي أحسب أن حياتي كلها شاهد عليه) قد بقي في داخلي أشد حيوية من ذي قبل ، وقد رجع هذا الإيمان في أصله وخلاصته الى ما كان عليه يوم ثرت لأول مرة ضد النظام الاجتماعي القديم ؛ أي رفض الاعتراف بشيء اسمه المصير المحتوم ، ونقل للباعث الخلقي من المجال الفردي والعائلي الضيق ، إلى حيث تكون الأرض كلها مجالا لنفوذه ، وضرورة

وجود الأخوة الحقيقية بين الناس ، وتأكيد لسمو الفرد الانساني على كل الأجهزة الاقتصادية أو الاجتماعية التي تمسك بخناقه وتضيق عليه • وقد أضيف الى هذا بمرور السنين إيمان بكرامة الإنسان وشعور بالاجلال لذلك الدافع الداخلي الذي يحثه دائما على التقدم والتطور وهو أساس ذلك التبرم والقلق الذي لا ينفك عنه، غير أنني لا أحسب هذا النوع من الاشتراكية غريبا على نفسي • إن « الحقائق المجنونة » التي عرضت لها في هذه الصفحات أقدم من الماركسية ؛ وقد وجدت لها في النصف الثاني من القرن الماضي الحركة العمالية التي نشأت لدى الرأسمالية الصناعية ، ولا زالت من أعظم ينابيع الإلهام فيها • لقد طالما عبرت عن رأيي في الصلات بين الحركة الاشتراكية وبين النظريات الاشتراكية ، وهي صلاة مرنة متطورة لا جامدة متحجرة • إن الدراسات الجديدة وتطورها قد يجعل النظريات شيئا قديما مضى أوانه ، ولم يعد يستحق البقاء ، إلا أن « الحركة » تستمر في سيرها • أنا لا أنظر الى السياسة الاشتراكية باعتبارها مرتبطة بنظرية معينة ، بل باعتبارها مرتبطة بعقيدة • إن النظريات الاشتراكية سريعة التحول والتبدل وإن كانت « علمية » كما يقال ، أما القيم الاشتراكية فانها ثابتة باقية ، وقد لا يميز الناس كثيرا بين النظريات والقيم ، إلا أن الفرق بينهما كبير • إنك على أساس النظريات يمكن أن تؤسس مدرسة ، أما على أساس القيم فيمكن أن تؤسس ثقافة أو مدنية ، وأن توجد طريقة جديدة لمعيشة الناس مع بعضهم البعض •

بسم الله الرحمن الرحيم

رتشارد رايت

نبذة عن حياته : (١)

ولد رتشارد رايت في الرابع من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٠٨ ، في احدى المزارع (المستعمرات) التي تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا من تاتشز من المسيسي ، من ابوين زنجيين فقيرين . وقد قامت والدته ـ بعد أن هجرها زوجها ـ بتربيته واعالته من عملها كغسالة للملابس ، الى أن أصيبت بالفالج ، فقامت جدته بتربيته ، وأرسلته الى احدى المدارس الدينية . وفي الخامسة عشرة ، بدأ انشغاله بالمطالعة ، وعزم على أن يكون كاتبا . وفي سن السابعة عشرة ، انطلق الى شيكاغو وفي جيبه مائة وخمسون دولاراً، وبدأ يكسب عيشه عن طريق أعمال مختلفة ، حتى جاء الكساد الاقتصادي فاصبح متعطلا . ولقد انضم الى الحزب الشيوعي عن طريق نادي جون ريد .

ومؤلفاته هي : أولاد العم توم (قصص قصيرة) ، وولد بيجر ، ابن الوطن ، والصبي الاسود .

---

(١) ولد رتشارد رايت ـ كما رأينا ـ في الجنوب ، والجنوب فيه التعصب العنصري في أقسى أحواله ، والسود هناك يلاقون من البيض ما لا يكاد يخطر على البال ، ولقد لاقى رتشارد رايت نفسه من ذلك الشيء الكثير ، وهو يتحدث عن ذلك في كتابه « الصبي الاسود » . ولما كانت نفسه تأبى الضيم ، فقد هاجر الى الولايات الشمالية ، ولقي في سبيل ذلك العنت الكثير ، حتى وصل أخيرا الى حيث أراد .

وتكاد حياة رتشارد رايت كلها أن تكون مثلا للرجل الذي لقي الكثير من العنت والأذى بسبب لونه الأسود ، فهو لذلك لا يسعى ولا يكتب الا في سبيل رفع هذا الظلم الذي يحيق بالسود سواء في الولايات الشمالية أو الجنوبية . ومما يذكر هنا أنه كان يحضر ويراقب اجتماعات مؤتمر باندونج لأنه يضم العناصر الملونة .

وسوف تتضح هذه النزعة للقارىء من سطور هذه الكلمات . (المترجم) .

مساء أحد أيام الخميس ، تلقيت من مجموعة من الشباب البيض ، كنت على معرفة بهم منذ كنا نعمل سويا في مكتب البريد ، دعوة للقاء في أحد فنادق الطرف الجنوبي من شيكاغو ، لكي تتباحث في أحوال الدنيا ، وقد اجتمع منا ما يقرب من عشرة ، وبدأنا نأكل الشطائر ونشرب ونتحدث ، فراعني أني وجدت الكثيرين منهم قد انضموا إلى الحزب الشيوعي •

وفي احدى أمسيات الخميس التالية ، أدهشني (سول) زميلنا اليهودي ، عندما أعلن أن إحدى قصصه القصيرة قد قبلت نشرها مجلة (أنفيل) التي يحررها جاك كونرو ، وانه كان قد انضم إلى منظمة ثورية لرجال الأدب والفن تدعى نادي جون ريد ، وقد طلب إلي سول بإلحاح أن أحضر اجتماعات هذا النادي •

ــ « تعال فسوف يعجبك » •

قلت : لا أريد أن أكون تحت سلطان منظمات •

قال : انهم سوف يساعدونك على أن تكتب •

قلت : لا أريد من أحد أن يعلمني كيف أكتب أو ماذا أكتب •

فقال : تعال وانظر فإنك لن تخسر شيئا •

لقد كنت أحس بأن اهتمام الشيوعيين بالزنوج لا يمكن أن يكون مخلصا • كنت متشائما ، أفضل أن أسمع رجلا أبيض يحدث عن كراهيته للزنوج (وهو أمر سهل تصديقه) على أن أسمعه يتحدث عن احترامه للزنوج ، إذ أن هذا يجعلني أتشكك في نياته •

وفي إحدى الليالي مللت القراءة ، فخرجت عازما على زيارة نادي جون ريد بصفة مستمع ، فركبت إلى الشارع ، ووجدت رقم البناية حيث واجهني درج مظلم يقود إلى أعلى ، وقد بدا منظره غير مشجع ، فقلت في نفسي : وما عسى أن يحدث من خير في مثل هذا المكان الأغبر؟

ونظرت فوقي خلال النوافذ فرأيت رسومات غامضة على الجدران ، ولما صعدت الدرج ، وصلت إلى باب كتب عليه : نادي جون ريد بشيكاغو •

فتحت الباب لأجد نفسي في أعجب غرفة مرت علي من قبل ، تناثرت على أرضها قصاصات الورق وأعقاب السكاير ، وعلى طول جدرانها امتدت رفوف فوقها رسوم بألوان زاهية تمثل هياكل ضخمة لعمال يحملون ألوية خفاقة ، وقد انفرجت أفواههم عن صرخات وحشية ، وامتدت أرجلهم عبر مدن بأسرها •

وسمعت صوتا يقول : « مرحبا » فتلفت لأجد رجلا أبيض يبتسم لي ، فأسرعت أقول : إن صديقا من أصدقائي عضو في هذا النادي سألني أن أحضر الى هنا ، وهو يدعى سول •••

فأجاب الرجل الأبيض : أهلا بك ، إنه لا يوجد لدينا الليلة عمل معين ، ولكن لدينا اجتماعا لهيئة التحرير • هل أنت رسام ؟ لقد كان أشيب الشعر قليلا ، وذا شوارب •

قلت : لا • أنا أعالج الكتابة •

فقال مقترحا : إذن فاحضر اجتماع هيئة التحرير لمجلتنا « الجبهة اليسارية » • قلت : أنا لا أعرف من أمور التحرير شيئا • فأجاب : يمكنك أن تتعلم • فحملقت فيه متشككا وأنا أقول : أنا لا أريد أن أكون عقبة في طريقكم •

فرد على ذلك بأن قال : اسمي جريم ، فأخبرته باسمي ، وتصافحنا ، ولم يلبث أن ذهب إلى غرفة مجاورة ثم عاد يحمل عددا كبيرا من المجلات • قال : إليك بعض الطبعات القديمة من « الجماهير » هل قرأتها من قبل ؟ قلت : لا • فقال موضحا : إن عددا من أحسن كتاب أميركا يكتبون فيها • ثم أعطاني أيضا أعدادا من مجلة تسمى « الأدب العالمي » وقال : تجد هنا كتابات لأندريه جيد ومكسيم غوركي •

فأكدت له أني سأقرؤها جميعا ، وبعد ذلك قادني إلى إحدى الغرف وقدمني إلى شاب يهودي على أنه سيكون أحد زعماء الرسم في وطننا ، ثم إلى فتى آخر على أنه سيكون من أبرز ملحني عصره ، ثم إلى كاتب ينتظر أن يكتب له بعضا من أفضل القصص في جيله ، وأخيرا إلى صبي يهودي على أنه هو الذي سيقوم بإخراج شريط (فيلم) عن احتلال النازي لتشيكوسلوفاكيا • وإذن فقد كنت أتعرف إلى أشخاص سوف أبقى معهم لعشرات السنين ، أي انهم سيكوِّنون أول علاقات دائمة من الصداقة في حياتي •

جلست في أحد أركان الغرفة أنصت إليهم وهم يبحثون أمور مجلتهم « الجبهة اليسارية » ، وأقول لنفسي : لماذا يعاملونني بهذا اللطف والمجاملة ؟ ألأنني زنجي ، وصممت على أن أجعل المنطق وحده هو الذي يوجهني في علاقاتي مع هؤلاء • وقد سألني بعضهم أن أساهم في الكتابة للمجلة ، فأجبت بأنني سوف أفكر في الأمر ، وبعد انتهاء الاجتماع التقيت بفتاة أيرلندية تعمل في وكالة للإعلان ، وتعمل مدرسة ، وهي زوجة لأحد الأساتذة البارزين في الجامعة • لقد مضى علي وقت كنت أعمل فيه خادما عند قوم من هذا الطراز ، ولذلك داخلني الشك ، وحاولت أن أسبر عواطفهم ، ولكنني لم أجد في سلوكهم أي شعور بالتنصل أو التنازل •

★ ★ ★

ولما ذهبت إلى البيت جعلت اتفكر في مقدار إخلاص هؤلاء البيض الذين التقيت بهم ، وأتساءل : هل هم فعلا يحملون هذا التقدير والاحترام للزنوج ؟ ، ثم اضطجعت على السرير ، وجعلت أقرأ المجلات ، وأذهلني أن أدرك أن في الدنيا من يسعون سعيا منظما لإدراك الحقائق عن حياة

الطوائف المظلومة والمنبوذة • إنني عندما كنت أطرق أبواب المسؤولين لأجل الخبز كنت أتساءل هل يمكن للمنبوذين أن يصبحوا كتلة واحدة في العمل والتفكير والشعور ، والآن وجدت الجواب • لقد كان هذا قائما فعلا في سدس الكرة الأرضية : لقد كانت الكلمات الثائرة تقفز من صفحات المجلة ، وتصدمني بقوتها الهائلة •

لم تكن اقتصاديات الشيوعية ، ولا قوة سلطان نقابات العمال فيها ، ولا لذة العمل السري ، هي التي جذبتني ، بل ان الذي استرعى اهتمامي هو ما هناك من تشابه بين ما يلاقيه العمال من كل مكان ، وإمكانية توحيد هذه الشعوب المبعثرة في وحدة واحدة بسبب ما بينها من تشابه ، لقد بدا لي أنه أصبح من الممكن الآن في نطاق هذا الأسلوب الثوري أن تجد إحساسات الزنوج وما يلاقونه لسانا ناطقا ، ودورا إيجابيا ذا قيمة • لقد كانت تبرز من بين سطور المجلات التي كنت أقرأ دعوة حارة إلى كل المحرومين أن يعلنوا عن أفكارهم وخبراتهم ، وليس فيها ما في دعوة المبشرين من عوج ؛ إذا لم تكن تقول : « كن مثلنا ولعلنا نحبك » ، ولكنها كانت تقول : « إذا كنت من الجرأة بحيث تستطيع أن تعلن عن نفسك وعما تلقاه ، فسوف تجد أنك لست وحدك » • لقد كانت تحث الأحياء على أن يؤمنوا بالحياة •

وظللت أقرأ طوال الليل ، ولما أوشك الفجر أن يبزغ قمت من سريري إلى الآلة الكاتبة وأنا أحس بأنني أستطيع الآن لأول مرة أن أتحدث إلى آذان مصغية ، وكتبت قصيدة هائجة ركيكة ، فيها خيالات وصور عن الأيدي السوداء وهي تعمل وتحمل اللواء حتى تتصلب أخيرا وتسقط ميتة • لقد أحسست أن هذه القصيدة ، بطريقة ما ، كانت تربط بين حياة البيض وحياة السود ، وتدمج خبراتهما في تيار واحد •

وسمعت حركة في المطبخ وصوت أمي يقول :

— « رتشارد هل أنت مريض ؟ » •

— « لا ، بل أقرأ » •

وفتحت أمي الباب وحملقت مستطلعة إلى كومة المجلات فوق وسادتي ، وتساءلت : أنت تبعثر نقودك في شراء هذه المجلات : أليس كذلك ؟

قلت : لا ، بل أعطيت إلي دون مقابل •

وسارت تعرج برجلها المشلولة إلى سريري ، ثم التقطت نسخة من « الجماهير » كانت مزينة برسم كاريكاتوري لعيدالربيع ، وثبتت عويناتها على عينيها ، وجعلت ترمقها فترة ثم قالت بفزع : يا إلهي !

قلت : ماذا هناك يا أمي ؟

قالت وهي تمد يدها بالمجلة إلي وتشير إلى الغلاف : ما هذا ؟ ما خطب هذا الرجل ؟

فجعلت أنظر إلى رسم كاريكاتوري من صنع فنان شيوعي بعيني أمي التي وقفت إلى جانبي ، لقد كان الرسم يمثل هيكل عامل يلبس ثوبا ممزقا ويرفع علما أحمر عاليا فوق رأسه ، وكانت عيناه جاحظتين ، وقد فغر فاه بعرض وجهه وكشر عن أسنانه وتوترت عضلات رقبته كأنها الحبال ، وقد سار وراء الرجل حشد من الرجال والنساء والاطفال لا يوصف ، وهم يلوحون بالعصي والحجارة والفؤوس •

وتساءلت أمي: إلى أين يذهب هؤلاء الناس ؟ قلت مراوغا : لا أدري • قالت : أهذه المجلات شيوعية ؟ قلت : نعم •

قالت : وهل يطلبون من الناس جميعا أن يتصرفوا هكذا ؟

فلم أدر بماذا أجيب •

لقد كان يبدو على وجه أمي الاشمئزاز والنفور القلبي ، فقد كانت أمرأة رقيقة ، مثلها الاعلى المسيح على الصليب ، فكيف أستطيع أن أخبرها

بأن الحزب الشيوعي يريد منها أن تسير في الطرقات مرتلة ومنشدة ؟

واستأنفت أمي تقول : ما ظن هؤلاء الشوعيين بالناس ؟

فقلت وأنا أتحسس الكلمات : إنهم لا يقصدون ما ترين هنا •

— إذن فماذا يقصدون ؟ — قلت : هذه رموز فقط •

قالت : إذن فلماذا لا يعلنون بوضوح عما يريدون ؟ قلت : لعلهم لا يدرون كيف •

قالت : إذن فلماذا ينشرون هذا ؟

قلت : إنهم لم يعرفوا بعد كيف يستميلون الناس ويؤثرون فيهم •

وساءلت نفسي من من الناس أستطيع أن أقنع بهذا اذا لم أستطع اقناع أمي •

قالت : ان هذه الصورة وحدها تكفي لدفع المرء الى الجنون ، ثم طرحت المجلة واستدارت لتخرج ، ولكنها توقفت عند الباب لتقول : عسى ألا تكون قد اختلطت بهؤلاء الناس ؟

فقلت مراوغا : يا أمي أنا أقرأ فقط •

ولما غادرت أمي الغرفة جعلت أتفكر فيما اتضح لي من عجزي عن مواجهة اعتراضها البسيط ، وعدت أنظر الى غلاف « الجماهير » وأدركت أن الرسم لم يكن يعبر عن عواطف الشعب ، ثم عدت الى المجلة أقرأها من جديد ، فاقتنعت بأن كثيرا مما فيها يصور ما يظن الكتاب أنه يستهوي الآخرين ويكسبهم الانصار ، لقد كان لدى الكتاب برنامج ومثل أعلى ولنكهم لم يكونوا قد وجدا بعد لغة يتخاطبون بها مع الناس •

واذن فهناك جهة استطيع أن أقوم بها ، لقد كان الشيوعيون ينظرون الى الجماهير وخبراتهم نظرة ابسط من الحقيقة بكثير ، انهم في محاولتهم تجنيد الجماهير قد ضلوا عن فهم حياة الجماهير ، فكانوا ينظرون الى الناس نظرة عامة مجردة اكثر مما ينبغي ، فما علي اذن الا ان انقل الى

الشيوعيين احساسات الجماهير وعواطفهم ، وأنقل الى الجماهير مقدار تضحية الشيوعيين الذين يعملون في سبيل توحيد هذه الجماهير ٠

وقد قبل محرر (الجبهة اليسارية) اثنتين من قصائدي الركيكة للنشر وأرسل اثنتين الى جريدة (أنقيل) وواحدة الى (الجماهير الجديدة) التي خلفت جريدة الجماهير ، وكان الشك لا يزال يراودني فقلت له :لا ترسل هذه القصائد اذا لم تكن مناسبة ٠

فقال : بل هي مناسبة ٠٠

قلت : هل تفعل ذلك كي انضم الى الجماعة ؟

قال : لا ٠ حقا ان القصائد ركيكة ، ولكنها مناسبة لنا ، فنحن جميعا كما ترى جديدون في هذا الميدان ،ونحن نكتب مقالات عن الزنوج ولكننا لا نرى منهم أحدا ، واذن فنحن في حاجة الى ما تكتبه أنت ٠

وجلست خلال عدة اجتماعات للنادي ،وقد أثر فيّ ما لمسته من اتساع نطاق نشاطهم وحماستهم ٠ لقد كان النادي يطالب بأن توجد الحكومة وظائف للفنانين والكتاب العاطلين ، وينظم اقامة المعارض الفنية ،ويجمع الاعتمادات لاصدار جريدة « الجبهة اليسارية » ويرسل عشرات الخطباء والدعاة الى اجتماعات نقابات العمال ٠ لقد كان الاعضاء متحمسين ديموقراطيين دائبي الحركة غيورين مضحين ٠ وأخيرا اقتنعت وقررت أن أجعل مهمتي هي تعريف الزنوج من هم الشيوعيون ، وكانت الفكرة التي راودتني هي أن أكتب سلسلة من التراجم المجملة لبعض الشيوعيين الزنوج ٠ وما حدثت أحدا بما راودني ، وما كنت أعلم كم كانت فكرتي ساذجة ومغرقة في الخيال ٠

★ ★ ★

لم أكد أحضر غير اجتماعات قليلة حتى أدركت أن معركة داخلية مريرة تدور رحاها بين جماعتين من أعضاء النادي ، فقد كانت المناقشات

الحارة تقوم في كل اجتماع ، ولاحظت أن جماعة صغيرة من الرسامين هي التي كانت توجه فعلا سياسة النادي وتسيطر عليه ، أما جماعة الكتاب التي تمركزت في « الجبهة اليسارية » فقد كانت تضيق بتحكم جماعة من الرسامين ، ولما كان الذي يهمني أولا هو مجلة « الجبهة اليسارية » فقد انحزت بإخلاص ساذج الى جماعة الكتاب ٠

ثم حدث تطور غريب ، فقد أعلنت جماعة « الجبهة اليسارية » أن هذه القيادة المتسلطة لم تكن تمثل رغبات النادي ، ثم دعي الى اجتماع خاص قدم فيه طلب بإعادة انتخاب رئيس اللجنة التنفيذية ، ولما بدأ ادراج أسماء المرشحين وضع اسمي بينهم فاعتذرت عن هذا الترشيح ، معلنا بأنني لا زلت جاهلا بأهدافهم ووسائلهم بحيث لا يمكن أن أقوم بالعمل ٠ واستمر النقاش طوال الليل وعند الصباح أخذ التصويت بطريقة رفع الأيدي ، وانتخبت ٠

وعلمت فيما بعد تفاصيل ما حدث ، فإن جماعة الكتابة استعانوا بي لطرد جماعة الرسامين الذين كانوا أعضاء في الحزب من القيادة ، فواجهوا أعضاء النادي — دون موافقتي أو علمي — بأحد الزنوج مطمئنين الى أنه من الصعب أن يصوت الشيوعيون ضد رجل يمثل أكبر أقلية عنصرية في الأمة ، مادامت المساواة بين الزنوج والبيض تمثل إحدى عقائدهم الرئيسية ٠

ولم ألبث أن أدركت — باعتباري رئيسا للنادي — طبيعة المعركة ، فإن الشيوعيين كانوا قد نظموا سرا « تجمعا » في داخل النادي أي ان قسما صغيرا من أعضاء النادي كانوا أعضاء سريين في الحزب الشيوعي ، وكانوا يجتمعون خارج النادي ليقرروا السياسة التي ينبغي أن يسير عليها النادي ، أما في اجتماعات النادي فقد كانت قوة اقناعهم تكفي عادة لإقناع الأفراد الآخرين بالتصويت معهم ٠ وإذن فقد وضح

اللغز ، لقد كان الأعضاء غير الحزبيين في النـادي يضيقون بالمطالب الكثيرة التي تفرضهـا عليهم سلطات الحزب المحلية عن طريق هذا « التجمع » •

لقد كانت مطالب سلطات الحزب المحلية للنفور والخطباء ورسومات الإعلانات وغيرها من الكثرة بحيث هددت صدور مجلة « الجبهـة اليسارية » • إن كثيرا من صغار الكتاب كانوا قد انضموا الى النادي على أمل أن يتمكنوا من الكتابة في « الجبهة اليسارية » ، فلما أعلن الحزب الشيوعي — عن طريق تجمعه — أن المجلة ينبغي أن تحل ، رفض الكتاب هذا القرار وعارضوه ، فاعتبر ذلك اتجاها عدوانيا ضد سلطات الحزب •

وقد طالبت أعضاء الحزب بمنهج وبرنامج للنادي أقرب الى الحرية والاستقلال ، وبدأ الشعور يزداد عنفا ومرارة ، وأخيرا صورحت بأن علي أن أنضم الى الحزب الشيوعي إن كنت أنوي أن أبقى رئيسـا للنادي ، فذكرت لهم أنني أؤيد السياسة التي تعين على نمو الكتاب والرسامين وتطورهم ، فوافقوا على سـياستي ، ووقعت على بطاقة الانتساب •

وذات ليلة ظهر في إحدى اجتماعاتنا شاب يهودي قدم نفسه إلينا باسم الرفيق « يونج » من ديترويت وأخبرنا بأنه عضو في الحزب الشيوعي وفي فرع نادي جون ريد في ديترويت ، وأنه ينوي الإقامة في شيكاغو • لقد كان شابا قصيرا ودودا ، أسود الشعر ذا عينين جاحظتين قليلا ، كما كان ذا اطلاع واسع • ولما كان يسرنا أن نستجيب لأوامر الحزب الشيوعي فقد رحبنا به • إلا أنني لم أستطع أن أكشف شخصية « يونج » هذا ؛ لقد كنت إذا سألته أي سؤال بسيط حول بصره عني وأجاب بكلام مضطرب غامض ، وقررت أن أطلب المعلومات عنه

من الحزب الشيوعي للتأكد من صدقه ، وقيدته على الفور عضوا في النادي وأنا أقول لنفسي : لا بأس به ، وإنما هو مجرد فنان غريب الأطوار •

وبعد الاجتماع واجهني « يونج » بمشكلة ؛ فقد أخبرني أنه لا يحمل نقودا ، وسأل إن كان من الممكن أن نسمح له بأن ينام في النادي مؤقتا ، فأذنت له لما بدا من إخلاصه • ولم يمض وقت طويل حتى كان « يونج » من أكثر أفراد النادي غيرة وحماسة ، حتى صار موضع إعجاب الجميع • أما رسوماته — التي لم أكن أفهمها — فقد أعجب بها خير رسامينا • ولم يصلنا رد من الحزب الشيوعي حول « يونج » ولكننا لم نهتم بهذا لما بدا من جده وإخلاصه في العمل •

وفي احدى اجتماعات النادي ذات مساء طلب « يونج » وضع اسمه في قائمة المتكلمين ، فلما جاء دوره قام ليلقي أعنف وأمر هجوم سياسي في تاريخ النادي ضد « صوان » الذي كان من أفضل فنانينا الشبان • وقد أذهلنا هذا الهجوم المفاجىء • لقد اتهم « يونج » « صوان » بأنه خائن للحركة العمالية ، وانتهازي ، ومتعاون مع الشرطة ومن أنصار « تروتسكي » ، وكان من الطبيعي ان معظم أعضـاء النادي ظنوا أن « يونج » إنما كان يعبر بهجومه هذا عن رأي الحزب الشيوعي لأنه عضو فيه ، وقد طلبت — وأنا في دهشة وحيرة — أن يحول هذا الاتهام الى اللجنة التنفيذية لتصدر قرارها بشأنه ، فاعترض « صوان » — وحق له أن يعترض — معلنا بأنه قد هوجم علنا ولا بد وأن يجيب علنا •

وافق الأعضاء على منح « صوان » حق الكلام فقام يفند اتهامات « يونج » العنيفة ، ولكن معظم أعضاء النادي كانوا في حيرة لا يدرون ماذا يصنعون • لقد كنا جميعا نحب « صوان » ولا نعتقد أنه قد ارتكب إثما ما ، ولكننا لم نكن نريد أن نغضب الحزب ، ثم تلت ذلك معركة

كلاميـــة ، وفي النهاية قام الأعضـــاء الذين سكتوا طوال هـــذه المدة مراعاة لخاطر الحزب يطالبونني بسحب هذه الاتهامات الحمقاء ضـــد « صوان » ، ومرة أخرى طلبت تحويل الأمر الى اللجنة التنفيذيـــة فرفض الطلب ، لقد بدأ المجلس يتشكك في دوافع الحزب ونواياه فكانوا يخافون أن يتركوا اللجنة التنفيذية ــ ومعظم أفرادهـــا أعضاء في الحزب ــ يصدرون قرارهم في اتهامات « يونج » وهو بدوره عضو في الحزب •

وقد سألني جماعة من الأعضاء فيما بعد عما إذا كانت لي علاقة باتهامات « يونج » فأنكرت كل علاقة لي « به » لما كنت أحس به من خزي وألم ، ولما كنت مصمما على إنهاء هذه المهزلة فقد أحرجت « يونج » وطالبته بأن يعرفني من أعطاه سلطة تعنيف « صوان » بهذا الشكل فأجاب :

ــ لقد طلب إلي أن أخلص النادي من الخونة •

فقلت : ولكن « صوان » ليس خائنا •

فأجابني بعينين جاحظتين ووجه يرتجف انفعالا : ينبغي أن يكون هناك تطهير ولم يلبث أن تطور الموقف الى أسوأ ، فقد أخبرني وفد من أعضاء النادي أنه إذا لم تسحب هذه الاتهامات التي وجهت ضد « صوان » فسوف يستقيلون جملة ، فأسرعت كالمجنون وكتبت الى الحزب الشيوعي أسأل عن السبب في إصـــدار الأوامر بمعـــاقبة « صوان » ، فجاءني الجواب بأنه لم تصدر أوامر بهذا المعنى • وإذن فماذا كان يريد « يونج » بهذا ، ومن الذي كان يدفعه ؟ وأخيرا رجوت النادي أن يدعني أضع الأمر كله بـين يدي قادة الحزب الشيوعي ، فوافقوا بعد مناقشة حامية •

وذات ليلة اجتمع عشرة منا في مكتب أحد قادة الحزب الشيوعي

لنستمع الى « يونج » وهو يعيد ما سبق أن وجهه من اتهامات الى « صوان » • وقد أعطى الزعيم الشيوعي اشارة البدء الى « يونج » بطريقة من يوشك أن يرى شيئا مسليا ، فلم يلبث هذا أن جعل ينشر رزمة أوراقه ، ثم ألقى بحماسته المعروفة قائمة من الاتهامات السياسية فاقت اتهاماته السابقة في إثمها وفجورها • وقد جعلت أحملق في «يونج» شاعرا بأنه كان يرتكب خطأ فاحشا ، ولكنني خشيت أن أقول شيئا لأنه ــ حسب زعمه ــ كان يحمل مصادقة السلطة السياسية العليا •

وعندما انتهى « يونج » قال الزعيم الشيوعي : أتأذن لي بقراءة هذه الاتهامات ؟ فأجاب « يونج » وهو يسلمه نسخة منها : طبعا ، ويسكنك الاحتفاظ بهذه النسخة ، فان عندي عشرة نسخ على الكربون•

فتساءل الزعيم : ولماذا كل هذا العدد من النسخ ؟

فأجاب : خشيت أن تسرق •

وهنا قال « صوان » نافذ الصبر : لئن أخذتم اتهامات هذا الرجل مأخذ الجد لأستقيلن ، ولأفضحن هذا النادي علنا •

وهنا صرخ « يونج » قائلا : أرأيتم ، ألم أقل إنه مع الشرطة ؟

وشعرت بالاشمئزاز ؛ وانتهى الاجتماع بوعد من الزعيم الشيوعي بأن يقرأ الاتهامات بعناية ثم يقرر ما إذا كان « صوان » سيحاكم أم لا • لقد كنت مقتنعا بأن هناك خطأ ما ، ولكنني لم أكن أدري ما هو ، وذات مساء ذهبت الى النادي كي ألتقي بـ « يونج » لأحادثه ، ولكنني عندما وصلت لم أجده هناك ، ولا كان هناك في اليوم التالي ، وظللت أسبوعا أبحث عنه دون جدوى ، وكنت اذا سألني أعضاء النادي عن مكانه وأجبت بأنني لا أدري أشعر أنهم لا يصدقونني ، فهل كان مريضا ؟ أم هل قبضت عليه الشرطة ؟ لم أكن أدري •

وذات مساء تسللت أنا والرفيق « جريم » الى مسكنه في النادي

وفتحنا أمتعته فأدهشنا ما رأيناه . رأينا أولا لفافة من الأوراق طولها قريب من عشرين ياردة ، وهي عبارة عن مجموعة من الأوراق ملتصقة أطرافها ببعضها ، وعليها رسومات توضح تاريخ الجنس البشري من وجهة النظر الماركسية ، ومعنونة بـ « سجل مصور لتطور الانسان الاقتصادي » .

فقلت : ماهذا الطموح الفظيع .

وقال جريم : إنه لعظيم الهمة والنشاط .

وكانت هناك أيضا أبحاث طويلة كتبت بالخط العادي ، بعضها سياسي والبعض الآخر يتعلق بتاريخ الفن . وأخيرا وجدنا خطابا عليه عنوان المرسل من ديترويت ، فكتبت الى هذا العنوان في الحال أسألهم معلومات عن صاحبنا ، وبعد بضعة أيام وصلنا خطاب جاء فيه :

« سيدي العزيز :

ردا على خطابكم نرجو أن تحاطوا علما بأن السيد « يونج » ، الذي كان مريضا في مصحتنا ، والذي تمكن من الهرب منذ بضعة أشهر ، قد تم الحجز عليه ، وأعيد الى المصحة لمعالجته من مرضه العقلي » .

لقد أصابني هذا الخطاب بما يشبه الذهول . هل كان هذا صحيحا ؟ لقد كان صحيحا دون شك . وإذن فأي نوع من النادي ذلك الذي يقبل مجنونا بين أعضائه ليساعد في تسيير دفته وتحديد سياسته ؟ هل كنا جميعا مجانين الى حد أننا لم نستطع اكتشاف هذا المجنون بيننا ؟

وبعد ذلك تقدمت بطلب بإسقاط كل الاتهامات التي وجهت ضد «صوان» فتم ذلك ، ثم قدمت الاعتذار الى « صوان » ولكنني بعد

هذه المحنة أصبحت كرئيس لنادي جون ريد بشيكاغو شيوعياً أكثر اتزانا في شيوعيتي من ذي قبل .

★ ★ ★

طلبت الى « التجمع » الشيوعي في نادي جون ريد أن أطلب من خليتي في الحزب إعطائي سلطات كاملة في عملي في النادي ، كما طلب الي أن أقدم لخليتي تقريرا عن نشاطي وكتاباتي وخطبي وأعمالي الادارية ، فوافقت على ذلك وكتبت التقرير المطلوب .

إن الخلية هي أساس التنظيم في الحزب ، والعضوية فيها مفروضة على كل شيوعي ، واجتماعات هذه الخلايا تعقد في ليال معينة يتبقى أمرها سرا خوفا من غارات الشرطة . ولا يكون في هذه الاجتماعات عادة شيء من التآمر أو الخيانة ، ولكن يكفي أن تكون شيوعيا حتى تجتذب انتباه الشرطة دون حاجة الى أن ترتكب خطأ ما .

وذهبت الى أول اجتماع لي في الخلية في القسم الجنوبي من المدينة ، وقدمت نفسي الى منظم الخلية الزنجي .

فقال كاشفا عن أسنانه : مرحبا بالرفيق ، انه ليسرنا أن يكون بيننا كاتب مثلك ، فقلت : لست كاتبا كما تظن .

وبدأ الاجتماع وكان فيه مايقارب عشرين زنجيا ، وجاء أوان تقديم تقريري فأخرجت مذكراتي ، وأخبرتهم عن كيفية انضمامي الى الحزب ، وعن المقالات القليلة الشاردة التي نشرت لي ، وعن مهامي في نادي جون ريد ، ثم انتظرت قرارهم . ولاحظت أن هناك سكونا مطبقا ، فنظرت حولي لأجد معظم الرفاق منكسي الرؤوس صامتين ، ثم أدهشني أن أرى ابتسامة عابرة على شفتي امرأة زنجية . ومضت الدقائق ، فرفعت المرأة الزنجية رأسها ونظرت الى منظم الخلية الذي

أخمد ابتسامة بدت على شفتيه ، وهنا انفجرت المرأة ضاحكة وقد مالت الى الأمام ودفنت وجهها بين يديها ، وجلست أحملق حولي وأنا أتساءل هل كان مني ما يجلب الضحك ؟ وأخيرا قلت لهم :

ـ ماذا هناك ؟ فعمت القهقهة جميع الأعضاء ، ثم نظر الي منظم الخلية ، الذي كان يعبث بطرف قلمه ، الى أعلى وقال : لا بأس أيها الرفيق إنما نحن مسرورون أن يكون معنا في الحزب كاتب •

وتلا ذلك ضحكات أخرى مكتومة ، فقلت لنفسي أي نوع من الناس هؤلاء ؟ أقدم لهم تقريرا جديا فلا أسمع إلا قهقهة !

ثم قلت باضطراب : لقد صنعت أقصى ما استطعت ، وأنا أعلم أن الكتابة ليست أساسية أو ضرورية ، ولكني لو أعطيت وقتا ، فلعلي أقوم ببعض العمل النافع •

فقال المنظم الأسود : نحن نعلم أنك تستطيع أيها الرفيق •

لقد كان في نغمة صوته من معنى الرعاية والمواساة ما لم أجده في صوت الرجل الأبيض في الجنوب ، فأغضبني ذلك • لقد كنت أحسب أنني أعرف هؤلاء الناس ولكن وضح الآن أنني لم أكن أعرفهم • وخطر ببالي أن أحتج على هـذا الموقف ، ولكن الحذر دفعني الى أن أبدأ ببحث هذا الأمر مع آخرين •

وخلال الأيام التالية علمت ، بما ألقيت من أسئلة في حرص وحذر ، أنني كنت أبدو لهؤلاء الشيوعيين الزنوج عنصرا عجيبا ، وقد أذهلني ما علمت من أنهم وضعوني في قائمة « رجال الفكر » رغم أنني ما كنت قد درست أكثر من المدرسة الثانوية ، وقد تساءلت ما معنى « رجل الفكر » ماكنت قد سمعت هذه الكلمة بالمعنى الذي يمكن أن ينطبق علي • لقد كنت أخشى أن أرفض على أساس أنني غير متقدم من حيث الوعي السياسي ، أو أن يقولوا : إن عليهم أن يفحصوا شأني أولا ،

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وإنما ضحكوا فقط •

لقد أحزنني أن أعلم أن كل تعليقات الشيوعيين السود كانت تدور حول حذائي اللامع ، وقميصي النظيف ، وربطة العنق التي كنت ألبسها، كما بدت لهم طريقتي في الكلام بعيدة عنهم كل البعد ، فقال أحدهم : إنه يتكلم ككاتب ، وكان هذا كافيا لأن يدفعني إلى الأبـد على أنني بورجوازي •

★ ★ ★

في أثناء عملي الحزبي ، التقيت بشيوعي زنجي يدعى « روس » ، كان متهما من قبل السلطات الحكومية بأنه « محرض على الشعب » ؛ وكان « روس » حقا نموذجا لمثير الجماهير الناجح • كان قد ولد في الجنوب ، ثم هاجر الى الشمال ، وكانت حياته تعكس الآمال الفجة للريفي الساذج الذي ينتقل الى المدينة حين تخيب هذه الآمال • كان مرتابا في الناس ، ميالا في الوقت نفسه الى العدوان ، فكان حزمة من النقائص والفضائل التي يتصف بها رجل يناضل على غير هدى ليجد لنفسه مكانا بين مجتمعين متناقضين ، رجل يحيا على هامش المدينة • لقد أحسست بأنني اذا عرفت قصة هذا الرجل أمكنني أن أبين للناس الصعوبات التي يلقاها أهل الريف حـين يسعون للانسجام مع مجتمع المدينة الجـديد ، وأن أجعل حياته مفهومة للآخرين أكثر ممـا هي مفهومة له •

تقربت الى « روس » وشرحت له خطتي فأبدى لطفا واستعدادا ، ودعاني الى بيتـه ، وقدمني الى زوجتـه اليهودية وولده الصـغير وأصدقائه ، وتحدثت الي « روس » عدة ساعات ، شرحت له فيها ما أنا

بسبـيله ، وحذرته من أن يحـدثني عن شيء لا يريد إفشـاءه ، وقلت له :

ـ إن ما أريد أن أعرفه هو : ما الذي دفعك الى أن تصير شيوعيا ؟

وانتشر الخبر في الحزب الشيوعي أنني أكتب مذكرات عن حياة « روس » ، ومن ذلك الحين بدأت تحدث أمور غريبة ، ففي احدى الليالي جاء الى بيتي شيوعي زنجي وطلب الي أن أخرج معه الى الطريق كي يحدثني حديثا خاصا ، فلما وصلنا الى حيث أراد ، التفت الي وقال بوقار :

ـ إن « رجال الفكر » يا « رايت » لا ينسجمون عادة مع هذا الحزب .

فقلت معترضا : ولكني لست من رجال الفكر ، إني أكنس الشوارع لكي أحصل على لقمة العيش . وكنت فعلا في ذلك الحين أتناول ثلاثة عشر دولارا في الأسبوع من جمعية الإسعاف مقابل كنس الشوارع .

قال : هذا لا يغير من واقع الأمر شيئا ، إن لدينا سجلا بالمتاعب التي لقيناها من « رجال الفكر » في الماضي ، وتقدر نسبة من يبقى منهم في الحزب بثلاثة عشر في المائة .

ـ ولماذا يتركون ؟ ما دمت تصر على اعتباري من رجـال الفكر ؟

فقال : معظمهم يترك من تلقاء نفسه .

قلت : حسنا .. أنا لست أترك من تلقاء نفسي .

فقال بأسلوب التلميح : بعضهم يطردون .

ـ لماذا ؟

قال : بسبب المعارضة لسياسة الحزب .

ـ ولكني لم أعارض شيئا في سياسة الحزب .

قال : سوف يكون عليك أن تثبت إخلاصك الثوري .

قلت : كيف ؟

قال : إن للحزب طريقا في اختيار الناس .

قلت : حسنا .. تكلم .. ما هو هذا الطريق ؟

قال : ما هو تفاعلك مع الشرطة ؟

قلت : ليس لي تفاعل معهم ، فإن أحدا منهم لم يضايقني مطلقا .

قال : هل تعرف « إيفانز » ؟ (يشير بذلك الى أحد الشيوعيين الزنوج المجاهدين في بلدنا) .

قلت : نعم رأيته والتقيت به .

قال : هل لاحظت ان به جرحا ؟

قلت : نعم ، فقد رأيت رأسه معصوبا ؟

قال : لقد أصابته الشرطة بهذا الجرح أثناء إحدى التظاهرات . هذا دليل الإخلاص الثوري .

قلت : استمع إلي ، إفرض أن رجلا من الشرطة ضربني على رأسي ضربة سببت لي ارتجاجا في المخ ، إفرض أنني أصبت بالخبل بعدذلك، فهل حتى أثبت إخلاصي ؟

قال : أنا لست أقترح شيئا ، ولكنني أشرح فقط .

قلت : إستمع إلي ، إفرض أنني أصبت بالخبل بعد ذلك ، فهل أستطيع أن أكتب ؟ وعلى أي شيء أكون قد برهنت حينئذ ؟

وهنا هز رأسه وقال : لقد كان على الاتحاد السوفيتي أن يقتل الكثير من « رجال الفكر » .

فهتفت : يا إلهي ! أتدري ما تقول ؟ إنك لست في روسيا ، إننا نقف الآن على رصيف شارع في شيكاغو . إنك تتكلم كرجل يعيش في الأحلام .

قال يسألني : لقد سمعت عن تروتسكي ، أليس كذلك ؟

قلت : بلى .

قال : هل علمت بما حدث له ؟

قلت : نفي من الاتحاد السوفيتي .

قال : هل علمت السبب ؟

قلت متلعثما وأنا أحاول أن أخفي جهلي بالسياسة ، إذ لم أكن قد تابعت تفاصيل معركة تروتسكي مع الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، : حسنا .. يبدو أنه بعد أن اتخذ قرارا ما ، نقض هو هذا القرار ، بأن أقام تنظيما معارضا للحزب .

وهنا اسرع بصبر نافذ يقول : « بسبب النشاط المعادي للثورة »، وقد علمت فيما بعد أن اجابتي لم تعجبه ، لانها لم تكن مصاغة في أسلوب من النقد والتشهير بتروتسكي بحيث تكون مقبولة .

قلت : حسنا ، فهمت ، ولكنني لم أقرأ تروتسكي ، فما الذي جعله يصر على رأي الاقلية ؟

قال : ولم تسألني أنا ؟. أنا لا أقرأ لتروتسكي .

قلت : اسمع . لنفرض أنك رأيتني أقرأ لتروتسكي فماذا يعني ذلك عندك ؟

فأجاب ضيقا : أيها الرفيق ، أنت لا تفهمني .

وهكذا انتهت المناقشة ، ولم تكن هذه هي المرة الاخيرة التي اسمع فيها قائلا يقول لي : أيها الرفيق أنت لا تفهمني . وأنا في الحقيقة ما كنت أشعر بأنني أحمل آراء خاطئة . انني لم أكن قرأت شيئا من كتابات تروتسكي ، بل كان العكس هو الصحيح ، فان الذي جذب اهتمامي واعجابي كان كتاب « الماركسية والمسألة الوطنية والاستعمارية » لستالين .

كان الذي فتنني من بين كل التطورات التي وقعت في الاتحاد السوفييتي كيف أن عشرات من الشعوب المتأخرة قد أخذ بيدها الى الوجود على أساس قومي . لقد كنت أقرأ بشيء من الرهبة والاعجاب

كيف أن الشيوعيين قد أرسلوا خلال أراضي روسيا الشاسعة خبراء في الأصوات لدراسة اللهجات المتعثرة للشعوب التي استعبدها القياصرة لقرون عديدة . ان أول ارتباط عاطفي كامل في حياتي انما كان يوم سمعت بأن هؤلاء الخبراء قد منحوا هذه الشعوب التي لا لسان لها لغة يتخاطبون بها ، كما منحوها الجرائد والمعاهد . وكنت قد قرأت أيضا كيف أن هؤلاء القوم قد شجعوا على ان يحتفظوا بثقافاتهم الاصلية ، وأن يروا في طقوسهم وعاداتهم القديمة معنى ولذة لا تقل عمقا عما في وسائل الحياة التي يزعم الناس انها أسمى ، وعجبت في نفسي من الفرق الكبير بين هذا الذي أقرأ ، وبين ما يلقاه الزنوج هنا في أميركا من هزء وسخرية .

اذن ما معنى هذا التحذير الذي واجهني به هذا الشيوعي الزنجي ؟ لماذا يرتابون فيَّ لمجرد أنني أردت أن أكشف عن هذا الدمار النفسي والبدني الواسع الذي يصيب حياة الزنوج ؛ عن العمق والغموض الكامن في هذه الطائفة المنبوذة ، عن المأساة القديمة قدم الانسان وتبرم الشمس والجبال والبحار ، التي كانت تقع في أميركا السوداء الفقيرة ؟ وما وجه الخطورة في أن أظهر ما هناك من تشابه بين ما يلاقيه الزنوج وما تقاسيه الطوائف الاخرى ؟

★ ★ ★

جلست ذات صباح في بيت « روس » ومعنا زوجته وولده ، وكنت منهمكا في الكتابة على أوراقي الصفراء حينما دق جرس الباب ، ثم دخل علينا شيوعي أسود يدعى « إد غرين » . كان طويلا صموتا عسكري الهيئة عريض الاكتاف ، ولما قدمت اليه ، أومأ برأسه ثم تساءل بجفاء ، ماذا يحدث هنا ؟

فشرح له « روسي » مقصدي ، وكنت ألاحظ أن وجه « إد غرين » يزداد غضبا كلما تقدم « روسي » في شرحه . لم يكن قد جلس حتى الآن ، وحينما قدمت له زوجة « روسي » كرسيا لم يلتفت اليها ، وأخيرا سألني : ماذا تنوي أن تصنع بهذه المذكرات التي تكتبها ؟

قلت : آمل أن أنسج منها قصصا .

ـ وعن أي شيء تسأل أفراد الحزب ؟

ـ عن حياتهم بشكل عام .

فسأل : ومن الذي اقترح عليك هذا ؟

قلت : لا أحد . هي فكرة عرضت لي .

قال : هل حدث أن كنت عضوا في أية جماعة سياسية أخرى ؟

قلت : اشتغلت مع الجمهوريين مرة .

قال : أعني من المنظمات الثورية ؟

قلت : لا . ولم هذا السؤال ؟

قال : ما نوع العمل الذي تؤديه ؟

قلت : أكسب عيشي من كنس الشوارع .

قال : الى أي حد وصلت في دراستك ؟

قلت : أنهيت المرحلة الثانوية .

قال : أسلوبك يوحي بثقافة أعلى من هذه ؟

قلت : كنت أقرأ الكتب . لقد علمت نفسي .

قال وهو ينظر بعيدا : لست أدري ماذا أقول .

قلت : ماذا تعني ؟ أهناك خطأ ما ؟

قال : من من الناس أطلعت على هذا الذي تكتبه ؟

قلت : لم يطلع عليه أحد حتى الآن .

يا ترى ماذا يعني بهذا السؤال . لقد خيلت الى سذاجتي أنه هو

نفسه قد يصلح نموذجا طيبا ، وفكرت بأن أكتب مذكرات عن تاريخ حياته هو أيضا فقلت له :

ـ يسرني أن يكون دورك أنت بعد أن ننتهي .

فقال على عجل : لست مهتما بهذا الامر .

وكان أسلوبه من الجفاف بحيث لم أراجعه ، ولم يلبث أن استدعى « روسي » الى حجرة خلفية . على حين جلست أنا ، وأنا أحس كأنما قد اقترفت اثما ، فلما عاد « إد جرين » بعد بضع دقائق تفرس في وجهي دون أن ينطق بكلمة ، ثم خرج فقلت لـ « روسي » .

ـ هذا الرجل من يظن نفسه ؟

قال : انه عضو باللجنة المركزية .

قلت : ولكن لماذا يتصرف هكذا ؟

فأجاب « روسي » مضطربا : انه دائما هكذا .

وتبعت ذلك فترة صمت طويلة قطعها « روسي » أخيرا بقوله :

ـ انه يعجب ماذا تصنع بهذا الذي تكتبه .

فنظرت اليه . كأن الشك قد بدأ يستولي عليه هو أيضا ، وكان يحاول أن يخفي الخوف الذي كان باديا على وجهه ، فقلت له :

ـ أنت لست ملزما بأن تخبرني عن أي شيء لا تريد أن أعرفه .

وبدا أن هذا الكلام قد هدأ من نفسه الى حين ، ولكن بذرة الشك كانت قد زرعت في نفسه ، وشعرت كأنما قد أصبت بدوار .

هل هؤلاء القوم مجانين ؟ أم أنا المجنون ؟

قالت زوجة « روسي » تفسر الامر : المسألة هي أن « روسي » موضع اتهام و « إد غرين » هو ممثل هيئة الدفاع عن العمال العالمية للمنطقة الجنوبية ، ومن واجبه أن يحافظ دائما على الاشخاص الذين يدافع عنهم ، وقد أراد أن يعرف ما اذا كان « روسي » قد ادلى اليك بشيء قد يستعمل ضده في المحكمة .

قلت مذهولا : فمن يحسبني اذن ؟

ولما لم أتلق جوابا صرخت فيهم وأنا أدق المنضدة بقبضة يدي : أيها الضائعون !

غمغم « روسي » وقد هزه غضبي وأخجله : كـل ما في الامر أن « إدغرين » يبالغ في الحذر .

فقلت أسأله : روسي : هل تثق بي ؟

فأجاب بشيء من الاضطراب : نعم .

لقد كنا نحن الاثنين رجلين زنجيين في غرفة واحدة ، ومع ذلك كان كل منا ينظر الى الآخر في خوف وعدم اطمئنان . كلانا كان يعاني من الجوع ، وكلانا كان يعتمد في طعامه ومأواه على الصدقات ، ومع ذلك فقد كان في قلب كل منا من الخوف من صاحبه أكثر مما فيه من الخوف من أولئك الذين ألقوا بنا في هذا النوع من الحياة .

وظللت أكتب الملاحظات عن حياة « روسي » ، ولكني كنت أجده في كل يوم أكثر صمتا وأشد كتمانا ، فكنت أشفق عليه ، ولم أكن أناقشه لعلمي بأن مناقشته لن تجدي في القضاء على خوفه ، وبدلا من ذلك كنت أجلس واستمع اليه والى أصدقائه يقصون القصص عن الزنوج في الجنوب وما كانوا يلاقون ، ثم احتفظ بما أسمع في ذاكرتي دون أن أوجه اليهم الاسئلة ، مخافة أن أثير حذرهم وتهيبهم .

ورغم هذا الحـذر الذي كان يلازمهم ، الا أنني أندمجت فيمـا يتحدثون به عن تفاصيل حياتهم ، وتركت فكرة كتابة مقالات عن تاريخ حياتهم ، واستقر رأيي أخـيرا على أن أكتب مجموعـة من القصص القصيرة استعين فيها بما سمعت من « روسي » وأصدقائه ، ثم أضع حبكة القصص من عندي ، وهكذا كتبت قصة عن مجموعة من الصبيان الزنوج ينتهكون حرمة أرض يملكها رجل أبيض ، وما تلا ذلك من قتل

وتعذيب . وقد نشرت القصة في مجموعة تحت عنوان « الصبي الكبير يترك بيته » ولكن هذه القصص لم تظهر الافي وقت متأخر ، فلم تستطع أن تترك أثرها في الشيوعيين الذين كانوا يتساءلون عن فائدة تدوين حياتهم .

وتوقف عملي المتقطع الذي كانت قد خصصته لي هيئة الاسعاف وبدأت أبحث عن عمل لم يكن له وجود ، وصرت أستدين لكي أنفق على تنقلاتي التي كان يتطلبها عملي في النادي ، ووجدت لامي وعمتي وأخي غرفة علوية ضيقة خلف طريق السكة الحديدية . وأخيرا عينتني هيئة الاسعاف في ناد للصبيان في المنطقة الجنوبية ، وكان أجري يكاد لا يكفي لان يقيني وعائلتي أحياء . ثم جاءت المشاكل السياسـية تنغص على عيشي ، فقد اتهم « روسي » الذي كنت أحاول كتابة تاريخ حياته من قبل الحزب الشيوعي بتهم منها « ميول معادية للقيادة » و « مساعدة الاتجاهات الطبقية » و « الاتجاه التحزبي الفكري » ؛ عبارات بلغت من الغرابة درجة جعلتني اتلقاها فاغر الفم . ولقد أشيع أيضـا أنني أواجه نفس المصير باعتباري قد تأثرت به سياسيا .

وذات ليلة جاء الى بيتي جماعة من الرفاق الزنوج وأمروني بالابتعاد عن « روسي » .

قلت : ولكن ما السبب في هذا الاجراء ؟

قالوا : لانه عنصر مريض . ألا يمكنك أن تقبل قرارا ؟

قلت : وهل هذا قرار للحزب الشيوعي ؟

قالوا : نعم .

قلت : لو كنت أشعر بأنني أرتكب اثما ما لالتزمت القرار ، ولكني ما فعلت شيئا .

قالوا : أنت لا تفهمنا أيها الرفيق . ان أعضاء الحزب لا يعصون قراراته .

قلت : ولكن قراركم هذا لا ينطبق عليّ ، ولن أتصرف أبدا على أساس أنه ينطبق عليّ .

قالوا : ان موقفك هذا لا يدعو الى الثقة بك .

فغضبت وانفجرت صائحا وأنا أشير بذراعي الى نواحي الغرفة الضيقة الكئيبة التي أعيش فيها :

انظروا ! ماذا ترون هنا مما يثير خوفكم وشكوكم ؟ أنتم تعرفون أين أعمل وماذا أربح وتعرفون أصدقائي ، فقولوا بحق الله : ماهو موضع الخطأ :

فخرجوا وعلى وجوههم ابتسامات صفراء ، كأنما تقول لي : لن تلبث أن تعلم ما هو موضع الخطأ .

ولكنني شعرت بنوع من الخلاص من هذه الدوامة السياسية المبهمة ولم البث أن استغرقت في عملي في نادي الصبيان للاقليم الجنوبي ، وكنت أشعر معه بلذة عميقة ، لقد كان يأتينا في كل يوم صبيان سود ، بين سن الثامنة والخامسة والعشرين ، يسبحون ويرسمون ويقرؤون . كانوا مجموعة فطرية لا مأوى لها ، ضائعة ثقافيا وخاوية روحيا ، مرشحة للسجون والإصلاحيات والعيادات العقلية والنفسية والكرسي الكهربائي . كنت امكث الساعات أنصت الى احاديثهم عن الطائرات وعن النساء والبنادق والسياسة والجريمة ، لقد كانوا يستعملون صورا بيانية حية قوية ليست أقل اثرا من اية لغة يستعملها قوم ممن يتكلمون الانكليزية وكنت احتفظ في جيبي دائما بالورقة والقلم كي أسجل موسيقاهم اللفظية . هؤلاء الصبية على الاقل لم يكونوا يخافون الناس بحيث يخيل اليهم أن كل انسان جاسوس . ان الشيوعيين الذين كانوا يتشككون في دوافعي لم يكونوا يعرفون هؤلاء الصبية وأحلامهم الملتوية ومصيرهم

المحتوم ، بل لقد كنت أشك في استطاعتي أن أنقل اليهم المأساة التي كنت اشاهدها هنا .

★ ★ ★

وجاءت الواجبات الحزبية تشغلني عن محاولة الشرح والتعبير، فقد قرر النادي اقامة مؤتمر لكتاب الجناح اليساري في النقطة الوسطى من الاقليم الغربي ، وأيدت أنا الفكرة طالبا ان يكون هذا المؤتمر لبحث مشاكل المهنة ، ولكن طلبي رفض ، وقرر النادي ان يكون المؤتمر لبحث المشاكل السياسية ، ولما طلبت منهم تحديد المهمة المطلوبة من الكاتب هل هي الكتب أو النشاط السياسي ؛ كان الجواب : كلا الامرين ، اكتب بضع ساعات في اليوم ، ثم أقضي الساعات الاخرى في المعسكر السياسي .

والتأم شمل المؤتمر بحضور زعيم شيوعي بصفة مستشار ، وكانت المسألة التي يراد بحثها هي : ماذا ينتظر الحزب الشيوعي من النادي ؟ وكان جواب الزعيم الشيوعي ينتقل من التنظيم الى كتابة القصص ، فاعترضت بأن الانسان اما أن يشتغل بالتنظيم أو بكتابة القصص ، ولكنه اجاب بأن كلا العملين ينبغي أن يتم . وتغلبت وجهة نظر الزعيم الشيوعي ، وتقرر إلغاء مجلة « الجبهة اليسارية » التي عملنا فيها كل هذه المدة .

وهنا شعرت بأن النادي يشرف على نهايته ، وقمت اعلن اليهم هذا الاستنتاج القاتم وأوصي بأن يحل النادي . وقد جلبت علي انهزاميتي هذه كما سموها استنكار الزعيم الشيوعي الشديد ، وانتهى المؤتمر بعد أن اصدر قرارات عديدة تتعلق بالصين والهند والمانيا واليابان والمشاكل التي ابتليت بها أجزاء متعددة من العالم ، إلا رأيا واحدا لم يصدر بشأن التأليف والكتابة .

والآن فقد بدأ الحزب الشيوعي يربط بين الآراء التي عبرت عنها في المؤتمر وبين الشكوك التي أثيرت بشأني في محيط الشيوعيين الزنوج في المنطقة الجنوبية ، وأصبح الآن على ثقة من أن في وسط الحزب عدوا خطيرا ، وبدأ الهمس يدور بأنني أحاول أن أقود جماعة سرية داخل الحزب تعارض سياسته • وكنت قد تعلمت أنه لا فائدة من محاولة رد التهم وانكارها ، وأصبح الآن من المؤلم مقابلة أي شيوعي ، اذا لم أكن أدري كيف يكون تصرفه حيالي •

بعد المؤتمر السابق ، دعي الى مؤتمر وطني عام لنادي جون ريد ، التأم شمله في صيف عام ١٩٣٤ ، وحضره كتاب الجناح اليساري من جميع الولايات ، ولكن جلساته لم تكن تبدأ حتى كان لدى الكتاب احساس بالاهمال والحيرة وعدم الرضى ، وكان معظم الكتاب شبانا ممتلئين غيرة ومقبلين على خير فترات اتجاههم الادبي ، ومع ذلك فان أحدا منهم لم يعرف ما هو مطلوب منه ، ولا خرج المؤتمرون بفكرة أو مبدأ موحد •

وبينما كان هذا المؤتمر يسير نحو نهايته،حضرت اجتماعا تمهيديا لبحث مستقبل النوادي ، والتقى عشرة منا في غرفة بأحد الفنادق ، وأدهشني أن أرى رؤساء النوادي يؤكدون صحة انتقاداتي للطريقة التي كانت تدار بها ، وقلت لنفسي وأنا في دهشة وسرور : اذن فسوف تعطى النوادي فرصة جديدة تصلح فيها نفسها وتثبت وجودها •

ثم ذهلت عندما سمعت شيوعيا معروفا يعلن قرارا بحل النوادي ، فلما سألت عن السبب في هذا القرار ، أجابوا : لأن النوادي لاتخدم سياسة « الجبهة الشعبية » الجديدة فقلت — هذا أمر يمكن اصلاحه فيمكن للنوادي أن تصلح نقصها وتوسع مجالها ، قالوا : لا ، لابد من انشاء هيئة أخرى أوسع وأفضل ، هيئة يمكن أن تضم قادة الفكر والتأليف في الامة،

وأخبرت بأن سياسة «الجبهة الشعبية» هي الآن السياسة الصحيحة الجديرة بالحياة ، وأن النوادي لا يمكن أن تبقى • قلت : وماذا يكون مصير الكتاب الصغار الذين توسلتم اليهم أن ينضموا الى النوادي ، والذين أصبحوا الآن غير لائقين للانضمام الى المجموعة الجديدة ؟ ولكنني لم أجد لسؤالي جوابا،لقد أحسست ببرودة تسري في كياني •ان الحزب الشيوعي لكي ينجز تغيرا سريعا في سياسته كان يتخلص من هيئة قائمة ثم ينظم أخرى مستعينا بقوم آخرين •

ووجدت نفسي أحاور وحدي ضد الرأي الغالب ، ثم لم ألبث أن أكتشفت أمرا مدهشا ، اكتشفت أن اولئك الذين يتفقون معي في الرأي ليسوا على استعداد لأن يعضدوني ، فقد عرفت في ذلك الاجتماع أن الرجل منهم كان يخضع لما عرف أنه رغبة الحزب ، ولو كان يعرف بكل كيانه أن هذه الرغبة ليست حكيمة ، وأنها في النهاية سوف تضر الحزب نفسه •

لم تكن الشجاعة هي التي جعلتني أقف من الحزب موقف المعارضة ، ولكن الامر ببساطة هو انني لم استطع أن أجد موقفا آخر • لقد كان من غير المستاغ بالنسبة الي ، رغم أنني نشأت في الجنوب في حجر البغضاء ألا يعلن الانسان رأيه ،وكنت قد صرفت ثلث عمري متنقلا من المكان الذي ولدت فيه الى الشمال ، لمجرد أن أتكلم بحرية ، وأتخلص من الخوف والآن ها أنذا أجد نفسي أواجه الخوف مرة أخرى •

وقبل انفضاض المؤتمر ، تقرر أن يدعى الى مؤتمر آخر للكتاب الاميريكيين في نيويورك في الصيف القادم عام ١٩٣٥ ،وقد قابلت هذا الامر بفتور وحاولت أن أعزم أمري على أن أقف وحدي وأكتب وحدي بل لقد كان الخوف بدأ يساورني من أن قصصي السابقة لن تكون منسجمة مع الاتجاه الرسمي الجديد ، فهل ينبغي على اذن أن أغير

مشروعاتي السابقة لكي أبحث عن مادة جديدة ؟ كلا .. لن أستطيع هذا فان كتابتي هي جزء من نظرتي الى الامور ، وطريقتي في الحياة ، وطريقتي في الشعور ، ومن ذا الذي يستطيع أن يغير نظرته أو احساساته ؟

★ ★ ★

وجاء ربيع عام ١٩٣٥ ، وبدأت خطط الاعداء للمؤتمر تسير بخطوات واسعة ، ولسبب خفي علي ـ ولعله (لاتقاذي) ـ حثتني اللجنة الشيوعية المحلية على الذهاب ، وعينت مندوبا ، فحصلت على اجازة من عملي في نادي الصبيان ، وسافرت مع بعض المندوبين الآخرين الى نيويورك .

وصلنا في المساء وسجلنا أسماءنا لجلسات المؤتمر ، وكان الاجتماع العام الاول منعقدا في قاعة كارنيجي . وسألت عن معدات النوم وأماكنه ، فبدا الارتباك على أعضاء نادي چون ريد في نيويورك وكلهم شيوعيون من البيض . وانتظرت بينما كان أحد الشيوعيين البيض يطلب شيوعيا آخر أبيض وينتحي به جانبا لكي يتباحثا في كيفية ايجاد مكان لنومي أنا الشيوعي الزنجي الاسود . لقد كنت خلال رحلتي قد نسيت أنني أسود ، وكنت أفكر في مشاكل كتاب الجناح اليساري الشبان الذين كنت أعرفهم ، والآن وأنا أرى رفيقا أبيض يتحدث بعصبية الى آخر عن لون جلدي بدأت أشعر بالاشمئزاز . وأخيرا عاد الرفيق الابيض ليقول :

ـ لحظة واحدة أيها الرفيق ، سوف أجد لك مكانا .

فسألت : ولكن أليست لديكم أماكن جاهزة ؟ ان أمثال هذه الامور تجهز عادة من قبل .

فقال معترفا بنغمة ودية : نعم هذا صحيح . ان عندنا بعض العناوين هنا ولكننا لا نعرف الاشخاص ، ولعلك تفهم ما أعني .

فقلت وأنا أصرف بأسناني : نعم ، أفهم ماتعني .

قال وهو يلمس ذراعي ليطمئنني : انتظر دقيقة فقط فسوف أجد شيئا .

فقلت محاولا ألا أجعل الغضب يبدو في صوتي : اسمع ، لا داعي لان تزعج نفسك .

فقال وهو يهز رأسه بتصميم : لا لا ، ان هذه مشكلة وسوف أجد لها حلا .

فلم أستطع الا أن أقول : ما كان ينبغي أن تكون مشكلة .

فاستدرك يقول : أنا . أنا ما قصدت هذا .

فجعلت في سريرتي ألعن الموقف ، وكان بعض الناس يقفون قريبا ويلاحظون كيف أن شيوعيا أبيض يحاول أن يجد لرفيقه الشيوعي الاسود مكانا ينام فيه ، فأحسست بالخزي . وبعض بضع دقائق عاد الشيوعي الابيض زائغ النظرات يغطيه العرق ، فقلت له :

ـ لعلك وجدت شيئا ؟

فأجاب وهو يلهث : لا . ما وجدت شيئا بعد ، ولكن انتظر لحظة فسوف أتحدث الى شخص أعرفه ، أعطني قرشا كي استعمل الهاتف .

قلت : لا تزعج نفسك . سوف أجد لنفسي مكانا ، ولكني أحب أن أضع حقيبة ملابسي في مكان ما الى أن ينتهي اجتماع الليلة .

فقال بلهفة لم يفلح في اخفائها : أتعتقد حقا أنك تستطيع أن تجد مكانا ؟

قلت : طبعا أستطيع .

ولكنه ظل غير متيقن . لقد كان يود أن يساعدني ولكنه لم يكن

يدري كيف ، وأخيرا أخذ حقيبتي ووضعها في احدى الغرف ، وخرجت أنا الى الطريق اسائل نفسي اين يمكنني أن أنام هذه الليلة • ووقفت على أرصفة نيويورك وأنا أحمل جلدي الاسود ولا أكاد أحمل نقودا ، ولم يكن الذي يشغل ذهني الان الحركة الادبية للجناح اليساري في الولايات المتحدة ، ولكن كيف أستطيع أن اغتسل • وعند باب قاعة كارنيجي قدمت أوراق اعتمادي ودخلت ، ولكنني داخل القاعة وجدت نفسي لا أستمع الى خطبهم وجهادهم وانما أتساءل لماذا أتيت •

وبعد ذلك خطوت الى الرصيف أشغل نفسي بالتطلع الى وجوه الناس ، الى أن قابلت عضوا في نادي شيكاغو فسألني ؟

— ألم تجد مكانا بعد ؟ قلت : لا : ولقد كنت أود أن أجرب دخول أحد الفنادق لولا أنني لست في حالة تساعدني على أن أتجادل مع كاتب الفندق حول لون جلدي •

— ياللعجب ! انتظر دقيقة :

ثم انطلق ولم يلبث أن عاد بعد لحظات مع امرأة سمينة بيضاء ثم قدمني اليها ، فقالت :

— تستطيع أن تنام الليلة في مكاني •

وسرت معها الى مسكنها حيث قدمتني الى زوجها ، فشكرتهم على كرمهم ، وذهبت للنوم على سرير صغير في المطبخ، وفي الساعة السادسة صباحا استيقظت ، وطرقت بابهما مودعا ، ثم انطلقت الى الرصيف وجلست على مقعد هناك ، وأخرجت الورق والقلم لكي أكتب بعض نقاط لاجل المناقشة التي أردت اثارتها دفاعا عن نوادي جون ريد ، ولكن مشكلة النوادي في هذه اللحظة بدت لي تافهة ، والمشكلة التي بدت لي على جانب من الاهمية هي : هل يستطيع الزنجي في هذا البلد اللعين أن يحيا حياة قريبة من حياة البشر ؟

وجلست طوال ذلك اليوم خلال جلسات المؤتمر ، الا أن ما سمعته لم يكن يمسني أو يؤثر في ، وفي الليل اتخذت طريقي الى حي هارلم[1] وجعلت أسير على أرصفة مليئة بوجوه سوداء ، وقد أذهلني أن علمت من المارة أنه لم تكن توجد فعلا فنادق للزنوج في هارلم ، ومع ذلك ظللت أسير حتى رأيت في النهاية فندقا عاليا نظيفا ، وجدت عند بابه كثيرا من السود يمرون ولم أجد بينهم رجلا أبيض ، فدخلت مطمئنا ، الا أنني لم أكد أخطو عتبته حتى رأيت رجلا أبيض يجلس وراء طاولة ، فقلت بعد تردد : أريد غرفة •

فقال : ليس هنا •

قلت : أليس هذا حي هارلم ؟

قال : نعم ولكن هذا الفندق للبيض فقط •

قلت : وأين أجد فندقا للملونين ؟

قال : جرب فندق الواي •

وبعد نصف ساعة أخرى وجدت جمعية الشبان المسيحية للزنوج ، ذلك الحصن الذي أنشأه جيم كرويزم لأجل الشبان الزنوج ، وحصلت على غرفة ، وأخذت حماما ، ثم نمت اثنتي عشرة ساعة • ولما استيقظت لم أجد في نفسي رغبة في الذهاب الى المؤتمر فبقيت في سريري أقول لنفسي : لا بد أن أسير وحدي •• وعلي أن أعرف كيف أسير وحدي •

وأخيرا لبست ملابسي وحضرت الاجتماع الذي كان مقررا أن يتم فيه الاقتراع النهائي على حل النوادي • بدأ الاجتماع بشكل سريع • وقام كاتب شيوعي من نيويورك يلخص تاريخ النوادي ثم قدم اقتراحا بحلها فبدأت المناقشة ، وقمت من مكاني أشرح دور النوادي • وما كانت تعنيه بالنسبة لصغار الكتاب ، ورجوت أن تستمر قائمة بعملها

(١) هو حي في نيويورك . (المترجم) •

ثم جلست في صمت مطبق . وأخيرا أقفل باب المناقشة وبدأ أخذ الاصوات ، فامتلأت القاعة بالايدي التي ارتفعت في صالح الحل ، ثم جاء دور الذين لا يوافقون ولم أجد يدا مرتفعة الا يدي أنا وحدي . وكنت أعلم أن هذا الموقف مني سيفسر على أنه معارضة للحزب الشيوعي ولكنني قلت لنفسي : ليكن ما يكون .

أصبحت بعد حل نوادي جون ريد حرا من كل علاقاتي الحزبية وتجنبت اجتماعات الخلية مخافة أن أطالب بالانتظام والطاعة . وكان يأتيني من حين الى آخر شيوعي زنجي ــ متخطيا القانون الذي يفرض عدم الاتصال بالعناصر المشبوهة ــ ليحدثني عن الاتهامات المتلاحقة التي كانت توجه الى الشيوعيين واحدا اثر واحد . وذات يوم أدهشني أن « بودي نيلسون » قد قال عني انني « مروج للرجعية »

لقد كان « بودي نيلسون » الزنجي الذي أوجد للشيوعية مكانا بين زنوج أميركا ، وقد خطب في الكرملين ، وتكلم أمام ستالين نفسه

وسألت : ولماذا يطلق عليّ نيلسون هذا الاسم ؟

ــ يقول عنك : انك « بورجوازي تافه منتكس »

قلت : وما معنى هذا ؟

فأجاب : يقول : انك تفسد الحزب بآرائك ومبادئك .

ــ وكيف ؟

ولم أجد عنده جوابا على ذلك . وانتهيت الى أن علاقاتي الحزبية على وشك أن تنقطع ، وأن علي أن أترك الحزب . لقد كانت الهجمات تزداد عنفا ، وكان موقفي السلبي ورفض الرد على الهجمات دافعا لنيلسون الى الصاق عبارات أخرى أشد سخفا من سابقتها بي ، فقد لقبت « الاستقراطي اللعين » و « التروتسكي الغر » وزعموا أنني أحمل « اتجاهات معادية للقيادة » وأنني أظهر « ميولا ترفعية » وهي

عبارة ، معناها أنني اعتزلت النضال مع الحيــاة معتبرا نفسي منزها ومعصوما .

وقد جلب عليّ اشتغالي بالعمل طول النهار واشتغالي بالكتابة نصف الليل مرضا صدريا شديدا ، وذات صباح وبينما أنا أعاني من مرضي هذا ، سمعنا طرقا على الباب ، ولما فتحت أمي الباب دخل « إدغرين » ، ذلك الرجل الذي كان قد طالب بأن يعرف الهدف الذي أبغيه مما كنت أجمعه عن حياة الرفاق ، فنظر تاليه محملقا ، ولما كنت أعلم أنه يعتبرني عدوا ماكرا لدودا للحزب ؛ فقد امتلأ صدري بالمرارة والغضب ، فقلت له بفظاظة :

ــ ماذا تريد ؟ ألا ترى أنني مريض ؟

ــ ان لدي رسالة اليك من الحزب .

انني ما حييته حين دخل ولا هو حياني ، ولا ابتسم هو ولا ابتسمت أنا ، واكتفى بأن جعل ينظر باستطلاع في جوانب غرفتي الكئيبة ، فقلت له :

ــ هذا بيت « الارستقراطي اللعين »

نظر الي محملقا دون أن يطرف ، ولما لم أستطع وقوفه هكذا جامدا كالتمثال ، دعاني الذوق الى أن أقول له : اجلس .

ولكنه أجاب .

ــ أنا في عجلة من أمري .

لقد كان يتحدث كجندي .

قلت له : ماذا تريد ان تخبرني ؟

قال : هل تعرف « بودي نيلسون » ؟

فداخلني الارتياب . هل هذا فخ سياسي ؟

وسألته : متحاشيا الجواب حتى أعلم المقصود من السؤال

— وماذا عن بودي نيلسون ؟
فقال « إد غرين » : انه يريد أن يراك .
قلت والارتياب لا يزال يساورني : ولماذا ؟
فقال : انه يريد أن يتحدث اليك فيما يتعلق بعملك في الحزب .
— أنا مريض ولا أستطيع أن أراه قبل أن أشفى .
فاستمر « إدغرين » واقفا لحظة ، ثم دار على عقبيه وانصرف .

ولما شفي صدري سعيت الى مقابلة « بودي نيلسون » . كان رجلا أسود قصيرا دائم التبسم غليظ الشفتين ، ذا نظرات ناعمة وحركات مفتعلة . كان ذا هيئة توحي بأنه عصبي وخجول ، وكأنما كان دائما يحاول أن يخفي شعورا بالتبرم والضيق ، وكان يتحدث بجمل قصيرة مندفعة ، وينتقل بحرية من فكرة الى فكرة ، كأنما كان عقله يعمل على طريقة تداعي المعاني ، وكان يعاني من داء الربو ، فكان ينخر في فترات متقاربة ، وكان يتوقف عن الحديث بين الحين والآخر ليتناول جرعة من قنينة الويسكي . كان قد زار نصف الكرة الارضية ، وكان في حديثه اشارات الى بعض المدن الاوروبية . وقد التقيت به في بيته ، واستمعت اليه باهتمام ، وراقبته بدقة ، لانني كنت أعلم أنني أمام أحد قادة الشيوعية العالميين .

وقال وهو ينخر من أنفه : أهلا بك يا رايت . لقد سمعت عنك .
وبينما كنا نتصافح ، انفجر ضاحكا بصوت عال دون أن يبدو لي سبب معقول لهذا الضحك ، فلم أستطع أن أعرف ، هل قهقهته هذه كانت موجهة الي ، أم انه كان يحاول بذلك أن يخفي ارتباكه ؟ .
قلت : أرجو الا تكون قد سمعت عني ما يسوء .
وضحك ثانية وقال مشيرا الى كرسي : اجلس . يقولون انك تكتب ؟
فقلت : انني أحاول أن أكتب .
قال : بل انك تكتب فعلا ، لقد قرأت مقالتك عن جولويس التي

نشرت في « الجماهير الجديدة » ، وكان مقالا طيبا ، يعتبر أول معالجة سياسية للموضاعات الرياضية بالنسبة الينا . هاها .
وانتظرت . لقد كنت أتوقع أن أقابل مفكرا كبيرا ، ولكنه لم يكن كذلك . قلت : اذن فلعله من الرجال العمليين ، ولكن يبدو أنه لم يكن كذلك أيضا .

وأخيرا التفت الي وقال : يقولون انك صديق لـ « روس »
تأنيت قليلا قبل أن أجيب . انه لم يوجه الى سؤالا مباشرا ، ولكنه لجأ الى طريقة التلميح . ان روسي كما علمت كان مهددا بالطرد من الحزب على انه « معارض للقيادة » واذن فاذا سألني عضو في اللجنة الشيوعية الدولية عما اذا كنت صديقا لرجل على وشك أن يطرد ، فكأنما يسألني بطريق غير مباشر هل أنا مخلص أم غير مخلص . أجبته بصراحة:

— ان « روسي » ليس صديقا خاصا لي ، ولكنني أعرفه جيدا بل وجيدا جدا . قال : اذا لم يكن صديقك فكيف حدث أنك تعرفه هذه المعرفة الجيدة ؟ ثم ضحك لكي يخفف من نقمة التهديد التي بدت في سؤاله .

قلت : كنت أكتب تاريخ حياته ، ولذلك فأنا أعرفه أكثر مما يعرفه الكثيرون .
— لقد سمعت عن هذا يا رايت ها .. ها .. دعني أدعوك « ديك » هه ؟
قلت : لا بأس ، استمر
قال : ديك ان « روسي » رجل قومي ، ثم سكت قليلا كي يدع لهذه التهمة الفرصة لتفعل فعلها في نفسي ، ثم أضاف بصوت فيه الضحك وفيه الاتهام « اننا نحن الشيوعيين » لا نعمل للقومية الزنجية .
قلت : ماذا تعني ؟

وهنا أجاب بصراحة : نحن لا نريد الاعلان عن « روس »

قلت : اننا تتحدث عن شيئين مختلفين ، فأنت كما يبـدو منزعج لانني أجعل من « روسي » شخصية معروفة لانه خصم سياسي لك ، أما أنا فلا يهمني الجانب السياسي من « روسي » مطلقا . ان الرجل قد لاح لي باعتباره نموذجا للزنجي المهاجر من نواح خاصة ، وقد نشرت فعلا قصة بنيتها على واقعة من حياته

وهنا سأل « نيلسون » بلهفة : وما هي هذه الواقعة ؟

قلت : بعض المتاعب التي لقيها وهو في الثالثة عشرة .

فقال وهو يهز كتفيه : ظننتها واقعة سياسية .

قلت : ولكنني أخبرتك أن ظنك لم يكن في موضعه . أنا لا أحاول أن أحاربك بكتاباتي ، وليست لديّ مطامع سياسية ، ويجب أن تصدقني انما أنا أحاول أن أصور حياة الزنوج

قال : هل انتهيت من الكتابة عن « روسي » ؟

قلت : لا . لقد أقلعت عن الفكرة ، فان أعضاء الحزب قد بدأوا يتشككون ، وكانوا يرفضون التحدث عن حياتهم ، فضحك نيلسون ، وبعد قليل . قال :

ــ ديك ، ان عندنا نقصا في القوى ، اننا نواجه أزمة شديدة .

قلت : ان الحزب دائما في أزمة .

فتبسم وحملق في متسائلا : أتقصد السخرية يا ديك ؟

قلت : لا ، ولكنها الحقيقـة ، ففي كل أسبوع وفي كل شـهر نصادف أزمة .

فقال وهو يضحك وينخر من أنفه : أنت رجل مضحك . ان علينا عملا يلزم أن نؤديه ، ونحن قد نبدل طريقة عملنا . ان الفاشية الآن هي الخطر . خطر على جميع الناس .

قلت : أعرف ذلك .

قال وهو ينخر من أثر الربو : علينا أن نهزم الفاشيين . لقد تباحثنا بشأنك ، ونحن نعرف ما عندك من كفاءات ، ونريدك أن تعمل معنا . ينبغي علينا ان نخرج من نطاقنا الضيق ونبلغ رسالتنا الى رجال الكنيسة والى الطلبة والى أعضاء النوادي والى الموظفين والى الطبقة الوسطى

قلت بهدوء : لقد نُعتُّ بكثير من الصفات القبيحة ، فهل هذا هو الخروج من نطاقنا الضيق ؟

قال : انس ذلك الامر .

انه لم ينكر السباب الذي وجه الي ، ومعنى ذلك أنني اذا لم أطع فسوف يبدأ السباب من جديد .

قلت بصراحة : انني لا أدري ما اذا كنت أنسجم مع الاوضـاع

قال : اننا نريد أن نكل اليك مهمة كبيرة .

ــ وماذا تريدونني أن أفعل ؟

قال : اننا نريدك أن تنظم لجنة لمحاربة غلاء أسعار المعيشة

قلت متعجبا : أسعار المعيشة ! وما يدريني أنا بهذه الاشياء ؟

قال : هذا أمر سهل ، يمكنك أن تتعلم .

لقد كنت وقتها غارقا في قصة أكتبها ، وها هو ذا يخرجني من هذا ليطلب الي تنظيم جدول بأسعار البقالة والخضروات . قلت لنفسي : انه لايرى لما أفعل أية قيمة .

وقلت له : ايها الرفيق نيلسون ، ان الكتاب الذي لم يكتب بعـد أي شيء ذي قيمة هو من أكثر النـاس تشككا ، ويمكن أن تعتبرني الآن من هذه الفئة ، ومع ذلك فأنا أعتقد أنني أستطيع أن أكتب ، ولا أريد أن أسألكم أي مميزات خاصة ، ولكنني الآن في وسط كتاب أؤلفه وآمل أن أنتهي منه في ستة أشهر أو نحوها ، فدعوني أولا أقتنع

بأن من الخطأ محاولتي أن أكون كاتبا ، وعندئذ فسوف أكون معكم الى آخر الطريق •

فاستدار في كرسيه ولوح بيده كأنما يطرد حشرة تضايقه ، ثم قال : ان عليك أن تصل الى جمهور الناس •

قلت : انك قد رأيت بعض انتاجي ، ألا ترى أنه يبيح أن تعطوني فرصة ؟

قال : ان الحزب لا يمكنه أن يتعامل مع عواطفك واحساساتك •

فقلت : لعل المسألة أنني لست أتلاءم مع الحزب •

فقال وهو ينخر : لا ، لا تقل هذا ، ثم نظر الي وقال : انك لعنيف

قلت : انني أقول ما أحس به ، وأحب أن نضع الامور في مواضعها• لقد لقيت من المتاعب في هذا الحزب ما ليس بالقليل •

فضحك وأشعل سيكارة ثم قال وهو يهز رأسه :

ــ ديك ، ان مشكلتك هي أنك اندمجت أكثر من اللازم مع اولئك الفنانين البيض في الطرف الشمالي ، بل انك لتتكلم مثلهم ، ولكن عليك أن تعرف أهلك وقومك •

فأجبت وأنا على ثقة من أنني لن أستطيع التفاهم معه

ــ أعتقد أنني أعرفهم • لقد دخلت ثلاث أرباع المساكن الزنجية في الطرف الجنوبي •

ــ ولكن عليك أن تعمل معهم •

قلت : لقد كنت أعمل مع « روسي » الى أن اتهمت بأنني جاسوس•

وهنا تكلم بنغمة الجد •

قال : ديك • ان الحزب قد قرر أن عليك أن تقبل هذه المهمة •

عند هذا سكت دون جواب • لقد كنت أعلم مغزى ما قال • ان القرار هو أسمى أمر يمكن أن يصل الى الشيوعي من حزبه ، ونقض

القرار معناه تعطيل فعالية الحزب وقدرته على العمل • لقد كنت من حيث المبدأ أوافق على هذا قلبيا ، اذ كنت أعلم أنه من غير الممكن بالنسبة لجماعة من الناس يعملون سويا أن تكون لهم أية قوة سياسية ما لم يدركوا وحدة العمل ويكونوا يدا واحدة • لقد كان الشيوعيون الذين عانوا الظلم والقهر عدة قرون منقسمين يائسين قد انتشر بينهم الفساد وسوء التوجيه ، ولذلك كانوا متشائمين ــ كما كنت أنا من قبل ــ ولقد أثبت التاريخ أن الطريقة الشيوعية في تحقيق الوحدة في الهدف وفي العمل كانت هي الطريقة الوحيدة لخلق النظام • أي إن نيلسون باختصار كان قد سألني مباشرة هل أنا شيوعي أم غير شيوعي • وأنا كنت أود أن أكون شيوعيا ولكن على طريقتي الخاصة ، كنت أريد أن نكيف عواطف الناس واحساساتهم وان نوقظ قلوبهم ، ولكنني لم أستطع أن أخبر نيلسون بهذا ، اذ لو أخبرته لما زاد على أن نخر

قلت مقترحا : سوف أنظم اللجنة ثم أعهد بها الى شخص آخر •

قال : أنت لا تريد أن تقوم بهذا العمل • اليس كذلك ؟

قلت : لا •

قال : اذن فما العمل الذي تريد أن تقوم به في الطرف الجنوبي ؟

قلت : أحب أن أنظم جماعة من الكتاب والفنانين الزنوج •

قال : ولكن الحزب ليس في حاجة الى هذا العمل في الوقت الحاضر•

ونهضت من مكاني عالما بأنه لا يريد أن يدعني بعد أن أقوم بتنظيم اللجنة • وقد أردت أن أخبره وقتها بأنني انتهيت من كل علاقاتي مع الحزب ، ولكنني لم أكن بعد على استعداد لأن أصل بالامر الى نهايته • خرجت من عنده ساخطا على نفسي وعليه وعلى الحزب • حسنا •• انني لم أنقض قرار الحزب ، ولكنني أيضا لم أتقبله تماما ، وانما راوغت محاولا أن أكسب وقتا لاكتب ، ووقتا للتفكير •

★ ★ ★

بقيت مهمتي في الحزب تتلخص في حضور الاجتماعات حتى ساعات الليل المتأخرة ، والمشاركة في المناقشات ، ومساعدة الآخرين في بعض الاعمال الاخرى • كنا تتناقش في أحوال الاسكان ، وفي أفضل الوسائل لجعل المدينة تهتم بأحوال الزنوج ، وكنت أصرف على أسناني غيظا كلما بسط موضوع السعر اليومي للحوم ، متمنيا أن أكون في بيتي أكتب قصتي •

كان نيلسون أذكى مني ، وبادأني قبل أن تتهيأ لي الفرصة لمبادءته ، فقد استدعيت ذات ليلة لمقابلة نيلسون ومعه « صديق » ، ولما وصلت الى فندق الطرف الجنوبي ، قدمت الى رجل شاحب قصير ، يتصرف كأنما هو نابليون • كان يضع عوينات فوق انفه ، وكانت شفتاه دائما مفتوحتين كأن الرجل منهمك في تفكير مستمر ، وكان اذا سار يتبختر • كان يتحدث بهدوء وبدقة ويحاول ان يحمل كل كلمة من كلماتـه مـن المعنى ما لا تطيقه الكلمات • لقد كان يتحدث عن أمور تافهـة بنغمة سامية • قال ان اسمه « سميث » من واشنجتون ، وقال ان خطته هي ان يقيم هيئة قومية لجميع الزنوج واتحادا بين جميع منظمات الزنـوج القائمة حتى تحصل على وحدة في الهدف ووحدة في العمل • كنا ثلاثتنا نجلس على الطاولة متواجهين ، وكنت اعلم انهم على وشك ان يقدموا الي عرضا اخيرا اذا لم اقبله ، كان معنى ذلك الحرب المعلنة •

قال سميث بطريقة فجائية مسرحية : رايت •• مارأيك في الذهاب الى سويسرا ؟

قلت : كم احب ذلك ، ولكنني في الوقت الحاضر مرتبط بعمل •

فقال نيلسون : يمكنك ان تترك هذا العمل الآن ، فهذاالامرلهاهميته

فسألت : وماذا أفعل في سويسرا ؟

قال سميث : تذهب الى هناك كمندوب للشباب ، ومن هناك يمكنك ان تذهب الى الاتحاد السوفيتي •

فأجبت باخلاص : لكم اتمنى ان افعل ذلك ، ولكن اخشى انني لن أستطيع التنفيذ ، إذ لا يمكنني ان اترك ما انا مشتغل به الآن من الكتابة •

وبقينا فترة من الوقت ينظر احدنا في وجه الآخر ونحن ندخـن بسكون ، واخيرا ساءلت سميث :

— هل اخبرك نيلسون بوجهة نظري في هذا الشأن ؟

ولم يجب سميث بل حملق فيّ فترة طويلة ثم بصق وقال :

— رايت ، أنت أحمق !

وقمت من مكاني وتحول سميث عني ، لقد اوشك الغضب ان يجعلني ادفع بقبضتي في وجهه ، وضحك نيلسون بشكل اخرق وهو ينخر •

سألته وانا ارتعد من الغضب :

— أكان ذلك ضروريا ؟

وعادت بي الذاكرة الى الوراء ، أيام صباي ، وكيف انني كنت على استعداد لان أقاتل حتى بدمي وجسدي لو قال لي أي شخص مثل هذا الكلام ، ولكني الآن اصبحت رجلا استطيع ان احكم غضبي واسيطر على عواطفي • ولبست قبعتي ثم سرت الى الباب وانا اقول لنفسي : احتفظ برباطة جأشك ولا تدع قيادك يفلت منك • وخرجت

وحضرت اجتماع الخلية التالي ، وطلبت ان يكون اسمي من بين المتكلمين ، فوافقوا • كان هناك « نيلسون » وكـان هناك « ايڤانز » وكان هناك « إدغرين » فلما جاء دوري تحدثت قائلا :

« ايها الرفاق •• لقد عملت يوميا طوال السنتين الماضيتين مع معظمكم ورغم ذلك فقد وجدت نفسي في بعض الاحيان في موقف لا أحسد عليه ، اما اسباب ذلك فانها قصة طويلة لا يهمني ان اسردها الآن لانـهـا لن

تؤدي الى نتيجة ، ولكنني اخبركم بأمانة انني اعتقد اني قدوجدت الحل لهذا الموقف ، وها أنذا اقترح هذه الليلة اسقاط اسمي من سجلات الحزب . انه ليست هناك خلافات من حيث المبدأ تدفعني الى هذا ، ولكنني فقط لا اريد أن أتقيد بقرارات الحزب بعد اليوم . إلا انه يسرني ان احتفظ بعضويتي في تلك المنظمات التي للحزب عليها بعض النفوذ ، وسوف امتثل البرنامج الحزبي في تلك المنظمات ... ارجو أن تتقبلوا كلامي بنفس الروح التي القي بها هذا الكلام ، ولعلي اتمكن في المستقبل من ان التقي بقادة الحزب كي أسألهم عن المهام التي يمكن ان اقوم بها .

وجلست بين السكون المطبق . وكان الانزعاج يبدو على وجه سكرتير الاجتماع الزنجي وهو ينقل بصره بين نيلسون، وايڤانز، وادغرين.

واخيرا سأل السكرتير : هل هناك أي تعليق على ما قاله رايت ؟

فقال نيلسون : أطلب تأجيل مناقشة ما قاله رايت .

وجرى تصويت سريع ايد اقتراح نيلسون ، فنقلت بصري في ارجاء القاعة الساكنة ثم أخذت قبعتي وقمت وانا اقول : والآن فاني أحب ان اذهب .

ولم يقل أحد شيئا فسرت الى الباب ، وأحسست هذه الليلة كأن حملا ثقيلا قد انزاح من فوق كتفي . لقد صرت حرا ، وقد تم الامر كله بطريقة مهذبة مستقيمة ، فلم يكن في كلامي حدة أو مرارة ، ولا أنا أثرت أية مهاترات ، ولا هاجمت أحدا ، ولا جحدت أحدا أو تنصلت منه .

وفي الليلة التالية زارني في بيتي شيوعيان زنجيان ، ولما كانا يدعيان أنهما لم يعرفا تفاصيل ما حدث في اجتماع الخلية فقد أخبرتهما بما حدث .

وهنا قالا وهما يكشفان بهذا عن الغرض من زيارتهما : ان قصتك ليست مطابقة لما يقول نيلسون .

قلت : وماذا يقول نيلسون ؟

— يقول : انك متحالف مع جماعة تروتسكي ، وأنك طلبت من أعضاء آخرين أن يتركوا الحزب كما فعلت أنت .

قلت : ماذا تقول ؟ هذا غير صحيح ، انني طلبت اسقاط عضويتي ولم أثر أية مسألة سياسية ، ثم جلست أتفكر في معنى ما سمعت ، وأخيرا قلت لهما :

— اسمعا ، لعله من الافضل أن أزيل الغموض عن استقالتي من الحزب . ان نيلسون اذا كان سيتصرف بهذا الاسلوب فسوف استقيل .

— لا يمكنك أن تستقيل

قلت : ماذا تقصدان ؟

قالا : لا يستطيع أحد أن يستقيل من الحزب الشيوعي .

فنظرت اليهما وضحكت . قلت :

— انتما تتكلمان كالمجانين .

قالا : ان نيلسون سوف يطردك علنا ويفسد عليك حياتك اذا استقلت ، فان الناس سوف تظن السوء بالحزب اذا استقال مثلك في هذا الطرف الجنوبي .

وأغضبني هذا وتساءلت ، هل وصل الحزب من الضعف وعدم الثقة بنفسه الى حد أنه لم يستطع أن يتقبل ما قلت في اجتماع الخلية ؟ من يا ترى يرسم هذه السياسة الخرقاء ؟ وفجأة أدركت الامر . لقد كانت هذه هي الخطة السرية لحركة الشيوعيين السياسية في عهد روسيا القيصرية ، واذن فقد كان الحزب الشيوعي يحس بأن عليه أن يغتالني

ويقضي علي معنويا ، لانني لم أرد أن ألتزم بقرارات الحزب • لقدوضح لي الآن بأن الرفاق كانوا يمثلون رواية خيالية لا علاقة لها مطلقابواقعنا أو بيئتنا •

قلت لهما : أخبرا نيلسون هذا أنه اذا هاجمني فبحق الله لأهاجمنه، وان ترك هذه المسألة اللعينة كما هي فلا بأس ، فان كان يظن أنني لن أناضله علنا فهو مجنون •

ولم أستطع أن أعرف ما اذا كان كلامي هذا قد وصل الى أذني نيلسون ، الا أنه لم يحدث تشنيع علني ضدي خارج صفوف الحزب ، أما في داخل الحزب نفسه فقد هبت العاصفة ، فوصمت بصفات كثيرة منها أنني خائن وأنني شخصية غير مستقرة وأنني ضعيف الايمان بالمبادىء •

لقد كان رفاقي يعرفونني ويعرفون أسرتي وأصدقائي ويعرفون الفقر المدقع الذي كنت أعيش فيه ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا على خوفهم من طريقتي الفردية في العمل وفي الحياة ، تلك الفردية ، التي كانت تسري في دمي ولحمي وعظامي •

ونقلتني هيئة الاسعاف من نادي الصبيان للطرف الجنوبي الى المسرح الاتحادي للزنوج كوكيل للنشر والاعلان ، وقد مرت علي أيام كنت فيها في شوق شديد الى سماع تعليقات الرفاق وتحليلاتهم ، الا أن كل ما كنت أسمعه مما يجري في داخل الحزب لم يكن يزيد على اتهامات توجه الى الافراد ، ثم رد الاتهامات ، وانتقام ، ثم ثأر للانتقام •

أما عن المسرح الاتحادي للزنوج الذي كنت أعمل فيه وكيلا للنشر والاعلان ، فانه كان قد قام بعدة تمثيليات عادية كلها قد جددت ورقعت بمناظر الغابات وجوها وروحها • لقد كانت المرأة البيضاء التي تدير المسرح تتناول مثلا تمثيلية شخصياتها الاصلية من البيض ، ووقتها

العصور الوسطى ، ثم تعيد صياغتها بعبارات واصطلاحات من حياة زنوج الجنوب مع بعض الاصطلاحات الافريقية ، أماالتمثيليات المعاصرة التي تعالج حياة الزنوج بشكل واقعي فقد كانت تستبعد باعتبارها خصامية جدلية ، وكان في هذا المسرح قريب من أربعين ممثلا وممثلة ، يقضون وقتهم في تكاسل وضجر •

قلت في نفسي : أي ضياع للمواهب هذا ، فهنا فرصة لانتاج روايات زنجية لها قيمتها ومع ذلك لا يهتم أحد • درست الامر علىبعض أصدقائي من البيض ممن لهم نفوذ ، وطلبت اليهم استبدال هذه المرأة البيضاء بشخص آخر له معرفة بالزنوج وله معرفة بالمسرح فوعدوني ببذل الجهد •

وفعلا قبل مرور شهر نقلت المديرة البيضاء ، ثم انتقلنا الى مسرح آخر من مسارح الدرجة الاولى ، وقد نصحت بتعيين « تشارلزدي شيم » وهويهوديموهوب كمديرللمسرحفوافقوا • وتباحثنا أنا و «دي شيم » ساعات طويلة في هذا الشأن ، وضعنا فيها خطوطا لما يمكن أن يتم انجازه ، وطلبت أن يكون أول عرض لنا قائمة من ثلاث تمثيليات ذات فصل واحد ، من بينها تمثيلية بول جرين المسماة « نشيد الشمس المشرقه » وهي تمثيلية تصويرية قوية عابسة تتحدث عن الارهاب الجماعي في الجنوب •

كنت سعيدا بهذا ، فقد صرت أخيرا في وضع يسمح لي بتقديم الاقتراحات والعمل على تنفيذها • كنت مقتنعا بأن لدينا فرصة نادرة لانشاء مسرح زنجي أصيل ، ودعوت الى اجتماع قدمت فيه « دي شيم » الى جماعة الزنوج ، وأخبرتهم بأنه رجل يعرف المسرح وسوف يسير بهم نحو انتاج الروايات الجادة القوية ، ثم تحدث « دي شيم » وقال انه لم يأت الى هذا المسرح ليديره بل ليعين الزنوج على ادارته ، وكان

يتكلم ببساطة وفصاحة دفعتهم الى أن يقوموا للتصفيق له وتحيته .

وهنا قمت ووزعت باعتزاز نسخا من تمثيلية « بول جرين » « نشيد الشمس المشرقه » على كل الاعضاء ، وطلب « دي شيم » اليهم أن يقرؤوا فقرأت منها ، وجلست أنا لاستمتع بسماع تمثيلية زنجية ناضجة . ولكن الامر لم يسر على ما يرام ، فقد بدأ الزنوج يتعثرون في قراءتهم ويتلجلجون حتى توقفوا أخيرا عن القراءة تماما ، وبدا الجزع على وجه دي شيم ، وقام أحد الممثلين الزنوج يقول

ـ ياسيد دي شيم ، نحن نعتقد أن هذه التمثيلية غير مهذبة ، ولا نريد أن تؤدي تمثلية مثل هذه أمام الجمهور الاميركي ، وأنا أعتقد أنه لا تقع مثل هذه الاحداث في الجنوب . لقد عشت في الجنوب ولم أر مطلقا شيئا من هذا ، يا سيد دي شيم نحن نريد تمثيلية تجعل الجمهور يحبنا .

فسأل دي شيم : اذن فأي نوع من التمثيليات تفضلون ؟

انهم ما كانوا يعلمون . وقد ذهبت الى مكتب الادارة واطلعت على سجلاتهم ، فوجدت أن معظمهم كانوا قد قضوا حياتهم يشتغلون بالتمثيل الراقص الرخيص ، لان المسرح الاصيل كان قد سد في وجوههم، والآن فقد ظهر أنهم هم أيضا لا يريدون شيئا مما يكون في المسرح الاصيل ، وأنهم في فزع من أن يظهروا على المسرح في تمثيلية قد لاتعجب الجمهور ، رغم أنهم لا يعرفون هذا الجمهور ولا يعرفون ما يحب وما يكره .

لقد اعتقدت ـ ولكن لفترة قصيرة فقط ـ أن البيض قد يكونون على صواب في اعتقادهم بأن الزنوج أطفال في تصرفاتهم ، وأنهم لن يكبروا أبدا ، وقد أخبر دي شيم المجموعة بأنه على استعداد لان ينتج أية رواية يحبون ، فجلسوا وجلين لا يجدون ما يعبرون به عن رغباتهم الغامضة .

وقد وصلت الى المسرح ذات صباح بعد بضعة أيام فأزعجني أن وجدت الجماعة قد تقدمت بطلب ابعاد دي شيم ، وقد طلبوا الي التوقيع ، فرفضت ، وقلت لهم :

ـ ألا تستطيعون أن تعرفوا أصدقاءكم ؟

فما زادوا على أن حملقوا في . واستدعيت دي شيم الى المسرح لنبحث هذا الامر المزعج .

قال دي شيم : ماذا علي أن أفعل ؟

قلت : إن أفضل شيء هو أن تكتسب ثقتهم . دعهم يعلمون أن من حقهم أن يطلبوا الانصاف والتعويض عن كل ما يؤذيهم .

وقد اعتبر دي شيم نصيحتي سليمة ، ولذلك جمع أفراد المجموعة وأخبرهم بأن من حقهم أن يقدموا ضده اذا أرادوا ، ولكنه يعتقد بأن أي سوء تفاهم بينهم يمكن أن يحل بهدوء وسهولة .

وهنا قام رجل أسود يقول :

ـ ومن الذي أخبرك أننا نتقدم بطلب ضدك ؟

فنظر الي دي شيم مرتبكا ولم ينطق بكلمة .

وهنا صرخت فتاة سوداء : ان بيننا خائنا في هذا المسرح .

وبعد هذا الاجتماع جاء الى مكتبي فريق من الرجال السود ، وأخرج كل منهم مطواته من جيبه يلوح بها في وجهي .

قالوا :

ـ عليك ان تترك وظيفتك هنا قبل أن نفتح بطنك .

وتحدثت الى أصدقائي من البيض قائلا : انقلوني حالا الى وظيفة أخرى والا قتلت .

ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى تسلمت أنا ودي شيم أوراقنا ، فتصافحنا ، وسار كل منا في طريقه .

ونقلت أنا وكيلا للنشر والاعلان في شركة مسرحية للبيض ، وقد صممت على أن أحتفظ بآرائي لنفسي ، أو أفضل من ذلك أكتبها على الورق ، ثم لا أحاول أن أنفذها عمليا •

★ ★ ★

وذات مساء زارني في بيتي جماعة من الشيوعيين السود ، وطلبوا أن يتحدثوا الي في سرية كاملة ، فأخذتهم الى غرفتي حيث أغلقنا الباب بالمفتاح ، وهنا قالوا فجأة :

ـ ديك ان الحزب يريد منك أن تحضر اجتماعا يوم الاحد

قلت : ولماذا ؟ انني لم أعد عضوا في الحزب •

قالوا : حسنا • انهم يريدون منك أن تكون حاضرا

قلت : ان الشيوعيين يقابلونني في الطريق فلا يتحدثون الي ،فلماذا تريدون مني الآن أن أحضر اجتماعكم ؟

فجعلوا يراوغون ، ولاحظت أنهم لا يريدون أن يخبروني •

قلت : اذا لم تستطيعوا أن تخبروني فلا أستطيع أن أحضر •

فجعلوا يتهامسون بينهم ، وأخيرا قرروا أن يطلعوني على سرهم •

قالوا : ديك • ان « روس » سوف يحاكم •

قلت : لماذا ؟

فسردوا علي قائمة طويلة بالجرائم السياسية التي زعموا أنه اقترفها •

قلت : فما شأني أنا بهذا الامر ؟

قالوا : سوف تعرف اذا حضرت •

قلت : أنا لست ساذجا الى هذا الحد •

لقد بدأت أرتاب في الامر • هل كانوا يحاولون أن يستدرجوني الى محاكمة ، ثم يطردوني ؟

قلت لهم : قد يتضح أن هذه المحاكمة انما هي لي أنا •

فأقسموا أنه لم تكن لديهم نية محاكمتي مطلقا ، وانما هم فقط يريدون مني أن أرقب محاكمة روس حتى أعرف ما يحدث « لاعداد الطبقة العاملة »

وعاودني شوقي القديم الى مراقبة شيء جديد • لقد كنت أريد حضور هذه المحاكمة ، ولكنني كنت أخشى أن أوضع أنا في قفص الاتهام •

قلت : اسمعوا انني لم اقترف ما نسب اليّ نيلسون من اتهامات ، ولكن اذا ظهرت في هذه المحاكمة ، فقد يبدو كأنما أنا مذنب •

قالوا : لا لن يبدو شيء من هذا ، فنرجو أن تحضر •

قلت : حسنا سأحضر ، ولكن اسمعوا ، اذا كانت هناك خدعة فسوف لا أسكت ، أسمعتم ؟ انني لا أثق بنيلسون • أنا لست سياسيا ولا يمكنني أن أعرف كل ألاعيب رجل ينفق ساعات يومه في تدبير المؤامرات •

ووقعت محاكمة روس مساء يوم الاحد التالي ، وقد وقف الرفاق متيقظين على استعداد ولكن بشكل غير ظاهر حول قاعة الاجتماع وحول الممرات وفي الطريق ، فلما ظهرت أنا أدخلوني بسرعة فشعرت بتوتر في أعصابي • لقد كانت القاعدة أنك متى دخلت اجتماعا من هذا النوع لا يمكنك أن تغادره حتى ينتهي • لقد كانوا يخشون أن أحدا قد يذهب الى الشرطة ويشي بهم جميعا •

كان المتهم « روس » جالسا وحده الى طاولة في مقدمة القاعة وهو ذاهل ، فأحسست بشفقة نحوه ، ولكن الشعور بأنه يستمتع بهذا الموقف لم يفارقني ، فلعل هذا بالنسبة اليه كان هو الحدث الهام في حياة كئيبة خاوية •

وفي محاولة لادراك السبب في كراهية الشيوعيين « لرجال الفكر » كما يسمونهم ، رجع فكري الى الوراء ، الى ما كنت قد قرأت عن الثورة الروسية • لقد كان يعيش في روسيا القيصرية ملايين من الفقراء الجهلاء يستغلهم ويسخرهم عدد قليل من النبلاء المثقفين المتعجرفين ، فأصبح طبيعيا بالنسبة للشيوعيين في روسيا أن يربطوا بين الخيانة وبين الثقافة والفكر ، ولكن العالم الغربي كان يوجد فيه أمر حير الحزب الشيوعي وأعياه ، ذلك هو كثرة من ثقفوا أنفسهم بأنفسهم رغم عدم مساعدة الظروف ، بل لقد كان الزنجي الواقع في شرك الجهل والاستغلال مثلي يستطيع أن يتعلم كيف يقرأ ويفهم الدنيا التي يعيش فيها ما دامت لديه العزيمة والرغبة ، وما كان الشيوعيون يستطيعون أن يفهموا أمثال هؤلاء •

وبدأت المحاكمة بطريقة سهلة هادئة ، وكان تصرف الرفاق أشبه بتصرف مجموعة من الجيران يشهدون محاكمة أحد معارفهم سرق دجاجة ، لقد كان في امكان كل انسان أن يطلب الكلام ويحصل على طلبه ، ولم يكن مقيدا بأية قيود ، ولكن الاجتماع مع ذلك كان قائما على هيكل فريد من النظام له طابعه الخاص ، هيكل عميق عمق رغبة الانسان في أن يحيا مع اخوته من بني الانسان •

قام عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وشرح الموقف الدولي• لقد كا نيتكلم بغير حماس ، ويلقي بالحقيقة وراء الحقيقة ••• وكلها حقائق قاسية عنيفة • لقد رسم صورة مفزعة ولكنها بارعة للظلم الفاشي في ألمانيا وايطاليا واليابان •

ولقد تقبلت السبب الذي من أجله بدأت المحاكمة بهذا الشكل • لقد كان من الضروري أن يتضح في الاذهان ضد من ارتكب « روسي » جرائمه ، ولذلك فقد كان لابد من أن ترسخ في أذهان جميع الحضور

صورة حية واضحة للبشرية التي تعاني الظلم والطغيان ، ولقد كانت صورة حقيقية • ولعله لم يتح لأية منظمة أخرى على ظهر الارض ، عدا الحزب الشيوعي ، ان تمتلك مثل هذه المعرفة التفصيلية الدقيقة عن حياة العمال في كل مكان ، لان الحزب كان يستقي معلوماته مباشرة من العمال أنفسهم •

أما الخطيب الثاني فقد تحدث عن دور الاتحاد السوفيتي باعتباره الدولة العمالية الوحيدة في العالم ، وكيف ان الاتحاد السوفيتي محاط بالاعداء من كل جانب ، وكيف أنه يحاول أن يقوم بمشروعات للتصنيع، كما تحدث عن التضحيات التي يقوم بها الاتحاد السوفيتي ليساعد عمال العالم في شق طريق الى السلام عن طريق فكرة الأمن الجماعي •

لقد كانت الحقائق المقدمة حتى الآن صحيحة كأي حقائق أخرى يمكن أن تكون في هذا العالم غير المستقر ، الا أنه حتى الآن لم تلفظ كلمة واحدة عن المتهم الذي جلس يستمع كأي فرد آخر ، ان الوقت لم يكن قد حان بعد لأن يوضع هو وجرائمه في هذه الصورة عن الصراع العالمي • لقد كان من الضروري أولا أن يستقر في أذهان الرفاق المعنى العام المطلق ، حتى يمكنهم أن يقيسوا الى ذلك مقدار نصيب أعمالهم من الخير أو الشر ، ومن النجاح او الفشل •

وأخيرا تقدم خطيب ليتحدث عن الطرف الجنوبي في شيكاغو ، وعن سكانه الزنوج ، وما يقاسونه ، ثم ربط أيضا بين هذا وبين الصراع العالمي ، وتقدم أيضا خطيب آخر ليوضح مهمة الحزب الشيوعي في الطرف الجنوبي ، فتم بذلك دمج الصورة الدولية والصورة الوطنية والصورة المحلية في رواية واحدة شاملة عن الصراع الفكري ، انطبعت في ذهن كل من في القاعة • كان هذا العرض قد استغرق أكثر من ثلاث ساعات، ولكنه كان قد أوجد شعورا بالواقعية في قلوب الحاضرين • شعورا

بواقع الانسان على ظهر هذه الارض فانه ـ باستثناء الكنيسة وأساطيرها ـ لم تكن هناك هيئة أخرى على ظهر الارض أقدر من الحزب الشيوعي على جعل الانسان يشعر بالارض ومن على ظهرها من الناس .

أما الاتهامات المباشرة التي وجهت الى « روس » بعد ذلك فانها لم تأت من قبل قيادة الحزب الشيوعي أنفسهم ، ولكن من قبل أصدقاء روس ، أولئك الذين كانوا يعرفونه أحسن المعرفة . لقد كان ذلك ساحقا . لقد أحسست كأن بدن روس يذبل ويذوي ، ولم تستطع عواطفه أن تحتمل ثقل هذا الضغط الادبي . ان أحدا من أصدقائه لم يكن مرغما على أن يعطي المعلومات عنه ، بل كانوا يعطونها عن طيب خاطر ، ذاكرين التواريخ والكلمات والمشاهد ، وهكذا بدأت أخطاء روس تبرز ببطء وبشكل لا يدحض ، ككتلة سوداء مظلمة .

وجاءت لحظة دفاع روس عن نفسه ، وكنت قد أخبرت أنه هيأ بعض الاصدقاء لكي يشهدوا لصالحه ، ولكنه لم يستدع أحدا ، بل وقف مرتجفا يحاول أن يتكلم فتخونه الكلمات ، وكانت القاعة في سكون كسكون الموت ، لقد كانت كل مسام جلده الاسود تكاد تنطلق وتقول : « مذنب » وكانت يداه ترتعدان ، بينما كان يتثبت بحافة الطاولة لكي يبقى واقفا . لقد انمحت شخصيته وشعوره بكيانه . ولم يكن ليصيبه مثل هذا الخزي لو لم يكن قد شارك قبل هذا المشهد الذي سحقه ، المشهد العام الذي ربطنا جميعا في اطار واحد .

قال أخيرا بصوت خفيض حزين : أيها الرفاق أنا مذنب آثم .. لقد اقترفت كل هذه الآثام ... كلها .

ثم تهدج صوته فجعل ينشج . لم يكن أحد قد وخزه أو عذبه أو هدده ، ولقد كان في استطاعته أن يخرج من القاعة ثم لا يرى شيوعيا آخر بعد ذلك ، ولكنه لم يكن يريد ذلك ، بل لم يكن يستطيع ذلك .

ان فكرة عالم شيوعي اشتراكي كانت قد استقرت في أعماق نفسه وما كانت لتغادره حتى تغادره الحياة . واستمر روس يتحدث موضحا كيف أخطأ ، وكيف أنه سيكفر عن خطئه ويصلح نفسه .

لقد كنت أعلم ، وأنا جالس هناك ، أن كثيرا من الناس الذين يحسبون أنفسهم على علم بالحياة وبالنفس البشرية يرتابون في محاكمات موسكو ، ولكنهم لو كانوا شاهدوا هذه المحاكمة المدهشة لما ظلوا على ريبتهم وتشككهم . لم يكن روس قد خدر ، بل لعله كان قد أوقظ . لم يكن الخوف من الحزب الشيوعي هو الذي دفعه الى الاعتراف ، بل كان الخوف من العقوبة التي سيفرضها هو على نفسه هو الذي جعله يتحدث عن آثامه وأخطائه . ان الشيوعيين من كثرة ما تحدثوا معه وكلموه كانوا قد أعطوه عيونا جديدة ينظر بها الى جريمته ، ثم جلسوا ينصتون اليه وهو يروي كيف أخطأ . لقد كان واحدا منهم مرتبطا بهم جميعا بصرف النظر عن العرق أو اللون . كان قلبه قلوبهم وقلوبهم قلبه ، واذا وصل الانسان الى هذا الحد من الارتباط بالآخرين ، أو قل الى هذا الحد من الوحدة معهم ، أوعندما تجعله المحاكمة مرتبطا بهم هذا الارتباط بعد أن كانت أخطاؤه قد فصلته عنهم ، فلا بد حينئذ أن يقوم ليقول من أعماق نفسه :

ـ أنا مذنب . سامحوني

لقد كان هذا بالنسبة الى مشهد من مشاهد الجد .. الا أنه كان بالنسبة الي أيضا مشهدا من مشاهد الفزع ، لانه كان يدينني ويحكم علي ، ولانه كان جاهلا يسير على غير بصيرة . ان العمى الذي أصاب حياتهم المحدودة ، حياتهم التي جعلها الظلم والطغيان مبتورة مجدبة من قبل أن يعرفوا الشيوعية بزمن طويل ، قد جعلهم يحسبونني مع أعدائهم . ان الحياة الامريكية كانت قد أفسدت وعيهم الى حد لم

يكونوا معه قادرين على معرفة عدوهم من صديقهم . لقد كنت على يقين من أن سلطان الحكم لو كان بأيديهم لأعلنوني متهما بالخيانة ثم أعدموني وهم يشعرون بكل ما في الجهل والعمى من قوة بأنهم على صواب .

لم أستطع أن أبقى الى نهاية المحاكمة ، بل كنت متشوقا الى الخروج الى الطريق لكي أنفض عن كاهلي هذا التوتر الذي كان يأخذ بخناقي ، فقمت منطلقا الى الباب ، ولاحظني أحد الرفاق فهز رأسه يذكرني بأنني لا أستطيع الخروج قبل نهاية المحاكمة .

قال : لا يمكن أن تخرج الآن .

قلت والغضب يرفع صوتي رغم ارادتي : اني خارج من هنا .

ووقف كل منا يحملق في صاحبه ، وجاء أحد الرفاق الآخرين يجري نحونا ، وخطوت أنا نحو الباب وأشار الرفيق الآخر الى صحبه بأن يسمحوا لي بالخروج . لم يكونوا يريدون اللجوء الى العنف ولا أنا كنت أريد ، فتفرقوا عني .

وخطوت الى الخارج في شوارع شيكاغو المظلمة ثم سرت الى البيت في برودة الليل حزينا مغتبطا . وقلت لنفسي مرة أخرى : ان علي أن أسير وحدي ، ولم يكن الحزن على نبذهم اياي بحيث يجعلني أقضي أيامي متألما يائسا ، ولعل ما مر علي من خبرات في صباي وطفولتي قد أنقذني من هذا الطريق العقيم ، فلما رقدت في فراشي تلك الليلة قلت لنفسي : « سوف أكون لهم دائما ولو كانوا علي » .

★ ★ ★

نقلت بعد فترة من عملي في الشركة المسرحية الى « اتحاد مشروع الكتاب » فحاولت أن أكسب عيشي بالكتابة . كان كثير من الكتاب في

هذا المشروع أعضاء في الحزب الشيوعي ، وكانوا يحافظون على القسم الذي يمنعهم من محادثة « الخائنين للطبقة العاملة » ، كنت أجلس بجوارهم في المكتب وآكل بجوارهم في المطعم وأركب معهم في المصعد، ولكنهم كانوا دائما ينظرون الى الامام في صمت وسكون .

وبعد أن عملت في هذا المشروع عدة أشهر ، عينت نائبا للمشرف على المقالات ، ومن يومها بدأت ألاقي المتاعب السياسية ، ففي يوم من الايام دعاني مدير المشروع الى مكتبه وقال :

ــ رأيت ، من هم أصدقاؤك في هذا المشروع ؟

قلت : لا أدري ، لماذا ؟

قال : حسنا ، عليك أن تعرف ذلك سريعا .

قلت : ماذا تعني ؟

قال : ان البعض يطلبون ازاحتك على أساس أنك غير كفء .

قلت : ومن هؤلاء ؟

فسمى لي بعض من كانوا رفاقي يوما ما . واذن فقد وصل الامر الى هذا الحد ، كانوا يحاولون أن يحرموني لقمة العيش .

قلت : وماذا تنوي أن تفعل بشأن شكاواهم ؟

ــ قال ضاحكا : لا شيء ، أحسبني أعرف ما يدور هنا ، ولن أدعهم يحرمونك من هذه الوظيفة . شكرته وقمت لأخرج ، الا أن شيئا في نغمة صوته جعلني ألتفت وأواجهه .

قلت : « هذه » الوظيفة ؟ ماذا تعني بذلك ؟

قال : أتريد أن تقول : انك لا تعرف ؟

قلت : أعرف ماذا ؟ عن أي شيء تتحدث ؟

قال : لماذا تركت مسرح الزنوج ؟

قلت : حدثت هناك متاعب فأخرجت من الوظيفة ، وكان الزنوج هم السبب .

فقال يسألني ساخرا : أتحسب أنهم لم يكونوا يلقون تشجيعا ؟
فعدت الى الجلوس مرة ثانية وأنا في عجب • لقد كان هذا فظيعا •
قال : لا حاجة بك الى الخوف هنا •
فغمغمت دهشا : هذا أمر لا يكاد يصدق
قال : لا تشغل نفسك بهذا كثيرا •

ولم يكن هذا أسوأ ما حدث ، فذات يوم عند الظهر أغلقت مكتبي ونزلت في المصعد ، فلما وصلت الى الطابق الارضي للمبنى رأيت صفا من العمال يتحركون في الطريق ذهابا وايابا ، لقد كان كثير من الرجال والنساء حاملي لوحات الاعلانات من أصدقائي القدامى ، وكانوا يهتفون مطالبين بزيادة الاجور • كان أمرا عاديا يمر به الانسان كثيرا • ولما غادرت باب المبنى سمعت اسمي يهتف به أحدهم

ـ هذا رايت التروتسكي اللعين
ـ نحن نعرفك يا أيها الـ •••
ـ رايت خائن

واذن فقد وصل الامر الى حد أن صرت أسب وأشتم على مسمع من الناس في شوارع مدينة من أكبر مدن أميركا • لقد هزني هذا الامر كما لم يهزني شيء من قبل

ومرت الايام وبقيت في عملي ، حيث كنت أعمل أيضا رئيسا للاتحاد الذي عملت على انشائه وتنظيمه ، ولقد انتخبت رئيسا لهذا الاتحاد رغم معارضة الحزب الشديدة • لقد كان رفاقي القدامى يسعون الى اضعاف نفوذي في الاتحاد ولو أدى الى حل الاتحاد كله •

وعند اقتراب يوم عيد الربيع من عام ١٩٣٦ صوت أعضاء الاتحاد في جانب السير في المظاهرة العامة • و في صباح يوم عيد الربيع تلقيت تعليمات مطبوعة فيها تحديد الزمان والمكان الذي ستجتمع فيه فرقة

اتحادنا الى أن تنضم الى الموكب العام ، وعند الظهر أسرعت الى المكان فوجدت الموكب قد بدأ فعلا ، وحاولت عبثا أن أبحث عن رايات اتحادنا ، وجعلت أسأل هنا وهناك الى أن قال لي أحد الزنوج :

ـ ان هؤلاء قد انطلقوا قبل ربع ساعة ، فاذا شئت أن تسير فخير لك أن تدخل في صفوف احدى الجماعات المارة •

شكرته وسرت خلال الجماهير الطاحنة وفجأة سمعت صوتا يناديني ، فالتفت ووجدت الى يساري فرقة الطرف الجنوبي للحزب الشيوعي مصفوفة ومستعدة للسير ، فقال لي صديق منهم •

ـ تعال هنا •
فسرت اليه • قال: ألا تسيرون اليوم ؟
قلت : لقد أضعت جماعتي •
قال : هذا شيء مؤسف • سر معنا اذن •
قلت وأنا أذكر زيارتي الاخيرة لمركز الحزب واعتبارهم اياي عدوا : لست أدري ••••
قال : انه عيد الربيع ، تعال الى صفوفنا •
قلت : انك تعلم المتاعب التي أصابتني •
قال : هذا أمر آخر ، ان كل انسان يسير اليوم •
قلت وأنا أهز رأسي : أظن من الافضل ألا أفعل •
قال : أخائف أنت ؟ هذا عيد الربيع •
ثم أمسك بذراعي اليمنى وجذبني الى الصف بجانبه ، فوقفت معه أسأله عن عمله وعن الاصدقاء ، وفجأة سمعت صوتا يصرخ
ـ اخرج من صفوفنا
تلفت فوجدت شيوعيا أبيض ، هو أحد قادة الشيوعيين في المنطقة، واقفا يحملق في بغيظ •

قلت : انه عيد الربيع وأنا أريد أن أسير .

فصرخ : اخرج

قلت : لقد دعيت الى هنا

وتلفت الى الشيوعي الزنجي الذي دعاني الى صفوفهم . لم أكن أريد اللجوء الى العنف . فنظرت الى صديقي الذي حول عينيه عني . لقد كان خائفا ولم أدر ماذا أصنع .

قلت للصديق : ألست قد دعوتني الى السير معكم ؟

ولكنه لم يجب .

قلت وأنا أجذبه من كمه : أخبره بأنك دعوتني

وهنا صرخ الشيوعي الابيض قائلا :

ـ أنا اطلب اليك للمرة الاخيرة أن تغادر صفوفنا .

ولم أتحرك من مكاني . لقد كنت أنوي أن أتحرك ،الا أن الخواطر التي أخذت بخناقي كانت من الكثرة بحيث عجزت عن الحركة والتصرف وجاء شيوعي آخر أبيض لمساعدة زميله ، وأمسك الاول بتلابيبي يجذبني وأنا أقاومه ، فأمسك كلاهما بي ، وجعلت أناضل لتخليص نفسي . قلت وأنا أناضل :

ـ أطلقوني .

وحملتني الايدي من فوق الارض ، وشعرت بجسمي يرمى في الهواء ولولا اني أمسكت بقطعة بارزة من أحد الجدران لوقعت على رأسي ، قمت ببطء ووقفت على قدمي . كان الشيوعي الابيض ومساعده ينظران الي بغضب ، وكانت صفوف الشيوعيين البيض والسود تنظر الي بعيون باردة هادئة . ولم أكد أصدق ماحدث رغم أن الدم كان يسيل من يدي .

لقد تعرضت على أعين الناس لاعتداء بدني من قبل اثنين من الشيوعيين البيض ، والشيوعيون السود وقوف ينظرون ، ولم أستطع

أن أتحرك من مكاني ، ولم تكن لدي أي فكرة عما ينبغي أن أصنع ، الا أنني لم أكن أحس برغبة في قتال لانني كنت قد تخطيت مرحلة الصبا ، وصرت أقدر على ضبط النفس .

وفجأة بدأت صفوف الحزب الشيوعي تتحرك ، ورفعت الرايات الحمراء وعليها المطرقة والمنجل ، شعار الثورة العالمية ، وبدأت ترفرف في نسيم الربيع ، ثم دقت الطبول وبدأت الاصوات في الانشاد ، ووطء الاقدام يرج الارض ، ومضت الصفوف من أمامي ، صفوف من النساء والرجال السود والبيض .

وتبعت الموكب حتى وصلت الى حديقة بلازا فدخلت وجلست على أحد المقاعد . لم أكن أفكر ، اذ لم يكن في استطاعتي أن أفكر ، الا أنني وجدتني أنظر الى الامر نظرة موضوعية لاتتصل بشخصي ، وجدت مجموعة جياشة من الشوارد والافكار المختلطة تتجمع وتكون اتجاها وفكرة .

قلت لنفسي انهم عميان ، ان أعداءهم قد طمسوا أعينهم من كثرة ماظلموهم .

وأشعلت سيكارة وسمعت أغنية تسبح على أجنحة الهواء :

انهضوا ياحلفاء الجوع
اشهدوا ميلاد عالم جديد

وتذكرت القصص التي كتبت ، القصص التي أعطيت دور الشرف والفخار فيها للحزب الشيوعي ، وسرني أنني سطرتها وانتهيت منها ، فقد كنت الآن على ثقة من أنني لن أستطيع أن أكتب هكذا مرة ثانية ، لن أتمكن بعد اليوم من أن أجد في نفسي تلك الاستجابة المتفتحة البسيطة لكل ما في الحياة ، لن أستطيع بعد الآن أن أعبر عن

مثل هذا الامل الجياش ، أو أن أهب نفسيَ بكل هذا الاخلاص للمبدأ من جديد ٠

الموكب لا يزال يسير ، والرايات لا تزال ترفرف ، والاصوات المتفائلة لا زالت تتغنى ٠

★ ★ ★

وتوجهت وحيدا الى البيت ، كنت الآن وحيدا حقا ، أحدث نفسي بأن أقل عوامل الحياة وضوحا في قارتنا الفسيحة كان هو القلب الانساني ، وان أتفه أهداف الحياة في نظر الناس هو أن يحيوا حياة انسانية ٠ قلت لنفسي : لعلي أستطيع من خلال شعوري المعذب أن أطلق شرارة في هذه الظلمات ٠ لسوف أحاول ، لا لأنني أريد ذلك ، ولكن لأنني أشعر أن علي أن أفعل ذلك كي يمكنني أن أعيش ٠

سوف أطوح بالكلمات في هذه الظلمات ، ثم انتظر الصدى ، فاذا سمعته ، مهما كان خافتا أرسلت غيرها ، سوف أتكلم وأسير وأقاتل لخلق معنى لذلك الشغف بالحياة الذي يسري في كياننا جميعا ، ولكي يبقى حيا في قلوبنا كل ما هو انساني ونبيل ٠

القسم الثاني

العابدون من بعيد :

تمهيد بقلم إنيد ستاركي

١ ـ أندريه جيد
٢ ـ لويس فيشر
٣ ـ ستيفن سبندر

أندريه جيد

تمهيد بقلم إنيد ستاركي

ولدتْ أنيد ستاركي في دبلن بأيرلندا ، وهي ابنة المرحوم الشريف و. ج. م. ستاركي أستاذ اللغة الاغريقية (اليونانية) وآخر مفوض سام في التربية للحكومة البريطانية في أيرلندا . تعلمت انيد في كليـة اليكسندرا بدبلن وكليـة سمرفيل أكسفورد وفي السوربون بباريس . وقد تخصصت في الأدب الافرنسي وحصلت على درجة الشرف الاولى الممتازة من أكسفورد وعلى الدكتوراة من جامعة باريس كما منحت وسام الشرف (ليجيون دونير) لما أدته من خدمات للأدب الافرنسي .

ومن بين أعمالها دراسات بالانكليزية والافرنسية لريمبود وبودلير وغيرهما من الكتاب الفرنسيين ، وهي الآن تقوم بوظيفة « قارىء » في الأدب الافرنسي بجامعة أكسفورد كما أنها « زميلة » من كلية سمرفيل بأكسفورد .

لقد طرأ تغير هائل على اندريه جيد منذ عام ١٩٢٠ ، فتحول من ذلك الانطوائي المعذب الذي عرفناه في كتاباته الاولى الى ذلك الفيلسوف الرصين الذي نعرفه اليوم ، وبدأ يطرح جانبا عملية تعذيب الذات والبحث العقيم المضني عن الآثام والدوافع ، ليجد نفسه أخيرا على حقيقتها على حد زعمه • انه القائل عن نفسه : « إنني أسمح لجميع المتناقضات أن تسرح في نفسي وتمرح كما تشاء » ولما تحرر جيد من الصراع النفسي وتخلص بذلك من الانشغال بالذات اصبح لديه فائض من النشاط والجهد

للتفكير في الامور الموضوعية — لا لمشكلة الاثم والحرية الشخصية فقط • وفي تموز (يوليو) من عام ١٩٢٥ ، بعد ان انتهى من كتابه « الماليون الضالون » رحل الى افريقيا ثم عاد منها بعد سنة واحدة • ولقد افزعه ما رأى في الممتلكات الاستوائية الفرنسية من استغلال شنيع لاهالي البلاد من قبل اسيادهم البيض ، فلما عاد من هناك كتب يقول : « إن حزنا هائلا قد استقر في نفسي الى آخر الزمن » وارسل الى صديقه شارل دي بو ، يقول : « انني لا أود ان احصل على السعادة لنفسي فقط ولكن اود ايضا ان اعين غيري على الحصول عليها • انني ارى السعادة في انكار الذات وفي جعل الآخرين سعداء » لقد اصبح الان نصـير الضحايا والمستضعفين في كل مكان ، يطالب بمزيد من المعاملة الطيبة لمرتكبي الجرائم ، ويطلب مساواة المرأة بالرجل وخاصة من النواحي المعنوية ، ويدافع عن قضية اهالي المستعمرات (كما نرى في كتابيـه « الرحلة الى الكونغو » و « العودة من تشاد ») ، ويتبنى الدفاع عن المحرومين من الحقوق المدنية • وفي هذا الوقت بالذات اجتذبته الشيوعية وذهب الى روسيا • ولقد اعلن في ذلك الحين انه كان دائما شيوعيا في داخلية نفسه حتى في الوقت الذي كان فيه اقرب ما يكون الى المسيحية كما قال في « يومياته » ان الذي يعجبه في روسيا انها استطـاعت ان تلغي هذه العبارة البغيضة : « بعرق جبينك تكسب خبزي »

وهنا يبرز لون جديد في مفهوم الحرية الشخصية عند جيد • لقـد كتب عام ١٩٣١ في مقدمة كتاب « سرقة ليلية » لمؤلفه « انطوان دي سان اكسيبيري » يقول : « انني شاكر له بشكل خاص ما القاه من ضوء على حقيقة غير معروفة وذات أهمية كبيرة بالنسبة الي ، وهي ان سـعادة الانسان ليست في استمتاعه في حريته ولكن في ادائه لواجبه » وهـذا القول يغاير مغايرة تامة هذا الاحساس الفردي الكامل بالحرية الشخصية

واهميتها والذي عبر عنه قبل ثلاثين عاما في كتابه « الاغذية الارضية »
اما اليوم فانها يسميها « الحرية النافعة لا الحرية المسعبدة » • وهـو
في تمثيلية « أوديب » التي كتبها عام ١٩٣١ يرينا في شخصية البطل كيف
ان الدمار الكامل يصيب الفرد الذي لا يرى شيئا اكبر من نفسه ،ويضع
الحرية الشخصية فوق كل معنى آخر • ان اوديب يملك في بداية القصة
كل المميزات التي يراها جيد ضرورية للفرد الحر ، وهو فخور وسعيد
لكونه غير مثقل باية ارتباطات بعائلة او تقاليد ، إذ انه بذلك يستطيع ان
يكون هو نفسه فقط ، إلا انه في النهاية يهزم ، لانه يحاول ان يستغني
بنفسه ويعتمد عليها وحدها ، وبعد هذه الهزيمة يضطر جيد الى الاقرار
بان الانسان بدون الله مقضي عليه بالفشل واليأس الا اذا استبدل بالله
فكرة اخرى ، وكما ان أوديب في النهاية آمن بالانسان وانكر الله ،كذلك
آمن جيد في الشيوعية • لقد اصبح الآن يرى ان الحرية في ذاتها لاتكفي
وانها قد تدمر نفسها اذا لم تكن مرتبطة بمثل اعلى وراء الانانية والتعبير عن
الذات ، او مرتبطة بواجب ، ولقد ظن جيد انه سوف يجد في الشيوعية
هذا الاحساس بالمسؤولية والالتزام • لقد ظن انه سوف يجد في الشيوعية
بما فيها من تنظيم ، وبما فيها من مبدأ القيام بالواجب ، اكمل تعبير عـن
الفرد ، وأصح شكل من اشكال الحرية وأتمه • ان جيد هو الذي يقول :
« ان مجد الفرد هو في نبذ الفردية » ، وهو الذي يقول فيما بعد ، عام
١٩٣٥ ، في كتاب « الاغذية الارضية الجديدة » : « ان كل انسان في هذه
الدنيا لا هدف له الا نفسه يعيش في فراغ اليم » •

ولم يكن اهتمام جيد بروسيا تحولا جديدا عنده ، فقد كان مشتغلا
بدستوفسكي من قبل ان تقوم الحرب ، ولما جاء عام ١٩٢٢ القى عنـه
سلسلة من المحاضرات بمناسبة عيده المئوي ، وكان يحسب في ذلك الحين
انه يرى من خلال الظلام الذي احاط بروسيا منذ الثورة شعاعا من أمل

وانها تقدم على التضحية بنفسها لاجل خلاص البشرية كلها ، وقد حسب
الآن ، بعد مرور عشر سنوات ، ان هذا الخلاص للبشرية قد انجز •
لقد كان المعتقد ان جيد لن يوقف نفسه على مبدأ او يختار عقيدة ، الا
انه الآن قد آمن ايمانا لا يلين بالعلاج الذي تقدمه الشيوعية للشرور
البشرية ، وكان ايمانه هذا اشبه بالايمان بدين جديد ، فكان نصيب العاطفة
فيه اكبر من نصيب العقل ، ولقد كتب في « يومياته » يقول « انني احس
انني لست أخا الا لمن دخل الشيوعية من طريق المحبة » ، وفي عام ١٩٣١ كتب
مرة ثانية يقول : « انني احب ان اعلن عطفي على الاتحاد السوفيتي ،
وارجو أن يستمع الناس الى اعلاني هذا وان يكون له اثر • انني احب
ان اعيش حتى اشهد نجاح هذا المجهود الهائل الذي ارجو من اعماق
قلبي أن ينجح ، وأن يكون لي شرف العمل في سبيله » ومع أن جيد
كان على استعداد لأن يضحي ببعض مالفرديته من قداسة ، الا أنه كان
يعتقد أن هذه التضحية لن تكون ضرورية ، فكتب في عام ١٩٣٢ يعلن
انه لا يرى سببا يدعو لوجود صراع بين الفردية والشيوعية ويقول :
« انني لازلت فرديا مؤمنا بالفرد ، واني لأرى أولئك الذين يحاولون
أن يثبتوا التناقض بين الشيوعية والفردية في ضلال مبين • إن إيمـان
الانسان بأنه يمكنه — بل ويلزمه — أن يكون شيوعيا وفرديا في نفس
الوقت ، لا يمنعه من أن يستنكر الامتيازات التي يستمتع بها البعض
بسبب الوراثة والمولد ، ومن أن يضيق بسلسلة الاخطاء التي تنتج عن
تلك الرأسمالية التي سيظل عالمنا الغربي مستمسكا بها الى أن تقوده
الى حتفه • لماذا أتوق الى الشيوعية ؟ لأنني أعتقد أنها عادلة منصفة ،
ولأني أضيق بالمظالم وخاصة حين أشعر أنني أنا نفسي قد فضلت على
غيري بسبب الوراثة والمولد ، ولأن النظام الذي أعيش في ظله يبدو
لي غير قادر على حماية الناس من أغلظ المظالم والاساءات ، ولأنني

لا أرى بين المحافظين إلا أمورا ميتة أو في طريقها الى الموت ، ولأنه يبدو لي سخيفا أن يتمسك المرء بأمور قد كانت لها أيامها التي انقضت ولأني أومن بالتقدم ، ولأني أفضل ما هو آت على ما انقضى ومات . لماذا أتوق الى الشيوعية ؟ لأنني أومن بأننا عن طريقها سوف يمكننا أن نحصل على أعلى الثقافات ، ولأن الشيوعية هي التي يمكنها — بل ويلزمها — أن تخلق نوعا جديدا من المدنية أفضل من سابقه . » لقد كان جيد يعتقد أن الشيوعية ، اذا فهمت على حقيقتها ، تتطلب تشجيع القيم الفردية لكي تحصل من كل فرد على خير ما عنده .

لقد أرسل في عام ١٩٣٥ رسالة الى الشيوعيين في مؤتمر الكتاب السوفيتي قال فيها : « على طريق التاريخ ، حيث لا بد لكل أمة من أن تسير ان عاجلا وان آجلا ، اندفع الاتحاد السوفيتي في المقدمة بطريقة مجيدة . انه يعطينا اليوم مثلا للمجتمع الجديد الذي طالما تخيلناه وان كنا فقدنا الأمل في تحقيقه. وإنه لمن الاهمية بمكان أن يعطينا الاتحاد السوفيتي مثلا طيبا في المجال الفكري ، فإن واجبه نحو نفسه أن يثبت لنا أن المثل الشيوعي الأعلى ليس خيالا أو وهما كما يروق لأعداء الشيوعية أن يزعموا . ان واجب الاتحاد السوفيتي اليوم أن يفتتح في الفن والادب الطريقة « الشيوعية الفردية » — اذا كان لي أن أربط بين هاتين الكلمتين اللتين يخطىء الناس كثيرا حين يظنونهما متعارضتين . لقد كان من الضروري حقا أن يمر الاتحاد السوفيتي بمرحلة تأكيد حق الجماعة لكي يعود التوازن ، إلا أن هذه المرحلة قد انتهت ، وعلى الشيوعية اليوم أن تراعي خاصية كل فرد ومزاجه الخاص . إنه لأمر غير مرغوب فيه أن يكون أفراد المجتمع نسخا متشابهة متكررة ، بل انه لأمر لا يمكن أن يكون ، فكيف بالأدب ؟ ان كل أديب ومفكر هو بالضرورة نزّاع الى الفردية مهما قوي

إيمانه بالشيوعية ومهما اشتد ارتباطه بالحزب ، وهو لا يستطيع أن ينتج شيئا ذا قيمة للمجتمع الا بهذه النزعة الفردية . إني كذلك أعتبر ذلك الخوف الذي لا يستشعره إلا العاجزون ، الخوف من أن يذوبوا في المجتمع ، أعتبره خوفا سخيفا لا موضع له ، فكما أن الشيوعية في حاجة الى الشخصيات القوية ، كذلك تجد هذه الشخصيات عزها وقوتها في الشيوعية » .

ولما طلب الى أندريه جيد في اجتماع عقد في « جمعية البحث عن الحقيقة » أن يدافع عن آرائه ومعتقداته قال :

« إنني أرى أن المسيحية قدأفلست بسبب تساهلهاوتركها الحبل على الغارب ، وقد كتبت من قبل ، ولا زلت أومن أشد الايمان ، أن المسيحية لو نفذت تعاليم المسيح حقا ، وطبقها الناس في حياتهم ، لما كان هناك من حاجة الى الشيوعية — بل لما كانت هناك مشاكل اجتماعية على الاطلاق » .

وقد أضاف جيد فيما بعد ، خلال بحث موضوع الشيوعية :

« إذا كنت لم أشعر بوجود أي تعارض بين المجتمع وبين الموقف الفردي ، فالسبب الوحيد هو أن التعارض نظري ومفتعل ، وأنا على ثقة مما أقول . ولم يكن ماركس هو الذي أخذ بيدي الى الشيوعية ، بل لقد بذلت جهدا كبيرا كي أقرأه ولكن دون جدوى ، ولذلك أكرر القول بأن النظرية الماركسية لم تكن هي التي جذبتني الى الشيوعية ، وإنما الذي حولني الى الشيوعية قلبا وقالبا هو ذلك المركز الاجتماعي الممتاز الذي أتمتع به شخصيا — فقد بدا لي شيئا غير معقول وغير محتمل . لقد التقيت ذات مرة بأحد الركاب الذين نجوا من السفينة الغارقة « لابورجون » ، وأخبرني بأنه كان من حسن الطالع بحيث وجد مكانا على ظهر قارب من قوارب النجاة مع بعض الرجال الآخرين ،

وسرعان ما امتلأ القارب بحيث لم يعد يحتمل ركابا آخرين وإلا انكفأ وغرق بمن فيه ، وكان الناجون في القارب ، وهم مسلحون بالخناجر والمدى ، يقطعون يدي كل من يمسك بحافة القارب يحاول الصعود ، وقد أصبحت لا أحتمل أن أرى نفسي من الناجين في القارب ، سالما آمنا، بينما غيري يغرقون من حولي . إن الناس يجادلونني ، غير أنني لست من المهارة بحيث أستطيع أن أجيبهم بدهاء وإقناع ، وإنما الذي أعرفه وأتشبث به أنني لا أستطيع أن أقبل مكانا في قارب نجاة ليس ينجو فيه إلا عدد محدود . ولو أنني استطعت على الأقل أن أتأكد من أن الناجين هم أفضل من الغارقين لما كان الأمر بهذا السوء ، غير أن الذي يثير سخطي وغضبي أن أسمع أحد الناس يقول لي : « لماذا هذا التذمر والتسخط ؟ إنك ولا بد تعترف معي بأن قارب النجاة مكان طيب مريح » .

وهكذا أصبح جيد يخجل من كونه غنيا غير مضطر للعمل بيديه كي يكسب قوته بعرق جبينه ، حتى لقد نشأ لديه شعور بالنقص لهذا السبب .

لقد ذهب الى الاتحاد السوفيتي وهو يأمل أن تتمكن روسيا من الحصول على أبدع ثمار المدنية دون استعباد للعقل أو الروح ، ودون استرقاق طبقة لطبقة ، ودون أن يحرم أحد من الناس من فوائد المدنية وثمارها . ولقد ذهب الى هناك وهو يعلم أن العالم الجديد قديستلزم التضحية بالكثير مما هو صالح ونافع ، وأن المستويات الخلقية والفنية قد تضمحل فترة من الزمن لأجل بعض الفوائد المادية والاجتماعية العاجلة ، فقد كان يوافق على ان الانسان قد لا يكون من الممكن تطويره خلقيا وعقليا قبل أن يقضى على السيئات الاجتماعية ، بل قبل أن يتبدل النظام الاجتماعي كله . ان جيد الذي كان الى اليوم يتجنب كل عقيده وكل مبدأ ، قدأصبح الآن على استعداد لتقبل العقيدةالماركسية ،

وإن كان يعلم تماما أنهاقد تكون خطرة كبيرة اذا اعتنقها الانسان فترة طويلة من الزمن ؛ بل لقد وافق على أنه اذا ثبت أن العقيدة الماركسية نافعة أو لاغناء عنها لضمان وضع أسس النظام الاجتماعي الجديد فلا بأس بها . لقد كتب يقول : « لعله من الصواب أن يضحي في سبيل الوصول الى هذه الغاية ولو ببعض الآثار الأدبية والفنية . » إلا أنه في النهاية رأى أن الثمن كان باهظا ، فإنه لم يستطع في عام ١٩٣٧ أن يلحظ فرقا بين ما رآه مكتوبا بحروف ضخمة على الجدران في ايطاليا وبين ما كان قد رآه من قبل في روسيا ؛ لقد رأى الشعارات والعبارات متشابهة في كلتا الحالتين « آمن وأطاع ثم قاتل » وقال في « يومياته » : « ان هذه النقوش والكتابات الايطالية تصلح تماما أن تكون على جدران موسكو ، فإن الروح الشيوعية لم تعد تتعارض مع الروح الفاشية ، بل ولم تعد تختلف عنها . » ولقد أصبح جيد فيما بعد يرى أن الحلم السوفيتي عن الدولة التي تتبع المذهب الجماعي (الدكتاتوري) لم يكن إلا خيالا ظالما لا يسمع فيه صوت للأقليات المستعبدة ، وأسوأ ما في الأمر أن تفكير الناس فيها تفكير متشابه متماثل : « انه لا مجال للحديث عن الانسجام حين لا يغني أفراد الجوقة إلا نغما واحدا » .

لقد ظهر بعد الحرب تطور جديد في معنى الفردية والحرية لدى جيد ، فأصبحت تختلف عن تلك الحرية الكاملة غير المحدودة التي كان يؤمن بها في شبابه ، كما تختلف عن تلك « الحرية النافعة » التي آمن بها في أواسط عمره . لقد أصبح يؤمن الآن بأن الحرية المطلقة تدمر الفرد وتدمر الجماعة ، إلا أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتقاليد والنظام ، ولم يعد يبحث عن تغيرات مغالية متطرفة تقطعجذور ماسبقها . لقد كتب خلال الحرب في كتابه المسمى « محادثات وهمية » يقول : ان المدنية اذا اعتمدت اعتمادا كليا على أولئك الذين يتنكرون النظريات

الثورية فسوف تندثر ، لأن الثقافة تحتاج لبقائها الى تقاليد مستمرة ومتطورة • ولقد بين جيد في أحدث كتبه (« تيزيه » عام ١٩٤٦) كيف ان الفرد الشجاع ذا العزيمة يستطيع أن يعود من التيه بسلام ، بشرط أن يستمسك بالخيط الذي يصله بالماضي • ولعل من الطريف أن نراقب التغير الذي طرأ على فكرة هذا الكتاب منذ تصوره جيد قبل ثلاثين عاما • كان جيد في البداية يرى الخيط الذي يربط بين « ثيبوس » وبين « آريارن » خيطا يشده الى الماضي ، الى المكان الذي جاء منه ، والى النساء اللاتي هن دائما حواجز بين الانسان وبين دوافعه الى التطور والتقدم ؛ أما فيما بعد فقد تخيل ثيبوس « يمضي في التيه وليس يشد أزره ويطمئنه الا خيط من الصدق والولاء الداخلي ؛ على حين بين في النهاية أن ثيبوس ما استطاع أن يرجع الا لأنه استمسك بالخيط الذي يشده بماضيه ، خيط التقاليد ، فإن « دايدالوس » يقول لثيبوس وهو ماض في سبيله : « عد إليها » — أي الى آريارن التي ترمز الى التقاليد — « عد اليها والا فقدت كل ما بقي من خير وجمال • ان هذا الخيط هو الرباط بينك وبين الماضي • عد الى نفسك ، فإنه لا شيء يبدأ من لا شيء ، ولا يمكن أن ينبع مستقبلك الا من ماضيك ومن حاضرك » •

لقد عاد جيد هنا الى نفس القارة التي عبر عنها في محاضرته في أكسفورد عام ١٩٤٧ في ذكرى « برايس » حين استشهد من شعر فرجيل بالبيتين اللذين يصفان « إينياس » وهو يفر من طراودة وهي تحترق حاملا أباه على ظهره ، فقد ذكر جيد أن هذين البيتين يجب أن يفسرا على أساس رمزي ، وأن إينياس لم يكن يحمل على كتفيه أباه فقط ، وإنما كان يحمل ثقل الماضي بأكمله ، واننا نحن أيضا نفر من مدينة مدنيتنا المحترقة ونحمل على أكتافنا أثقال ماضينا المسيحي ومدنيتنا المسيحية المبنية على تقديس روح الفرد الانساني ، وعلينا أن نحافظ عليها من

الفناء والاندثار • ثم أضاف جيد أنه يدرك أن المدنيات تقوم ثم لا تلبث في النهاية أن تموت ، ولكنه لا يعتقد أن مدنيتنا هذه مقضي عليها حتما بالفناء ، اذا نحن تقبلنا مسؤولية المهمة المقدسة التي يلقيها ماضينا وتقاليدنا على اكتافنا ، ومع أن مدينة الثقافة الاوروبية تحترق ، إلا أننا نستطيع مع ذلك أن نحافظ على لبابها وأغلى ما فيها • وقال جيد أيضا : إنه لايزال مؤمنا بالفرد والفردية ، وانه يعارض بكل قوته ضياع المسؤولية الفردية في غمار الجماعة المنظمة ، كما يستنكر هذا التهرب من الحرية الذي يعتبر علما على عصرنا • وقال : إنه يرفض قبول العبارات المذهبية الدارجة ، ويرفض نظرية « الأدب الموجه » مهما كانت العقيدة التي يدافع عنها هذا الأدب الموجه ، ويرفض الاعتراف بكل هذه النظريات الأدبية والفنية التي سوف تختفي في النهاية كما اختفت أخواتها من قبل ، ولا تترك وراءها الا الأفراد البارزين من حملتها والدعاة اليها •

كان هذا كله في عام ١٩٤٧ ، إلا أنه قبل ذلك بخمسة عشر عاما ، حين كان يؤيد الشيوعية ،كتب في « يومياته » يقول :

« إن تحولي يشبه الايمان بدين • إن كياني كله يتجه الآن الى هدف واحد لا ثاني له ، وكل أفكاري ترتد الى ذلك الهدف وحده ؛ وفي حالة الضيق المؤسف الذي يعيش فيه العالم اليوم ، يبدو لي أن منهاج الاتحاد السوفيتي يشير الى طريق الخلاص ، وكل شيء حولي يزيدني بهذا اقتناعا ، بل ان مجادلات المعارضين التعيسة ، بدلا من أن تقنعني ، تستثير سخطي وغضبي ، ولو شعرت أن حياتي ضرورية لضمان نجاح التجربة السوفيتية لقدمتها في الحال بضمير مطمئن ونفس راضية • انني أقول هذا بكل صدق واخلاص ، وأنا بكامل عقلي ، وبنفس هادئة ، لأنني أحس بحاجة شديدة الى تقديم هذه الشهادة ، مخافة أن يتدخل الموت قبل أن أتمكن من التعبير عن نفسي » •

ذهب جيد الى روسيا في حزيران (يونيو) عام ١٩٣٦ مفعم النفس

بالآمال الكبار ، فلم يلبث أن رجع منها وقد خابت الآمال ، فكتب وهو في طريق العودة يقول :

« لقد كانت رحلتي السوفيتية تجربة محزَنة مؤسفة . وصلت الى هناك وأنا من الأتباع المؤمنين المتحمسين ، لكي أرى العالم الجديـد وأتغنى بمدحه ، وأرادوا هم أن يغروني ويحظوا بتأييدي فقدموا الي كل الامتيازات والميزات التي بغَّضت اليَّ العالم القديم . »

لم يكن ماركس هو الذي حبب الشيوعية الى جيد ، بل كان الانجيل هو الذي أضاء طريقه اليها ، فلما وصل الى روسيا لم يكد يجد هناك من روح الانجيل شيئا . لقد احتفوا به وأولموا له في كل مكان ، فقد كان كسبا عظيما للقضية ، باعتباره أعظم كاتب أوروبي حي ، وممن عرفهم الناس بالنزاهة والصدق والامانة . لقد قدم له كل ما في المدنية المتدهورة من امتيازات ، غير أنه لم يكن في حاجة الى بخور أو تكريم، وما ذهب الى الاتحاد السوفيتي طلبا للنفع المادي . لقد رأى هناك في كل مكان تلك الهوة التي تفصل بين المميزين والمستضعفين ، وذلك الاستعباد العقلي الذي كان يستنكره في أوروبا . إن الكتابين اللذين كتبهما لدى عودته (« العودة من الاتحاد السوفيتي » و « على هامش رحلتي الى روسيا ») يبينان مقدار يأسه وخيبة أمله . لقـد عبر في هذين الكتابين عن اعجابه بالشعب السوفيتي ومحبته له ؛ فقد سحرته الوجوه الباسمة ، والأطفال السوداء ، ومراكز الترفيه والانعاش والاقبال على التعلم ، وروح الأمل . إلا أن جيد آلمته المظالم الاجتماعية التي رآها ، والنصيب الضئيل الذي يحصل عليه عامة الناس مقابل صبرهم وجلدهم ، وأحزنه قبح الملابس وقذارتها ، ورداءة البضائع المعروفة في الاسواق ، والتي يقف الناس في الصفوف ساعات لأجل الحصول عليها ، وأفزعه فقدان روح النقد وانعدام حرية الرأي والفكر . وقد أخذنا حديثنـا التالي من الكتابين المذكورين بمساعدة أندريه جيد نفسه وبموافقته .

أندريه جيد

ولد أندريه جيد في باريس في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٦٩ ، وتلقى تربية خاصة ، ثم درس بالمدرسة الألزاسية في باريس . وهو رجل غني ذو موارد تغنيه عن أن يعمل ليكسب عيشه مما كان له أثر في نفسيته وفي كتبه . وفي سن العشرين نشر لأول مرة كتاب « الاغذية الارضية » ، ذلك الكتاب الذي كان له أثره العظيم على جيل ما بعد الحرب العالمية الاولى . ومن بين كتبه كتـاب « الباب الضيق » وكتاب « السيمفونية القروية » وكتاب « أوديب » وكتاب « تيزيه » ، الا أن أعظم كتبه وأكثرها ملاءمة لنفسيته وعبقريته « يومياته » ، وهو في هذه اليوميات يبدو ككاتب أخلاقي على الاسلوب الكلاسيكي السامي ، ويضعه نبالة تفكيره وصفاء اسلوبه في هذا الكتاب في مصاف أعلام الادب الفرنسي . لقد منح جيد الدكتوراة الفخرية في الادب من جامعـة اكسفورد في حـزيران (يونيو) عام ١٩٤٧ ، وكانت أول تكريم يوجه اليه رغم أنها كان وقتها في الثامنة والسبعين ، ثم منح جائزة نوبل للادب في نهاية هذا العام .

ومع أن جيد لم يكن أبدا عضوا في الحزب الشيوعي ، الا أنه كان يبدي اهتماما كبيرا بالتجربة الشيوعية في روسيا ، ويرى أن الخلاص للبشرية لن يأتي الا من هناك . وأخيرا زار روسيا بدعوة من جمعية الكتاب السوفييت في حزيران (يونيو) عام ١٩٣٦ ، ثم عاد من هناك وقد فقد كل أمله العظيم ، ورجع الى فلسفته الفردية الحرة . ولم ينشر جيد شيئا جديدا منذ ظهور كتاب « تيزيه » عام ١٩٤٦ ، منذ كان مشتغلا باكمال يومياته وجمع كتبه ومؤلفاته السابقة .

ذكر « هوميروس » في أشعاره كيف أن الالهة العظيمة « ديميتر »، أثناء تجوالها باحثة عن ابنتها ، وصلت الى بلاط الملك « سيليوس » ، وتنكرت على هيئـة حاضنة ، فوكلوا اليها العناية بالطفل الوليـد -

« ديسوفون » ، وكيف أنها كانت في كل ليلة ، والناس نيام والأبواب مغلقة ، ترفع « ديموفون » من فراشه الدافىء الناعم لتضعه عاريا على مهد من الجمر المتوهج . ورغم أن العمل ظاهره القسوة ، إلا أنها ما كان يحدوها الى ذلك إلا حبها العظيم له ، ورغبتها في أن تجعل منه إلها ، فكانت تنثني فوق الرضيع الراقد فوق الجمر بحنو بالغ كأنما هو تجسيد لمستقبل البشرية كلها . ولقد تحمل الوليد حرارة الجمر ، وجعلته هذه المحنة قويا مجيدا الى حد يفوق الوصف وتقصر دونه الآمال . إلا أن الالهه « ديميتر » لم تمكن من إنجاز عملها الجسور ، فإن « ميتانيرا » أم ديموفون ، بدافع القلق على وليدها ، اندفعت داخل حجرته ذات ليلة ، ودفعت الالهة جانبا ، ثم طوحت بالجمرات بكل ما تحمل من قوة سحرية ، وهكذا ضحت بالإله في سبيل انقاذ الطفل .

لقد تحدثتُ من سنوات عن حبي واعجابي بالاتحاد السوفيتي حيث كانت تتم تجربة لم يسبق لها مثيل ، تجربة ملأت قلبي بالآمال العظام في تقدم رائع يشمل البشرية كلها ويدفع بها الى الأمام . لقد كان مما أسعدني أنني عشت في ذلك الوقت كي أتمكن من مشاهدة هذا البعث الجديد ومن تقديم حياتي رخيصة في سبيله . لقد صممت في داخليتي على أن أربط نفسي بمصير الاتحاد السوڤيتي باسم ثقافة المستقبل .

وبعد أربعة أيام من وصولي الى روسيا ، أعلنت في جنازة مكسيم غوركي في الميدان الاحمر بموسكو أن مصير الثقافة مرتبط في ذهني بمستقبل الاتحاد السوڤيتي ، فكان مما قلت :

« لقد ظلت الثقافة لفترة طويلة امتيازا لطبقة معينة متميزة ، كما ظل الفراغ والتنعم من العناصر الضرورية لنموها وتطورها ، فكان قسم كبير من المجتمع يشقى ويدأب لكي يسمح لعدد قليل من الناس أن يستمتعوا بالحياة ، بينما بقيت حديقة الثقافة والأدب والفن حِمىً

مغلقا لا يطمع في الدنو منه إلا أعظم الناس حظا من النجابة والذكاء — أولئك الذين كانوا منذ الطفولة بعيدين عن الفقر والحاجة . إنني أعلم طبعا أن المقدرة والموهبة لا تتبع الثروة حتما ، وأن موليير ، وديدرو ، وروسو قد كانوا من عامة الشعب ، إلا أنني أعلم أيضا أن قراءهم كانوا من أهل التنعم والفراغ . لقد جعل الناس في الغرب ، بعد أن أثارت ثورة تشرين الاول (اكتوبر) جماهير الشعب الروسي ، يقولون ويؤمنون بأن هذا المد الثوري لن يلبث أن يفرق كل أدب أو فن ، وجعلوا يتساءلون : ألا يصبح الأدب خطرا اذا توقف عن أن يكون حقا وامتيازا لطبقة خاصة ؟ ومن أجل الرد على هذا الاتهام تجمع الكتاب من جميع الأقطار وهم يؤمنون بأنهم يؤدون واجبا ضروريا . حقا ان الثقافة كانت في خطر — ولكن الخطر لم يكن يأتي من قبل القوى الثورية التحررية ، بل كان على العكس يأتي من قبل الاحزاب والجماعات التي تسعى لاخضاع هذه القوى وتحطيمها . إن « الحرب » هي شر ما يهدد الثقافة ، تلك الحرب التي تقودنا اليها القوى الوطنية مدفوعة بالبغضاء والحسد ، وعلى القوى الثورية والأممية الهائلة يقع واجب حماية الثقافة وتمجيدها ، فإن مصيرها في رأيي مرتبط بمصير الاتحاد السوڤيتي ولا بد من أن تحمى . »

لقد قلت هذا الكلام في الأيام الأولى من رحلتي ، في الفترة التي كنت فيها لا أزال — لبساطتي وسذاجتي — أومن بأن في امكان المرء أن يبحث شؤون الثقافة مع الروس ، وليتني أملك الى اليوم هذا الايمان الساذج البسيط . ولئن كنت على خطأ في البداية فإن الواجب يفرض علي أن أسارع الى الاعتراف بالخطأ ، لأنني مسؤول عن أولئك الذين قد تضللهم آرائي وتبعدهم عن الصواب ؛ ولا ينبغي أن تعوقني الكبرياء الشخصية عن أداء هذا الواجب (وأنا قليل الحظ من الكبرياء

على كل حال) فهناك أمور أهم مني ومن كبريائي الشخصية ، وأهم من الاتحاد السوفيتي • ان مستقبل البشرية ومصير الثقافة في خطر •

لقد بدا لي كل شيء في روسيا مدهشا طالما كانت رحلتي موجهة ومقننه ، حتى لقد استمتعت بلحظات من السرور العميق في لقائي مع العمال في المصانع وفي مراكز الترفيه ، فليس هناك مكان يماثل الاتحاد السوفيتي في سهولة تكون الصلات البشرية وحرارتها وعمقها • ان الصداقات سريعا ما تتكون ، فقد تكفي نظرة واحدة في كثير من الأحيان ، ولا أحسب هناك مكانا غير الاتحاد السوفيتي يستطيع الانسان أن يستمتع فيه بمثل هذا الاحساس الانساني العميق والحب الأخوي الجياش حتى لقد كان قلبي يفيض وعيناي تدمعان من فرط السرور والحب والحنان • كان الاطفال الذين التقيت بهم في المعسكرات معتنى بتربيتهم وبتغذيتهم ومدللين وسعداء ، وكانت عيونهم مملوءة بالصفاء والثقة والامل ، وقد رأيت نفس هذه النظرات السعيدة المضيئة في وجوه العمال في مراكز الترفيه حين كانوا يتجمعون في المساء بعد انتهاء عملهم اليومي • ان كل مدينة في الاتحاد السوفيتي لها الآن روضة للأطفال ومركز للترفيه • لقد كنت كغيري من الزائرين ، لا أرى الا المصانع النموذجية والنوادي النموذجية والمدارس النموذجية التي كانت تملأني بالاعجاب والدهشة وما كنت أتمنى أكثر من أن يجرفني تيار الاعجاب فأهتدي وأهدي غيري • ولما كان الافتتان بالشيء ودعوة الآخرين اليه يملأ النفس بهجة ومسرة ، فلا بد لمن يقف في وجه هذه الفتنة معترضا أن تكون دوافعه عظيمة • انني ما بدأت أرى الامور بوضوح الا بعد أن تركت الطريق الحكومي الرسمي وبدأت أجوب البلاد وحدي كي أتصل مباشرة بالناس • كنت قد قرأت من الادب الماركسي ما يكفي لأن يجعلني لا أحس بالغربة في روسيا ، ولكنني أيضا كنت قد قرأت الكثير عن الرحلات الخلوية

والاعتذارات الحماسية عما يلاحظه المسافر من عيوب ونقائص • كان الخطأ الذي وقعت فيه في البداية أنني صدقت كل الثناء الذي سمعته ، اما ما كان يمكن أن ينير لي الطريق فقد كان دائما يقال بنغمة حاقدة ، ان الذي يحدث عادة هو أن أصدقاء الاتحاد السوفيتي يرفضون أن يعترفوا بوجود أخطاء ، ولذلك يسمع الانسان الحقيقة ممزوجة بالحقد ، والزيف ممزوجا بالحب والعطف • إن من طبيعتي أن أكون قاسيا على من أحب ، ولست رأى أن يكتفي الانسان في تعبيره عن حبه بالثناء وحده ، ولهذا أعتقد أنني أخدم القضية التي يدافع عنها الاتحاد السوفيتي اذا تحدثت بصراحة ودون حذر أو مداراة • ولم يكن لدي بالطبع ما أشكو منه شخصيا خلال هذه الرحلة ، رغم كل التفسيرات الحاقدة التي اخترعت فيما بعد لتجريح انتقاداتي والتهوين من شأنها على أساس أنها نتيجة استياء شخصي ، بل انني ما سافرت في حياتي في مثل هذه الابهة والنعمة ــ كنت في كل مكان أركب أفخم السيارات وأسكن في الفنادق أفخم الحجرات وآكل أفخم الأطعمة ، وكانت لي عربة خاصة في القطارات ــ وهكذا كنت أحصل دائما على الافضل في كل شيء ، وأي تكريم ذلك الذي لقيته في كل مكان ! لقد كان يهتف لي ويولم لي ولم يكن شيء أغلى من أن يقدم لي • وما كان يمكن الا أن أحمل معي أعجب الذكريات عما لقيت من ترحيب ، الا أن كل هذا التكريم مع ذلك كان يذكرني دائما بالامتيازات والفروق بينما كنت أرجو أن أجد المساواة ، ولما استطعت أن أفلت من الموظفين الرسميين وأدخل بين العمال ، اكتشف أن معظمهم يعيش في فقر مدقع بينما في كل مساء تقام لي أنا الولائم الفاخرة التي كانت فيها فواتح الشهية وحدها من التنوع والدسامة والكثرة بحيث تتخم الشهية قبل أن يبدأ الطعام الاساسي ــ ذلك الطعام الذي كان من ستة أدوار تتطلب من المطاعم بضع ساعات • ولما كنت لم أحتج أبدا الى تسديد حساب

طوال فترة وجودي في الاتحاد السوفيتي فإن من الصعب علي أن أقدر تكاليف أمثال هذه الولائم ، إلا أن صديقا لي مطلعا على مستوى الاسعار في الاتحاد السوفيتي أخبرني أن الفرد الواحد في أمثال هذه الولائم يتكلف بين المائتين والثلاثمائة روبل ، هذا بينما العمال الذين التقيت بهم ما كانوا يربحون سوى خمس روبلات في اليوم ، وكان عليهم أن يكتفوا بالخبز الاسود والسمك المجفف . وطوال إقامتنا في الاتحاد السوفيتي لم نكن بالضبط ضيوفا على الحكومة ، وانما كنا ضيوفا على « جمعية الكتاب السوفيت » الفنية ، ولطالما تفكرت في كل ما صرف علينا — وكنا ستة بالاضافة الى مرشدينا ومستقبلينا ؛ انهم طبعا قدروا أن ما أنفقوه علينا سوف يعود عليهم بالنفع ، وأحسب أن استياء جريدة « براڤدا » يرجع أكثره الى أنني كنت مشروعا غير مربح . لقد كنت بالتأكيد أرى من الطبيعي أن يستقبلوا ضيوفهم أحسن استقبال ، وأن يعرضوا عليه خير بضاعتهم ، إلا أنني مع ذلك ذهلت لما رأيت هذا الفرق العظيم بين نصيبنا ونصيب عامة الناس ، بين هذا الترف الزائد وهذا الفقر المدقع . ان إعجابي بالاتحاد السوفيتي وبالعجائب التي أنجزها هو الذي يجعل نقدي له عنيفا وقاسيا : بسبب ما تتوقعه منه وما كنا ننتظر تحقيقه على يديه من آمال . لقد كنت أثق في الاتحاد السوفيتي ، ولم يكن الذي آلمني أنه قصر دون الوصول الى الكمال ، بل كان الذي آلمني أكثر من غيره أن وجدت في روسيا ما كنت أضيق به في بلدي — تلك الامتيازات والفروق التي حسبت أنها قد ذهبت الى غير رجعة .

من ذا الذي يستطيع أن يدرك ما كان يمثله الاتحاد السوفيتي بالنسبة لي ؟ انه لم يكن مجرد الوطن المختار ، أو المثال ، أو مهبط الوحي ، بل كان أكثر من ذلك وأسمى ؛ لقد كان يمثل كل أحلامي

وآمالي التي يئست أن تتحقق ، وكان الهدف الذي اتجه اليه كل حنيني واشتياقي ، وكان الارض التي قدرت أن المثل الاعلى للانسانية يتحقق فيها . حقا اننا ينبغي أن تتذكر دائما أن الاتحاد السوفيتي كان في المراحل الاولى من انشائه ، وأننا نعاين الآن مولد المستقبل ، وهناك الحسن والرديء ، لقد كان هناك أحسن الامور وأسوأ الامور ؛ وان الانسان لينتقل من الضوء الباهر الى الظلام الكثيف بفجائية مذهلة محيرة . لقد تم فعلا إنجاز الكثير ، فامتلأت قلوبنا بالبهجة والسرور ، وهذا بدون شك ما جعلني مدققا . لقد خيل الي في البداية أن أشق الامور قد انجزت ونجحت ، فكنت على استعداد لأن أوقع العقد بدون قيد ولا شرط ، ذلك العقد الذي خيل إلي أنني سأوقعه (نائبا عن البشرية المعذبة)مع الاتحاد السوفيتي . لقد كنت مندمجا ومتفانيا في الأمر بحيث لم أعد أفكر في امكانية الفشل .

ان الذي أعجبني في روسيا بشكل خاص هو ذلك الاندفاع العجيب نحو التربية والثقافة . إلا أن الشيء المحزن هو أن الثقافة التي يتلقاها الناس هناك لا تحيطهم علما إلا بما يتملقهم ويرضى غرورهم ، ويزيد قناعتهم ورضاهم بما هم فيه ، وينمي إيمانهم بعظمة الاتحاد السوفيتي. إن الثقافة هناك لها هدف واحد ، هو تمجيد الاتحاد السوفيتي ؛ فهي ليست ثقافة محايدة نزيهة ، كما أن ملكة النقد مفقودة تماما . إنني أعلم جيدا أنهم يظهرون بمظهر الناقدين لأنفسهم ، ولقد أملت الخير من وراء ذلك في بداية الامر ، حاسبا أنها قد تؤدي الى نتائج باهرة اذا استعملت بنزاهة وصدق ، الا أنني لم ألبث أن أكتشف أن النقد هناك لا يتجاوز التساؤل : هل هذا الشيء أو ذاك يتفق مع خطة الحزب وسياسته ؟ فلم تكن خطة الحزب نفسها أبدا موضع مناقشة أو نقد ، وانما المسألة هي عن مبلغ تطابق نظرية معينة مع الخطة المقدسة أو عدم تطابقها .

وليس هناك ما هو أسوأ من مثل هذه الحالة العقلية ولا أخطر منها على الثقافة الحقيقية • ان المواطنين السوڤيت يبقون في جهل مطبق عن كل شيء خارج بـلادهم ـ والأسوأ من ذلك أنهم أفهموا أن كل ما هو خارج بلادهم أحط قدرا من كل مافي بلادهم • ومع أن الروس لا يهتمون بما يجري خارج بلادهم ، إلا أنهم يهتمون كثيرا برأي الاجانب فيهم ، وهم شغوفون بأن يعلموا ما اذا كان الاجانب يعجبون بهم ويقدرونهم التقدير الكافي ؛ وأشد ما يخشونه أن يكون الاجانب غافلين عن فضائلهم ومميزاتهم ، فهم يريدون من الاجانب المديح ولا يريدون المعلومات والاخبار •

لقد حدث أن زرت إحدى المزارع الجماعية النموذجية ـ وهي من أبدع مزارع الاتحاد السوڤيتي وأغناها ـ ودخلت بيوتا متعـددة ، وليتني أستطيع أن أنقل اليكم ذلك الانطبـاع المطرد الكئيب الذي يحس به من يدخل هذه البيوت من أثر انعدام الفردية انعداما كاملا • لقد كان في كل منها نفس قطع الاثاث القبيحة ، ونفس الصورة للزعيم « ستالين » ولا شيء غير هذا ، فلم يكن هناك أدنى أثر لأي تحف أو ممتلكات شخصية ، ولو دخل أحد السكان بيتا غير بيته ناسيا ؛ لما أحس بأي تغير أو اختـلاف • حقا ان أعضـاء كل من المزارع الجماعيـة يتشاركون جميعا أثناء لهوهم ومسراتهم ، وليست بيوتهم الا كالمرابض للنوم فقط بحيث أصبحت كل بواعث حياتهم مركزة في النوادي ، وحقا إن أيسر الطرق لتهيئة السعادة للمجموع هي في التضحية بفردية كـل واحد منهم عن طريق هذا التشابه والاطراد ، ولكن هل من الممكن أن نسمي هذا التشابه والاطراد ، وهذا الفقدان للنزعات الفردية ، الذي تندفع روسيا نحوه في كل شيء ، هل يمكن أن نسمي هذا تقدما ونجاحا؟ أما أنا فلا يمكنني أن أصدق هذا • إن الناس في روسيا تعتقد أنه لا يمكن

أن يكون هناك إلا رأي واحد فقط ، وهو الرأي الصائب ، مهما كان الموضوع ومهما كان البحث ، وتقوم جريدة « براڤدا » في كل صباح بمهمة إخبار الناس بما هم في حاجة الى معرفته أو بما ينبغي عليهم أن يؤمنوا به ويعتقدوه ، ولقد أدهشني ، في الفترة التي كنت فيهـا في الاتحاد السوفيتي ، ما لاحظته من أن الجرائد لم تذكر شيئا مطلقا عن الحرب الاهلية في أسبانيا رغم أنها كانت في ذلك الحين تثير قلق الدوائر الديموقراطية الى حد بعيد ، ولما عبرت لرفيقي السوفيتي عن دهشي وتألمي مما لاحظت ، بدا عليه قليل من الضيق ، ولكنـه شكرني على ملاحظاتي ووعد بإبلاغها إلى ذوي الشأن ، وفي نفس المساء ، أثناء الوليمة المعتادة أُلقيت الكلمات وشُربت الانخاب حسب العادة المتبعة ، ثم وقف واحد من جماعتنا (جف لاست) واقترح بالروسية أن نشـرب نخب انتصار القضية الشيوعية في الجبهة الأسبانية ، فبدا لي التصفيق الذي تلا ذلك خاليا من الحماس والاخلاص ، ولم يلبث الحاضرون أن أتبعوا ذلك بالشرب نخب ستالين ، فلما جاء دوري واقترحت أن نشرب نخب المسجونين السياسيين في ألمانيا كان التصفيق عاليـا مملوءا بالحماس والضجيج وأجيت عليه أيضا بالشرب نخب ستالين • كان السبب في هذا أن الحاضرين جميعا كانوا يعلمون ما ينبغي عليهم أن يعتقدوا بشأن ضحايا الفاشية في ألمانيا ، أما بالنسبة للمسألة الأسبانية فلم تكن جريدة « براڤدا » قد أعلنت عن رأي المسؤولين بعد ، ولم يجرؤوا هم أن يخاطروا بالموافقة والتأييد دون أن يعرفوا ما ينتظر منهم أن يعتقدوا ، فلما وصلنا نحن إلى سباستپول ، بعد ذلك بعدة أيام ، نبعت موجة هائلة من التأييد والعطف من الميدان الاحمر في موسكو عن طريق « براڤدا » ثم عمت البلاد كلها • لقد أصبحت عقول الناس الآن مدربة على المطاوعة والامتثـال بشكل طبيعي لين لا أستطيع أن أسميه نفاقا ، فأصبح الانسان اذا تحدث مـع روسي واحد كأنما قد تحدث مع الجميع •

إن اختفاء الرأسمالية لم يجلب الحرية للعامل السوفيتي — ومن الضروري للطبقة العاملة في كل مكان أن تعلم هذا . إن العمال طبعا لم يعد يستغلهم حملة الأسهم الرأسماليون ، إلا أنهم مع ذلك يُستغلون أبشع الاستغلال وبطرق خفية منحرفة ملتوية بحيث لم يعد العمال يعلمون على من يلقون اللوم . إن غالبيتهم العظمى يعيشون تحت مستوى الفقر ، وإن أجورهم الهزيلة هذه هي التي تعين على ملء جيوب العمال المميزين الذين يمتازون بانعدام الشخصية وبالتزلف والخضوع . إن الانسان ليروعه ما يلحظه على ذوي الشأن من عدم مبالاة بمن هم أقل منهم شأنا ، كما يروعه ما يظهره الأخيرون من تذلل وعبودية . آمنا بأنه لم تعد هناك طبقات أو امتيازات طبقية في الاتحاد السوفيتي ؛ إلا أن الفقراء لا زالوا هم الفقراء ، بل إن عددهم جد كبير . لقد كنت آمل ألا أجد فقراء في الاتحاد السوفيتي — أو لعل الأولى أن أقول إنني ما ذهبت الى الاتحاد السوفيتي إلا لكي لا أجد فقراء . والمصيبة أن الفقر في الاتحاد السوفيتي يقابل بالسخط حتى ليظن المرء أنه جريمة وقلة ذوق ؛ إنه لا يستدر الشفقة أو البر وإنما يستثير الكراهية والازدراء . ان أولئك الذين يعرضون أنفسهم بهذه الخيلاء والكبرياء إنما اشتروا هذه الرفاهية على حساب ذلك الفقر المدقع ، وليس معنى هذا أنني أعترض على التفاوت في الاجور — بل أنا أعتبر هذا التفاوت اجراءا ضروريا ولازما — وإنما ينبغي أن توجد طريقة للتقليل من هذا التباين المحزن . إنني أخشى أن يكون معنى هذا كله العودة الى نوع من « بورجوازية الطبقة العاملة » تشبه « البورجوازية الحقيرة » التي تركتها في بلدي ، ولقد بدأت فعلا أرى أعراضها ، ولا شك في أن كل رواسب البورجوازية موجودة ، رغم الثورة ، لدى الكثيرين ، وإن كانت هاجعة راقدة . ان الانسان لا يمكن اصلاحه من الظاهر فإن تغيير القلب واصلاحه أمر جوهري — ولذلك

يراودني القلق عندما أرى كل الغرائز البورجوازية تلقى الإطراء والتشجيع في الاتحاد السوفيتي ، وكل طبقات المجتمع تترسب وتتشكل من جديد — إن لم تكن مشابهة للطبقات القديمة تماما ، فإننا على الأقل نجد نوعا من الارستقراطية ؛ إلا أنها ليست أرستقراطية الفكر والمقدرة ، بل أرستقراطية المطاوعين المتمثلين المتزلفين ، وليس يبعد أن تصبح في الجيل التالي أرستقراطية المال . فهل أنا مبالغ في مخاوفي وتنبؤاتي ؟ لكم أرجو أن أكون ذلك .

عندما زرت « سوتشي » عجبت لكثرة المصحات والاستراحات التي أنشئت لأجل العمال ، فلقد كانت بهيجة ذات حدائق بديعة وشطآن خاصة للاستحمام ، وانه لامر يستحق التنويه والشكر أن تهيأ كل هذه الوسائل الفخمة للعمال ؛ الا أن من المؤسف أن غالبية من يتمتعون بهذه الميزات هم من الطبقة المميزة الجديدة . حقا إن الأسبقية من الدخول تعطى لمن هم في حاجة الى الراحة أو العلاج — ولكن بشرط أن يكونوا من الموافقين على خطة الحزب . وإنه لمن المحزن ان نرى قريبا من هناك الرجال الذين يعملون في بناء هذه الاستراحات ذاتها ، وكيف يحصلون على أجور غاية في الضآلة ، ويحشرون في مخيمات دنيئة حقيرة .

واذا كنت أحمل كل هذا الاعجاب للاستراحات في « سوتشي » ، فماذا أقول عن فندق « سينوب » الذي كنت أقطن فيه بجوار « سوكوم » ؟ لقد كان أرقى وأسمى من كل شيء آخر بحيث لا يقارن إلا بأفخم فنادق أوروبا وأعظمها . كانت كل غرفة لها حمامها الخاص وشرفتها وأثاثها الفاخر ، كما كان الطعام يوازي أفخم الأطعمة في أي مكان آخر . وكان بجوار الفندق مزرعة نموذجية تمده بثمرها ، وكانت المزرعة تشتمل على زرائب نموذجية للخيل والبقر والخنازير وبيوت للدجاج ، وكلها مهيأة بالوسائل الحديثة . إلا أنك اذا عبرت النهر الذي يحده هذه المزرعة ،

رأيت صفا من الأعشاش الحقيرة ، يعيش في كل حجرة من حجره الصغيرة (ستة أقدام مربعة) أربعة أفراد ، ويدفع كل منهم روبلين ايجارا شهريا •

ورغم أن دكتاتورية الطبقة العاملة التي طالما نادوا بها لم تتحقق بعد، إلا أنه توجد مع ذلك دكتاتورية من نوع آخر — دكتاتورية الحكومة الاستبدادية (البيروقراطية) السوفيتية ، ومن الضروري أن يفهم الانسان هذا ، وألا يسمح لنفسه بأن يُستغفل أو يخدع ، ولم يكن هـذا هو ما أملناه ، بل لعلي أستطيع أن أقول : إن هذا كان آخر ما توقعنا أن يحدث • إن العمال لم يعودوا يملكون مجرد حرية انتخاب ممثليهم الذين يدافعون عن مصالحهم المهددة ، أما حرية الانتخاب سريا كان أو علنيا — فما هي إلا سخرية وخداع ؛ إن الناخبين لا يملكون الا حق انتخاب من قد عينوا لهم من قبل • ان العمال يخدعون ويكممون وتقيد أيديهم وأرجلهم الى حد أصبحت معه المقاومة غير ممكنة ؛ لقد لعب ستالين لعبته ، والشيوعيون في كل أنحاء الدنيا يهللون له ويصفقون ، وهم يحسبون أنهم قد كسبوا في الاتحاد السوفيتي نصرا مجيـدا ، ويسمون كل من يخالفهم في الرأي خائنا وعدوا للشعب • بيد أن هذا النظام في روسيا قد أوجد خيانة من نوع جديد ، فإن من أبرع الوسائل في الحصول على التقدم والترقية هناك أن يصبح الانسان « مخبرا » إذ ان هذا يجعلك على وفاق مع الشرطة الروسية الجبارة التي تحميك بينما تستعملك وتستغلك ، ان الانسان اذا وضع قدمه على هذا المنحدر الهين الزلق ، فلا يمكن لمسائل الصداقة او الامانة ان تتدخل لايقافه بل عليه في كل مناسبة ان يتقدم منزلقا نحو هاوية العار ، والنتيجة أن يصبح كل انسان متشككا في غيره ، وتصبح الملاحظات البريئة العـابرة — ولو كانت من أطفال — امرا خطيرا قد يجلب الدمار ، وبذلك يصبح كل انسان حريصا متربصا لا يترك لنفسه العنان ابدا ولا ينطلق على سجيته •

خلال جولتي في روسيا ذهبوا بي لرؤية مدينة « بلشفو » النموذجية وهي شيء فريد في نوعه ، لان كل سكانها من المجرمين واللصوص والقتلة وقطاع الطريق • وكانت المدينة في اول امرها مجرد مؤسسة جزائيـة انشئت على اساس ان المجرمين ليسوا الا مرضى او عاجزين عن التكيف العصبي الملائم ، وان المعاملة الملائمة والشفقة الواعية والحياة الطبيعية العادية تشفيهم وتحيلهم الى مواطنين قانعين نافعين ، الا ان هذه المؤسسة لم تلبث ان اتسعت حتى اصبحت مدينة كبيرة زاهرة تجد فيها المصانـع والمكتبات والاستراحات والنوادي • ولما زرت هذه المدينة بدت لي من انبل وانجح مشروعات الاتحاد السوفيتي العظيمة ، ولم اكتشف الا فيما بعد ان النمامين الذين خانوا رفاقهم لدى السلطات هم وحدهم الذين يسمح لهم بالسكنى في هذه المؤسسة النموذجية ، فهل يمكن ان ينحدر الاستخفاف الخلقي الى احط من هذا ؟

ان العامل السوفيتي البائس مربوط بمصنعه والعامـل الزراعي مربوط بمزرعته الجماعية كارتباط « إكسيون » بعجلته • ان العامل اذا فكر في ترك عمله الحالي لأي سبب شخصي ، كأن يتصور او يأمل ان يكون في غير هذا المكان أحسن حالا ، أو أقل سوءا ، أو لمجرد أنه يرحب بالتغيير ، فانه ، وهو المصنف المسجل المنظم ، يصبح على خطر من الا يجد عملا في اي مكان ، بل انه ان ترك مصنعه ، ولو ظل باقيا في نفس المدينة ، يحرم من مسكنه الذي كان من حقه طالما هو في العمل ، والذي يصعب ان يجد غيره في اي مكان آخر ، رغم انه مع ذلك كان يدفع ايجار هذا المسكن • ان مثل هذا العامل يكتشف ايضا انه قد خسر لدى تركه العمل قدرا كبيرا من اجوره وفقد كل الارباح المجمعة من عمله • امـا اذا قامت السلطات نفسها بنقل العامـل لسبب من الاسباب فانـه لا يستطيع ان يرفض الانتقال ، فلا هو حر في الذهاب الى حيث يريد ولا

في البقاء حيث تجمعت عواطفه الخاصة ومصالحه الشخصية • يضاف الى ذلك ان العامل اذا لم يكن عضوا في الحزب ، سبقه اعضاء الحزب الى الترقيات والعلاوات ، ولا تحسب ان كل من يريد الظفر بالعضوية ينالها ، كما ان الصفات المطلوبة من تملق وتذلل وخضوع لا يملكها كل الناس • واذا كان العامل من حسن الحظ بحيث استطاع ان يصبح عضوا في الحزب فانه لا يستطيع ان يستقيل دون ان يفقد كل المميزات التي تعطيها اياه وظيفته ، هذا بالاضافة الى أنه يصبح عرضة للريبة وعرضة للانتقام ، إذ يتساءلون ما الذي يجعل واحدا من الناس يطلب مغادرة الحزب الذي يمنح كل هذه المكافآت المادية مقابل مجرد الاذعان والطاعة ؟ بل ما الذي يدعو انسانا من الناس ان يفكر لنفسه مادام المتفق عليه بين الجميع ان كل شيء على احسن ما يرام في احسن بلد على ظهر الارض ؟ ان الانسان هناك اذا فكر لنفسه اصبح عرضة للاتهام بانه ضد الثورة ، فان كان عضوا في الحزب طرد واصبح معرضا للنفي الى سيبيريا • ان هذا الافقار لرأس المال الانساني أشد اثارة للاسى والالم ، لانه يتم بشكل غير ملحوظ ، ولان اولئك الذين يختفون — او يرغمون على الاختفاء — هم من بين اشجع وابرز من يتميزون عن جمهرة الناس ويرفضون الاندماج في هذا النسق المطرد التشابه • انه ليبدو لي انني اسمع في الظلام من حولي أصوات الوف المنفيين الذين لم يستطيعوا أن يخضعوا او يحنوا ظهورهم : ان اصوات هؤء الضحايا هي التي تؤرقني في الليالي وتطرد النوم عن عيني ، وان صمتهم الجبري هو الذي يحثني اليوم على الكلام ، وان التفكير في هؤلاء الشهداء هو الذي يدعوني الآن الى كتابة هذه السطور ، وان العرفان والقبول من هؤلاء — اذا امكن لكلماتي هذه ان تصل الى آذانهم — أحلى عندي واغلى من كل تسبيح الـ (براقدا) ومدحها • انني لا أعرف احدا يتدخل لصالح هؤلاء ، فاما المسؤولون عن

العدالة والحرية فهم لا ينطقون ، واما جمهرة الناس فهم عمي لا يبصرون انني ان رفعت صوتي لصالح هؤلاء قيل لي — وباسم ماركس ايضا — ان عمليات النفي هذه بالاضافة الى فقر العامل والغاء حرية الانتخاب هي كلها مجرد اجراءات مؤقتة ، وهي الثمن الذي لا بد من دفعه مقابل مكاسب ثورة ١٩١٧ • الا انه من المفزع ان نرى هذه المكاسب التي يتحدثون عنها ، والتي دفعنا في مقابلها كل هذه الآلام ، تهجر وتلغى واحدة إثر واحدة • لقد آن الأوان لأن تتفتح العيون على هذه الخيبة المحزنة التي ذهبت بكل آمالنا الكبار • ولعله كان من الممكن ان يتقبل الانسان فقدان الحرية الشخصية والفكرية في روسيا اليوم ، اذا كانت هناك على الاقل دلائل تشير إلى ان التقدم المادي للجماهير يتم ولو على مهل ، الا ان الامر ليس كذلك للاسف ، بل ان الدلائل تدل على ان اسوأ مظاهر الرأسمالية وأحقها باللوم تتكون من جديد • ان هذه العقلية البورجوازية الحقيرة التي اشرت اليها آنفا ، والتي يزعجني ان اراها في ازدياد ، هي حسب رأيي في اعماقها وفي اساسها مضادة لروح الثورة، اما ما يقولون هم عنه : انه مضاد لروح الثورة فهو الروح الثورية عينها، هو ذلك السيل الجارف الذي اقتحم في البداية اسوار العهد القيصري المتفتتة البالية • لكم اتمنى أن اكون اليوم مؤمنا بان الحب لا يزال يملأ قلوبهم ويفيض عنها — فان لم يكن الحب فالرغبة الحارة في العدالة — إلا ان كل ذلك اختفى ويا للاسف يوم نجحت الثورة وانتهت ، واصبحت الغيرة الكريمة التي الهمت الثائرين الاول ، كالحطام الصديء لآلات مضى وقتها وانقضى نفعها • الآن وقد ثبتت الثورة اقدامها، نراها على وفاق مع الظلم ، اما أولئك الذين لا تزال روح الثورة مشتعلة في قلوبهم ولا يرتضون هذه الانحرافات وهذا التنازل ، أولئك يهملون أو يقضى عليهم • أليس من الافضل اذن ان تتوقف عن المغالطة ، وان

نعترف بان روح الثورة لم تعد هي السائدة ، مادام المطلوب من الناس هو الخضوع والمسايرة ؟ ان الناس في روسيا الآن يطلب منهم الموافقة والمصادقة على كل ما تفعله الحكومة ، أما أقل معارضة أو نقد فانها تعرض صاحبها لاقسى العقوبات بالاضافة الى اخماد هذه المعارضة وطمسها • ان احسن الناس سجلا في هذا السلم الاجتماعي الجديد من اسفله الى اعلاه هم اكثرهم ذلة وعبودية ، اما اولئك الذين تبرز منهم أية ناحية استقلالية فانهم يحصدون أو ينفون ، ولن نلبث حتى نرى أن هذا الجنس الباسل الذي استحق عن جدارة كل حبنا واعجابنا لم يبق منه الا النفعيون والجلادون والضحايا • لقد اصبح العامل الصغير صاحب الرأي الحر المستقل كالحيوان المطارد ، يلقى الجوع والتحطيم ثم الهلاك • انني اسائل نفسي : هل هناك دولة اخرى في العالم — بما في ذلك المانيا في عهد هتلر — قد كان العقل فيها والروح أقل حرية واكثر ذلة واستعبادا وجبنا وخوفا منها في الاتحاد السوفيتي ؟ الا ان قمع المعارضة في دولة من الدول — بل ومجرد منعها من التعبير عن نفسها — امر عظيم الخطورة ، اذ انه بمثابة دعوة الى الارهاب • واذا كان تفكير جميع المواطنين في دولة من الدول متشابها ، فان هذا بغير شك سوف يعفي الحكومة من كثير من المتاعب ، ولكن هل يمكن امام مثل هذا الوضع ان تتحدث عن الثقافة ؟ ان الحكمة الحقيقية تكمن في الاستماع الى آراء المعارضين ، بل وفي احتضانها ، حتى وان كنا نمنع هذه الآراء من ان تضر بالصالح العام•

ان البشرية معقدة التركيب — وهذا امر ينبغي ان يكون مفهوما — وان كل محاولة للتبسيط ، وكل جهد يأتي من الخارج لصياغة كل شيء وكل فرد حسب نموذج عام ، هو جهد خطر وضار وحقيق بالنقد • واذا كان هو الشأن بالنسبة الى عامة الناس ، فهو بالنسبة الى

الاديب والفنان اشد خطرا واعظم شرا • انني اعتقد ان القيمة الحقيقية للكاتب هي في قوته الثورية ، او بمعنى أدق — فلست من الغباء بحيث أعزو القوى العقلية والفنية لليساريين وحدهم — في قوة معارضته • ان الفنان العظيم هو بالضرورة ذو شخصية تختلف عما اعتاد عليه الناس ، ولا بدله من ان يسبح في مواجهة تيار عصره ، فما الذي سيحدث في الاتحاد السوفيتي في النهاية عندما تزيل الدولة الجديدة كل ما يدعو الفنان الى المعارضة ؟ وما الذي سيحدث للفنان نفسه حين لا يجد لديه امكانية المعارضة ؟ الن يبقى امامه سوى ان يسبح مع التيار ؟ انه سيكون بدون شك قادرا على قيادة الثورة وتأمين انتصارها طالما ان النضال لا يزال مستمرا والنصر لم يستكمل بعد ، ولكن ما الذي سيحدث بعد ذلك ؟ ان هذا بالضبط هو الذي يجعلني انظر الى الاتحاد السوفيتي بكثير من القلق ، وهذا السؤال الحيوي هو الذي كان يشغل ذهني قبل ان اذهب الى روسيا فلما ذهبت لم اجد له جوابا شافيا • وفضلا عن ذلك ما الذي سيحدث للفنان المبدع الاصيل ؟ لقد اخبرني احد الرسامين الذين التقيت بهم في روسيا ان الدولة لم تعد في حاجة الى الايداع او الاصالة ، وان الاوبرا التي لايأخذ منها العامل نغما يستطيع ان يتغنى به ويصفر بعد خروجه من المسرح لا فائدة فيها لدولة العمال ،وان ما تحتاجه الدولة حقا هي الكتابات والرسومات والاعمال التي يمكن ادراكها والاحاطة بها في سهولة ويسر ، فلما قلت انا معترضا بان اعظم الاعمال الادبية والفنية — بما فيها تلك التي أصبحت فيما بعد شائعة مشهورة — لم تلق التقدير والعرفان أبدا عند أول العهد بها ، أو لم تلقه الا من عدد قليل مختار ، أجاب معترفا بأن بيتهوفن نفسه ما كان يمكنه في الاتحاد السوفيتي أن يستأنف السير بعد فشله في البداية ، ثم أضاف يقول : « ان الفنان هنا يجب أولا وقبل كل شيء أن يكون منسجما

مع سياسة الحزب ، والا فان أعظم الاعمال الفنية لن تعتبر سوى مجرد « شكلية » (هذا هو اللفظ الذي يستعمل الآن في روسيا ليعبروا به عن الشيء الذي لا يعجبهم) • ومضى الرجل يقول : « نحن نريد أن نخلق فنا جديـدا جديرا بالامة العظيمة التي نحن فيها الآن • »

قلت له : ان هذا معناه الزام جميع الفنانين بأن يصبحوا « امتثاليين » : وان أفضلهم وأشدهم أصالة وابداعا لا يمكنهم أن يوافقوا على امتهان فنهم والخضوع لمثل هذه « التعليمات » ؛ ولذلك سوف يلجأون الى السكوت والخمود ، فتصبح الثقافة التي يحرص القادة على نشرها وتمجيدها شيئا يستحق الرثاء والازدراء • وهنا قال : انني انما أتحدث الآن كبورجوازي ، أما هو فانه من جانبه مقتنع بأن الماركسية ، التي أنجزت في الحقول المختلفة أعظم المهام ، سوف تنتج أيضا أعمالا أدبية وفنية عظيمة ، وأن الامر الوحيد الذي أخر ظهور هذه الاعمال الفنية هو اهتمام الفنانين الزائد بشكليات الفن وطرازه البالي • لقد كان يتكلم وصوته يرتفع باستمرار حتى بدا كأنه يلقي محاضرة أو يتلو درسا حفظه عن ظهر قلب ، فلم أستطع أن أصبر على الاستماع أكثر من هذا ، وغادرته دون جواب • ولكن الرجل لم يلبث أن جـاء الى غرفته بعد قليل ، واعترف بأنه في داخليته متفق معي في الرأي ولكنه لم يستطع أن يعلن رأيه هذا ونحن في الردهة ، فقد كان هنالك من يستمعون الى الحديث ، وهو يحتاج الى موافقة السلطات وعونها لمعرضه الذي سيفتتحه في المستقبل القريب •

وعند وصولي الى الاتحاد السوفيتي لم تكن قد وضحت لدى عامة الناس تلك القضية الشائكة ، قضية « الشكلية » ، وقد حاولت أن أتبين ما يعنيه هذا التعبير ، واكتشفت أن الاعمال التي تتهم بالشكلية هي تلك التي اهتم أصحابها بالشكل أكثر من اهتمامهم « بالمحتوى » ،

ويمكن أن أضيف الى هذا أن « المحتوى » الوحيد الجديد في نظرهم بالاعتبار هو المحتوى الصائب ، أما كل الاعمال التي لا تشير الى هذا الاتجاه الوحيد فهي « شكلية » ، وانه لمن الامور المبكية أن يدرك الانسان أن كل نقد في الاتحاد السوفيتي انما ينبعث من هذه الروح • ولعل مثل هذا التعصب المذهبي قد كان نافعا من الناحية السياسية في وقت من الاوقات ، الا أننا بالتأكيد لانستطيع أن نصف هذا بأنـه ثقافة ؛ ان الثقافة تكون دائما في خطر حيث لا يمارس النقد بحريـة كاملة • ان كل عمل لا يتفق مع خطة الحزب يذم في روسيا ويعاب ، والجمال هناك يعتبر شذوذا بورجوازيا ، والفنان الذي لا يسـاير خطة الحزب مهما عظمت مواهبه مضطر أن يعمل في جو من الاهمال والنسيان — ان سمح له أن يعمل على الاطلاق — أما اذا ساير وامتثل فانه يتلقى المكافأة والمديح • إن من السهل على المرء أن يدرك الفوائد التي يمكن أن تنهال على حكومة من اختيارها للجائزة فنانا يستطيع أن يتغنى بمدح نظامها وسياستها ، كما أن من السهل أيضا أن ندرك الفوائد التي تنهال على الفنان ذاته اذا كان على استعداد للتغني بمدح الحكومة التي تعطيه بمثل هذا السخاء •

ان الكاتب ، من بين جميع العمال والموظفين في الاتحاد السوفيتي ، يلقى أكبر الفضل وأعظم الرفق ، ولقدأدهشتني وأفزعتني تلك الامتيازات الهائلة التي عرضت عليّ حتى لقد خفت أن أستجيب للاغراء والافساد • انني لم أذهب الى الاتحاد السوفيتي لاجل المكاسـب ، وقد كانت المكاسب التي عرضت عليّ تخطف البصر ؛ الا أن ذلك لم يمنعني من النقد ما دام هذا الوضع الممتاز الذي يتمتع به الكتاب — وهوأفضل من وضعهم في أي بلد آخر — لم يكن يمنح الا لاصحاب التفكير الصحيح أي المستقيم مع سياسة الحزب •

لقد كان هذا بالنسبة لي إشارة خطر جعلتني في الحال آخذ حذري ؛ لقد كان الثمن المطلوب أن يمتنع الكاتب امتناعا تاما عن كل معارضة ، ومجرد النقد الحر يعتبر في الاتحاد السوفيتي معارضة • لقد اكتشفت أن عضوا بارزا من أعضاء أكاديمية العلوم قد أخرج من سجنه حديثا ، وكانت كل جريمته أنه مستقل الرأي ، وكان العلماء الاجانب كلما حاولوا أن يلتقوا به قيل لهم : انه متوعك أو منحرف المزاج ، وقد طرد عالم آخر من أستاذيته في الجامعة وحرم من تسهيلات انشاء مخبر (معمل) خاص لأنه عبر عن بعض الآراء العلمية التي لم تتطابق مع الرأي السوفيتي السائد ، ثم أرغم على كتابة خطاب يتبرأ فيه من آرائه لكي يتجنب النفي الى سيبيريا ، إن من المميزات الخاصة للحكم الاستبدادي أنه لا يمكنه أن يحتمل استقلال الرأي ، ولا يرضى إلا باستعباد عقول الناس وأفكارهم ، أما المحامي في الاتحاد السوفيتي فالويل له اذا قام يدافع عن متهم تسعى السلطات الى ادانته ، مهما كانت قضيته عادلة • ان ستالين لا يسمح الا بالمديح وعبارات الاستحسان ، ولذلك فلن يلبث أن يصبح محاطا بأولئك الذين لا يستطيعون أن يخطئوه ، لانهم ليس لهم رأي على الاطلاق • ان صورته في كل مكان واسمه على كل لسان ، ولا يخلو خطام عام من ذكره والثناء عليه ، فهل هذا كله نتيجة عبادة أو حب أو خوف ؟ من يدري ؟ أذكر أنني في طريقي الى تفليس مررت ببلدة غورى ؟ وهى القرية التي ولد فيها ستالين ، فخطر ببالي أن من اللياقة أن أرسل اليه رسالة خاصة كتعبير عن امتناني للحفاوة البالغة التي لقيناها في الاتحاد السوفيتي حيث عوملنا في كل مكان بكرم زائد ، وقلت في نفسي : ان هذه فرصة قد لا تعوض ، ولذلك أمرت بايقاف السيارة قرب مكتب البريد ، وسلمت الى الموظف برقية أولها : « إنني أحس وأنا أمر في هذه الرحلة المدهشة ببلدة غوري بدافع يحفزني لأن أرسل إليكم ـــ » وهنا توقف المترجم معلنا أنه لا يستطيع أن ينقل هذه الرسالة ، لأن كلمة إليكم إذا وجهت الى ستالين ليست

بكافية ولا لائقة ، ولا بد من إضافة شيء آخر ، ثم اقترح أن تقول : « أنتم يا قائد الطبقة العاملة » • أو « أنتم يا مولى الشعب » لقد بدا لي هذا الكلام سخيفا ، وقلت له : ان ستالين ولا شك أكبر من هذا الملق والاطراء ، ولكن كلامي ذهب سدى ، فلم يتزحزح الرجل عن موقفه ، ورفض أن يرسل البرقية ما لم أوافق على هذا التعديل • لقد رأيت ببالغ الأسى أن مثل هذه الشكليات تساعد على انشاء حاجز منيع بين ستالين ورعاياه • وقد اضطررت أيضا أن أقوم بمثل هذه الاضافات أو التغييرات في الخطب التي ألقيتها خلال رحلتي ، وأوضح لي المسؤولون أن كلمة مثل « المصير » لابد وأن تكون متبوعة بكلمة مثل « المجيد » اذا كان المراد بها مصير الاتحاد السوفيتي ، كما طلبوا اليّ أن أحذف كلمة « عظيم » حين تكون صفة لملك من الملوك ، اذ أن الملك لا يمكن أن يكون « عظيما » • لقد دعيت في لينينغراد للتحدث الى جمعية للكتاب والدارسين ، فلما قدمت الى اللجنة المسؤولة نص الخطاب أخبرت بأنه سيعتبر غير مناسب ، لانه لا يتفق مع سياسة الحزب ، وكانت الصعوبات التي عرضت حينئذ من الكثرة والالتواء بحيث اضطررت في النهاية الى الغاء الخطاب كله ، وكان نص الخطاب كالآتي :

« لقد طالما طلب إليّ أن أبدي رأيي في الادب السوفيتي المعاصر ، وأحب الآن أن أوضح لماذا رفضت الى اليوم أن أبدي رأيا ، وهذا التوضيح سوف يعينني على تفسير بعض نقاط ذكرتها في الميدان الاحمر بموسكو يوم تشييع جثمان غوركي لقد تحدثت حينئذ عن المشاكل الجديدة التي أثارها نجاح الثورة في ذاته ، وقلت : انه سيكون فضلا خالدا للاتحاد السوفيتي أنها كانت أول من أثار هذه المشاكل حتى تكون موضع دراستنا وبحثنا ؛ ولما كان مستقبل المدنية يرتبط ارتباطا وثيقا بأي حلول قد توجد لها في روسيا ، فقد بدا لي

من المفيد أن نثيرها هنا مرة ثانية . ان غالبية الشعب ، حتى ولو كانت تشتمل على أفضل الافراد ، لا تستسيغ ما كان جديدا أو صعبا من الاعمال الفنية ، وانما تستسيغ فقط ما يسهل فهمه والاحاطة به — أي ما هو عادي لا ابداع فيه ، وينبغي أن نذكر دائما أن في المحيط الثوري ، كما في المحيط البورجوازي ، أعمالا عادية وكليشات خالية من الابداع ، ومن الضروري أيضا أن ندرك أن الذي يعطي العمل الفني رونقه ويضمن له الخلود ليس ما يتلقاه الفنان عن الثورة ولا ما يصور عقائدها ومبادئها ، مهما بلغ من نبل هذه المبادىء ، وانما العمل الفني يخلده ما هو أصيل فيه ، وما يثيره أو يقدمه من مسائل جديدة ، أو يجيب عليه من مسائل لم يبرز كيانها بعد . انني أخشى أن كثيرا من الاعمال الفنية والادبية المشربة بروح العقيدة الماركسية الصافية التي يعزى اليها نجاح هذه الاعمال الوقتي — لن تشم فيها الاجيال المقبلة الا رائحة المخبر (المعمل) ، أما الاعمال الفنية التي ستستعصي على النسيان فهي تلك التي ترتفع فوق مشاغل العصر ومسائله . لقد أصبح الفن اليوم — بعد انتصار الثورة — في خطر عظيم لا يقل عن خطر العهود الظالمة المضطهدة ، خطر أن يصبح تابعا للمذهب . ان الثورة المظفرة لا بد وأن تمنح الفنان « الحرية » قبل أي شيء آخر ، فان الفن بدون الحرية الكاملة يفقد قيمته ومعناه . ولما كان هتاف الجماهير وتصفيقهم يعني النجاح ، فان الشهرة والجزاء ستكون من نصيب تلك الاعمال الفنية والادبية التي تستطيع الجماهير أن تستوعبها وتدركها دون جهد ، ولذلك فانني كثيرا ما أسائل نفسي وأنا متوجس قلق : أليس مصير أشخاص من أمثال « كيتس » أو « بودلير » أو « ريمبود » إن وجدوا في روسيا السوفيتية اليوم أن يذبلوا ويذووا دون أن يشعر بهم أحد ، لأنهم بسبب أصالتهم أو قوة ابتكارهم لم يتح لأصواتهم أن تعلو وتنتشر . إن أمر أولئك الذين كانوا في

البداية محتقرين ومهملين من أمثال « كيتس » و « بودلير » و «ريمبود» هو الذي يشغل بالي أكثر من غيره — أولئك الذين سوف ينفردون في الاجيال التالية بالخلود . وقد تقولون : إننا اليوم لسنا في حاجة الى « كيتس » أو « بودلير » أو « ريمبود » وإن هؤلاء لا قيمة لهم الا باعتبارهم يصورون المجتمع المضمحل المحتضر الذي انتجهم ؛ بل قد تقولون : إنهم إن لم يستطيعوا أن يظهروا ويسودوا فذلك من سوء حظهم ومن حسن حظنا نحن ، إذ لم يعد هناك شيء نحتاج أن نتعلمه من أمثالهم ، أما الكتاب الذين يمكنهم أن يعلمونا اليوم شيئا جديدا فهم أولئك الذين لا يشعرون بالغربة في مجتمعنا الجديد — وهذا معناه بعبارة أخرى أولئك الذين يتفقون مع العهد الحاضر ويتملقونه . أما أنا فأعتقد أن الانتاج الفني الذي يتملق ويمتدح ضئيل في قيمته التربوية ، وأن الثقافة عليها أن تتجاهل مثل هذا الانتاج إن كانت تريد أن تتقدم . أما عن الأدب الذي يحصر مهمته في تصوير المجتمع كما هو فقد عرفتم رأيي فيه . إن دوام التأمل الذاتي والاعجاب بالنفس قد يصلح في المراحل الأولى لمجتمع جديد ، أما أن تستمر هذه المرحلة حتى النهاية فذلك أمر يستدعي الأسى والأسف . » هذا هو نص الخطاب الذي لقي كل هذا الاعتراض والاعراض .

طالما كان الانسان مظلوما ومستعبدا ، وطالما كان ضغط المظالم الاجتماعية ممسكا بخناقه ، فان من حقنا أن نأمل الكثير من كل شيء لم تتح بعد لبراعمه الفرصة أن تتفتح ، وأن ننتظر خصوبة كامنة في كل قطعة أرض لم تزرع ولم تستصلح . وكما أننا نبني الكثير من الآمال على أطفال قد يكبرون في النهاية ليصبحوا أفرادا عاديين أو أقل من العاديين ، كذلك يحدث أحيانا أن نتخيل أن أفراد جماهير العامة هم من طينة أسمي من بقية البشرية المخيبة للآمال . أما أنا فأعتقد أن كل ما في

الأمر أنهم أقل تعرضا للفساد والانحدار من الآخرين ، بل إنني لأرى منذ الآن بذورا بورچوازية تنتشر بين هذه الجماهير التي لم تختبر بعد بورچوازية فيها كل ما فينا من أخطاء وآثام • إنهم لا يكادون يرتفعون قليلا عن مستوى الفقر حتى يحتقرون الفقراء ، ويتملكهم الحسد والرغبة في تملك كل ما كانوا محرومين منه من عهد طويل ؛ إنهم يعرفون الآن كيف يتملكون هذه الاشياء وكيف يحافظون عليها فلا تضيع • أفهؤلاء هم الذين صنعوا الثورة حقا ؟ كلا ! إنما هم الذين حولوها لمصالحهم الشخصية • قد يكونون الى اليوم أعضاء في الحزب الشيوعي ، ولكنهم لم يعودوا شيوعيين في داخليتهم • إنني لا ألوم الاتحاد السوڤييتي لأنه لم ينجز أكثر مما أنجز ، فقد بدأت الدولة بمستوى شديد الانحطاط ، ولعل أحدا ما كان يستطيع أن ينجز أكثر من هذا في مثل هذا الوقت القصير ، وإنما ألومهم على خداعهم للناس، ألومهم لأنهم يتفاخرون بأن الوضع في الاتحاد السوڤيتي عظيم ممتاز — لقد كان الخداع مؤلما من بلد وضعت فيه ثقتي وآمالي •

إنني ألوم الشيوعيين في فرنسا — وفي البلدان الاخرى أيضا — ولست أعني بهذا اللوم أولئك الذين خدعوا عن حسن نية ، وإنما أولئك الذين علموا الحقائق — أو كان عليهم أن يعلموها — ثم كذبوا على العمال في الخارج وهم يسعون طول الوقت وراء المكاسب السياسية • لقد آن للعمال خارج الاتحاد السوڤيتي أن يعلموا أنهم قد خدعوا وضللوا من قبل الاحزاب الشيوعية ، كما خدع عمال روسيا من قبل •

لقد كان من الممكن أن أظل ساكتا ، رغم الأحوال المحزنة المؤسفة في روسيا ، لو أمكن أن أطمئن الى وجود أي تحسن مهما كان ضئيلا ، ولكنني أرى من واجبي أن أتحدث بصراحة ووضوح ، لأنني مقتنع

تماما بأن الاتحاد السوڤيتي ينزلق الى أسفل المنحدر الذي كنت آمل أن أراه صاعدا الى قمته ، ولأنه يتخلى عن المكاسب التي ربحتها الثورة الكبرى بالعرق والدم واحدة إثر واحدة ، ولأسباب مزخرفة زائفة ، ولأنني أراه يجر وراءه الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى الى الفوضى والاضطراب •

إن مسألة الولاء للحزب لا يمكن أن تعوقني عن التحدث بصراحة ووضوح ، فاني أضع الحق فوق الحزب ، وأنا أعلم تماما أن الماركسية لا تعترف بشيء اسمه الحق — أو هي على الأقل لا تعترف به في معناه المطلق — فالحق لديها نسبي فقط ، إلا أنني أومن مع هذا بأن من الإجرام في أمر خطير كهذا أن نضلل الآخرين — إن من الضروري أن نرى الأمور كما هي ، لا كما نحبها أن تكون ، ولا كما كنا نأمل أن تكون • إن الاتحاد السوڤيتي قد خدعنا في أعز أمانينا ، وبين لنا بهذه الطريقة المحزنة في أية حمأة غدارة يمكن أن تسقط الثورات المخلصة • لقد ركز من جديد أسس المجتمع الرأسمالي القديم ، ونشأ استبداد جديد رهيب ، يبطش بالناس ويسخرهم ويربي لديهم كل ما في عقلية العبيد من ذلة ومهانة • إن روسيا قد عجزت عن أن تصير إلها كما عجز « ديموفون »[1] ، ولن تقوم اليوم أبدا من نيران المحنة السوڤيتية •

(١) انظر قصة « ديموفون » في أول هذه الكلمة لأندريه جيد •

لويس فيشر

ولد لويس فيشر في التاسع والعشرين من شباط (فبرأير) عام ١٨٩٦ في فيلادلفيا ، وبعد أن اشتغل بالتدريس بضع سنوات ، احترف الصحافة ، وأرسلته جريدة الـ (نيويورك بوست) الى برلين في عام ١٩٢١ ، وبعدها قضى لويس فيشر خمسة وعشرين عاما في مهمات متنقلة في أوروبا وآسيا .

ورغم أن لويس فيشر لم ينضم الى الحزب الشيوعي أبدا ، الا أنه أصبح نصيرا للاتحاد السوفيتي ، ثم أصبح فيما بعد نصيرا لاسبانيا الجمهورية ، التي دافع عنها خلال الحرب الأهلية .

ومن بين مؤلفاته ، « السوفيتيون في الشؤون العالمية » و « الناس والسياسة » و « الخطر العظيم » ، « غاندي وستالين » ثم « الثلاثة عشر الذين هربوا » ، وهو الآن مشتغل بكتابة تاريخ حياة غاندي بشكل كامل مطول .

كان من بين قصص المغامرات التي قرأتها في صباي روايات عن الثوار البواسل الذين كانوا يروغون من الموت بالفرار من مناجم الملح في سيبريا ، وكان أبواي اللذان ولدا في مدينة « سفولا » الصغيرة على مقربة من كييف يحدثاني عن التخريبات الدامية التي كان يرتكبها الفلاحون الروس ، كذلك أصبح الأمير « بطرس كروبوتكن » وصيف القيصر فوضويا عدوا للحكومة ، وكان كتابه « مذكرات ثائر » يهزني بمثاليته وإنسانيته وحججه ، كذلك كنت أقرأ قصص تولستوي وتورچنيف ودوستويڤسكي وغوركي وجوجول . ولم أكن قد زرت روسيا ، ولذلك كانت صورتها في ذهني مشوشة ؛ كانت روسيا تبدو

في ذهني شرقية شبه بدائية ، متحضرة وغير متحضرة ، متعلمة وجاهلة ، وكانت تبرز في نواحيها الشاسعة المعتمة نجوم لامعة من الثقافة والسحر الإمبراطوري والثروة المتراكمة .

ولقد ظل العالم كله خارج أميركا مبهما بالنسبة اليّ حتى بداية الصراع العسكري مع ألمانيا القيصرية ، ويبدو أن الحرب ومشاركتي الفعلية فيها شغلتني حتى عن أمثال هذه الأحداث الهائلة التي أثرت في الحرب نفسها كتنازل القيصر لصالح « الحكومة المؤقته » في آذار (مارس) ١٩١٧ ، ومولد النظام السوفيتي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ . ولم تترك أي من هاتين الثورتين في نفسي عند حدوثهما أثرا يستحق الذكر ، وحتى انهما لو تركتا مثل هذا الأثر فما أحسبني كنت أستطيع أن أدرك الداعي لأن يقلب البلاشفه الحكومة المؤقته (حكومة كيرنسكي) ، التي قال عنها لينين : إنهاجعلت روسيا « أكثر شعوب العالم حرية » ، في سبيل دكتاتورية صريحة .

فلما عدت الى فيلادلفيا ثانية عام ١٩٢٠ ، بعد عمليات عسكرية فيما وراء البحار ، وجدت لديّ شغفا شديدا بتتبع حوادث الحرب العالمية الأولى ، فجعلت أقرأ المجلات والأبحاث لكبار المؤرخين من جنسيات مختلفة ، ولقد وجدتهم يختلفون في أمور كثيرة ، إلا أنهم جميعا كانوا يلقون إثم الحرب الأكبر إما على روسيا القيصرية أو على هنغاريا والنمسا ، يتلو ذلك ألمانيا ثم فرنسا وانكلترا . كانت هذه الدول الكبرى كلها قد اتفقت بمعاهدات سرية فيما بينها على اقتسام الامم المستضعفة والزامها ، وكان هذا الدافع التوسعي من قبل الدول العظمى هو الذي أدى في النهاية الى الصراع بينها ، فشبت الحرب . ولقد بدأت الآن مجلات نيويورك الأسبوعية الحرة تتهم مؤتمر الصلح في ڤرساي بأنه سار على نفس هذا المبدأ الاستعماري الآثم ، فقد كان زعماء الدول ،

رغم تحذيرات الرئيس ولسن ونصائحه السامية ، حريصين على المكاسب المادية والأرضية العاجلة أكثر من حرصهم على الحلول التي تؤمّن السلم الدائم .

جعلتني عقيدتي الجديدة في الحرب وفي السلم أتلقى النقد البلشفي للغرب بالقبول . كانت موسكو تستنكر سياسة التوسع والترضية ، وتنذر بأنها ستكون البذور لحرب ثانية ، وقد أطلعني طالب هندسة في جامعة بنسلڤانيا ، يعرف اللغة الروسية ، على محتويات المذكرات التي كان الوزير الروسي شيشرين يعنف فيها الحكومات البورجوازية لتدخلها الغير الجائز في الحرب الاهلية الروسية الى جانب الرجعيين والقيصريين « البيض » ، فراعني وأعجبني ما في هذه المذكرات من سخرية مريرة قاسية . لقد كان البلاشفة ، وهم يواجهون قوى أكبر منهم بكثير ، يتحدون العالم القديم الذي يرفض أن يسمح للعالم الجديد أن يولد ، وكانت روسيا المستضعفة تقاتل القوى التي أقامت الحرب العالمية الثانية ثم لم تستطع أن تقيم السلم .

لقد أحسست بدافع الى معرفة أوروبا ، تلك التي أثارت في الفترة القريبة ثورة وحربا عالمية ، فاقتصرت جزءاً من دخلي ، ثم ذهبت الى الخارج في عام ١٩٢١ كمراسل حر غير مرتبط بصحيفة معينة .

كانت أوروبا في ذلك الوقت كتلة من الفوضى والاضطراب ، فقد تحول أبطال الحرب الأقوياء الأصحاء الى شحاذين يتجولون في طرقات المدن البريطانية ، ينفخون في معازفهم أو يغنون في الأحياء أو يبيعون أقلام الرصاص ، وكنت ترى في مسارح لندن صفوفا كاملة من المقاعد المليئة بنساء لا رجال لهم ، نساء فقدوا رجالهم في الخنادق ، أو لم يكن لهن رجال ولن يكون لهن بعد اليوم رجال ، لأن الرجال الذين كان من الممكن أن يكونوا من نصيبهم يرقدون الآن تحت الأرض في حقول الخشخاش في فرنسا والفلاندرز . ولقد أرسل مكسيم غوركي

نداء الى العالم يطلب ارسال الطعام على عجل لخمسة وعشرين مليونا يموتون جوعا في روسيا السوڤيتية ، وكتبت أنا من بولندا في عام ١٩٢٢ عن « الأزمة التي لا تبقي على أحد » وعن « الضغط العظيم للقومية المتطرفة » ، فقد كانت بولندا ، وهي المحاطة بآلاف من المشاكل المحلية ، تصر على ضم ڤلنا ، وتستبقي جيشا كبيرا يستنزف مواردها .

وقضيت شطرا من الشهر التالي في النمسا ، وأرسلت الى جريدة « نيويورك پوست » ، عدد أول آذار (مارس) ١٩٢٢ ، أقول : « ان ڤينا تعود قبيحة بشعة اذا أقبل المساء ، اذ يطغى عليها جو من الكآبة والركود ، فأضواء الشوارع باهتة هزيلة ؛ إلا انك في قسم المقاهي الفاخرة بجوار الأوبرا وفي المسارح الفخمة والفنادق الحديثة تستطيع أن تجد الضوء والحياة والسيارات والرقص والموسيقى والخمرة الوافرة والملابس الفاخرة . » ، وكانت قد قامت من عهد قريب مظاهرات ضد المضاربين في البورصة تكسرت فيه ألواح الزجاج الكبيرة في نوافذ البنوك والمخازن والمطاعم والفنادق .

أما ألمانيا التي كانت سعة رقعتها ومواردها الطبيعية ومركزها المتوسط قد مكنتها في ظروف كثيرة من أن تدنس وتفزع وتغزو أقساما كبيرة من أوروبا ، أو تنعشها وتنبهها وتقويها ، فقد أصبحت الآن واقعة تحت كابوس دائم من الصراع الملكي الجمهوري ومن التضخم . إن الغرب المنتصر لم يستطع في مؤتمر جنوا الدولي (نيسان (ابريل) ١٩٢٢) أن ينسى أو يفتقر أو يتحد ، فدفع بروسيا ، منبوذة الثورة ، وألمانيا ، منبوذة الحرب الى الاتفاق الودي الدبلوماسي ـ التجاري فيما بينهما ، وتعاهد المنبوذان على التسلح في الخفاء .

ان أوروبا التي كانت مصابة بالدوار مغطاة بالدم من أثر الحرب العالمية الاولى ، كانت تتعثر في طريقها الى حرب أخرى ، بينما الأهلون والسياسيون لا يزيدون على ضرب كف لكف ، في يأس وعجز .

ولم أنقطع في هذه الأثناء عن القراءة عن روسيا والاستماع الى أخبارها . لقد كان البلاشفة يمجدون الفرد العادي ، ويقدمون له الأرض والخبز والسلام والعمل والمسكن والطمأنينة والتربية والصحة والفن والسعادة . كانوا يناصرون الأخوة العالمية ويدعون الى الغاء التفرقة العنصرية والاستغلال والتفاوت الطبقي وسطوة المال وحق الملوك المقدس وشهوة التملك ، وقد قاموا بتحرير پولندا وفنلندا وبلاد البلطيق من الحكم الروسي بكل شهامة وكرم ، كما رفضوا امتيازات القيصر الخاصة في الصين ومناطق نفوذه — بما في ذلك امتيازات البترول — في ايران . لقد بدأ المظلومون وأصدقاؤهم في كل مكان ينظرون الى الاتحاد السوڤيتي على أنه بشير العهد الجديد .

إن دولة مساحتها سدس مساحة الكرة الارضية كانت قد بدأت تتحدث بلغة رجل الشارع ، وأخذت حكومتها على عاتقها أن تحقق أحلام المصلحين ومحطمي الأصنام والرواد في كل عصر . لقد اهتزت مشاعر البشرية كلها ، فأما المدافعون عن الامتيازات والتقاليد والروح العسكرية والامبراطورية وسيادة الرجل الأبيض « والأمر الواقع » فقد اجتاحهم الخوف ، وكان خوفهم هو الذي بعث الآمال في قلوب الآخرين .

لقد كانت عالمية الثورة البلشفية هي أساس جاذبيتها الفريدة ، فهي لم تكن تقصد مجرد احداث تغيرات فعالة في روسيا ، بل كانت تأمل في الغاء الحرب والفقر والآلام من الدنيا الواسعة ، ولذلك أحس كل مستضعف وكل عامل وكل مفكر ، حين تأصلت الثورة في روسيا ، أن شيئا ذا قيمة قد وقع في حياته . والحقيقة أن منشأ هذا العطف العام كان السخط على الأوضاع خارج روسيا ، لا الاعجاب بالأوضاع داخل روسيا ، إن غالبية الناس ما كانوا يعلمون تماما ما جرى وما يجري

في النظام البلشفي ، إلا أن الجميع كانوا يتحدثون عن روسيا بحرارة وحماس ، فأما الموالون فكانوا يستندون على الوعود ويتحدثون عن الصعوبات « الموضوعية » ، وأما المعارضون فكانوا يذكرون أن أحدا لم ير محصولا أو نتيجة ، وكانت هذه المجادلات الحارة التي لاتنتهي هي التي أثارت رغبتي في معرفة الأخبار من مصادرها الأصلية .

ذهبت من برلين الى موسكو في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢ ، وأنا مزود بجهل تام باللغة الروسية ، ومعلومات تافهة عن النظام السوڤيتي ، وبعض العطف على آمال روسيا ومطامحها ، غير أنني كنت على بينة من سوء الأوضاع هناك وبشاعتها ، فكنت أعلم أنني لست مسافرا الى الفردوس أو الى مكة .

كانت ثورات الفلاحين ، والانتاج الزراعي الهزيل قد أرغمت الحكومة السوڤيتية في ربيع عام ١٩٢١ على اتباع « السياسة الاقتصادية الجديدة » التي سمحت بالملكية في الداخل وأذعنت لرأس المال الأجنبي، وإذن فقد كان النظام البلشفي الضعيف يتراجع الى الوراء ، وقد اعترف لينين بهذا التراجع ولم يحاول أبدا أن يخفي هذا الفشل ، وظهر الباعة المتجولون كالطفح الجلدي على وجه موسكو ولينينغراد وكييف وغيرها من المدن ، يبيعون الملابس الداخلية والجوارب وكعوب المطاط والأواني الفضية والمشدات وغيرها من البضائع القديمة ، كما امتلأ الريف بالتجار الذين انتهزوا الفرصة للكسب من أي وجه وبأي طريق ، وأدارت الدولة عددا من الملاهي الضخمة للقمار وعددا من المطاعم الفخمة والكابيريهات المملوءة بالأطعمة التي لا يراها المواطن العادي .

كل هذه الأمور لم تكن توحي بالشيوعية أو تشعر بطريقة جديدة في الحياة . لقد كان من الواضح أن الغريزة الرأسمالية كانت من التأصل والقوة بحيث طغت أول ما ظهرت « السياسة الاقتصادية الجديدة » ،

حتى لقد جعلت أتساءل : هل بدأت الثورة تموت ؟ أما الشيوعيون فكانوا يقولون : لا • كانت الأحوال المادية لا توحي بالبلشفية ، وأما الروح المعنوية لدى الشيوعيين فكانت تبعث على الأمل وتوحي بالاطمئنان •

لقد كان « الحزب الشيوعي » أبدع مؤسسة أنشأتها روسيا السوڤيتية • كان يشبه نظام الأوبرة من حيث ما يفرض على الأفراد من خشونة وتبتل ، وكان يشبه المدارس العسكرية من حيث ما فيه من طاعة آلية وسرية وحزم ونظام ، فكان الحزب الشيوعي بالنسبة الى النظام السوڤيتي مصدر الالهام والقوة المحركة والكلب الحارس • كان هو الذي يقرر السياسة ، وكانت السلطة السياسية كلها تنبع منه ، إلا أنه لم يكن يمارسها مباشرة ، فقد كانت هذه وظيفة الحكومة « البيرقراطية » ، أما الحزب فكان يعلم ويحث ويشرف على الحكومة ، وكان الغرض من هذا التنظيم والتقسيم للأعمال ابعاد أعضاء الحزب الشيوعي عن الأثر السيء للقوة والسلطان • كان معظم موظفي الحكومة حقا من الحزب الشيوعي ، إلا أن آلافا من كبار الحزب الشيوعي وقادته (مثل ستالين وزينوڤييف وبوخارين) لم تكن لهم علاقة بالوظائف الحكومية •

كان أفراد الحزب الشيوعي يتنادون بكلمة « الرفيق » وكان غالبيتهم يتناولون راتبا منخفضا موحدا يجعلهم يحيون حياة « اسپرطية » متقشفة تعين على طهارة النفس والروح ، وكانت واجباتهم تفوق حقوقهم وامتيازاتهم ، وكان الحزب ينتظر من كل فرد فيه أن يكون مثالا للغيرة اللادينية والولاء المثالي والفضيلة الشخصية والإخلاص السياسي ؛ أما الهفوات فكانت تلقى العقوبة الرادعة •

كانت روسيا تنبض بالنشاط والحركة ، وكانت المدن تظهر مليئة

برجال قريبي العهد بالغابات وحقول القمح ، وكان صغار السن يسودون كل مجال : كان عمر لينين ٥٢ عاما في سنة ١٩٢٢ وتروتسكي ٤٣ وستالين ٤٣ وزينوڤييف ٣٩ وكامينيف ٣٩ وبورخارين ٣٤ ورادك ٣٧ •

كانت الثورة عملية تمحيص طحنت الطبقات الحاكمة السابقة وقضت عليها ، ثم رفعت مكانها قوى حية جديدة ممتنة للفرصة التي أتيحت لها ، ومستعدة لتقبل النظام والعمل الشاق والتضحيات • كان الجوع لا يزال ناشبا مخالبه في مناطق شاسعة من البلاد ؛ وكانت الوجبة الواحدة تتكلف آلاف الروبلات ؛ وكان التضخم المالي في روسيا أسوأ منه في ألمانيا ذاتها ؛ لقد أذهلني ما رأيت من أثر الفقر الموروث الذي زاده فظاعة أثر الحرب العالمية والحرب الأهلية والتخريبات الثورية ، إلا أن النظام الجديد يبدو عليه اليأس أو التعب •

كان حماس هؤلاء الناس معديا ، ولقد جعلت أسائل نفسي لماذا تحاول الحكومات الاجنبية والدبلوماسيون الاجانب والمراسلون الصحفيون في موسكو ، لماذا يحاول كل هؤلاء أن يهزأوا بمجهودات أمة عظيمة تحاول أن ترفع نفسها من الوحل ؟ إنني ، لكوني ولدت ونشأت في الفقر ، كنت أرحب بكل محاولة للقضاء على الفقر • أما مصادرة النظام البلشفي لرأس المال الخاص وتأميمه للأراضي فلم يجعلني أتحامل عليه ، فقد كانت الجاذبية الأساسية لهذه الثورة أنها قطعت كل صلة بالماضي المظلم ، وكان الاتحاد السوڤيتي الآن يتحسس طريقه في أرض غير مطروقة نحو هدف لم يره ولم يصل إليه أحد من قبل ، وكنت أعجب بشجاعة هؤلاء الرواد ولا أرى لأحد الحق في التشكك في اخلاصهم •

كانت « العالمية » رأس قائمة الفضائل الشيوعية ، فان الحدود الوطنية هي في أغلب الحالات نتيجة سرقة أو عدوان ، وليست الوطنية

إلا ضربا من العنصرية ، أما البلاشفة فكانوا يسوون بين الأجناس كلها رغم ما بينها من اختلاف ورغم أنه كان يعيش في روسيا ما يزيد على مائة من السلالات المختلفة ، وكانت المتقدمة منها مميزة على المتخلفة التي أساءت إليها الظروف التاريخية والجغرافية • أما في الخارج فقد كانت البلشفية تعترف بالتقسيمات الوطنية وإن كانت ترى أن يخلفها المجتمع الشيوعي العالمي كي نخلق بذلك سلما عالميا دائما •

لقد كانت دول العالم كلها تقريبا معادية ومتحاملة وظالمة للاتحاد السوفيتي • لقد بدا الدبلوماسيون الأجانب أحرص على تجميع الديون القديمة والحصول على تعويضات على الأملاك المؤممة ، واثارت العداوات المذهبية والعقائدية منهم على إنشاء علاقات سياسية واقتصادية معقولة تعجل بالسلم الحقيقي والبرء السريع •

كان المرء إذا تحدث مع أصدقائه عن السوفيت يضيق بالغباء والغشم البلشفي ، إلا أنني في رحلاتي خلال أوروبا وأميركا كنت أجد الناس منقسمين الى معسكرين متعارضين أحدهما مع السوفيت والآخر عدو للسوفيت ، كل ما في الأمر أنني أستطيع أن أنضم الى المعسكر الثاني • ولقد زادت جاذبية المطامح والأماني السوفيتية عندي بعد أن عاينت « الاتساقيه » والركود الذي امتاز به عهد « هاردنج كولدج » في أميركا ورأيت كيف تحيى أوروبا بدون خطة أو هدف • كانت الديموقراطية المترنحة في ايطاليا قد ألقت السلاح أمام فاشية موسوليني، بينما الاشتراكيون الالمان أضاعوا فرصة فريدة لتصفية تجار الحروب (النبلاء الالمان والعسكريون ورجال الصناعة) •

إن ما تبين من خطل سياسة « الاعتدال » قد أعماني عن النقد الضيق الذي كانت توجهه الاشتراكية المعتدلة للبلاشفة الذين قاموا فعلا بتصفية الملكيين من سياسيين واقتصاديين ، كما جعلني لا أنظر الى الحركة الاشتراكية الديموقراطية الجديدة على أنها بديل عن الرأسمالية

ومقابل لها •

ولم يمض وقت طويل حتى تبينت أنني قد اخترت طريقي فعلا • إن اختيار سبيل معين يعتمد على ما لدى الانسان من سبل أخرى ، وقد آثرت الرياح الغضة الجارفة على الهواء الفاسد الراكد ، وآثرت الرواد المخلصين على القدامى الفاشلين • لقد أحببت الاتحاد السوفييتي لأنه كان تجربة لصالح الأغلبية المستضعفة ، ولأنه حطم امتيازات الأقلية المتحكمة ، ولأنه كان ضعيفا مستضعفا ، ولأن الرجعيين والمحافظين في العالم كله كانوا يقفون في وجهه ؛ وإذن فقد كان اختياري وتأييدي راجعا الى استعداد عقلي سابق دفعني بطريقة تكاد تكون لاشعورية الى الوقوف في صف الاتحاد السوفيتي •

إن انتظام المرء في صف عقيدة معينة يجعله تحت سلطان هذه العقيدة لا يستطيع أن يهجرها إلا إذا صدمته الحقائق القاسية المذهلة ، وكما أن العقيدة الدينية لا يؤثر فيها الجدال المنطقي ، ولا هي نتيجة تدرج منطقي ، وكما أن الولاء للوطن أو العاطفة الشخصية تتحدى الأدلة والبراهين ، كذلك كان وقوفي بجانب الاتحاد السوفيتي لا تؤثر فيه الأحداث الجارية أو الأوضاع السارية • كنت أنظر الى الأحداث والتطورات التي تبدو ضارة بالاتحاد السوفيتي على أنها أمور سريعة الزوال ، أو كنت أفسرها تفسيرا لا ينطبق مع الواقع ولا مع الأمانة ، أو كانت الأحداث والتطورات الطيبة تذهب أثرها وتطغى عليها بايجاد نوع من التوازن داخل نفسي • كنت أدرس الأوضاع بعناية وأرسل أخبارها الى الصحف بأمانة ، وكانت هذه الأحداث أحيانا مما لا يشرف البلشفية ، إلا أن هذا لم يقلل من إعجابي بالنظام السوفيتي وايماني بمستقبله الباهر •

نشرت لي جريدة « النيويورك نيشن » ، (عدد الرابع من آذار (مارس) عام ١٩٢٥) مقالا عنوانه « المسجونون السياسيون في الاتحاد

السوڤيتي » أشرت فيه الى « إيما كولدمان » و « الكسندر بيركمان » ، وهمـا فوضويان (١) شهيران زارا الاتحـاد السوڤيتي فيما مضى في ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ ، وقلت :

« كان عدد المسجونين السـياسيين فيما مضى أكبر منه اليوم ، وكانت معاملتهم أسوأ ، وكان بيركمان وكولدمان يعلمان هذا ، إذ أنهما كانا يتمتعان بحرية التنقل وبمصاحبـة عدد من أعداء البلشفيـة كانوا يمدونهما دائما بالأخبار ، إلا أنهما مع ذلك رأيا من المناسب أن يؤيدا الشيوعيين وأن يعملا على كسب بقية زملائهما الفوضويين الى جانب القضية البلشـفية ، وكل هذا معنـاه أنك إذا كنت مؤيدا للاتحـاد السوڤيتي ترى مسألة المسجونين السياسيين لا تزيد على بقعة في ثوب جميل يدعو وجودها الى الأسف ، أما حين تفقد آمالك في الاتحـاد السوڤيتي وتصبح له عدوا فان هذه المسألة نفسها تصبح سـلاحا في حرب معلنة ضد روسيا » .

وقـد كتب الكسندر بيركمان من برلـين يقول ردا على كلامي ونقضا لقولي :

« لما كنت خلال السنة الاولى من بقائي في الاتحاد السوڤيتي شديد الميل الى النظام البلشفي وشديد الحرص على المساعدة في كل عمل ثوري انشائي ، فقد كنت أنتهز كل فرصة لاقناع الزعماء الشيوعيين بأن سياسة التسامح والمعاملة الخلقية الطيبة تجاه معارضيهم السياسيين من اليساريين تخدم الثورة أكثر مما يخدمها الاضطهاد والتعذيب ، بل انني ظللت أحاول أن أساعد على تغيير هذه السياسة تجاه المسجونين من الثوريين حتى بعد انفصالي النهائي الصريح عن البلشفية بعد حركة التطهير الدموية في « كرونستادت » .

إلا أن بيركمان بهذا التصريح لم يزد على أن أيد نظريتي . لقد

(١) الفوضوي : هو الذي يرى أنه لاداعي الى وجود الحكومات

ظل مؤيدا للسوڤيت بينما هو يستنكر معاملتهم الوحشية للمسجونين السياسيين ، فلما وقعت حادثة القمع العنيفة التي قامت بها الحكومـة السوڤيتية ضد ثورة البحارة على جزيرة « كرونستادت » بالقرب من پتروغراد ، ضاق بالنظام السوڤيتي كله ، وكان حمام دم « كرونستادت » هذا هو الذي حول لديه معاملة البلاشفة للمسجونين السياسـيين من مسألة تستدعي الانكار الشخصي الى سبب للهجوم العلني . قد تكون قسوة موسكو تجاه المسجونين السياسيين قد أنقصت من مناعة بيركمان ضد صدمة « كرونستادت » ، إلا أنه لم يصبح عدوا صريحا للنظـام إلا بعد « كرونستادت » ، أما قبلهـا فيمكن أن تظل عواطف المرء متذبذبة مترددة ، أو أن تهاجمه الشكوك الفكرية ، بل ويمكن أن يتبرأ من القضية كلها في قلبه ومع ذلك يرفض أن يهاجمها علانية .

ولقد ظللت بدون « كرونستادت » عدة سنوات .

وكنت طوال هذه السنوات ، في الشعور وفي اللاشعور ، أضع النظام السوڤيتي في الميزان ، وكانت قراءتي للميزان تعتمد طبعا على ما أضعه في كفتيه . فمن ناحية أصبح واضحا لديّ في عام ١٩٢٤ أن الحكومة السوڤيتية « قد أغفلت رغبات الكتلة البشرية ، وأن الحرية لديها ليست مقدسة كتقديسها في الغرب ، وأن الهدف الأهم والأسمى هو اعطاء الحرية الاقتصادية للجماهير ، وبهذا يفسر الشيوعيون ويبررون انعدام حرية الصحافة ونشاط الشرطة السرية الروسية ، إلا أن هذا في رأيي لا يبرر ولا يفسر » ؛ فلقد استنكرت قمع البلاشفة للحـرية الشخصية التي كنت ولا زلت أراها أهم من أي أمر آخر . إلا أنني من ناحية أخرى أوضحت ، كما ذكرت في نفس المقـال ، أن « هدف البلاشفة هو خلق مجتمع جديد » ــ وهذا المجتمع الجديد الخالي من الاستغلال والاستعباد ترجح كفته على كفة وجود الشرطة السرية وانعدام الحرية الصحفية .

إن الوعود السوڤيتية أنعشت خيالي وفكري فصار هذا المستقبل الموعود أهم عندي من كل ما في الانتاج الصناعي الجاري من نقص وعيب . ان كل حكم لنا على حاضر روسيا كان يتأثر بما نعلمه عن ماضيها البشع وما نأمله من مشروعاتها للمستقبل الزاهر . كان هذا المستقبل الموعود هو رأس المال البلشفي ، وقد وعد البلاشفة أن يجعلوا لكل انسان سهما فيه ، وكانوا يقدمون كل « مشروع خمس سنوات » جديد على أنه خطوة شاقة ولكنها ضرورية في سبيل الوصول الى العالم الجديد ، فكيف يمكن للانسان أن يشكو من ندرة البطاطا بينما هو يسعى لبناء الاشتراكية ؟ ألا يستغني الانسان عن الزبد في سبيل المشروعات الهائلة التي تعني زيادة في القوة المائية وزيادة في الفولاذ ثم زيادة في الزبد في آخر المطاف .

لقد كان السوڤيت يدركون الاثر المخدر للحلم العظيم ، ولذلك كانوا كلما انقضى المستقبل الموعود وأصبح ماضيا يحاولون أن يحافظوا على الأمل في المنافع المؤجلة ، فكان من بين ما فعلوه أن أصدروا أوامرهم في منتصف عام ١٩٣٠ الى كل الكتاب أن يعالجوا الحاضر كأنه غير موجود ، ويعالجوا المستقبل كأنه أمر واقع موجود ، وأصبحت هذه الحيلة تسمى « الواقعية الاشتراكية » .

كان الكاتب القصصي السوڤيتي المعروف ڤيسيڤولور إيڤانوف يؤلف قصة عن الحياة داخل مصنع السيارات الضخم في غوركي ، فذهب للاقامة داخل المصنع حتى يكون على معرفة طيبة بالموضوع الذي يؤلف فيه ، وهناك كان يقرأ أجزاء مما كتبه في بعض اجتماعات العمال ، وذات يوم قرأ لهم فصلا يتحدث عن الصعوبات التي يلقاها العمال في سفرهم مسافات طويلة داخل (باصات) هزيلة فوق طريق رديئة ، فلامه الشيوعيون الحاضرون وقالوا متسائلين :

« كم يقتضي إنهاء هذه القصة من وقت ؟ »

فأجاب إيڤانوف : « قريبا من ستة أشهر » .

قالوا : ثم تتطلب الرقابة بضعة أشهر أخرى والطباعة أيضا بضعة أشهر ، واذن فكتابك لن يظهر قبل مرور عام ، ولن ينقضي العام حتى تكون لدينا الطرق الجيدة و (الباصات) الجديدة والبيوت الملحقة بالمصنع ، فلم لا تصف هذه الطرق و (الباصات) والبيوت على أنها قائمة فعلا ؟ »

وذات مرة لزمت الفراش في موسكو عدة أسابيع ، وبعد مضي فترة على بداية المرض كانت زوجتي « ماركوشا » تجيب من يسأل عني هاتفيا : » إنه أحسن حالا بكثير ولكنه لم يدرك ذلك بعد . « ولقد كان هذا القول نسخة بيتية من «الواقعية الاشتراكية» لأنه قيل في حضوري حتى يكون له في نفسي أثر الدعاية الايحائية .

إن « الواقعية الاشتراكية » هي الحيلة التي لجأ إليها الاتحاد السوڤيتي لتشويه الحقائق الحاضرة ، أما عكس « الواقعية الاشتراكية » فهو كلمة « الشكلية » وكانوا عادة يصمونها باسم « الشكلية البورجوازية » بسبب مبالغتها في التمسك بالوقائع بدلا من الاستناد الى الآمال .

إن الأمل هو الذي يحيي ذوي الطموح من الشباب والكهول ، وهو كذلك كان يحيي أولئك الذين توقعوا من الاتحاد السوڤيتي أن يشق طريق لصلاح الانسانية وفلاحها ؛ لقد كانوا ينظرون الى كل بوصة من التقدم على أنها مقدمة لأميال تتلوها الى الأمام .

إن الانشاء والبناء يثيرني ويهزني ، ولعل ذلك لأنه يدعم ايماني الداخلي بالتقدم ، وقد زاد من أثر انشاء المصانع السوڤيتية الضخمة ومحطاة التوليد والمدن في نفسي أن كنت أنظر اليها من خلال عدسة الأمل المكبرة ، فهي لم تكن عندي سوى القسط الاول من برنامج

هائل مهيب سوف يغير وجه هذا البلد البائس ويرفع مستوى معيشته ، وبذلك يثبت أن الحكومات الشعبية تستطيع أن تعمل لصالح الشعوب وحدها بنجاح .

لقد بدأت احصائيات النمو الصناعي تملأ الصحافة السوڤيتية ، فكانت تشغل النغم الذي يصحب الاشتراكية ، والافتتاحية للمجتمع الجديد . لقد حضرت مولد مصنع الجرارات الهائل في خاركوف حين كانت الأرض تجهز وتعد للبناء ، وكنت أزور موضع الانشاء مرة في كل عام ، فلما تم المصنع كنت أزوره سنويا وأتجول في أنحائه ، إذ كنت أحس أنني أنتمي إليه .

كذلك كان الشأن بالنسبة لخزان « دنيبرستروي » فقد تسلقت بصحبة رئيس المهندسين السوڤيت فوق الصخور الجاثمة في قاع النهر بينما كانت المضخات تنزح الماء استعدادا لبدء البناء ، ثم بعد ذلك بخمس سنوات سرت في سيارة فوق جدار « الخرسانة » الهائل الذي بني على هذه الصخور والذي يزيد ارتفاعه على مائة قدم وطوله على ثلث ميل ، وراقني أن يبني السوڤيت هذا الخزان الهائل ليجلب النور والحرارة والبضائع الاستهلاكية للملايين ، فلما هدم النازيون بقنابلهم جزءاً من ذلك الخزان أحسست بألم في نفسي .

أما في خارج الاتحاد السوڤيتي فقد توقف عدد كبير من المصانع ومحطات توليد الكهرباء عن العمل ، فان افلاس بيوت المال والكساد الاقتصادي في أميركا رمى بملايين الناس في الفقر واليأس ، وكان هذا أيضا مما وضع في الكفة وأمال الميزان الى جانب الاتحاد السوڤيتي ، بل لقد بدأ الاقتصاديون الرأسماليون ورجال الفكر يدرسون المشروعات السوڤيتية ويتساءلون عن مدى امكانية تطبيقها في بلادهم .

وبجانب التصنيع في الاتحاد السوڤيتي كانت الحكومة تستحث

المزارع الجماعية وتحفزها الى بذل الجهود . لقد كانت تكفي واحدة من هذه المهام لأن تستنزف طاقات أية حكومة ، إلا أن البلاشفة قاموا بالأمرين جميعا ، وبدأت السلطات في عام ١٩٢٩ عملية دمج الحقول الصغيرة لما لا يقل عن مائة مليون مالك من الفلاحين لتكون منها المزارع الجماعية .

كانت هذه المزارع الجماعية أول ثورة في التنظيم الزراعي منذ تحول عبيد الارض في أوروبا الى أحرار مالكين لاراضيهم . وكانت تبشر بانتاج بالجملة جيد ومعقول ، وكما حل المصنع في المدينة محل المصانع الصغيرة ، كذلك ستحل هذه المزارع الجماعية محل الفلاح الصغير . لقد بدت المزارع الجماعية بالنسبة الى الكثيرين نقطة تحول في التاريخ البشري ، وقد اختصر البلاشفة ، بما عرف عنهم من سرعة وانجاز ، هذا الفصل الكامل من التطور العمراني في سنوات قليلة سريعة ، فكان المراقب الاجنبي يهنىء نفسه ، إذ أنه يرى التاريخ يصنع تحت سمعه وبصره .

ومع هذا فان المزارع الجماعية نفسها كانت هي الـ « كرونستادت » بالنسبة الى عدد كبير من الاجانب المؤيدين ، وبالنسبة أيضا الى عدد لا يحصى من المواطنين السوڤيت ، الذين أدركوا قبلي أن هذه المزارع الجماعية ليست الا نوعا جديدا بارعا من العبودية الجماعية يناسب القرن العشرين ويجبر الفلاح على العمل تحت رقابة بعض شيوعيي القرية المختارين ووخزاتهم ، ويجعله عالة على الدولة ومحتاجا اليها دائما في بذوره وآلاته وحيواناته ومعظم دخله .

وكان من الطبيعي أن يلقى هذا التأميم للزراعة مقاومة عنيفة بعيدة المدى ، وقد شاهدنا كيف كان رد الحكومة على هذه المقاومة ؛ لقد أرسلت بمئات الآلاف من « الكولاك » أو أغنياء الفلاحين الى معسكرات

العمل الجماعية . ولم يكف هذا النفي الجماعي لتحطيم معارضة القرية ، فقد رفض فقراء الفلاحين أن يسلموا حيواناتهم الى المزارع الجماعية ، وفضلوا أن يبيعوها أو يأكلوها قبل أن يضطروا الى الدخول في عضوية هذه المزارع ، ولا تزال روسيا الى اليوم تعاني مما تسبب عن هذا من نقص في الدواجن والاغنام والخيل . واستعمل المسؤولون القوة لاجبار الفلاحين على الدخول في هذه المزارع الجماعية ، وكثيرا ما كانت وحدات الجيش الاحمر تظهر في القرية وتتنقل من كوخ الى كوخ مصدرة أمرها الى السكان بتشكيل مزرعة جماعية ، وكان الفلاحون يهددون بالنفي الى سيبيريا والتركستان كما حدث مع « الكولاك » اذا تشبثوا بالزراعة الفردية .

بهذه الوسائل وغيرها أمكن أن تحشر الغالبية العظمى من الفلاحين الروس في المزارع الجماعية ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يعارضون أو يهدمون المجهود التعاوني ، فقد كانوا يأملون حتى الآن أن تعتبر الحكومة هذه المزارع الجماعية فكرة فاشلة ثم تتنازل عنها . وقد أدت هذه الامور في أوكرانيا الى مجاعة ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ التي مات فيها الملايين من الناس ، فكانت القرية تموت بجميع من فيها . لقد كان ثمن تسرع البلاشفة وتعصبهم هائلا .

لقد زرت عشرات المزارع الجماعية في أوكرانيا والقرم والقوقاز وروسيا الشمالية فيما بين سني ١٩٣٢ و ١٩٣٦ ، ولقد وجدتها أرقى بكثير من تلك الحقول الصغيرة الهزيلة التي عرفها الناس من قبل ، فقد اختفت الاسوار والاخاديد التي تشكل الحدود بين أرض وأرض ، وأدخلت الآلات الزراعية ، وأنشئت بيوت الحضانة ورياض الأطفال ، وقال الموظفون الرسميون : ان نسبة انتاج الارض قد ارتفعت ، فقد أصبح من الممكن الآن في هذه المزارع الجماعية اجراء التجارب على

البذور لاختيار أفضلها ، وإخصاب الأنعام بالطرق الصناعية ، وحراثة الارض حراثة عميقة . بالآلات الكهربائية ، وغير ذلك من الوسائل العلمية التي لم يكن من الممكن أن يعرفها الفلاح الفقير وحده .

ولكن هل كانت الفوائد تعادل المضار ؟ وهل كانت الوعود والآمال تساوي الثمن الذي دفع ؟

لقد بدأ فكري يزعجني ، وبدأت أتساءل : ألم أكن أمجد الفولاذ والكيلووات وأنسى الانسان ؟ إن كل الاحذية والمدارس والكتب والجرارات والضوء الكهربائي والانفاق الارضية التي في الدنيا لاتساوي شيئا اذا كان الجهاز الذي ينتجها فاسدا شريرا .

لقد بدأت المربعات السوداء تظهر في نسيج انطباعاتي السوفيتية . عرض البلاشفة على الناس أول محاكمات موسكو الكبيرة في حزيران (يونيو) ١٩٢٨ : محاكمات « شاختي » التي اتهم فيها ما يقرب من خمسين مهندسا سوفيتيا بالتخريب والتجسس ، وقد جلست أراقب اجراءات المحاكمة في قاعة « كولمنز » الشهيرة ، ولم أكن أدري ماذا أصدق ، وإن كنت قد صدقت بعضه ، وظللت مترددا بالنسبة للبعض الآخر ، وتزايدت شكوكي عندما دخل جندي من الشرطة السرية الروسية بسلاحه يصحب رجلا يدعى « موخين » الى منصة الشهود . ولا زلت الى اليوم أذكر اسمه وحلته السمراء ووجهه اللين المكتنز الشاحب المستدير . دخل هذا الرجل وأدلى بشهادته ضد المتهم « رابينوفتش » ، وهو رجل قد جاوز السبعين ، كان في دفاعه المجيد عن نفسه قد كاد أن يقهر المدعي العام « كريلنكو » الرهيب الذي بدا من قبل منيعا لا يقهر ، فأحضر موخين ، الذي كان له في السجن بضعة أشهر بتهمة لا علاقة لها بمحاكمات « شاختي » الراهنة ، لكي يؤيد جانب الحكومة في القضية . دخل هذا الرجل « موخين » وأقسم اليمين ثم

أعلن أنه سلم « رابينوفتش » رشوة له ورُشاً أخرى لتوزيعها بين بقية المتهمين .

وقد سار « رابينوفتش » نحو الرجل حتى صار بينه وبينه قدمان ثم ثبت نظره في عينيه وقال : « أخبرني من فضلك عمن تتحدث ، أعني أنا أم عن شخص آخر ؟ »

فأجاب موخين : « أنا أتحدث عنك » .

فقال رابينوفتش دهشا : « لماذا تكذب ؟ من طلب اليك أن تكذب ؟ أنت تعلم أنك لم تعطني نقودا . »

ولم يرد « موخين » على أن كرر قصته كانسان آلي قد درب فأحسن تدريبه وقد زاد وجهه شحوبا ، ثم لم يلبث رجل الشرطة السرية أن انطلق به خارج قاعة المحكمة . لقد جعلت هذه الحادثة « كريلنكو » ذليلا مطأطأ الرأس ، فقد بدا واضحا أن « موخين » إنما أدى دورا أعد له في دهاليز الشرطة السرية الروسية ، وقد حدثت باعتقادي هذا موظفا كبيرا في وزارة الخارجية كنت على معرفة جيدة به فلم يحاول أن ينكر الأمر .

ولو أن حادثة « موخين » هذه كانت وحدها لما كان لها هذا المغزى الكبير ، ولكن كيف كان يمكن أن تكون وحدها والشرطة السرية التي دبرتها كانت تكتسب في كل يوم قوة جديدة وسلطانا أوسع واستبدادا أشد . في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ قبض على « ليون تروتسكي » ونفي الى آسيا الوسطى ، وكانت جريمته هي الخلافات السياسية والمذهبية بينه وبين ستالين . كانت أمثال هذه الخلافات قبل الثورة وتحت قيادة لينين تحل بالمناظرة وأخذ الاصوات داخل الحزب الشيوعي ، أما اليوم فقد أصبح « المسدس » هو الحكم .

وسواء كان الحق في جانب تروتسكي أو ستالين — وحين رجعت

الى مذكراتي وجدت أنني لم أكن منحازا الى جانب أي منهما — فان الاستعانة بالشرطة السرية لانهاء خلاف في وجهات النظر السياسية كان بداية النهاية بالنسبة الى الحزب الشيوعي ، فان معنى هذا أن يحسب كل من يملكون القوة أنهم يملكون الحكمة والرأي السديد ، أما المخالفون فيفضلون السلامة على الجهر بالرأي والتعبير عن النفس ، وبهذا تنتصر الخسة على الأمانة .

لقد تنبهت الى هذه الظواهر ، إلا أنني لم أدرك أنها كانت بداية التدهور الذي وصل بنا الى الأكذوبة الكبرى والصمت الهائل الذي يرين على روسيا اليوم ، كما وصل بنا الى ظهور « القائد العظيم » .

لقد كان كل شيء في داخلي يستنكر هذه المداهنة والتزلف والتمجيد لستالين . كانت الدعاية الرسمية ، الواقعة تحت مسؤولية ستالين نفسه ، تصوره على أنه المعصوم الرحيم العليم منبع كل خير في الاتحاد السوفيتي ، والذي تفيض عنه كل البركات ، أما الأخطاء والآلام العامة والعوائق فهي ، بالطبع ، من عمل « المخربين » و « التروتسكيين » و « أعداء الشعب » .

ولقد نفست عن نفوري من عبادة ستالين في مقال كتبته في موسكو ونشر في نيويورك عام ١٩٣٠ ، وفيه ألقيت المسؤولية على ستالين ومن معه ، ونعت عملهم هذا بأسوأ الصفات ، فقلت : انه عمل « مضاد للبلشفية » والحقيقة كما أرى الآن أنه على العكس عمل بلشفي خالص هو النهاية الحتمية لكل أنواع الدكتاتورية ، ولقد كان موسوليني وهتلر يديران اسطوانات مشابهة من مدح الذات والثناء على النفس . وما كنت أدري في ذلك الحين أن سوء ذوق ستالين وسوء تصرف الشرطة السرية هما مرضان قاتلان ، بل ظننتهما مجرد قرحتين على جسد قوي صحيح يبني المدن الجديدة ويخلق القيم الجديدة .

لقد افسد الأمل حكمي على الامور ، فأصبحت ارى الأمور المرغوبة متأصلة الجذور والامور الكريهة سطحية سريعة الزوال ، ولم يكن ما أرى يتدخل ليفسد على ما أعتقد وأومن به .

لعل خيبة آمالي كانت تنضج على مهل ، الا أن نذر «الكرونستادت» لم تكن تظهر لعقلي الواعي ، ولو أنها في طريقها الى الظهور لكفى مجيء هتلر في عام ١٩٣٣ لكي يمنعني من نبذ النظام السوفيتي . كان النازيون يجاهرون بمعتقداتهم علانية : السيف ، « فقد قال هتلر : ان روسيا ستطيح » والفوهرر ، وألمانيا العظمى ، ومناهضة العرق السامي ، ومناهضة الشيوعية فاذا انتصر هؤلاء فسوف تنحدر البشرية في وهدة البربرية والدماء .
كان الحزب الشيوعي الالماني قد ساعد في مجيء هتلر الى الحكم ، فقد حسب أن تحطيم الاحزاب الديمقراطية سوف يسهل عليه مصارعة الحزب النازي المتطرف وهو نوع من سوء التقدير لا ينفك عن الشيوعيين ، ولكن لم يكن النازيون الفاشيون يتولون زمام الامور في ألمانيا حتى قام الشيوعيون في ألمانيا وفي غيرها بقيادة المعركة ضد النازية ، ثم انضمت الحكومة السوفيتية الى المعركة بعد عام من التردد، أما الدول الرأسمالية فلم تشعر بخطورة هتلر الا بعد وقت طويل .

لقد بدأ الآن وزير الخارجية السوفيتي لتفينوف يدعو بقوة وحمية الى التحالف بين أعداء الفاشية لمنع التردي في حرب جديدة ، وقام في جنيف يهاجم بقسوة وعنف أولئك الذين يسترضون هتلر وموسوليني واليابان ، الا أن نجاحه مع الصحفيين ومحبي السلام لم يكن فيه التعويض الكافي عن فشله في تغيير السياسة المحافظة الانتهازية للحكومات البورجوازية ، ومع ذلك فقد أصبح أسم لتفينوف رمزا وعلما يسخر من أولئك الذين يزعمون أن الفاشيست المعتدين هم وحدهم الذين أثاروا الحرب العالمية الثانية ، فالحقيقة هي أن هتلر كان له مساعدون سلبيون

ومساعدون ايجابيون من قلب البلاد الديمقراطية .

واذن فقد بدا للكثيرين أن مصارعة هتلر أولى من مصارعة الحكومة السوفيتية التي كانت تستحث الجهود لتعبئة العالم كله ضد الفاشية وضد الحرب ، فبدأ الذين اعتادوا من قبل أن ينتقدوا موسكو وسياستها يخففون من هجومهم ويترابطون هنا وهناك لتشكيل جبهة شعبية اشتراكية شيوعية حرة ، بل بدأ الذين خابت آمالهم عند « كرونستادت » وأمثالهم يركنون الى الصمت والسكون فلم ينضم الى لوائهم غير القليل في السنوات الاولى من قيام الحكم الهتلري .

أما في روسيا نفسها فقد تحسنت الاحوال المعيشية خلال عام ١٩٣٥ بشكل محسوس ، وان كان هزيلا اذا اقسناه بالمقياس الغربي ، الا أن الفضيلة والمثالية الشيوعية كانت في الوقت نفسه تذوب وتذبل ، فان تدخل الشرطة السرية الروسية لتأييد حملات ستالين على كل معارضة يمينية أو يسارية أحالت الحزب الشيوعي الى عجينة طيعة في يد الدكتاتور الفرد . ان استبداد هذه الشرطة السرية اندمج في استبداد الحكومة الاوسع ، فنشأ عن ذلك شعب من المتملقين والمتحللين والجبناء ، وأصبح الخوف قبل الرأي والنفع الخاص قبل الصالح العام ، هو الدافع لكل كلمة تقال وكل عمل يؤدى سواء عند الكبار أو عند المستضعفين . كان كل من عبر في الماضي عن رأي مخالف ، وكل من ترشحه أصالة شخصيته واستقلاله في الرأي ، لأن يخالف الخط المرسوم في يوم من الايام يحظى بزيارة من الشرطة السرية في الساعة الثانية ليلا ، ولا يلبث أن ينضم الى « بناة الاشتراكية » المسخرين في سيبيريا والقفار القطبية .

أما عبيد الدهر الحذرون المتوجسون المستسلمون المضطربون في في جهاز الحكومة أو في الحزب أو في نقابات العمال فقد كانوا يرقبون خطواتهم : ويتلفتون وراءهم : ويرفعون أصواتهم بالولاء للنظام ،

ويكررون بشكل ممل ما يسمعون من دعايات حكومية ، ثم يبحثون عن السلوى والعزاء في الطعام والشراب والرقص ، ويحاولون أن يعيشوا حياة مرفهة بقدر ما تسمح لهم الاحوال المادية المتبدلة • لقد قضى « الكرملين » بأن المساواة « فضيلة بورجوازية » ، والأمر المحقق هو أنها لم تكن فضيلة سوفيتية ، فان المدى بين الأغنى والأفقر كان أوسع مما عرفناه في الرأسمالية ، وأصبح الشائع الآن أن يأخذ العامل أجره « على القطعة » وأصبحت نقابات العمال منظمات على الورق ، بينما أصبح مدير المصنع أو المكتب هو الآمر الوحيد يعين ويعزل ويحدد الأجر دون حسيب أو رقيب •

في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣٤ أطلق شاب يدعى « نيكوليف » الرصاص على « سيرجي كيروف » ، قائد لينينغراد والشخص الرابع بين بلاشفة الاتحاد السوفيتي ، فأرداه قتيلا ، فقامت الشرطة السرية على الفور باعدام مائة رجل وثلاثة كانوا في سجونهم من قبل مقتل « كيروف » بشهور طويلة ، ثم نفي « زينوفيف » زميل لينين للسبب نفسه ، ثم عوقب رؤساء الشرطة السرية في لينينغراد لهذا السبب أيضا • لقد أصبت بما يشبه الغثيان • ان الدولة السوفيتية التي كان المفروض فيها نظريا أن « تذبل وتذوى » قد تطورت حتى أصبحت نوعا من « فرانكنشتين »(١) هائل الجسم شديد القسوة • أما في الخارج بالطبع فقد كانت هذه الحكومة البلشفية نفسها مستمرة في بذل الجهود لتشكيل كتلة أمن جماعية في مواجهة عدوان الفاشستية ، وقد أحسست ان هذا الامر لا يكفي ، فكتبت في مقال الى جريدة « نيويورك نيشن » : « أنا أعتقد ان اعادة التنظيم الديموقراطي الى الاتحاد السوفيتي يضعف من شأن أعداء السلام » •

(١) كائن خيالي اخترعه أحد العلماء ثم عجز عن ترويضه ، وأصبح يخشى بطشه وجبروته (المترجم) •

وذات مساء في موسكو قرأت الفقرة السابقة على « قسطنطين أومانسكي رئيس دائرة الصحافة بوزارة الخارجية الروسية وعلى مساعده « بوريس ميرونوف » ، فوافقني « ميرونوف » على رأيي بينما قال « أومانسكي » الموظف الرسمي المتزمت ، ان هذا غير صحيح • وقد أعدم « ميرونوف » بعد احدى المحاكمات التي تلت ذلك ، بينما أصبح « أومانسكي » سفيرا في واشنطن والمكسيك ، وان كان هو أيضا مات بعد عشر سنوات في حادث غامض وقع لطائرته •

ولو كان النظام الديموقراطي ساريا داخل روسيا لكان من أنسب الامور لسياسة التعاون مع الديموقراطيات الغربية في سبيل السلم وضد هتلر ، اذ لو كانت روسيا ديموقراطية لساعدت القوى المعادية للفاشية في بريطانيا وفرنسا على امضاء نيفيل تشامبرلين ودالادييه ومن لف لفهما ، ولو كانت ديموقراطية لتجنبت حركات التطهير ومحاكمات موسكو التي أضعفت روسيا اقتصاديا وعسكريا ، ولو كانت روسيا ديموقراطية لما وقعت عام ١٩٣٩ ميثاقها مع هتلر ، وبالاختصار لو كانت روسيا ديموقراطية لامكن تجنب الحرب التي ساعدت الحكومة الدكتاتورية السوفيتية على التعجيل بها •

ان ستالين رجل عاقل ، اذا استثنينا الحماقات التي كان يضطر اليها لانها جزء ملازم لنظامه وسياسته ، ولدينا من الدلائل ما يشير الى أنه كان مدركا للأزمة الداخلية التي يعانيها النظام بسبب الاضطهاد المتزايد والايمان المتناقص ، فان البلاشفة كانوا قد بردوا ميراث الثورة الروحي • لقد كانت كمية الخبز في عام ١٩٣٥ أكبر منها في الاعوام السابقة ، غير أن الانسان لا يعيش بالخبز وحده ، فما بالك اذا كان الخبز أيضا غير مضمون ولا ميسر على الدوام • لقد كان النظام في حاجة الى حوافز شعبية جديدة ، فبدأ يبرز السياسة المتبعة من قبل ، سياسة منح امتيازات خاصة متزايدة ومكافآت للجيش والشرطة السرية والمهندسين

« وأرستقراطية » الطبقة العاملة وكبار موظفي الحكومة ، الذين كانوا يشكلون في مجموعهم الحرس الامبراطوري المرتزق بالنسبة للنظام السوڤيتي . أما الحوافز الوحيدة الممكنة التي لم تجرب من قبل في النظام البلشفي ، فهي الوطنية والحرية ، وقد آثر ستالين أن يجرب الوطنية .

ان الدكتاتورية بعد أن قضت على الأمل في المستقبل لم يعد أمامها سوى أن تدير ظهرها للمستقبل وتولي وجهها شطر الماضي ، وهذا خلاصة « الاتجاه » الوطني الذي تبناه الكرملين عام ١٩٣٤ . لقد بدأت الثورة النازية بتمجيد ماضي ألمانيا ، أما الثورة البلشفية فانتهت حين تبينت تمجيد ماضي روسيا .

ان روسيا ذات ماض عظيم ، أبطاله الثائرون ضد طغيان القياصرة ، إلا أن الاتجاه الجديد الذي تبناه الكرملين لم يكن يعني تمجيد الثائرين بل تمجيد القياصرة . لقد بدأوا ينفضون الغبار عن « إيڤان الرهيب » و « بطرس الكبير » و « الامبراطورة كاترين العظمى » وأمراء العهد القيصري ، بل وقواده المعادون للثورة من أمثال « سوڤوروف » ، ورهبان العصور الوسطى ، ثم أبرزوهم على أنهم من قديسي الوطنية ، وطلبوا لهم التبجيل والاكرام من الشعب المذهول الذي عودوه أن ينظر اليهم بالمقت والازدراء . ان هذه المضحكات لم تزد على أن زادت أزمة الايمان التي بدأت يوم أخبرت الامة بأن « تروتسكي » وآباء الثورة الآخرين هم « فاشيون » ، وما دام « تروتسكي » فاشي و « وإيڤان الرهيب » بطل وطني فقد ضاعت كل مقاييس الحكم الثابتة ، ولم يعد أحد يدري ماذا يعتنق وماذا يرفض ، وقد لا يأتي المساء حتى يعلن عن ملائكة هذا الصباح أنهم شياطين . ان التشويش العقلي الذي نتج عن هذا أفضى الى النفاق والى

التقبل الآلي التلقائي لكل وحي جديد غريب قد يأتي من سماء الكرملين ، فهنا على الأقل يجد الانسان الحد الأدنى من السلامة والامن لنفسه .

كانت الوطنية الجديدة وطنية روسية ، وبدأ المؤرخون الطيعون يعيدون كتابة التاريخ كي يثبتوا أن روسيا القيصرية لم تكن « سجنا للأمم » كما اعتاد الشيوعيون أن يسموها ، وأصبحت دراسة اللغة الروسية اجبارية على جميع الأقليات القومية ، وعادت من جديد تلك الملابس المزخرفة التي اشتهرت في عهد القيصرية ، والتي طالما سخر منها البلاشفة باعتبارها من حطام العهد البائد ، ثم عادت الى الظهور تلك الالقاب والشارات التي كانت لضباط الجيش . لقد كان هذا كله بداية المبدأ الجديد : « روسيا فوق الجميع » ، وبداية تلك الوطنية الضيقة الصاخبة التي أدت بعد سنوات قليلة الى نبذ نشيد « الانترناسيونال »(١) في سبيل نشيد جديد خاص بروسيا ، والى استغلال الكنيسة كأداة تابعة للحكومة السوڤيتية من الداخل والخارج ، والى ظهور القواد والمارشالات المحملين كالمارشال غورنج بالمداليات والنياشين ، ثم الى ظهور الروح الاستعمارية السوڤيتية (وهي وليدة الروح الوطنية) والدعاية الرسمية لتجميع العناصر السلافية، وهو مبدأ يحمل من الشر مثل ما كان في مبدأ تجميع العناصر الجرمانية ؛ وكان من المحتم أن تستثير هذه التغيرات الارتكاسية العميقة كثيرا من الصراع بين مختلف الاجناس داخل الاتحاد السوڤيتي .

لقد كان النظام البلشفي يمثل الثورة على الميراث القيصري المادي والثقافي والنفسي البشع ، غير أن النظام القيصري أثبت صلابته في المقاومة ، ولم يرض العالم الخارجي أن يعين النظام الجديد على قهر القديم .

(١) أي العالمي ، وكان النشيد الرسمي للشيوعية .

ان كون البلشفية تريد الآن أن تشرب من آبار القيصرية المتعفنة قد فجعني وأثار اشمئزازي ، فإن أقوى رابطة كانت تربطني بالنظام السوفيتي هي عالميته ونظرته التقدمية •

وفجأة سرت همسات في عام ١٩٣٥ عن دستور ديموقراطي جديد ، ولم يأت عام ١٩٣٦ حتى أصبح هذا الدستور أمرا رسميا قانونيا يدعى « دستور ستالين » • لقد تشبثت بهذا الدستور كما يتشبث الغريق بالخشبة ، فقد كنت في حاجة إلى الايمان ، ولم أكن أريد أن أتخلى عن قضية وضعت فيها كل ثقتي وكل آمالي • قلت لنفسي : لعل ستالين أدرك أن الناس متعطشون الى الحرية ، فقد عرفوها من قبل ، كما قال لينين ، في فترة حكم « كيرنسكي » القصيرة ، بل انهم في الحقيقة عرفوا من الحرية في عهد نيكولانس الثاني أكثر مما عرفوه تحت حكم البلاشفة ، أما الآن وقد وصفت نهائيا كل الطبقات المعادية في الاتحاد السوفيتي ، فإن ستالين يستطيع دون تعريض نظام الحكم للخطر أن يمنح الناس وثيقة الحرية من جديد ، فيطلق بذلك طاقات حبيسة ، ويستعيد بعض الحماس القديم ، فييسر بذلك على الحكومة جهدها سواء في الادارة أو في الانتاج • كنت أريد أن أصدق بأن الدكتاتورية التي تنجت عن دوافع نبيلة يمكن أن تعتزل أو تتخلى عن سلطانها •

لقد تبينت ما في الدستور الجديد من نقص وقصور ، فقد كان يتضمن لائحة للحقوق تبعث الامل والسرور ، ولكنه لا يعين جهازا تنفيذيا يقوم على تحقيقها ، ولا سلطة قضائية تحميها ، وتحدثت في هذا مع « كارل رادك » مساء اليوم الذي نشر فيه هذا الدستور •

كان « رادك » كاتبا سوفيتيا ، وصديقا شخصيا للينين ، وعضوا في الدائرة الداخلية للحزب ، وزميلا في العمل لستالين ، ومحدثا بارعا يعرف جواب كل سؤال ، بل لقد كان يلقي بالسؤال ثم يجيب عليه

قبل أن يتمكن أحد من تهيئة جوابه • قلت لرادك في ذلك المساء : « إذن فأمر هذا الدستور يتعلق بالشرطة السرية »

ولقد لبث رادك مدة دقيقتين كاملتين ساكتا معقود اللسان وهو يذرع غرفته ذهابا وجيئة ، وأخيرا صرح بقوله : « كلامك صحيح »

كان ستالين يلقى المتاعب من الشرطة السرية ، فقد كانت وهي تحت رئاسة « ياغودا » ، الذي أعدم فيما بعد لسعة أطماعه ، تحاول أن تجعل من نفسها رأسا للدكتاتورية بجانب كونها اليد الباطشة • كانت هذه الشرطة السرية تسعى لأن تجعل من نفسها دولة داخل الدولة ، وكان ستالين مشتغلا بتطهيرها ، فجعلت أتساءل هل يقوم ستالين أيضا بكبح جماحها وقمعها وتجريدها من سلطاتها ؟ فيستحيل الدستور بذلك الى حقيقة باعثة على الأمل ، وإلا فإن هذا الدستور الذي يحمل اسمه سوف يبقى كسهم ثالم كليل في جعبة الداعية السوفيتي المحترف ، وحيلة لتضليل أهل السذاجة من الناس في الداخل والخارج •

وبينما كنت أنا منهمكا في جمع الدلائل والاشارات التي تغذي آمالي ، اذا بهذه الآمال تنسف جملة واحدة ، فإن الشرطة السرية لم يكبح جماحها ، ولم تقمع ، ولم تجرد من سلطاتها ، وإنما كل الذي حدث أنها عدلت وأعيد تشكيلها ثم منحت زيادة في الحقوق على حساب لائحة الحقوق •

في ذلك الوقت كانت محاكمات موسكو الصاخبة لسنوات ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ يتم اعدادها فعلا ، وما كان المعتاد أن يرى الجمهور مما يجري سوى شطرا ضئيلا من هذه الآلاف المؤلفة كان موتها في سراديب الشرطة السرية برصاصة في العنق دون محاكمة يسخر من الدعاية الرسمية والتمجيد لدستور ستالين الجديد •

لقد كان الطاعون الاسود يلقي ظلاله البغيضة قبل وصوله ، ولهذا

أحسست في منتصف عام ١٩٣٦ وقبل الاعلان عن المحاكمات أن الليل يوشك أن يقبل ، وشعرت أن لم تعد لدي رغبة في البقاء في الاتحاد السوفيتي .

ومع ذلك فقد ظل في امكاني أن أتحمس للمصانع الجديدة المحتمل انجازها للوسائل الزراعية الحديثة ، فقد كنت أحب الشعب السوفيتي وآمل أن أرى لديه قدرا أكبر من الاحذية والبيوت والضوء الكهربائي ، ولقد كان لديهم الآن فعلا المدارس الكثيرة والعناية الطبية ووسائل اللهو والفراغ ، إلا أنني عندما جئت الى روسيا أول الامر كانت المكاسب المادية والعملية تافهة لا يؤبه لها ولكن الروح كانت قوية جارفة ؛ كانت روح تجرد مثالي وانكار جريء ، كانت الشيوعية تعني الثورة والتغير ، أما الآن ، وبعد مرور تسعة عشر عاما على مولد النظام البلشفي المتفجر ، فإن الخوف الدائم من الارهاب والطغيان قد قتل الثورة وقطع لسان الإنكار وقضى على الجرأة والشجاعة ، ولم يبق مكان المثالية الأولى سوى الانحلال النفسي وحب السلامة ، كما لم يبق مكان التجرد سوى السعي وراء المصلحة الشخصية والمتعة الفردية ، ولا مكان لروح المتوثب سوى « الامتثالية » الميتة والشكلية المستبدة والتكرار الممل لعبارات و « كليشات » محفوظة .

كانت هذه الافكار تراودني وتطاردني وهي غير مكتملة ولا واضحة ، وكان أصدقائي من الموظفين الرسميين يلقون ببعض التلميحات بين الحين والآخر ، إلا أن حديثهم أصبح خاليا من الروح ، وفقد العمل الصحفي في موسكو كل لذته ومتعته الداخلية ، فلم البقاء اذن في مثل هذا البلد ؟

في هذا الوقت بالذات — تموز (يوليو) ١٩٣٦ — شبت الحرب الأهلية في أسبانيا ، وقام الجنرال « فرانسيسكو فرانكو » يعاونه

بعض العسكريين الرجعيين وجماعة « فالايخ » الفاشيست وجماعة الملكيين والطبقة الارستقراطية الفنية وكبار الاقطاعيين بتمرد وثورة ضد الحكومة الحرة المستنيرة المنتخبة من الشعب .

كان الشعب الأسباني قد استولى على حبي واعجابي خلال زياراتي لأسبانيا في عام ١٩٣٤ وربيع عام ١٩٣٦ . انه شعب مهذب ومثقف حتى حين يكون أميا لا يقرأ وجائعا لا يجد القوت ، ولهذا الشعب مزاج خاص وولع بالتصرفات والاوضاع التمثيلية التي تكون في العادة ثقيلة كريهة لولا مايصحبها عندهم من جلال ووقار . ان القالب عندهم له أهميته ، ولقد كانت امرأة اسبانية تلك التي قالت : « إنه أحب الينا أن نموت على قدمينا من أن نعيش على ركبتينا » ولقد عاشوا على ركبتيهم عدة قرون ، تستذلهم وتستنزف أموالهم طبقة عليا صغيرة رجعية حجبت عنهم الثورة الفرنسية من قبل وقد تكفلت في عام ١٩٣٦ بأن تحجب عنهم القرن العشرين أيضا ، وكان هذا هو الهدف من ثورة فرانكو التي لم تلبث لهذا السبب أن تلقت الامدادات العسكرية والعون الاداري من هتلر وموسوليني .

أصبحت أسبانيا الآن إذن الجبهة الامامية في مواجهة الفاشية ، وقد غادرت أنا روسيا بكل سرور حتى أكون قريبا من ميدان المعركة ، فلئن كان الموت يترقب روسيا في القبو فإنه قد واجه اسبانيا في صراع مكشوف في وضح النهار ، وكانت اسبانيا محزونة ولكنها نبيلة .

ان قيام الحرب الأهلية الاسبانية قد أخر عندي مجيء الـ « كرونستادت » ، فإن تلك الحرب جذبت كل انتباهي وامتصت كل مجهودي ، إلا أن الاتحاد السوفيتي مع ذلك بقي في هامش الشعور ، وبذلك أصبح من الممكن أن أنظر إليه من بعيد نظرة موضوعية خالصة

لعل نضال الحكومة الجمهورية ضد الفاشية في اسبانيا كان قمة المثالية السياسية في النصف الاول من القرن العشرين . لقد كان عطف

العالم الخارجي على الاتحاد السوفيتي عطفا سياسيا وفكريا حتى في أحسن حالاته ، فإن البلشفية كانت تستثير العواطف الحادة في مؤيديها من الاجانب ، ولكنها لم تكن تستدر الا القليل من الحنان والمودة التي كانت من حظ اسبانيا الجمهورية ، فقد كان المؤيدون للجمهورية يحبون الشعب الاسباني ويشاركونه ويألمون له في محنة الرصاص والقنابل والجوع . كان النظام السوفيتي يستحوذ على التأييد الفكري بينما كان الصراع الاسباني يستثير نوعا من الاتحاد العاطفي ، وكانت اسبانيا الجمهورية هي الضعيفة دائما وهي الخاسرة ، فكان اصدقاؤها يحسون بقلق دائم وتوتر شديد . ان من لم يعش مع اسبانيا خلال الشهور الثلاثين الأليمة من تموز (يوليو) ١٩٣٦ الى آذار (مارس) ١٩٣٩ لا يمكنه أن يدرك تماما فرحة النصر وغصة الهزيمة اللذين كانا يتواردان على نفوس ملايين المؤيدين البعيدين تبعا لتقلبات الحرب الأهلية .

بعد أن راقبت الموقف عدة أشهر انتهيت الى أن مجرد الكتابة عن نضال له كل هذا الأثر الحاسم على مستقبل الحرية والسلام العالمي لا تكفي ، ولهذا انضممت الى الفرقة الاجنبية ، وكنت أول أميركي فعل هذا ، وعينني « أندريه مارتي » الزعيم الشيوعي الافرنسي ورئيس الفرقة أمينا للتغذية . إلا أن « مارتي » كان يحب السلطة ويسيء استعمالها على طريقة الشرطة السرية الروسية ، فينتهك حرمات الناس عن طريق الاعتقال الليلي ، ولم يلبث أن بدأ يضيق بوجود شخص مثلي مستقل غير مرتبط بالحزب الشيوعي فحولت مجهوداتي الى مجالات أخرى ولم تنته إلا بسقوط الجمهورية .

كنا جميعا على ثقة بأن الصراع الأسباني هو فاتحة معارك الحرب العالمية المقبلة ، وكانت ايطاليا وألمانيا تنظران اليها من هذه الزاوية

فاستغلتاها لتجربة أسلحتهما وتدريب رجالهما ، واستغلتاها قبل كل شيء لتأمين حليف في هذا الموقع « الاستراتيجي » ، أما بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة فقد كانوا من قصر النظر ، أو قل : كان لديهم دافع مرضي لمعاقبة النفس ، بحيث فعلوا كل ما في طاقتهم لتحطيم الجمهورية الديموقراطية التي كان يمكن أن تصبح حليفا مخلصا له قيمته في الحرب ضد الفاشية .

كانت المكسيك ، يضاف اليها من بين الدول العظمى الاتحاد السوفيتي وحده ، هي التي تعطي الاسلحة والخبراء للحكومة الجمهورية الشرعية ، فأما مساعدة موسكو فما كان يمكن أن تكفي وحدها لتأمين النصر ، وإنما الذي كان يمكن أن يؤمن النصر هو تخلي تشامبرلين رئيس وزراء بريطانيا ورالادييه رئيس وزراء فرنسا نهائيا عن سياسة الترضية والمداراة التي اتبعاها مع فرانكو ومع النازية ومع الفاشية ، فلعل هذا العمل كان كافيا لمنع الحرب العالمية الثانية أو لتأمين قلعة عظيمة القيمة للديموقراطية في اسبانيا تدار منها الحرب ، ولكن لما كان هذان الرجلان قد فشلا في انقاذ تشيكوسلوفاكيا ، بل وساعدا على بترها في ميونيخ في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٨ ، فقد أصبح واضحا للجميع أنهما لن ينقذا الحكومة الشرعية في أسبانيا ، وبذلك تقرر مصير أسبانيا من ذلك الحين ، وتوقفت المساعدات السوفيتية .

كنت ألتقي في الجبهة وفي المطارات والمستشفيات والأركان والبيوت بكثير من الروس الذين أرسلوا ليقوموا بواجبهم في مساعدة الجمهورية الاسبانية ، ولم نكن نرى في الحرب الاسبانية كلها من هم أكثر جدا في عملهم أو بسالة في قتالهم أو إخلاصا في تأييدهم وموالاتهم من هؤلاء الذين بدوا كأنما يصبون في هذا الصراع الاسباني كل العواطف الثورية المحبوسة التي لم يعد في روسيا مجال لتصريفها ، وكم من

أفراد في روسيا ذاتها كانوا يشعرون بالشعور نفسه ويأملون أن يجدوا في هذه الثورة الاسبانية ما ينفع الروح والحماسة في الجسد البلشفي من جديد ، إلا أنني في زياراتي لموسكو لرؤية زوجتي وولدي وجدت الجو الجنائزي هناك أشد سوادا من ذي قبل ، فقد كان ستالين يعاونه رئيس الشرطة السرية الجديد « يزوف » يديران مذبحة عامة لكبار القادة والشيوعيين والموظفين الحكوميين والمهندسين والعسكريين والفنانين والمفكرين والشيوعيين الاجانب ورجال نقابات العمال وموظفي المزارع الجماعية . لقد كان النظام البلشفي يتخلص من عقله ، وكان الناس يتحدثون في همس ، فلم يكن أحد منهم يأمن من وشاية الحاقدين التي تنتهي بالسجن أو بما هو أسوأ ؛ كان كل فرد يخشى أن يكون صاحبه جاسوسا ، ولم يعد المتملقون أنفسهم يأمنون على حياتهم .

ولكن لو أعلنت « الكرونستادت » في ذلك الوقت لفقدت اتصالي بأولئك الروس المدهشين في اسبانيا ولفقدت كل فرصة للعمل مع حكومة الجمهورية ، فان الشيوعيين الاسبان كانوا في ذلك الحين قد اكتسبوا في المعسكر الجمهوري قوة هائلة وما كانوا ليرحبوا بوجود من ينحي باللائمة على روسيا السوفيتية ، لهذا اكتفيت بالحديث الى رئيس الوزراء الجمهوري « نغرين » وقليل من أعوانه المقربين عن الرعب الحقيقي الذي تعيش فيه روسيا ، وحذرتهم من دكتاتورية في اسبانيا تشبه أختها هناك .

بينما كنت أستنكر سياسة روسيا الداخلية ، كانت سياستها الخارجية تحظى بموافقتي ، فإن عون روسيا للحكومة الشرعية كان على طرفي نقيض مع تصرف الدول الديموقراطية الغبي الفاضح المؤيد لفرانكو والذي كانوا يسمونه « عدم التدخل » ، وقد كنت أدرك أن الفظائع التي تحدث داخل روسيا والانحراف عن البلشفية الى الوطنية

سيفسد في النهاية علاقات روسيا مع العالم الخارجي ، إلا أن دور حكومة موسكو في اسبانيا خفف من عدائي العاطفي ان لم يكن الفكري لروسيا الى حين فتوقفت عن المهاجمة

كانت كفتا الميزان اللتان أضع فيهما حسنات روسيا وسيئاتها متعادلتان الآن بشكل مقلقل غير مستقر ، بحيث كانت ريشة واحدة تكفي لرجحان كفة السيئات ، فلم يلبث أن وقع فيها طن كامل .

كان كبار الموظفين في الحكومة الجمهورية في اسبانيا ، حتى قبل انتصار فرانكو على الشعب الاسباني في آذار (مارس) ١٩٣٩ ، يجمعون الدلائل على الاجراءات الشديدة التي كانت تتخذ ضد الروس الذين عملوا في اسبانيا ، فقد كان يحدث من وقت الى آخر أن يستدعي الاتحاد السوفيتي واحدا أو أكثر من هؤلاء المعاونين المضحين بأرواحهم والمفكرين لذواتهم في سبيل الجمهورية ثم تختفي آثارهم بعد وصولهم ، وأخيرا أصبح رؤساء الحكومة الجمهورية مقتنعين بناء على ما لديهم من دلائل مادية ، بأن جميع كبار الموظفين السوفيت الذين قاموا بأعمال طيبة في اسبانيا من مدنيين وعسكريين قد أعدموا أو نفوا لدى وصولهم الى بلادهم .

أعدم الجنرال « غوريف » الذي كان يقود عملية الدفاع عن مدريد ، وقبض على الجنرال « غريشين » أول رئيس لاركان الحرب السوفيتية في اسبانيا ، ونفي « ستاشفسكي » الممثل التجاري السوفيتي في اسبانيا في عامي ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، وهو ثوري قديم من بولندا وكان مستشارا هاما لـ « نغرين » في الشئون الاقتصادية ، وأعدم كل من « مارسيل روزنبرغ » أول سفير سوفيتي لاسبانيا الجمهورية ، ومستشاره « غيكس » و « أنطونوف آفسنكو » المندوب السوفيتي في قطالونيا والذي اقتحم القصر الشتوي للقيصر وكسبه للثورة في

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، واعدم كذلك رمياً بالرصاص كل من الجنرال « أورتسكي » المسؤول عن شحن الأسلحة السوڤيتية الى الجمهورية و « ميشيل كولتزوف » مراسل جريدة « پراڤدا » الذي كان ينقل أحداث اسبانيا الى ستالين مباشرة و « فوروشيلوف » .
ان هذا الذي ذكرت لا يشكل إلا جزءا من قائمة أولئك الذين لم يسمع بهم أحد منذ تركوا اسبانيا ، ولعل كل ما في الامر أنهم وقعوا في شباك التطهير الكبير الذي قام به « ستالين » و « يزوف » ، ولعلهم كانوا يعرفون عن الاوضاع من الخارج أكثر مما ينبغي .

لقد لامني البعض لأنني لم أعلن عن عداوتي للاتحاد السوڤيتي (أي « الكرونستادت ») في ذلك الحين أو فيما قبل ، ولعل لومهم في موضعه ، فقد كنت أعرف تماما ما حدث وما أدى الى حدوثه ، كما كنت شبه واثق من أن أي تحسن في السياسة السوڤيتية أمر غير محتمل ، ولكن لما كان حدوثه (ممكنا) فقد آثرت أن أنتظر وأن أصمت .

ثم جاء الميثاق السوڤيتي النازي في ٢٣ آب (اغسطس) عام ١٩٣٩ ، ذلك الميثاق الذي أسلم روسيا الى تلك الخطة التي لا زالت تسير عليها الى اليوم . لقد كان هذا الميثاق هو الـ « كروتستادت » بالنسبة الي ، إذ أنه لم يكن اتفاقا لكسب الوقت بل لكسب الارض ، فقد تحدث في «مضابطه» السرية ، التي أصبحت الآن علنية ، عن توزيع مناطق النفوذ بالنسبة لما قد ينال من الارض نتيجة عدوان سوڤيتي — نازي ، وقد بدأت من ذلك الحين خطة روسيا العدوانية التي منحتها امبراطوريتها المتهالكة الحالية والتي جعلت منها أسوأ مشاكل الدنيا .

كان الشيوعيون ومؤيدوهم قد شهروا بكل من تحدث عن احتمال وقوع اتفاق بين السوڤيت وبين النازي ، واعتبروا ذلك أمرا لا يتصوره العقل ، وفي مساء اليوم الذي وقع فيه الاتفاق رفضوا بكل حرارة أن

يصدقوا الخبر ، فلما أصبح الخبر رسميا معترفا به انثنوا يدافعون عنه . لقد كانوا يدافعون عنه لانهم تعودوا أن يدافعوا بشكل آلي عن كل عمل تأتيه موسكو ، وان كان العمل في ذاته من السوء بحيث لا يمكن أن يدافع عنه أحد .

لقد كان هذا الميثاق السوڤيتي النازي مقبرة البلشفية العالمية وحجر الزاوية في البلشفية الاستعمارية ولم يكن هذا الامر غريبا فإن روسيا البلشفية كانت قد أصبحت مقبرة للبلاشفة . لقد كان التوسع القيصري يسير في كل الاتجاهات ويهتم بكسب الارض أكثر من اهتمامه بتحسين أحوال الشعب وها هو ستالين أيضا يقلد في هذا المضمار آل رومانوف المتوجين .

لقد بنى ستالين نظاما عرفيا استعماريا وعسكريا تقوم الحكومة فيه مقام الرأسماليين القدامى ، وذلك على أكتاف الطبقة العاملة « المؤممة » وطبقة المزارعين « المؤممة » ، وبمساعدة أعوانه الذين يمسكهم الخوف والمذلة ، والجيل الجديد الذي لا يعرف غير التصفيق والهتاف ، بحيث يصبح هو وخليفته من بعده شيخ تجار العبيد في قوم كلهم عبيد .

لماذا ينبغي لإنسان يهمه صالح الناس وسلام البشرية وتقدمها ، بل قل : كيف يستطيع مثل هذا الانسان أن يؤيد مثل هذا النظام ؟ ألأن العالم الديموقراطي فاسد متعفن ؟ اننا نستطيع أن نحارب الفساد والتعفن ، فماذا يستطيع المواطن السوڤيتي أن يصنع تجاه نظام ستالين ؟

ولكن لما كان عدد كبير من الناس لم يستسيغوا استمراري في تأييد النظام البلشفي هذه الفترة الطويلة بعد أن رأوا هم كل هذا الظلام في روسيا ، فإني على ستعداد لأن أتسامح مع أولئك الذين لا يزالون في مرحلة ما قبل « كرونستادت » . لقد كان الميثاق هو الـ

« كرونستادت » بالنسبة إلي ، غير أن آخرين لم « يغادروا القطار » ليتوقفوا عند « كرونستادت » الى أن غزت روسيا فنلندة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٩ ، فكانت فنلندة نقطة الذوبان في عقائدهم ، غير أن سياسيا راديكاليا (متطرفا) انكليزيا شهيرا لم ينشق عند هذا الميثاق ولا عند غزو فنلندة ، وإنما بقي الى وقوع الهجوم النازي على النرويج في نيسان (ابريل) ١٩٤٠ وحينئذ ترك الخطة الشيوعية في تعطيل المجهود الحزبي ضد هتلر وانضم الى جيش الدفاع عن انكلترا ، لقد كان يحسب أن بلدا اشتراكيا كالاتحاد السوفيتي لا يمكن أن يقترف إثما ، غير أن الدول التي تسمي نفسها اشتراكية عرضة للذنب كالدول التي تسمي نفسها مسيحية •

إن أوان الـ « كرونستادت » عند المرء يحدده عدد من العوامل الموضوعية والمزاجية ، فبعض الناس يقض مضجعهم ما يقترفه العالم الرأسمالي من جرائم وآثام فيظلون عميا لا يرون جرائم البلشفية وإفلاسها ، وكثير منهم يستغلون نقائص العالم الغربي ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو البشعة ، أما أنا فأقول : « لعن الله كليهما » ، ان الروح الحر الذي لا تأسره القيود الاقتصادية أو التحيز الفكري يمكنه أن يدير ظهره لشرور كل من العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي ، ثم يحاول ، عن طريق تحصين عالمه الخاص ، أن يخلق حالة من السلام والرفاهية والفضيلة تختنق في جوها الدكتاتورية على جانبي الستار الحديدي وتفنى •

وهنا ينشأ سؤال دقيق : أين يذهب بعد « كرونستادت » كل هذا الحشد السنوي ممن خابت آمالهم ويئسوا من الشيوعية ؟ ان « كرونستادت » ليست نهاية طريق مغلق ، بل ينبغي أن تكون مجرد « محطة » على الطريق نحو نهاية أفضل من الدكتاتورية •

إنه يوجد بين من تركوا الشيوعية وبين من كانوا مؤيدين مثلي للاتحاد السوفيتي وان لم يكونوا أبدا شيوعيين رسميين ، طائفة يمكن أن نسميها « ذوي الدافع الداخلي للاعجاب بالسلطة » ، وقد يفطم هؤلاء عن الستالينية تغير في وجهة النظر أو خبرة مريرة تمر بهم ، ولكن يبقى لديهم ذلك النقص الذي دفع بهم أول الامر الى المعسكر البلشفي ؛ انهم قد يهجرون الشيوعية فكريا بيد أنهم يحتاجون الى عوض عاطفي يحل محل ما هجروه ؛ انهم بسبب ضعفهم النفسي وحاجتهم الى الشعور بالامن والى عقيدة يجدون فيها السلوى ، وجمهور كبير من المشايعين ، ينجذبون الى قطب جديد من الاستبداد والعصمة والتعصب المذهبي ، ويتعلقون بأمر يبدو لهم متحدا وقويا ، وكثيرا ما يهجر أمثال هؤلاء الشيوعية لأنها ليست مأمونة بالدرجة الكافية ولانها تتقلب وتتعرج فتحرمهم بذلك من الاستقرار الذي يلتمسون ، فإذا وجدوا دكتاتورية جديدة انقلبوا يحاربون الشيوعية بعنف كعنفها وتعصب كتعصبها • إنهم « شيوعيون » أعداء للشيوعية •

إن « دوريوت » الزعيم الشيوعي الافرنسي وعضو اللجنة التنفيذية الرئيسية في الدولية الثالثة (الكومنترن) أصبح فاشيا واثنى يجاهد الشيوعية بعنف وقسوة ، « ولاقال » الشيوعي سابقا ورئيس وزراء فرنسا السابق أصبح فيما بعد رجعيا وعونا للنازية ، وكذلك كان الحال بالنسبة الى عدة آلاف من الفاشيست الايطاليين والرومانيين والمجريين والبولنديين والنازيين الألمان فقد انضموا فيما بعد الى الاحزاب الشيوعية العنصرية الدكتاتورية في بلادهم ، فإن طيور الدكتاتورية والعنصرية على أشكالها تقع •

إن « صاحب الدافع الداخلي للاعجاب بالسلطة » لا يهجر ستالين ليسير وراء نقيضه غاندي ، وإنما يسير وراء القائد حين لا يعود للقائد

العام السلطان الكامل على عواطفه وولائه ، وحينما يـذبح جنود العاصفة النازيون الملايين من قومه فانه لا يستنكر الارهاب ، وإنما يرفع بنفسه علم الارهاب ؛ إن رد الفعل الوحيد للحكم الدكتاتوري في نفسه هو الرغبة في أن يكون الدكتاتور لا أن يكون ضحية الدكتاتور •

إن الـ « كرونستادت » لا تكون عملية بناءة وذات قيمة اجتماعية إلا حين تعني الرفض التام لكل أساليب الدكتاتورية والتحول الكامل الى المبادىء الديموقراطية •

ليس في الدكتاتوريات ديموقراطية ، وليس في أي منها بذور الحرية ، وهذا أمر لم أكن أدركه أيام كنت مع الاتحاد السوفيتي ، إن كنت أومن وقتها بأن تعطيل الحريات لمدة موقوتة قد يمكن النظام السوفيتي من إنجاز خطوات اقتصادية واسعة يمكن بعدها استرجاع الحرية ، إلا أن هذا لم يحدث ، فإن الدكتاتورية السوفيتية كانت عارية عن البضائع والمواد الغذائية لأنها كانت عارية عن الحرية • إنه لا يمكن أن يوجد أمان مادي أو ديموقراطية اقتصادية دون ديموقراطية سياسية والملايين الموجودة في معسكرات التجميع السوفيتية وفي السجون بعد مرور ثلاثين عاما على الثورة تسخر من كل زعم بوجود ديموقراطية سياسية أو اقتصادية •

وليس هناك أيضا أدنى دليل بأن هذه الدولة « البوليسية » في طريقها الى الزوال ، بل إن العكس هو الصحيح ، فإن كل تطهير يقع يبعد مجموعات جديدة ويستلزم تطهيرا جديدا ، وبهذا يصبح التطهير سلاحا دائما في يد الدكتاتور وضد الشعب •

لا حرية في الدكتاتورية لأنه لا توجد هناك حقوق ثابتة ، فإن قوة الدكتاتور من الضخامة وقوة الفرد من الضآلة بحيث يستطيع الدكتاتور

أن يسترد أي حق يمنحه للناس • ان حق العمل مثلا قد يعني اليوم حق العمل في المصنع بأجر ثم يعني غدا الضرورة الملحة للعمل في مراكز التجميع من أجل جرايات لا تكاد تمسك الرمق ، ولا يستطيع المواطن أن يطالب بتعويض أو رد للحقوق ، لأن الدكتاتور هو المشرع وهو المنفذ وهو القاضي • ان الشعوب السوفيتية الدؤوبة الموهوبة تستحق أفضل من هذا وتعرف أفضل من هذا ولكنها لا تملك من أمرها شيئا ، وفي كل يوم يزداد الارهاب قسوة •

ان تأييدي السابق للنظام السوفيتي قادني الى خطأ آخر حين ظننت أن نظاما يقوم على قاعدة « الغاية تبرر الواسطة » يمكن في يوم من الايام أن يخلق عالما أفضل أو انسانا أفضل •

ان الواسطة الفاجرة لا تؤدي الا الى غاية فاجرة وأفراد فجرة سواء في النظام البلشفي أو الرأسمالي •

ان الغايات المختلفة كالمال والنجاح ورفعة الشأن هي في ذاتها وسائل لغاية تبقى على الدوام متراجعة متقهقرة ، فحياة الافراد إذن غالبيتها العظمى وسائل ، وكل أسلوب في الحياة ينقص مما فيها من طهارة ومسرة في سبيل مستقبل موعود يحيل الحياة الى ممر بارد قذر بائس •

ان الدكتاتورية ترتكز على نهر من الدماء وبحر من الدموع وعالم من الآلام ، وكلها نتائج لوسائلها القاسية ، فكيف تستطيع اذن أن تجلب الفرح أو الحرية أو السلام الداخلي أو الخارجي ؟ كيف يمكن للخوف والسطوة والاكاذيب والبؤس أن تخلق انسانا أفضل ؟

ان السنوات التي قضيتها مؤيدا للنظام السوفيتي علمتني أنه لا ينبغي لرجل يحب البشرية ويحب السلام أن يؤيد الدكتاتورية • ان كون أحد النظم الاجتماعية ينادي بالحرية ثم يحد منها لا يشكل

سببا معقولا لأن يعتنق الانسان نظاما يقضي على هذه الحرية القضاء المبرم ، بل هو سبب معقول لالغاء كل القيود العديدة على الحـرية الشخصية والسياسية والاقتصادية في جميع البلاد الديموقراطية ، ثم انعاش الديموقراطية بالفضيلة التي يدعو اليها غاندي ، والتي تتلخص في احترام الوسائل والانسان والحقيقة قبل كل شيء آخر •

انني حين أرجع بفكري الى الوراء أتبين أنني لجأت الى روسيا السوڤيتية حين حسبتها وجـدت الحل لمشـكلة السلطان • ان العلم يضع في الانسان سلطانا يتزايد على مر الايام ، وهو لا يدري ما يصنع بهذا السلطان ، حتى أصبحت مشكلة القرن العشرين الكبرى هي كيفية توجيه سلطان الفرد والجماعة والامة ؛ وما أحسب اتباعي لروسـيا السوڤيتية كان الا تعبيرا عن الثورة على السلطان الذي تمنحه الاموال المتراكمة لصاحبها على غيره من بني الانسان • لقد قرأت في صباي كتاب «التقدم والفقر» لهنري جورج وتشربت روح عصر تيودور روزفلت المتفائلة ، والنزعة الى الحرية التي كانت جزءاً من ميراث كل أميركي فقير ، ثم برزت روسيا السوڤيتية الى الوجود وقد تعهدت بأن تقضي القضاء المبرم على سلطان الاقطاعيين والشركات الاحتكارية وكبار رجال الاعمال الاستغلاليين بل ورأس المال الخاص على وجه العموم •

وما بدلت رأيي في خطورة السلطان المفرط ، غير أنني أدركت الآن أن البلشفية ليست هي المخرج ، فقد أصبح فيها أكبر قدر من السلطان تجمع على رأس بني الانسان • إن المظالم التي تقع على رأس سكان « مدينة الشركة » التعساء بمناطق الفحم في وطني بنسلڤانيا ، حيث تملك الشركة بيوت العمال وتدير جميع مخازن المؤنة ، تهيج غضبي وثورتي ، غير أن الاتحاد السوڤيتي كله ليس الا « مدينة شركة » هائلة تسير الحكومة فيها كل الوظائف وتملك جميع المساكن وتدير كافة

المخازن والمدارس والصحف •• الى آخر ما هنالك ، وليس أمام أحد مهرب كالذي قد يجده المرء في « مدينة الشركة » بنسلڤانيا • ان بعض الناس يطلقون على روسيا في عهد ستالين اسم « الدولة البوليسية » ، وليس هذا سوى « بعض الشر » ، فإن الكرملين لا يستعبد رعاياه بسلطان الشرطة والسجن فقط ، بل بسلطان أعظم هو ذلك الذي يستتبع امتلاك وادارة كل مشروع اقتصادي في الدولة • إن شركات الاحتكار الرأسمالية والاتحادات الصناعية هي أقزام إذا قورنت بتلك الشركـة الاحتكارية السياسية ــ الاقتصادية الوحيدة الهائلة ، ألا وهي الاتحاد السوڤيتي ، ولا مجال للفرار من بطشها ، فليست هناك قوة في الاتحاد السوڤيتي إلا وهي خاضعة للحكومة الدكتاتورية •

إذن فقد علمتني روسيا أن مجرد نقل الملكية من يد الافراد الى يد الحكومة لا يفضي وحده الى الحرية أو الى تحسين وسائل المعيشة ، فلسنا نربح شيئا إذا نقلنا الملكية كلها الى يد الحكومة ، ثم قضينا في هذا السبيل على الطبقة المتوسطة ، وهي عامل حاسم في المدنية الصناعية الحديثة ، بل نحن نخسر الكثير حقا •

إن الذي يحتاجه العـالم اليوم هو توازن القوى الاقتصـادية والسياسية ، حتى لا يطغى حزب أو طبقة أو حكومة أو مجموعة من المصالح الخاصة على غيرها دون اعتراض أو مراجعة من أحد • إن روسيا ينقصها مثل هذا التوازن ، وهذه هي خلاصة الدكتاتورية • مما يفسر لنا تلك الاعمال التعسفية التي تقترفها الحكومة السوڤيتية في الخارج وفي الداخل تجاه العمال والفلاحين والموظفين والشيوعيين والموسيقيين والفنانين ، الى آخر ما هنالك • إن روسيا لا تستطيع أن تحل مشكلة السلطة لأن أقبح مظاهر السلطة تقع في روسيا •

بعد « كرونستادت » ينبغي على أصدقاء الدكتاتورية سابقا أن

يعملوا من أجل ديموقراطية تتوزع فيها السلطة بحيث لا يمكن أن تحتكرها حكومة تؤيدها الأغلبية ولا جماعة خاصة من الناس بطبيعة الحال • إن القائد الحكيم هو الذي يقيد تجمع السلطة كما يقيد استعمالها •

وبعد « كرونستادت » ينبغي على من كانوا شيوعيين أو من كانوا يلتمسون المعاذير لروسيا السوڤيتية أن يكافحوا في سبيل منح الحرية الكاملة للمعارضين والمنشقين وأصحاب الأديان والأجناس والمظاهر والأسماء المتعارضة المختلفة • إن أعلى سمات الثقافة هي قدرة المرء على أن يعيش في سلام مع أشخاص يختلفون عنه ، أما ما سوى ذلك فبلادة ودكتاتورية • وينبغي أيضا على من كانوا شيوعيين ومن كانوا يلتمسون المعاذير لروسيا أن يكونوا متسامحين مع الشيوعيين والمحبين لروسيا ، فإن هؤلاء أيضا سوف يستيقظون من نومهم ومن أحلامهم • إن كل شيوعي قابل لأن يكون غدا عدوا للشيوعية ولذلك ينبغي أن يخطب وده •

وبعد « كرونستادت » ينبغي على من كانوا يعضدون روسيا السوڤيتية أن يعضدوا نظاما عالميا لا يؤمن بالوطنية ، والحقيقة أن الوطنية لا تتعارض نظريا مع العالمية ، ولعلهما أن تصبحا في يوم من الايام غير متعارضتين عمليا • غير أن أسطورة الدولة المنعزلة التي تقوم حصنا للسلام أو للرأسمالية أو للاشتراكية أو للفضيلة لا تمنع في الحقيقة نمو الفكرة العالمية ؛ أما حين يدعو اللسان الى الحكومة العالمية بينما يهتز القلب فرحا لكل مغنم عسكري أو كسب مادي يحصل عليه وطنه فأولى باللسان هو الآخر أن يصمت • ان الشخص العنصري أو الانعزالي أو المبغض للاجنبي لأنه عدو أو عدو سابق أو عدو محتمل لا يمكن أن يكون عالميا أو نصيرا للحكومة العالمية إلا باللسان • إنه

لايمكن لأمة أن تستمتع استمتاعا كاملا بفوزها ونجاحها إلا اذا شاركها غيرها ، وليس هناك سلام حقيقي أو سعادة ما دام جارك الأدنى أو الأقصى يتألم ويقاسي •

وبعد « كرونستادت » ينبغي قبل كل شيء على من تبرأ من شرور الدكتاتورية كما تبرأ من الشرور التي في الديموقراطية أن يهتم بالكائن البشري • إن كل الأهداف ـ كالاستقلال الوطني ، والعالمية ، والتقدم الاقتصادي والعلمي ، والسلام القومي ، وصيانة الرأسمالية ، واقامة الاشتراكية ، الى آخر ما هنالك ـ ليست لها قيمة مجردة ، وانما قيمتها في نفعها للرجال والنساء والاطفال الذين لا يتم شيء على ظهر هذه الارض إلا بهم ، وقد ينسى الانسان هؤلاء في حماسة لمذهب أو عقيدة ، أو يفترض أنه يمكنهم أن ينتظروا ، أو يتصوروا أنهم لا يكترثون • إن الانسان في استغراقه في مثله الاعلى قد يتصور أن من الممكن التضحية بجيل من الاجيال في سبيل الذي يليه ، غير أن التضحية بالناس قد تصبح عادة يعاني منها الجيل الثاني والثالث • لقد كنت أحسب وأنا في مرحلة اعجابي بالنظام السوڤيتي أنني أخدم البشرية ، غير أنني لم أعرف الكائن البشري حق المعرفة الا من ذلك الحين •

ستيفن سبندر

ولد ستيفن سبندر في عام ١٩٠٩ ، وأبوه هو الكاتب الحر المعروف « ادوارد هارولد سبندر » ، وقد تعلم في سويسرا فترة ثم في أكسفورد ، حيث بدأ بالاشتراك مع « داي لويس » و « أودن » بكتابة الشعر .

بعد ذلك اشتغل بالحركة السياسية ونشر كتاب « خطوة وراء مذهب الاحرار » في عام ١٩٣٧ ، ثم انضم بعد ذلك الى الحزب الشيوعي لفترة قصيرة .

وفي عام ١٩٤٦ درس وطأة النازية على رجال الفكر الالمان بطلب من فـرع المخابرات السياسية بوزارة الخارجية .

نشرت قصائده الاولى في عام ١٩٣٣ ثم كتابه عن النقد الادبي « العنصر الهدام » في عام ١٩٣٥ ثم « الشاهد الاوروبي » في عام ١٩٤٦ ، وهو الآن يقوم بتنسيق مجموعات شعره .

كنت عضوا في الحزب الشيوعي البريطاني لبضعة أسابيع خلال شتاء ١٩٣٦ ــ ٣٧ ، ثم لم تلبث عضويتي أن سقطت ولم أكد ألتحق ، وما دعيت للالتحاق بخلية « همر سميث » حيث كنت أعيش ، ولا دفعت نقودا سوى الرسوم الاولى .

كنت قبل التحاقي بوقت قصير قد نشرت كتابي « خطوة بعد مذهب الأحرار » ، وهو الذي اختاره نادي الكتاب اليساري ليكون « كتاب الشهر » ، وقد ذكرت في هذا الكتاب أن هناك خللا في مفهوم الحرية

الفردية لدى « حزب الأحرار » ، فإن « الأحرار » أحيانا يتكلمون ويكتبون كمن يؤمنون بحرية الفرد غير مقيدة في أن يسخر غيره من الافراد ، وتارة يتكلمون كمن يؤمنون بالحرية بين جمع الانداد ؛ ثم قلت : ان « الأحرار » في القرن التاسع عشر وخلال فترة التوسع في التجارة البريطانية ، استطاعوا أن يوفقوا بين رغبات أصحاب الاعمال المنافسة الحرة وبين رغبات العمال في الاصلاح ، دون أن يظهر ما في موقفهم من تناقض ، غير أنهم بعد عام ١٩٣٠ ، وفي عالم ما بعد الحرب المملوء بالبطالة والكساد الاقتصادي والرسوم الجمركية والمشحـون بالحركات الفاشية النامية في أوروبا ، لم يستطيعوا أن يؤيدوا الحرية المطلقة لكل من العمال وأرباب الأعمال ؛ ثم قلت : ان على « الأحرار » أن يبنوا فكـرة الحرية لديهم على العدالة الاجتمـاعية التي تحد من الاستغلال والتسخير ، وأبديت رأيي بأن الاحرار يلزمهم أن يؤيدوا العمال وأن يتقبلوا ضرورة محاربة الفاشية ، ثم يدافعوا في الوقت نفسه عن حرية الفرد في التعبير عن ذاته ، وكنت أعني بذلك حرية القول وحرية الدفاع عن النفس .

لقد كنت أرى في هذا الكتاب أن مهمة « الأحرار » هي أن يربطوا الحرية الفردية بالمصالح المتعارضة مع الفاشية ، ثم يبحثوا في الوقت ذاته الوسائل التي قد تكون ضرورية للوصول الى السلطة ، أي ان عليهم بالاختصار أن يجعلوا قضية الحرية في جانب العدالة الاجتماعية ، وأن ينقلوا الحرية الفردية من صف الرأسماليين الى صف العمال .

وقد أثار كتابي كثيرا من الجدل والمناقشات ، وكان من بين من كتبوا الى المستر « هاري پوليت » الذي دعاني لزيارته فذهبت ذات مساء الى مكاتب الحزب الشيوعي الكئيبة بجوار طريق « شارنج كروس » كان للمستر « پوليت » أسلوبه الحار المطمئن ، وكان ضئيل الجسم ذا

وجه مورد وعينين سمراوين فوقهما حاجبان سميكان عاليان ذكراني بحاجبي « چورج روبي » ، ولم يكد يراني حتى أخذ يدي بين يديه وقال : « لقد أعجبني كتابك ، وكان أول ما استرعى انتباهي فيه ذلك الاختلاف بيني وبينك في طريقة دنونا من الشيوعية ؛ أما أنت فطريقتك عقلية محضة ، وأما أنا فقد أصبحت شيوعيا لما شاهدته في بلدي من جرائم تقترفها الرأسمالية . لقد كان علي أن أرى والدتي تخرج للعمل في أحد المصانع الى أن قتلها سوء الاحوال التي كانت تعمل فيها . »

ثم ذكر مستر « پوليت » اختلافا آخر بيننا هو أنني لا أبدي شيئا من الكراهية ، بينما يؤمن بأن كراهته الرأسمالية هي القوة العاطفية الدافعة للحركة العمالية . واعترض المستر «پوليت» على ماوجهته في كتابي من نقد لمحاكمات موسكو التي أقيمت لبوخارين وغيره، فقلت له : إنني لا أعتقد أن المتهمين اقترفوا ذنبا سوى معارضتهم لستالين ، وخالفني في رأيي بحماس وشدة، حتى لقد بدا كأنه يعتبرهم سعداء الحظ إذ حظوا بمحاكمة، ثم أشار الى أننا وإن لم نكن متفقين في مسألة محاكمات موسكو إلا أننا متفقون حول العمل الذي يقوم به الشيوعيون تأييدا للجمهورية الاسبانية ، واقترح أن تتفق على أن نختلف ، وأن أنضم مع ذلك الى الحزب الشيوعي كي أؤيد قضيتهم في أسبانيا ، وقال : إن بإمكاني أن أكتب مقالا في جريدتي ؟ « ديلي ووركر » أنتقد فيه الشيوعيين في نفس الوقت الذي أنضم فيه الى الحزب .

وقد قبلت اقتراحه ، وتسلمت بطاقة العضوية في الحزب ، ثم ظهرت المقالة المذكورة ، ولكنها أثارت سخط الشيوعيين في اسكتلندة وشمالي انكلترة ، فلم تلبث عضويتي في الحزب أن أصبحت أمرا منسيا .

ورغم أن « پوليت » كان على صواب فيما لاحظه من أن أسباب دخولي في الشيوعية تختلف عن تلك التي تؤدي بالطبقة العاملة اليها ، إلا أن سلسلة كاملة من الاحداث كانت مع ذلك هي التي أدت الى هذا

التقرب مني الى الشيوعية .

وهذه الاسباب تعود الى أيام طفولتي وصباي ، فقد كان أشد تعاليم الانجيل أثرا في نفسي أن الناس جميعا عند الله سواء ، وأن تكدس الثروات في يد القلة ظلم للكثرة . ولم يكن إحساسي بالتساوي بين الناس منشؤه الاحساس بالجماهير الكادحة بقدر ما كان منشؤه الوحدة ، وإنني لاذكر الساعات الطوال التي كنت أقضيها بالليل متيقظا ومفكرا في أحوال بني الانسان ، وكيف أن كل حي قد ألقي به على وجه هذه الارض دون أن يؤخذ رأيه ، وهناك يعيش في حدود نفسه غريبا عن بقية بني الانسان ، ومحتاجا الى الحب والعطف ، والموت يتربص به ، فإذا كان مولد الانسان يعني أن يكون مثل « روبنصن كروزو » قد ألقت به المقادير وحيدا على جزيرة ، فكم يبدو بعيدا عن العدالة ألا يترك الناس أحرارا في اقتسام ما تقدمه الطبيعة ؛ وأن يوجد رجال ونساء لا يسمح لهم بارتياد العالم الذي ولدوا فيه ، وإنما يسجنون طول حياتهم في أحياء قذرة معتمة كالقبور . لقد كان يبدو لي في ذلك الحين — كما لايزال يبدو لي الآن — أن الوضع الفريد لكل إنسان في هذه الحياة يفوق كل الاعتبارات التي تبرر وجود الطبقات والامتيازات .

إلا أنني لم أربط بين هذه الأفكار وبين أن أكون ثوريا ، فقد كانت هذه الأفكار مسيحية صرفة ، ولو عملت بمقتضاها لكان علي أن أهب الفقراء كل ما أملك ، ثم أحيا حياة بسيطة كحياة الفلاح الهندي أو الصيني . أما الشيوعيون فقد كنت أراهم قوما رهيبين كالذئاب أو أكلة لحوم البشر ، يسعون الى هدم مدن الدنيا والعبث بين أطلالها . كنت قد تشربت مبادىء أسرتي ومن حولنا من الأصدقاء الذين كانوا يعتبرون الثورات بلايا كالزلازل والبراكين ، أما الاشتراكيون فما كانوا يحسبونهم يقلون عن الشيوعيين في الخطورة إلا قليلا ، ومن هنا

تعلمت أن أستبعد بعض الآراء والأفكار على أساس أن أصحابها مجانين أو أدنى من مرتبة البشر •

ولما بلغت السادسة عشرة تعرفت في المدرسة التي كنت أتعلم فيها بلندن على أستاذ وطالب أو طالبين من الاشتراكيين • أما الاستاذ فكان قد اشترك في الحرب ، وكان ينتمي الى « نادي ١٩١٧ » ، ويقرأ جريدة « الديلي هيرالد » ، ولم تكن الاشتراكية عنده تعني عهدا من الارهاب والخبل ، وإنما كانت تعني تكافؤ الفرص لجميع الاطفال من كل الطبقات ، وتأميم الصناعات حتى تكون البضائع والثروات لجميع السكان لا للعدد القليل ، وحتى يقضى على هذا التنافس القائم على طلب الربح والذي يقود الى التنافس العالمي في التجارة ثم الى الحرب ، ولقد كان هذا كله مطابقا لفكرتي الأولية عن العدالة الاجتماعية • وكنت في هذه المدرسة أيضا على صلة وثيقة بصبي يدعى « موريس كونفورث » كان يقرأ تمثيليات « برنارد شو » ويكتب تمثيليات لم تكن في نظري أقل من تمثيليات « شو » ، وكان لكونفورث هذا عقل يمكنه من أن يفسر الأمور بتنسيقها في سلسلة من الأفكار ، وقد أنقذني من الكاثوليكية الانجليكانية ولكن ليرمي بي في خضم البوذيه • وكان « كونفورث » كان يقرأ تمثيليات « برنارد شو » ويكتب تمثيليات لم ميلا أو أربعين في حي مترولاند ، وكان أشعث الرأس يصحبه كلب أشعث الشعر ، وكان يسيطر على المناظرات المدرسية ويملأ رزما من الأوراق بتمثيلياته وقصائده وخطاباته •

ولم تكن الاشتراكية إلا واحدة من ميولي أنا و « كورنفورث » العديدة ، والتي كان من بينها المسرح و « المذهب الانطباعي » في الرسم ، والرقص الجماعي « الباليه » والشعر ، والحق أن الاشتراكية كانت عندنا تعني تشكيلة من التصرفات العصرية التي تنسجم مع ربطة العنق

الحمراء ومع لحية « برنارد شو » • وهكذا عندما انتقلت الى اكسفورد كان من السهل عليّ أن أتقبل الرأي الذي كان يعتنقه هناك معظم أصدقائي وهو أن الفن لا شأن له مطلقا بالسياسة ، فأسقطت السياسة من بين أفكاري « التقدمية » الأخرى ، ولم يبق لي إلا « الفن لذات الفن » • إن السنوات ١٩٢٨ و ١٩٢٩ بل وحتى ١٩٣٠ تبدو لي اليوم نائية آمنة ، فقد كان من الممكن أن ينسى الانسان في أكسفورد كل المظالم الاجتماعية ، أو أن يرى على الاقل أنها أمور لا تخص الشاعر ، ولكنني مع هذا بقيت اشتراكيا بنفس الطريقة التي يبقى بها بعض الناس كاثوليكيين وهم لا يذهبون الى الكنيسة أبدا ، فكأنما المبدأ الكاثوليكي قد تجمد في عقولهم ، فهم يشعرون بأنه موجود وأنه قد يذوب يوما ويفرقهم في طوفان من الصراع الفكري ، إلا أنه في الوقت الحاضر يبدو ضئيل الاثر في تصرفاتهم وأفعالهم •

بعد أن غادرت أكسفورد ذهبت لأعيش في ألمانيا ، وهناك استيقظ في نفسي الاحساس بالصراع الاجتماعي بين البشر ، فقد كان كل شاب ألماني ألتقي به تقريبا فقيرا يعيش من يده الى فمه على مبلغ ضئيل من المال • كانت الحواجز بين الطبقات قد تحطمت ، وكانت كل الطبقات تحس بمصير مقبل من الهزيمة والتضخم وكل ما يصيب عالم مابعدالحرب من بلاء ، وكان الكثير من الموسيقى والرسم والادب في جمهورية « ويمار » يعبر عن الروح الثورية أو عن العطف على الفقير ، حتى ليمكن أن يقال : إن عيون ضحايا عالم ما بعد الحرب كانت تحدق من خلال الفن « الانطباعي » •

كنت أجنبيا في ألمانيا ، وكان أول رد فعل في نفسي لهذا البؤس هو الشفقة العميقة على ضحايا هذه الأزمة التي بدأت في عام ١٩٣٠ ، غير أنني مع كل هذا الأسى على العاطلين الذين كانوا يسلؤون الأرصفة ، لم

أشعر في البداية بأن في امكاني أن أمنحهم ما هو أكثر من الشفقة ، وكان بعض السبب في هذا راجعا الى أنني أجنبي أحس أنني خارج ألمانيا ، فلما بدأت الأزمة تمتد الى بريطانيا والى غيرها من البلاد ، بدأت أدرك أنها مرض من أمراض الرأسمالية قد شمل العالم كله ، وبدأت بالتدريج أومن بأن العلاج الوحيد للبطالة ، إذا استثنينا الحرب ، هووجودالمجتمع العالمي حيث تستغل فيه موارد الدنيا لصالح أهل الدنيا •

وذات يوم جاء الى برلين صديق يدعى : « إيشروود » في كتـابه « السباع والظلال » » شالمرز « ، فدعاني « كريستوفر » الى لقائه • وكان « شالمرز » ، الذي كان قد انضم الى الحزب الشيوعي من عهد قريب ، قد قدم من جولة في روسيا استغرقت بضعة أيام وجاء في زيارة لبرلين عقب عودته من موسكو • كان شابا صغير الجسم أسمر البشرة وجهه جميل القسمات كوجه تمثال صغير ، وكان عادة ينظر في وجه رفيقه ـ وهو يحدثه أو يستمع اليه ـ نظرة متعمدة فيها ما في نظرة الطير الجارح من ثبات وتركيز ، وكان منظره يوحي بأنه يجمع بين روح الفكاهة وبين الجلال الأدبي السامي ،.ولما سألته عن طبيعة روسـيا وجوها أجابني بنغمة تجمع بين الغموض والسخرية وهو ينظر تلقاء وجهه « أجمل ما في الدنيا » •

ذهبت ذات مساء مع « شالمرز » في نزهة في أرجاء برلين ، فلم يمض طويل وقت حتى بدأنا نتحدث في الشـيوعية ، وكانت وجهـة نظر « شالمرز » بسيطة وواضحة ، فقد كان يرى أن البطالة والحرب وكل شرور العصر تقريبا ، بما فيها الغيرة الجنسية ومشاكل الكتاب ، إنما هي نتاج النظام الرأسمالي ، وأن العلاج لذلك كله هو في نبذ الرأسمالية وإقامة الشيوعية ، وكان يرى أن على الانسان في مجتمعه أن يتعـاون مع الطبقة العاملة الواعية ، وأن عليه في داخلية نفسه أن يقوم بـ « عمل من أعمال الادارة » • وكان « شالمرز » يسلم بأن هناك أناسا في داخل

مجتمعنا الحالي لا يحبون البطالة والحرب ، بل ولعلهم على استعداد للتنازل عن مصالحهم الخاصة في سبيل إزالة هذه الشرور ، إلا أن كل جهودهم واستعداداتهم تذهب هباء طالما أنهم يتقبلون أوضاع المجتمع البورجوازي ، لأن الرأسـمالية تعني بالضرورة وجود المنافسـة بين الطبقات وبين الامم ، ولذلك فالعمل ضد الاتجاه العام لمثل هذا النظام مع تقبله والموافقة عليه لن ينتج أكثر من مجرى صغير معاكس في ضمير الفرد وسط تيار ضخم مندفع ، والطريق الوحيد الذي يمكن للمرء أن يسلكه هو تغيير اتجاه النهر كله •

ولما كان مثل هذا العمل شيئا ضخما هائلا ، فليس على الانسان أن يهتم بالوسائل أو بمصائر الافراد إلا من حيث ما تجلبه من منفعة ، فإن التاريخ لا يحفل بأولئك الذين لا يسيرون معه • وكان التاريخ بالنسبة لشالمرز يعني طبعا ثورة العمال ودكتاتورية الطبقة العاملة واقامـة الشيوعية ، مما سوف يمحو جميع الشرور الحاضرة وينشىء في النهاية عالما حرا • ولقد كانت لدى شالمرز صورة صادقة عن هذا العالم الحر ، وكان يتمنى السعادة للبشر من كل قلبه ، إلا أنه لم يكن يكترث مطلقا بالقسوة والمظالم التي يجرها « التاريخ » في طريقه ، بل لعلي لا أكون مغاليا اذا قلت : ان هذه المظالم كانت تستهوي ما في حسه الادبي مـن مرارة وسخرية • ان عقله كان قد اتخذ طريقا من العمل الثوري ، فلم يعد بعد ذلك يرى نتائجه المحسوسة إلا من بعيد ، فلقد أصبح فكره مركزا على المستقبـل الى حد أن أصبـح ما يحـدث في الحـاضر لا يعنيـه أبدا أكثر ما يعنيـه مصـير أولئك الذين هلكوا في زلزال لشبونة قبـل قرنين من الزمان • كـان يعيش في المستقبل ، ولـم يكن الحاضر بالنسبة اليها إلا جزءا من ماض بشع هو عصر ما قبل الثورة ، وكان يطلب من نفسه ومن الآخرين الذين وضعوا أنفسهم « في

جانب التاريخ » أن يجعلوا كل أفكارهم وأعمالهم منسجمة تمام الانسجام مع الخطة التي ستؤدي الى المجتمع « اللاطبقي » الذي يخلو من الفوارق بين الطبقات ، فكان يريد أن يجعل الحاضر خاضعا تمام الخضوع للمنهاج الذي يمليه المستقبل .

لقد كنت أحس أمام شالمرز بكثير من الضعف في موقفي وأنا أعترف له بكراهيتي للعنف وتمسكي بحرية كل فرد في التعبير عن ذاته ورغبتي مع ذلك في تغيرات ثورية تنتج مجتمعا عالميا عادلا دون أن تؤدي الى القضاء على حرية الفرد ، ولم يزد هو حين سمع قولي على أن أخرج غليونه من فمه ثم قال بايجاز ولكن بصوت ودود : « غاندي » .

وكنت قد تحدثت مع شالمرز عن عصبة الامم فأوضح لي كيف أن مثالية من النوع الذي تضمه عصبة الأمم لا يمكنها أن تصنع شيئا لمنع الحرب ، فإن هذه العصبة ليست إلا مجموعة من القوى الرأسمالية المصممة على استغلالها في سبيل حماية تسلطها وسيادتها ان لم يكن في سبيل التوسع في هذه السيادة ، والامم التي تستغل العصبة هي ذاتها صاحبة المصلحة في التسلح ، وليست العصبة في الحقيقة إلا حلفا موجها ضد روسيا ، « وكل حديث عن نزع السلاح في ظل هذا النظام الحالي عبث فارغ » .

وقد تحدثنا كذلك عن القصة ، وكان شالمرز ، كغيره من الكتاب الشيوعيين ، يرى أن تحول الانسان الى الشيوعية يقطع الصلة تماما بينه وبين خبراته السابقة ، ويتركه عاريا إلا من نظرية ثورية . كان شالمرز واحدا من البورجوازيين الذين تخيلهم « المنشور الشيوعي »[1] قد « انتقلوا الى الطبقة العاملة » ، وهو وضع مقبول من الناحية السياسية ، فإن معظم قادة الثورة الروسيين كانوا من الطبقة البورجوازية ،

(١) جاء ذكر هذا المنشور في حديث « آرثر كستلر » .

إلا أن الامر شاق بالنسبة الى الفنان المبدع ، فإن حساسيته التي كانت من نصيبه منذ الطفولة هي بورجوازية ، ولا يكاد يوجد أمل في أن يكتسب العقلية العمالية بعمل من أعمال الادارة السياسية ، ولو أنه استطاع أن يفعل لواجهته مشكلة حقيقية وهي أن طبقة العمال في معظمها ، واذا استثنينا بعض ذوي الوعي فيها ، أشد بورجوازية من الطبقة البورجوازية ذاتها ، وان العمال لا يحفلون « بالقصة العمالية » ، وهناك أيضا مشكلة فنية تعترض من يريد أن يكتب قصة ثورية يهاجم فيها الرأسمالية ، فإن رجال السياسة الواقعيين الذين لا يشغلون أنفسهم إلا بالضرورات السياسية يوجهون اهتمامهم الى الدعاية الواقعية ولا يحفلون كثيرا بالفن والادب القائم على الخبرة والملاحظة ، اذ لا بد وأن يكون في هذه الخبرة والملاحظة من الصور المناقضة للفكرة مثل ما فيها من الصور الثورية . وقد اعترف شالمرز بهذه الصعوبات دون اعتراض ثم قال يشرح رأيه : « أنا لا أعتقد أن خير أنواع القصة الشيوعية هي تلك التي تتخذ بطلها من الطبقة العاملة وأشرارها من الرأسماليين ، بل لعل تلك القصة التي يكون أفرادها الرأسماليون قوما رحماء ذوي نيات طيبة وأفرادها الشيوعيون قوما مليئين بالمرارة والحقد أن تكون أفضل من النوع السابق ، بشرط أن تبرز القصة أن الحق والصواب في جانب الشيوعيين الحاقدين وأن ذوي النيات الطيبة من الرأسماليين في جانب الضلال . هذا مع اعترافي طبعا بأن الحزب لن يرحب بقصة من هذا النوع » . ان فكرة شالمرز عن القصة ذات الاشخاص الشيوعيين الحاقدين الذين يقفون في جانب قضية التطور التاريخي في مواجهة الرأسماليين المخطئين تاريخيا وان كانوا ذوي نيات حسنة هي مثل يوضح بدقة تامة موقف رجل الفكر الشيوعي ، فإنه يضع إيمانه وثقته في نظرية « الآلية التاريخية » التي سوف تؤدي في النهاية الى

خلق جيل طيب قويم وان كانت الوسائل المستعملة سيئة والقائمون عليها فاسدين ، كما أن النظام الرأسمالي يحول كل النيات الطيبة آليا الى مصارف تقود الى الحرب والدمار • غير أن هذا الرأي الذي أعلنه شالمرز ليس شائعا بين الشيوعيين فإن المستر « هاري بوليت » كان قد أخبرني أنه يرى قصة « جاك لندن » المسماة « المهماز الحديدي » أفضل قصة ثورية ظهرت •

بعد مرور سنوات على هذه الحادثة ، أي في عام ١٩٣٧ ، سألت شالمرز عن رأيه في سلسلة المحاكمات الروسية الاخيرة التي تضمنت بوخارين ورادك وغيرهم فبدأ عليه التردد لفترة قصيرة ، ونظر أمامه الى هدف بعيد ثم قال وعيناه تطرفان : « لقد رأيت الكثير من هذه المحاكمات حتى انتهى بي الامر الى الكف عن التفكير في شأنها من عهد طويل » • كان شالمرز قد حزم أمره على تقبل كل الوسائل الحاضرة لأن آماله كلها كانت متعلقة بالمستقبل •

كان شالمرز يجمع بين الايمان بنظرية ماركس عن التطور التاريخي وبين الثقة العمياء في الطبقة العاملة ، وكان يؤمن بأن العمال يمثلون المستقبل وأنهم ان تركت لهم الفرصة سوف يخلقون مدنية أفضل ، ولا شك أنه كان اذا ساورته الشكوك حول وسائل الشيوعيين يحدث نفسه بأن المجتمع العمالي اللاطبقي في دنيا العمال الجديدة سوف ينمو في التربة التي تحرثها دكتاتورية الطبقة العاملة بوسائلها العنيفة •

ومن الواضح أن إيمان شالمرز هذا كان فيه شيء من الغموض ، وأعتقد أن هذا الغموض نفسه مما يجعل الشيوعية ذات جاذبية خاصة لدى رجل الفكر ، فإن إيمان المرء بأعمال سياسية وقوى اقتصادية تؤدي الى اطلاق طاقات جديدة في الدنيا هو في ذاته اطلاق للطاقة داخل الانسان يجعله لا يشغل باله بالشفقة على ضحايا الثورة ، بل انه يستطيع فعلا

أن ينظر الى الشفقة على أنها نتيجة رغبة داخل الانسان في تجنب عواقب الثورة ونتائجها الحتمية • ان في إمكان الانسان أن يحفظ بإيمانه بالأهداف السامية للجنس البشري ، ثم يتجاهل في الوقت نفسه آلاف الناس في معسكرات الاعتقال وعشرات الآلاف الذين يعملون بالسخرة ، ويساءل نفسه : هل لهؤلاء وجود ؟ وسواء كان الجواب بالسلب أو بالايجاب ، فهو يرى أنها دعاية بورجوازية أن يتمسك الانسان بأنهم موجودون ؛ فعلى الانسان اذن أن ينكر وجود معسكرات الاعتقال في روسيا ، فإن حياة هؤلاء المعتقلين قد أصبحت غير ذات موضوع في صراع فكري يعتبر الحاضر فيه هو النضال من أجل المبدأ والمستقبل هو الشيوعية — حيث يصبح الجميع في النهاية أحرارا • وان اعترف الانسان بينه وبين نفسه بوجود معسكرات الاعتقال ، فيمكنه أن يعتبر ذلك تضحيات لا بد منها في سبيل قضية الحق ، فإنه لمن الضعف « البشري » أن يشغل الانسان نفسه بالتفكير في الضحايا ، بل عليه أن يعلق بصره بالهدف ، وبهذا يتخلص من الرعب والقلق اللذين يعوقان انطلاق العقل الحر دون أن يكون من ورائهما فائدة (ولكن كان عليّ أن أدرك فيما بعد أن سر النشاط والانطلاق ليس في أن يغمض الانسان عينيه) •

يضاف الى هذا أن ضحايا الرأسمالية أكثر من ضحايا الشيوعية ، ان كانت للشيوعية ضحايا ، وهل ملايين المتعطلين في السلم وملايين القتلى في الحرب إلا من ضحايا المنافسة الرأسمالية ؟ ان الرأسمالية نظام بني على الضحايا ، ولا يزال عدد ضحاياها في ازدياد يوما بعد يوم • أما الشيوعية فهي نظام لن يكون فيه من الناحية النظرية ضحايا بعد أن تصل الى المجتمع الشيوعي اللاطبقي ، وضحاياها اليوم هم ضحايا الثورة وليسوا ضحايا الشيوعية ، وحين تنجح الثورة في مهمتها ، و « تذوي » دكتاتورية الطبقة العاملة ، فسوف يصبح عدد ضحاياها في نقصان ، لأن الشيوعية ليست في حاجة الى الطبقات والجماهير المسخرة المستعبدة ،

وانما نحتاج الى التعاون بين الناس جميعا في سبيل خلق عالم أفضل •
بهذا كنت أحدث نفسي في السنوات القلائل التي تلت عام ١٩٣٠ •
وكان يشد من عزمي ويساعد على اقناعي شعور بالذنب وخوف من أن يكون الجانب الذي يشفق على ضحايا الثورة عندي انما يؤيد سرا شرور نظام رأسمالي كنت أستفيد منه •

كانت البذور التي غرسها شالمرز في عقلي هي سخطه على عصبة الامم وما أوحى به الى نفسي عندما وصفني بأنني (غاندي) •

وكان تفكيري في الشهور التالية لهذا الوصف يدور حول أمر واحد هو أن كل النشاط العام وأكثر النشاط الفردي الخاص لا يخرج عن واحد من اثنين : نشاط من جانب الثورة ونشاط معاكس للثورة ، وأن الانفعالات والعواطف الشخصية لا أهمية لها بجانب الاتجاهات الموضوعية العامة ، واذن فكل من يعمل في جانب الفقراء ويرغب من كل قلبه في تحسين أحوالهم هو من الناحية الموضوعية عدو للعمال اذا كان بأعماله الطيبة يجعل هؤلاء الفقراء قانعين وراضين عن المجتمع الرأسمالي ، واذن فراعي الكنيسة الفقير والمشرف الاجتماعي في حي العمال بلندن كلاهما عملاء للاغنياء والرأسماليين •

وبدأت الآن أرى أن دولة من الدول قد تكون محكومة من قبل قادة يعتقدون مخلصين أنهم اشراكيون ولكنهم يستنكفون أن يمارسوا أسلوب الثورة الذي لايرحم ، وأن هؤلاء الاشتراكيين قديجدون أنفسهم مهددين ومباديءهم مهددة من قبل رأسماليين على استعداد لأن يحطموا مركز الدولة نفسه في الخارج على أمل أن يحطموا بذلك مركز الحكومة الاشتراكية ؛ ان الحكومة الاشتراكية عليها في هذه الحال أن تختار بين الاستجابة لمطالب الرأسماليين وبين استعمال الوسائل العنيفة لأجل القضاء على الرأسمالية •

وقد بينت أحداث عام ١٩٣٠ أن الاشتراكيين الديموقراطيين حين يواجهون مثل هذا الموقف يرفضون أن يستجيبوا لمتطلبات الثورة ويفضلون أن ينحازوا الى الجانب الآخر أو ان يعتزلوا الحكم ، كما فعل « براون » و « سيڤرنك » في ألمانيا و « رامزي ماكدونالد » في بريطانيا •

وقد أخضعت نفسي وشخصيتي لمثل هذا التحليل المتفحص الذي سلطته من قبل على الاشتراكيين الرسميين ، فجعلت أسائل نفسي : ماذا أريد ؟ هل أنا مجرد رجل يخادع نفسه حين يزعم أنه يريد للآخرين مثل ما له من حظ وثروة فيرضي بذلك غروره ؟ أم هل أنا على استعداد لتقبل الوضع الاشتراكي ـ بشرط أن أصحو ذات يوم لأجد هذا الأمر قد وقع دون آلام ودون تضحيات ؟ أم أنا حقا على استعداد لأن أؤيد الوسائل التي تؤدي الى هذه الغاية ؟ هل أنا على استعداد لتقبل الفترة الانتقالية التي تتسم بطابع الاضطراب والبلبلة ، والتي قد تكون أسوأ من الرأسمالية ذاتها ، والتي قد تبقى لفترة طويلة بعيدة كل البعد عن الهدف الذي رمى اليه الاشتراكيون ؟ واذا لم أكن على استعداد لقبول الوسائل التي تؤدي بنا الى الاشتراكية ، فهل نظرياتي وآرائي اذن إلا حلم خداع أضحك به على نفسي ؟ ان الاشتراكية اليوم ليست في اتحاد عالمي للدول الاشتراكية ، وانما هي في الوسائل التي تؤدي الى هذا الهدف مهما صحب هذه الوسائل من آلام وأوجاع •

وحين توجهت بهذه الأسئلة الى نفسي كان عليّ أن أقر بأن ما أوده حقا هو أن يعيش الآخرون في المستوى الذي أعيش فيه ، لا أن أنضم أنا الى الطبقة العاملة • وحين وصلت الى هذا الاعتقاد أصبت بخيبة أمل بالغة ، إذ شعرت أنني لم أكد أحتمل فكرة فقدان مواردي الاقتصادية التي تعود الى المركز الذي أحتلته في المجتمع البورجوازي • وأخيرا وصلت بعد مجهود عقلي الى حالة ذهنية أمكنني معها أن أقول لنفسي:

انني على استعداد لأن أكون في جانب الثورة ولو كان في ذلك ضياع لمواردي الاقتصادية كاستعدادي لتقبل نفس الوضع في حالة قيام الحرب• إلا أنني بعد ارتقائي الى هذه الحالة الذهنية وجدت أنني لا زلت أواجه تصورات مفزعة لا علاقة لها بمصالحي الخاصة • انني لم أستطع أن أوافق على أنه من الضروري أن ننكر على الآخرين حرية التعبير عما يرونه حقا إن كان هذا الرأي معارضا للقيود الضرورية الموضوعية على الحرية من قبل دكتاتورية الطبقة العاملة ، فلم أكن أستطيع أن أصدق بأن من الرجعية السياسية أن يؤمن الانسان بإله أو أن يحمل آراء عن الطبيعة الانسانية هي في رأي ماركس غير « علمية » ، اذ أن هذا يعني في رأيي أننا نبني طريقة علمية على قاعدة من انكار حرية البحث العلمي •

ان الشيوعية بالنسبة لرجل الفكر المخلص صراع داخل الضمير • وهذا الامر اذا اتضح يفسر كثيرا من الامور ؛ من بينها أن الشيوعيين الذين قد تبدو أفعالهم ووسائلهم بالنسبة لغير الشيوعيين مخالفة لمبادىء الاخلاق والضمير قد يكونون مع ذلك مخلصين تمام الاخلاص ، وأمثال هؤلاء الشيوعيين كالسفن التي تثبت بمرساتين من أمام ومن خلف، وسط تيارات عنيفة تدفع أمامها كل السفن الاخرى • أما المرساتان فهما : وعي كامل لشرور النظام الرأسمالي ، وفكرة واضحة ثابتة عن مجتمع المستقبل الخالي من الطبقات • أما التيارات العنيفة التي تثير الضمائر الحرة فهي الوساوس حول الوسائل الضرورية لنجاح الشيوعية ، والتنبيه الى بعض الامور كالآلام التي تصيب آلاف الناس الذين لم يتفق أن كانوا شيوعيين •

وهذا الضمير الشيوعي المطمئن يفسر أيضا ما قد يبدو أحيانا لدى غير الشيوعيين من اكبار واعجاب بهؤلاء الشيوعيين الذين ثبتت ضمائرهم — ان لم أقل تحجرت — في المادية التاريخية ، فان هناك شيئا غلابا في

الضمير المطمئن الذي لايتزعزع • أية قوة تلك التي تسكن في ذلك الضمير الذي لا يؤنبنا على آثامنا ونقاط الضعف فينا فقط ، وانما يؤنبنا أيضا على الفضائل الانسانية ، كالشفقة على المظلومين ان اتفق أن كان هؤلاء المظلومون في غير صفنا ، أو المحبة لصديق اتفق أنه لم يكن من أعضاء الحزب المخلصين ! ضمير يخبرنا أننا باتخاذنا اليوم موقفا سياسيا معينا يمكن أن نحرز سمواً واستعلاء على ماضينا كله ، لا بالتواضع والبساطة والتوبة ، بل بأن نحول شخصيتنا كلها الى مادة خام في يد جهاز الحزب • كم يسهل على مثل هذا الضمير أن يؤكد لنا أن الشكوك والوساوس التي تساور الضمائر الحرة — ولو كانت عن قصد حسن — تتجاهل الصالح العام النهائي ، وأن هذه الشكوك ليست في الحقيقة إلا طلائع الدفاع عن البورجوازية ، وأن صاحب القصد الحسن يمكن أن يكون من المدافعين عن القوى التي انتجت أسوأ كوارث عصرنا الحديث •

لقد سبق أن تحدثت عن ايمان الشيوعية العجيب بالطبقة العاملة ، ذلك الايمان الذي كان له بغير شك أثره في شالمرز • ولقد كانت لكلمة « الطبقة العاملة » أثرها أيضا في ذلك الصراع الدائر في ضمير رجل الفكر الشيوعي ، إذ أنه مهما عظم ايمانه بالحرية الفكرية قد يسائل نفسه: « ولماذا ينبغي أن يحفل العمال بحريتي ؟ إن ما يريده ملايين عمال المناجم والفلاحون وأهل المستعمرات ليس حرية تطوير أنفسهم وتنمية شخصياتهم بل الأمن والخبز والأحوال المعيشية اللائقة ، فإذا كانت التضحية بالحرية الفكرية لبضعة آلاف من الناس هي الثمن الذي ينبغي أن يدفع في سبيل توفير الخبز للملايين فلعل من الواجب حينئذ أن نضحي بحرياتنا • وهل الحرية الفكرية لكاتب صغير يجلس الى طاولة في مقهى « دي فلور » ويتحدث عن الوجودية أمر ذو أهمية للفلاح الهندي أو الحمال الصيني ؟ »

ومع أن رجال الفكر ، كما أوضح لي هاري پوليت هم شيء غير الطبقة العاملة ، إلا أن دورهم في الصراع لم يعد منذ عهد بعيد قاصرا على المناقشات النظرية ، فإن مصالح رجال الفكر قد آذتها الفاشية الى حد بعيد • إن انتصار هتلر في عام ١٩٣٣ كان يعني هزيمة الحرية الفكرية في ألمانيا وتهديد الحريات في كل مكان ، وقد جعل هذا النصر من اليهود ومن رجال الفكر قوتين سياسيتين لمجرد كونهما يهودا أو رجال فكر • لقد أصبحت حرية الاقليات العنصرية وحرية العلماء الصناعيين في الوصول الى النتائج العلمية دون نظر الى الاتجاهات السياسية وحرية الشاعر والرسام في أن يعبر عما في نفسه •• أصبحت كلها مهددة بالخطر • كنت في ذلك الحين أرى الافلام الروسية من مثل : « الارض » و « الام » و « الايام العشرة التي هزت العالم » و « الطريق داخل الحياة » ولم تكن تبدو لي أقل أثرا واثارة من أعظم الاعمال الفنية والأدبية في القرن العشرين • كذلك كنت أقرأ لموريس هندوس ولويس فيشر وغيرهما الكتب والمقالات التي تتحدث عن التقدم الاجتماعي الرائع الذي أنجزه الاتحاد السوڤيتي • أما الانتقادات التي كنت أقرأها عن روسيا ، وأصدقها في بداية الامر ، فقد تبينت أن أكثرها دعاية زائفة ضد الاتحاد السوڤيتي ، كما أن إذاعة الدستور السوڤيتي الجديد جعل الأمل كبيرا في عهد من الحرية لروسيا •

انني وأنا أكتب اليوم هذه السطور أشعر بالمرارة والأسى ، فإن نظام ستالين اليوم يتهدد الحرية الفكرية بمثل ما كان يتهددها هتلر من قبل ، غير أن هذا الامر لم يكن واضحا في ذلك الحين • كنا قبل إعدام كيروف نأمل أن تكون روسيا على حافة الحصول على قدر متزايد من الحرية الفكرية ، فقد كانت هناك تجارب جديدة مثيرة في المسرح والسينما والموسيقى ، ورغم أن الاجانب الذين يزورون روسيا كانوا دائما موجهين ومحاطين بالمرشدين إلا أن روسيا لم تكن في ذلك الحين

منقطعة عن بقية العالم • أما الدعاية المتعصبة التي كان يوجهها عادة أعداء الثورة فقد ساعدت روسيا الى حد كبير ، لأنها أثارت حولها ضبابا كثيفا من التحامل والتعصب ، أصبح من غير الممكن معه للمحايد الذي يرقب الامور أن يتقبل ما يقال ضد روسيا • (وهنا أتوقف قليلا لاسجل أن الدعاية المضادة للشيوعية قد أثبتت أنها خير أنواع الدعاية لها ، فقد عملت منذ قيام الثورة في صالح ستالين ونظامه) •

وإذن فقد اضطر اليهود واضطر رجال الفكر الذين كانت تربيتهم تجعلهم بعيدين عن العواطف الطائفية والحزبية الضيقة أن يبحثوا عن حلفاء لهم ، فلما خاب أملهم في قادة البلاد الديموقراطية انصرفوا الى الحركة العمالية ، ولما قاسوا شرور البطالة الجماعية والفاشية والحرب ووازنوا بينها وبين مساوىء الشيوعية ، تأملوا أن يجدوا في الشيوعية على الاقل نهاية لهذه الشرور ، حتى ان كاتبا حرا مثل ا • م • فورستر كتب في ذلك الحين يقول : ان الشيوعية هي العقيدة السياسية الوحيدة التي تقدم آمالا للمستقبل ، وان كان قد أضاف الى ذلك قوله : انه لا يحب أن يكون شيوعيا • ان الحياة الفكرية في عام ١٩٣٠ وما بعده لم تلبث أن تحولت الى جدل وتناظر حول الغايات والوسائل •

أما الافراد الذين عاشوا هذه الفترة وكانوا يزدادون اندماجا في أحداثها الاليمة يوما بعد يوم فلم يكونوا يرونها هكذا ، فإن كساد عام ١٩٣٠ قد انتزع منهم الاحساس بالامن والطمأنينة ، كما أن انتصار الهتلرية انتزع منهم ما توهموه من أن الدنيا تسير نحو التسامح وبعيدا عن التعصب ، ثم جاء اضطهاد النازيين لليهود فحرك فأثار شفقة الناس وسخطهم •

وكانت ذروة أحداث هذه الاعوام بدون ريب هي الحرب الاسبانية • فأما في اسبانيا نفسها وبين الاسبانيين فلعل نتائج الحرب

بدت أكثر تعقيدا مما كانت تبدو لمن هم خارج اسبانيا ، ولعل ما زعمه آرثر برانيت من أن الاسبانيين من الجانبين المتحاربين كانوا يكرهون من اندفعوا لمساعدتهم أكثر مما يكرهون أعداءهم من الاسبانيين لا يخلو من الصواب ، إلا أن اسبانيا رغم كل شيء أصبحت في نظر العالم الخارجي مسرحا تمثل على خشبته مأساة الصراع بين الفاشية وأعدائها ، فإن تدخل موسوليني وهتلر وما تلاه من تدخل روسيا ثم تشكيل الفرقة الدولية جعل من الحرب الاسبانية مركز الصراع الدائر على قلب أوروبا وروحها . كان الامر يتلخص في أن بعض قواد الجيش الاسبانيين ثاروا على حكومة انتخبها الشعب الاسباني ، فلما عجزوا عن احكام ثورتهم وانجازها وتدخلت القوى الاجنبية أصبحت قضية الجمهورية هي قضية الديموقراطية وأصبحت قضية الثائرين قضية الفاشية . ومهما كانت دوافع القتال بالنسبة للكثير من الاسبانيين فقد كان ما ذكرناه هو الدافع للقتال بالنسبة لايطاليا وألمانيا وروسيا والفرقة الدولية فوق الارض الاسبانية .

لقد كان هذا النضال بين الفاشية وأعداء الفاشية يدور على أرض أسبانيا كما تدور الاحداث على خشبة المسرح ، وكان ما اشتهر به الاسبان من حدة في العواطف ومن مثالية ، بالاضافة الى جو أسبانيا ومناظرها الطبيعية ، يضفي على هذا الصراع لونا من الحدة ونوعا من الطهارة الشاعرية التي ندر أن أحاطت بهذا الصراع من قبل أو من بعد . لقد كانت هذه قبل كل شيء حربا للفرد ، فيها قيمته بعواطفه الخاصة وتجرده النسبي من الوسائل الميكانيكية . كانت هذه الحرب الى حد ما حربا فوضوية ذات جو شاعري ، وقد قتل ما لا يقل عن خمسة من خيرة الكتاب الانجليز الشبان فضلا عن غيرهم من شعراء الدول الاخرى مما زاد من اندماج رجال الفكر في هذا الصراع . أما بعد سقوط الجمهورية فان الصراع بين الفاشية والديموقراطية أصبح

صراعا بين الجيوش والعتاد قبل أن يكون صراعا بين أشخاص وأفراد .

في وأائل هذه الحرب الاسبانية سافرت الى جبل طارق وأوران وطنجة ، وأدهشني ما رأيته هناك من حماس لدى عامة الناس الذين كانوا يتجمهرون في الاجتماعات العامة مؤيدين للجمهورية ، وما أحسبني رأيت في حياتي اجتماعا يقارن بذلك الذي شهدته في طنجة . كان هناك بضع مئات من أفقر الناس ، بينهم المقعدون والعميان ، يستمعون بوجوه متأثرة وأعصاب متوترة الى الخطباء الذين يدافعون عن قضية الجمهورية لقد رأيت في هذا الاجتماع من الخشوع والامل ما أعاد الى ذاكرتي الجماهير التي وصفت في الانجيل .

كنت أينما توجهت في هذه الاماكن ألتقي بجماعات الشيوعيين ، وكنت أتأثر كثيرا بثقتهم في أنفسهم وفي قضيتهم وبحسن أدبهم واعتدالهم ، ففي أوران ، وبين القذارة والعجيج والجو المخمور الذي يسود الميناء ، بدت لي جماعة الشيوعيين التي اتخذت إحدى المقاهي الصغيرة مقرا لها كأنما تنتمي الى عالم آخر .

أما الانطباع الذي استقر في نفسي عن الموظفين الرسميين ورجال الاعمال الذين كانوا يمثلون مصالح الدول الديموقراطية فقد كان على العكس من ذلك انطباعا سيئا . كان كل من التقيت بهم تقريبا يبدون كأنهم مؤيدون لفرانكو . وفي استطاعتي أن أسرد على مسامعك أمثلة عديدة أشملها وأوضحها في طنجة . كان يحكم طنجة لجنة دولية تتألف من وزراء عن دول متعددة هي بريطانيا وايطاليا واسبانيا وبلجيكا وفرنسا ، فأما الوزير الاسباني برايتو دلريو ، الذي كان يمثل حكومة الجمهورية الاسبانية فقد كان في معزل . ولما استأجرت سيارة وطلبت من سائقها أن يسير بي الى الوزارة الاسبانية سار بي بطريقة آلية تلقائية الى مكتب البريد المركزي حيث أركان حرب الجنرال فرانكو . ولقد حدث في حفلة

« كوكتيل » أقيمت في مقر الوزير البريطاني أن جعل الضيوف يعجبون كيف أن السيد « برايتو » المسكين قد جانب الصواب في اختياره ، هذا رغم أنه كان في جانب الحكومة الشرعية المعترف بها من قبل الحكومات الأخرى . ولما تمكنت أخيرا من زيارة « برايتو دلريو » وجدته مع اثنين من أعوانه منعزلين تماما عن جو الحياة الرسمية في طنجة رغم أنه عضو في حكومتها .

لقد التقيت في جبل طارق بموظف رسمي بريطاني متقاعد أوضح الموقف بعبارة لاذعة لم يكن يقصد بها السخرية مطلقا ، قال : إن ما لا يدركه الناس في انكلترا هو أن الجمهوريين هنا ليسوا ديموقراطيين بالمعنى المعروف عندنا . إنك لو خرجت الى الطريق هنا وسألت أول عشرة من العمال الاسبانيين تلقاهم عن الجانب الذي يؤيدون لقالوا جميعا : « الجمهورية » فأنت ترى أن هذا ليس المفهوم البريطاني للديموقراطية مطلقا . إنها هنا ما يريده تسعون في المائة من الشعب . إن الموظفين الرسميين في جبل طارق لم تكن لهم أدنى صلات بالشعب الأسباني الذي يريد الجمهورية ، وانما كانت كل صلاتهم بالأسبانيين الذين يشاركون معهم في صيد الثعالب . فكان هؤلاء يسمعونهم القصص عن الفظائع التي يرتكبها الجمهوريون وينكرون كل معرفة لهم بوحشية الجانب الآخر .

بعد زيارتي الثانية الى برشلونة ومدريد وبلنسية عدت الى انكلترا حيث شاركت في تظاهرات أقيمت لصالح الجمهورية الأسبانية وألقيت عدة خطب وشاركت في عدة لجان ، وفي احدى المناسبات سرت مع عدد من الكتاب الآخرين في شارع أكسفورد وشارع ريجنت حاملين لافتات تحمل نداءات جمهورية .

كانت هذه أيام الجبهة الشعبية ، وكان الدافع لتشكيلها هو نمو الشعور الحر والفكر الحر نموا بعيد المدى ، غير أنه لم يكن هناك حزب

سياسي يمكن أن يرتبط به هذا الشعور سوى الحزب الشيوعي ، أما حزب العمال البريطاني فلم يكن قد أفاق بعد من خيانة رامزي ماكدونالد، ولذلك استغل الشيوعيون انبعاث هذه الروح الحرة المعادية للفاشية أوسع استغلال .

لقد كان من بين المفكرين والكتاب من هم على استعداد للسير في معارضتهم للفاشية ودفاعهم عن الحرية والعدالة الاجتماعية الى حد الدخول في الشيوعية ، من أمثال ڤيكتور غولانز وچون ستراشي وجورج أرويل وآرثر كستلر و ا ٠ م ٠ فورستر ، كذلك كان كثيرون من غير الشيوعيين يبذلون كل جهودهم في سبيل الجمهورية الاسبانية معتقدين أن قضيتها هي قضية الديموقراطية .

ولو أن الشيوعيين دخلوا هذه الجبهة الشعبية بنفس الروح الطيبة التي كانت لدى الاشتراكيين والأحرار لامتدت حركة ديموقراطية من أقصى اليسار الى الوسط الحر ، ولكان لهذه الحركة من الحماس والمروءة والإبداع ما كان للثورات الحرة في عام ١٨٤٨ ، إلا أن من سوء طالع الشيوعيين أنهم لا يفكرون في تكوين جبهات متحدة إلا لكي يقبضوا على ناصيتها من الداخل ويوجهوا سياستها ، وهكذا كان هذا الحزب حجر عثرة في طريق النشاط الفعال لكثير من الأحزاب الأخرى ، رغم أنه كان يعلن عن رغبته في الاتحاد بمجاهرة وإصرار .

كان الكساد الاقتصادي في عام ١٩٣٠ وما بعده ، كما كانت كارثة جمهورية ويسار ، وسقوط حكومة ڤيينا الاشتراكية (وهي أحداث لم أشهدها إلا من بعيد) ، كانت هذه الأحداث قد أجبرتني على أن أتخذ موقفا شيوعيا من الناحية النظرية ، فأوضحت في بعض قصائدي وفي كتاب « خطوة وراء مذهب الأحرار » أن الشيوعية تعتبر ضرورة فكرية وعاطفية ، ثم كان ما طلبه مني « پوليت » من أن أساعدهم في المسألة

الأسبانية هو الذي دفعني الى الدخول في الحزب ، إلا أن اسبانيا مع ذلك كانت هي التي تشغلني وتستغرق اهتمامي في أول خبرة لي بالعمل السياسي مع غيري من الناس ، ولم تلبث أحداث اسبانيا نفسها أن حملتني بعيدا عن الحزب ، إذ لم ألبث أن تبينت أنه وإن كانت القوة الموجهة والمنظمة لهذه المساعدات للجمهورية الاسبانية قوة شيوعية ، إلا ان الطاقة الحقيقية للجبهة الشعبية كانت تستمد من أولئك الأحرار الغيورين على القيم الحرة • بل إن الشيوعيين أنفسهم تبينوا أن كون حكومة الجمهورية الأسبانية ليست شيوعية هو نفسه الذي جعل من أسبانيا في هذا العصر حدثا ورمزا لا يقل أهمية عن حدث ١٨٤٨ بالنسبة للقرن الماضي • وقد كان الشيوعيون فعلا ، رغم محاولاتهم وجهودهم لاستغلال الموقف هناك لصالحهم ، أول من أعلن هذا ، وكانوا يعارضون بشدة من يزعم أن حكومة الجمهورية حكومة شيوعية ، غير أنهم ما كانوا يفعلون هذا الا لظنهم بأن الدعاية الحسنة تتطلبه ، والواقع أنهم كانوا في الوقت نفسه يبذلون ما في وسعهم لكي يثبتوا بطلان دعايتهم ولكي يكون لهم السلطان في اسبانيا نفسها وبين المنظمات التي كانت تجلب المساعدات لاسبانيا من الخارج • أما الأحرار ذوو النوايا الطيبة فقد أرغمهم حلفاؤهم الشيوعيون ، حتى في الوقت الذي كانوا يؤيدون فيه الجبهة الشعبية على الدخول في معركة مع الضمير نشأ عنها انقسام عميق بين مؤيدي الجمهورية ، لقد كانت الحرب الاسبانية بالنسبة للشيوعيين مرحلة من مراحل نضالهم من أجل النفوذ • إن تعصب الشيوعيين وتفكيرهم الموحد جعلهم القوة الدافعة في الجبهة الشعبية وخاصة في اسبانيا ، إلا أنهم مع ذلك كانوا القوة التي عطلت كل القوى الأخرى ، وهي قوى في أصلها أكثر حيوية منهم ، لأن جوانب أصحابها أكثر تعددا ، ولأنهم أكثر اهتماما بالحرية وبتعدد وسائل التعبير عن الذات • إن كل أدب الحرب الاسبانية

تقريبا يصور انتعاش المذهب الحر قبل أن يصور المعتقد الشيوعي الذي كان له أثر معطل لكل مناقشة للآراء ولكل التفات الى الجوانب المتعددة للأحداث • ان أفضل الكتب التي صورت الحرب — كتب مالرو وهمنجواي وكستلر وأورول — تصف مأساة الحرب الاسبانية من وجهة نظر الأحرار وتدمغ الشيوعيين •

خلال رحلتي الثانية الى اسبانيا تبينت كيف أن الشيوعيين صارت لهم السيطرة الكاملة على الفرقة الدولية التي تشكلت بفضل الجبهة الشعبية ولحسابها • ولقد كان تركيز كل العناصر الديموقراطية المختلفة التي تكونت منها الفرقة الدولية في أيدي الشيوعيين نموذجا مصغرا لسياسة الشيوعيين في اسبانيا ، فأما في داخل الجيش الجمهوري فقد كانت هذه السياسة تتلخص في دعوة جميع الاحزاب لتشكيل جيش موحد تذوب فيه كل التشكيلات الحزبية السياسية ثم التحكم في هذا الجيش عن طريق تولي قيادته •

وقد نشأ عدد من المآسي الخاصة في الفرقة الدولية بسبب تسلط الشيوعيين • ويخطر ببالي الآن واحدة منها ، فقد التقيت خلال زيارتي للجبهة بالقرب من مدريد بطالب انكليزي شاب «ل» في الثامنة عشرة من عمره ، وقد أخبرني « ل » أنه جاء الى اسبانيا معتقدا أن الفرقة الدولية تسير على خطة الأحرار كالجمهورية نفسها ، فلما رأى الشيوعيين يتحكمون فيها فقد ثقته بقضية الجمهورية كلها ، لأنه لم يكن يحب الشيوعيين ، ولما استفسرت منه علمت أنه لم يكن يشغل نفسه بالشيوعية مطلقا قبل مجيئه الى اسبانيا ، وقد سألته : هل أحاول أن أطلب استدعاءك من اسبانيا ؟ فقال : لا ، ثم أشار الى قمة تل قريب من الوادي الذي كنا نقف فيه وقال : « ما بقي علي في هذه الحياة إلا أن أصعد كل صباح الى هناك حتى يدركني الموت في يوم من الأيام » ، وقد قتل الشاب فعلا بعد ذلك بستة أسابيع •

ولما عدت الى انكلترا كتبت مقالة نشرت في جريدة نيو ستيتسمان احتج فيها على الدعاية التي تسمح بادراج أسماء الشبان في الفرقة الدولية دون أن يوضح لهم أن الشيوعيين هم الذين يديرونها • ولم يرض الشيوعيون عن هذه المقالة • وقد التقيت في بلنسية بمراسل جريدة شيوعية أخبرني بأنه قرأ مقالتي وأنه يقر بأن ما فيها عن أسبانيا صحيح ، ثم أشار إلى أن المهم هو أن نكتب ما يخدم غايتنا في كسب الحرب ونشر الشيوعية ، وجعل يجادلني ببراعة وتلطف ، كاشفا عن هذا النوع من « اللامبالاة » بمصائر ضحايا القضية (العادلة) الذي يبدو أكثر إمعانا في الضلال بسبب البساطة التي يقال بها •

وكما أن الشيوعيين اتبعوا داخل الجمهورية نفس الأسلوب الذي اتبعوه في الفرقة الدولية ، كذلك حدث الشيء نفسه بالنسبة الى أسلوب الدعاية ، لذلك رأينا تلك الدعاية الشنيعة التي تنسب كل الجرائم والمجازر لأتباع فرانكو ، وتصور الجمهوريين على أنهم ملائكة ، وتصم أولئك الذين يزعمون أن بعض الفظائع قد وقعت من جانب الجمهوريين بأنهم « فاشيون » • وقد استنكر مالرو وهمنجواي في قصتهما هذه الصورة الخيالية عن الجمهورية ، وهما القصتان اللتان تعتبران أبرز ما كتب عن الحرب الاسبانية • ومن بين الأمثلة على هذه الدعاية الفجة ماحدث من استغلالهم لمقتل «لوركا» • إن كون لوركا لم يكن شيوعيا بل كاثوليكيا هرب في الواقع الى منطقة فرانكو في أوائل الحرب جعل مقتله بيد أتباع فرانكو أكثر نفعا للشيوعيين ، إن الشيوعيين يكرهون المارقين والخارجين طالما هم أحياء ، أما الأموات منهم فانهم يمكن أن يؤدوا غرضا نافعا ، طالما أن الشيوعيين لم يقتلوهم بأيديهم ، فإن مروقهم وخروجهم يمكن أن يستغل للدلالة على ما لدى الشيوعيين من حرية وتسامح ، وما لدى معارضيهم من تعصب وضيق في الأفق • وإذن فإن الشيوعيين

لم يكن يضايقهم أن يقال عن لوركا : إنه كاثوليكي ومحافظ بل ورجعي، ما دام فرانكو هو المسؤول عن مقتله ، حتى إنهم كانوا يعلنون سخطهم على من يزعم أنه شيوعي • والشيء الوحيد الذي لم يكونوا يغتفرونه هو أن يوجد أي شك حول مقتله أو أن يزعم البعض أن مقتله كان حادثا عرضيا • لقد لاحظت عندما كنت في اسبانيا أن معظم الشعراء الاسبان كانوا يحسون نوعا من الخزي من هذه الدعاية التي أقيمت حول مقتل الرجـل •

وهناك ماهو أسوأ من هذه المبالغات في الدعاية ، كالهجوم المفترى على الجماعات التي لم تكن على علاقات طيبة مع الشيوعيين داخل الجمهورية • لقد كان حل منظمة جماعة تروتسكي والافتراءات التي ألصقت بأفرادها ووصمتهم بأنهم فاشيون ، كان كل هذا وصمة في جبين الجمهورية في نظر كل من لم يكن شيوعيا •

لقد أخبرني بعد انتهاء الحرب قائد كتيبة اسبانية أنه يعتقد أن الدعاية الشيوعية أساءت الى قضية الجمهورية أكثر مما أفادتها ، ثم أضاف يقول: « إن قضيتنا كانت من الوضوح والنصاعة بحيث لم تكن في حاجة الى الكذب لتأييدها » ، وهذه ملاحظة حكيمة ، فإن الدعاية التي ترسم الصديق ، ناصع البياض والعدو قاتم السواد لا تقنع إلا من كان مقتنعا من قبل ، أما الآخرون فإنهم يرون ذلك أمرا مخالفا للطبيعة البشرية لا يصدقه إلا من كان أعمى ، أما من يعطفون على القضية ولكن بأعين مفتوحة فإن مثل هذه الدعاية تسوؤهم وتزعجهم •

لقد حدث في مرات عديدة أن أنتجت هذه الدعاية الشيوعية أثرا عكسيا شديدا لدى قوم خدعوا بها أول الامر ، وقد التقيت في بلنسية برجل يعتبر نموذجا مدهشا لهذا الأمر • كان صحفيا أمريكيا يكتب لإحدى الصحف البريطانية الكبرى ، وكان بغير شك من أكبر المؤيدين

للجمهوريين ، فقد كان يجلس في ردهة فندق ڤيكتوريا يقرأ جريدته في دهشة وسخط وهو يرى يوما بعد يوم كيف أنها تنشر التقارير المطولة لمراسلها لدى فرانكو بينما تختصر تقاريره هو حتى لا يكاد يبقى منها شيء . وذات يوم سألني هذا الصحفي ، بتلك السذاجة التي تكون أحيانا صفة لأذكياء الأمريكيين ، عما اذا كان الجمهوريون قد ارتكبوا حقا جرائم القتل التي كانت التقارير قد وصلت بها حديثا من بلنسية وبرشلونة ، فلما أجبته أن من المتوقع طبعا لمثل هذه الاعمال العنيفة أن تصحب أي حرب ثورية ، تساءل ببراءة : « اذا كان الأمر هكذا فلماذا ينكرونه ؟ » ثم أضاف يقول : « ألا يزعزع من إيمانك بالجمهورية مثل هذا الأمر ؟ » فلما قلت له : « لا ، مطلقا » ، قال : « لو علمت حقا أن أمثال هذه الأمور تقع وهم يصرون على إنكارها لفقدت إيماني بالقضية كلها » .

وقد ذهب هذا الصحفي بعد ذلك بعدة أسابيع الى برشلونة في الوقت الذي كانوا يقومون فيه بتصفية جماعة تروتسكي ، واستنكر الرواية التي أوحى بها الشيوعيون عن النشاط الضار لهذه الجماعة ، فغادر اسبانيا ، ولم يعد بعد ذلك من أنصار الجمهورية .

في تموز (يوليو) عام ١٩٣٧ حضرت اجتماعات مؤتمر الكتاب الدولي الذي انعقد في بلنسية ومدريد ، وكان « أندريه جيد » في ذلك الحين قد نشر حديثا كتابه « العودة من الاتحاد السوڤيتي » ، كان هذا الكتاب عبارة عن يوميات لو كتبت عن أميركا أو بريطانيا أو ايطاليا أو فرنسا لما أثارت كثيرا من التعليق ، ولما أثارت بالتأكيد شيئا من السخط أو الغيظ ، ولكن لما كان الكتاب عن روسيا ، وكان جيد بجوار ما وجده من حسنات تستحق التنويه ــ قد علق على ما لاحظه من تملق ومداهنة لستالين ، وأشار الى جو الشك والخوف الذي لم يستسغه ، فقد هب صراخ من الشيوعيين في كل مكان من العالم كصراخ أم تدافع عن طفلها

المدلل لأن أحد المارة اشتد في تأنيبه . لقد تحول جيد عندهم من « أعظم كتاب العالم الذي ذهب إلى أعظم ديموقراطية تقدمية في الدنيا » فصار عندهم فاشيا ومنحطا وخائنا تسبه الصحافة الشيوعية في عبارات بدت لي في ذلك الوقت شيئا لا يصدق .

لم يكن المندوبون الروس في هذا المؤتمر يمتازون إلا بغطرستهم وكسلهم العقلي ، فاذا قاموا يتحدثون لم يكادوا يقولون شيئا عن الأدب ، وإنما يكتفون بالنباح ضد تروتسكي وجيد والمديح لستالين والشيوعيين ، ثم يجلسون . أما إيليا إهرنبرغ والكسي تولستوي وكولتزوف والآخرون فما قالوا شيئا أبدا يمكن أن يستثير بحثا أو جدلا بين المندوبين ، لا في الجلسات العامة ولا الخاصة ، إذ لم يكن لهم رأي خاص في شيء . فأما كولتزوف فامتاز بقدرته على ارتجال المحاكاة التهكمية لكتاب جيد ، غير أن هذه الموهبة لم تنفعه على كل حال ، فإنه ما كاد يعود الى روسيا حتى اختفى تماما من الحياة العامة .

لقد أبديت ملاحظة في هذا المؤتمر عن إباء الناس أن يؤمنوا بشيء لا يريدون أن يؤمنوا بـه أو أن يروا شيئا لا يريدون أن يروه . ومن بلنسية انطلقت الى برشلونة في طريق العودة ، وكان معي في السيارة شاعر شيوعي وقصصية وصديقتها الشاعرة ، وجلست أنا في المقدمة بجوار السائق الكاتالوني ، وهو رجل أنيس وإن كان عنيفا ، فقد جعل يباهي بأنه قتل عمدا خمسة أشخاص رميا بالرصاص في شوارع برشلونة خلال الأحداث التي صحبت تصفية جماعة التروتسكيين .

وبينما نحن في الانتظار عند الحدود أشارت القصصية ، التي كانت تشبه المربيات في وقارها وتصلبها ، الى أننا خلال الايام العشرة التي عقد فيها المؤتمر ثم طوال رحلتنا في اسبانيا لم نشهد أي دليل على تصرف من جانب الجمهوريين يجافي الكمال ، فلما لم أستطع أن أمسك لساني ،

وأعدت على مسامعهم ما كان السائق قد حدثني به من فترة قصيرة ، نظر إلي الشاعر والسيدتان محملقين في سخط ودهشة ، ثم نظر بعضهم الى بعض ، وانطلقوا دون كلمة واحدة •

كان هناك في مدريد كاتب انكليزي أصبح نائبا سياسيا (قومسير)، وقد جعل يوضح لنا بتعاظم وصخب كيف أن حلة الجندي التي يلبسها هي مثل دقيق يوضح الارتجال والفوضى في حكومة الجمهورية ، فقد كان من الواجب أن يرتدي حلة ضابط كبير • وقد اعتاد هذا الكاتب القومسير أن يتحدث الينا أنا والشاعر بين الحين والحين في غرفتنا بالفندق عن حقيقة الحرب والأسس التي تقوم عليها ، وكان مضمون الحديث دائما واحدا : أن الشيوعيين يمثلون الوحدة بين مؤيدي الحكومة المختلفين وفي داخل الجيش وفي داخل الفرقة الدولية ؛ وأنهم كلما نجحوا في إقناع الأحزاب الأخرى بالاتحاد ، تولوا هم قيادة القوى الموحدة كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فاذا كانوا في بعض الأحوال قد أحجموا لفترة ما عن تولي الادارة والتوجيه فانما ذلك لاسباب (استراتيجية) فنية •

فإذا اعترضت أنا — كما كنت أفعل أحيانا دون جدوى — بأن هذا النوع من الاتحاد ليس اتحادا حقيقيا بل هو خيانة من الداخل للأحزاب الأخرى ، لم أحظ إلا بنظرات التأنيب من القصصية الفاضلة ، وقد يتفضل الكاتب القومسير فيوضح لي للمرة العاشرة كيف أنني عاجز عن التفكير السليم ، والتفكير السليم الذي كان ينقصني هو : أنه من الناحية « التاريخية » لا يوجد موقف أو طريق حقيقي سوى طريق الحزب الشيوعي ، وإذن فالشيوعيون عندما يتحدثون عن الوحدة يعنون توحيد الجماعات المنحرفة المتعددة وهدايتها الى طريق التطور التاريخي الصحيح ، وهم لكي يصلوا الى هذه الغاية يؤكدون أنهم الجماعة

الديموقراطية التي تريد من كل القوى التقدمية أن تتحد ، وعلى ذلك فإن القول بأن الشيوعيين بهذا يخونون الأحزاب الاخرى من الداخل نوع من الجدل « الفاشي » ، والشيوعيون أنفسهم يعتقدون حقا بأنهم يكونون جبهة شعبية ؛ أما من يظن غير ذلك منهم فليس شيوعيا طيبا •

لقد كانت مناقشة هذا الكاتب القومسير نموذجا لما يسميه جورج أورويل في قصته « عام ١٨٨٤ » « ازدواجية التفكير » •

ومن أمثلة « ازدواجية التفكير » أيضا قولهم : بأن الشيوعيين يمثلون الحرية والديموقراطية والجبهة الشعبية في ذات الوقت الذي يصمون فيه الاحزاب والاشتراكيين وأعضاء جماعة تروتسكي الذين يعارضونهم بأنهم فاشيون ، بل ويعملون على تصفيتهم ، كما فعلوا بجماعة تروتسكي التي تخلصوا منها في اسبانيا •

انتهيت في ذلك الحين الى قرار كان — رغم ما قد يبدو من ظهوره ووضوحه — ذا أهمية كبرى بالنسبة لتطور وعيي السياسي ، وهو أن جمع الناس تقريبا ليست قبضتهم على الحقيقة محكمة ، بل هي أبدا متفلتة متراخية ، فالأمور الحقيقية الواضحة بالنسبة لهم هي الامور التي تتعلق بمصالحهم وتؤكد آراءهم ، أما الامور الاخرى التي لا تقل واقعية عن هذه ولكنها لا تمسهم فهي تبدو لهم غامضة غير واقعية • واذن فإن الانسان اذا قرر أن يتبع خطة في السير معينة ، بدا له كل ما يؤيد هذه الخطة حيا وحقيقيا ، بينما يبدو له كل ما يقف في طريق هذه الخطة غير واقعي ، وعلى ذلك فأصدقاء الانسان هم حلفاؤه ، ولذلك يبدون له كائنات بشرية ذات لحم ودم وعواطف مثله ، أما المعارضون فليسوا أكثر من موضوعات وأبحاث متعبة غير معقولة ولا لازمة ، وحياة الواحد منهم ليست أكثر من قضية زائفة يتمنى المرء أن يخلص منها بطلقة من رصاص ، كما (يشطب) الفقرة المغلوطة بقلم من رصاص •

وليس من اليسير أن يفكر المرء بغير هذه الطريقة ، فذلك يتطلب قدرا استثنائيا من العقلية العادلة الحكيمة ، أو من الوعي القائم على الخيال السامي . لقد أفزعني ما لحظته خلال الحرب الاسبانية من أنني أفكر بهذه الطريقة ذاتها ، فقد كنت حين أرى صور الاطفال الذين قتلهم الفاشيون أحس بالغضب والرثاء ، أماحين أسمع حديث أحد أعوان فرانكو عن فظائع الشيوعيين فما كنت أحس غير السخط على هؤلاء الناس الذين يكذبون الى هذا الحد . كنت في الحالة الاولى أرى جثثا أما في الحالة الثانية فقد كنت فقط أسمع كلاما . غير أن الشيوعيين لم يستطيعوا على كل حال أن يعلموني الرضى عن النفس وعدم النقد لها ، ولذلك لم يلبث أن نما فيَّ بالتدريج شعور بالفزع من الطريقة التي كان عقلي يعمل بها ، وتبينت أنه مالم يكن اهتمامي موجها الى كل طفل قتيل بدرجة سواء ، فأنا لايهمني مقتل الاطفال مطلقا وانما أنا أقوم بعملية عقلية قذرة تجاه بعض الجثث التي يمكن أن تصبح وقودا للدعاية العاطفية ، ولذلك ظهرت لامبالاتي الحقيقية حين لم أعر تلك الجثث التي كانت ضحية اعتداء الجمهوريين اهتماما .

اذا صح ما أعتقده من أن في الانسان ميلا الى التفكير الغامض المجرد دون اقامة وزن للحقائق البشرية التي تقع في طريق عواطفه السياسية ، فان شرح العقلية الشيوعية يصبح أمرا ممكنا ، فإن الشيوعيين يتبنون نظرية اجتماعية تنسي احدى الرذائل البشرية : انهم ينظرون الى قضيتهم الخاصة والى أعوانهم على أنهم حقائق واقعة ، أما القضايا الاخرى والداعون اليها فهم في نظرهم نماذج غامضة غير محسوسة لوضع يستند الى نظرية بالية .

قد يرى البعض أن الغاية تبرر تلك الرذيلة ، لان الشيوعية لا بد وأن تؤدي في النهاية الى زيادة السعادة البشرية كمًّا وكيفا ، غير أن السنوات الماضية أقنعتني تدريجيا بأن هذا غير صحيح ، لأن الرضى عن

النفس الذي يتمتع به أولئك الذين يؤمنون بأن منهجهم مطابق تمام المطابقة لصالح البشرية وسير التاريخ بحيث أن كل من يخالفه انما يعيش فقط لكي يدحض ويطرد أو يمتص ويبتلع ، لا ينتج عنه إلا تجرد الشيوعيين أنفسهم من الصفات الانسانية والفضائل البشرية . ان التاريخ البشري يصنعه قوم يسيرون على مبادىء ، ولا تصنعه المبادىء دون نظر الى صفات حملة المبادىء وأخلاقهم ، فاذا كانت هذه المبادىء تعمل على تجريد الانسان من الصفات البشرية ، فان المجتمع الناتج عن ذلك لا يمكن إلا أن يكون مجتمعا مجردا عن الصفة الانسانية . انني رغم عدم اقتناعي بما يقول به الدوس هكسلي وأمثاله من أن السلطان يطغي ويفسد ، أعتقد أن السلطان لا ينقذه من الفساد والطغيان إلا أن يحفظ له التواضع معناه الانساني ، اذ بدون التواضع يتحول السلطان الى اضطهاد وطغيان وكذب ونفاق .

انني لم استطع إلا أن ألاحظ بيني وبين نفسي ، كما شاركني في هذه الملاحظة بعض رفاقي وأصدقائي ، أن ما يسري بيننا من تشجيع لرذيلة الاعتقاد بأنه لا يوجد في البشرية إلا قضية واحدة وسبيل واحد هو السبيل (الحق) قد كان له على شخصياتنا أثر سيء ، فقد علمنا أن نستغل آلام الناس ومآسيهم اذا كان ذلك يخدم أغراضنا ، وأن نهملها اذا لم تكن ذات نفع لنا . لقد شجعنا ذلك على أخذ صورة غير كاملة ولا عادلة عن الصراع الدائر ، كما قام حائلا بيننا وبين تصحيح هذه الصورة في ضوء الخبرة المباشرة اذا كان هذا يتعارض مع آرائنا ومبادئنا النظرية .

الحقيقة الواضحة ، وهي أنهم حين دخلوا الشيوعية كانوا قد انتهوا الى قرار بدل الحقيقة كلها في نظرهم ، فلم يعودوا يرون في الصورة إلا الاسود والابيض ، ولم يعد يمكن لأي عامل من العوامل التي يقابلونها في الحياة

اليومية أن يؤثر على القرار العام الذي استقر في عقولهم • أصبحت الثورة لديهم هي البداية وهي النهاية ، وهي خلاصة الخلاصة • إنهم ينتظرون في يوم ما وفي مكان ما أن يسير كل شيء في طريق السعادة الكاملة ، وهي دكتاتورية الطبقة العاملة ووجود المجتمع الشيوعي وقد محت هذه الفكرة الثابتة كل خبرة وتجربة تعارضها •

وهكذا يبدو رجل الفكر الشيوعي عظيم الاهتمام بالنظرية قليل الاهتمام بالدلائل التي قد تعارض هذه النظرية ، فأنا مثلا لم ألتق أبدا بواحد منهم يهتم أدنى اهتمام بأي جانب من روسيا غير الذي تعرضه دعاية ستالين ، ولم يدهشني أن عددا من الشيوعيين وأصدقائهم تطوعوا خلال قضية كرافشنكوا في بارس للشهادة ضد كتاب « آثرت الحرية » رغم أنهم يزعمون أنهم لا يعلمون شيئا عن روسيا • وكانت وجهة نظرهم أن كل ما يلزم أن يعرفوه هو أن كرافشنكو معارض للنظام السوفيتي ، وهذا يثبت أنه ولا بد على خطأ •

كذلك كان الشيوعيون في سلوكهم لا يكترثون باتباع الدقة والامانة ، اذ لا أهمية عندهم لغير المسائل النظرية • كانوا يرون أن الغايات تبرر الوسائل ، ولهذا كان مراسل الجريدة الشيوعية يجد الكثير من الفخر والسرور في اخباري بأن من الضروري أن نكذب ، كما أخبرني الكاتب ـ القومسير بكل عجب كيف دبر أمر ارسال جندي كان ممن لا يمكن الاعتماد عليهم الى جزء من جبهة القتال في اسبانيا حيث لا أمل في عودته حيا ، كان هاري بوليت ، الذي نشر في عام ١٩٣٩ تقريرا أعلن فيه أن الحرب انما كانت تدار بين الديموقراطية وبين الفاشية ، لم يلبث أن سحب تقريره هذا في الحال عندما لم يعجب المسؤولين في روسيا ، ووافق على أنها كانت مشاجرة بين الرأسماليين الاستعماريين في كلا الطرفين ، وعندما التقيت عام ١٩٤٦ بأحد قادة الحزب الشيوعي البريطاني قال مؤنبا ومتهما : « لماذا تقيم كل هذه الضجة

حول أرواح بضعة آلاف من البولنديين بينما الاتحاد السوفيتي كله في خطر ؟ » فهنا نجد أن النظرية القائمة في الذهن تلغي كل الاعتبارات الاخرى باعتبارها أقل وزنا ، فاذا تغيرت خطة الحزب وتقرر أن ما كنا نسميه بالامس ديموقراطية هو اليوم فاشية فلا تناقض هناك ، لأن خطة الحزب تعني الاتجاه الذي يتبناه الحزب تجاه غير الشيوعيين ، وكلهم يتساوون في أنهم في نظر الشيوعيين أمور مجردة ليس لها وجود واضح محدود •

وهكذا فالشيوعيون دائما يفرضون النظرية على الحقيقة ، والشيوعي السعيد يعيش في حالة من النعيم المادي التاريخي حيث تحجبه الغابة ولا يلقي باله الى الاشجار ، لا كأولئك الذين تشغلهم الاشجار عن الغابة •

ولما كنت أنا شخصيا لم أعش أبدا في مثل هذا النعيم فقد كان من الامور المحيرة لي ذلك اليقين الذي لدى الشيوعيين عن أمور لا يكادون يعرفون عنها شيئا ، وانما كل مافي الامر أنهم يفرضون عليها نظريتهم •

ومن الامور المحيرة أيضا تلك الطريقة التي يتحول بها الشيوعيون السابقون الذين كانوا بالامس القريب يعرفون جوابا لكل سؤال فيهجرون الشيوعية ويقدمون كتبرير لتغيرهم هذا نفس الاعتراضات التي كانوا بالامس يهملونها ولا يلقون لها بالا •

ومن الامثلة الطريفة على هذا التغير السيدة « شارلوت هولدن » التي كانت في ذلك الحين زوجة للاستاذ « هولدن » • كانت هذه السيدة عندما التقيت بها خلال الحرب الاهلية الاسبانية مثلا طيبا للشيوعي في حالة النعيم التي تتحدث عنها ، وأذكر في مناسبة من المناسبات بعد أحد الاجتماعات أننا ركبنا سويا في أحد شوارع لندن حيث رأينا صفوفا من الناس تنتظر « الترام » تحت وابل من المطر فقالت السيدة هولدن متعجبة : « صفوف ! كم هو مخزي ! ان أمثال هذه الاشياء لا يمكن أن تحتمل في روسيا » ، فقلت معترضا : « ولكنني على ثقة من

أن هناك صفوفا في روسيا • لقد قرأت عنها » فنظرت الي السيدة هولدن تلك النظرة النبيلة المتعالية التي تجمع بين الاحتقار والشفقة والتي تعتبر تقليدية بالنسبة للنساء الشيوعيات حين يسخرن من شيء •

على كل فان السيدة هولدن ذهبت خلال الحرب الى روسيا باعتبارها من كبار مؤيدي نظام ستالين ، فلما عادت من هناك انفصلت عن الشيوعية كما انفصلت عن زوجها الاستاذ هولدن ، ونشرت بعد ذلك مقالا في الصحف يعتبر من ناحية كاشفا وموضحا كما يعتبر من الناحية الاخرى • غامضا ومبهما • كتبت تقول :

وا« كل كلمة تقال أو تكتب أو تنشر عرضة لمثل هذا التفحص ذلك العلماء ، يسري فيه احساس واعي برقابة الحزب الشيوعي التي لا تفتأ تتجسس وتسجل •

وان كل كلمة تقال أو تكتب أو تنتشر عرضة لمثل هذا التفحص الكلي ، وقد تقدم في أي وقت كدليل ضد المتحدث أو الكاتب » •

والذي يحيرني في هذا الامر هو : هل كان من الضروري أن تذهب السيدة هولدن الى روسيا كي تكتشف هذا ؟ لقد كان يمكنها أن تستنتج هذا الامر من عشرات الكتب التي يصعب أن يقال : انها لم تقرأها ، ومنها كتاب أندريه جيد « العودة من الاتحاد السوڤيتي » فان كان كلام جيد لم يقنعها بأن هناك اضطهادا في الاتحاد السوڤيتي ، فكيف أمكن أن يغيب عنها الاضطهاد الهستيري الذي قوبل به كتابه ، والذي يدل بكل وضوح على المعاملة التي كان يمكن أن يلقاها جيد من الشيوعيين لو وقع تحت أيديهم ؟ ان التفسير الوحيد لهذا التغير الذي انتاب قلبها هو أن ما كان يبدو لها من قبل أمرا لا أهمية له قد أصبح خلال زيارتها للاتحاد السوڤيتي أمرا ذا أهمية ، وهي بدون شك جديرة بأن تهنأ على هذه الامانة التي دعتها الى تغيير آرائها •

والسيدة هولدن قد أثارت عند خاتمة مقالها هذا ، وهي تحاول أن تفسر موقف الاستاذ هولدن ، مسألة أعظم أهمية من مسألة الكتاب الذين يتبعون ستالين هي مسألة العلماء الذين يتبعون ستالين • انها تقول جوابا على هذا الامر :

« انهم لا يرون إلا من خلال زجاج معتم ، أو لعل الافضل أن نقول : من خلال عوينات وردية اللون تكشف لهم عن دولة « اشتراكية » تخصص فيها مبالغ خيالية للبحث العلمي ، ويجزى العلماء فيها خير الجزاء ، ولا يعوقهم في عملهم خوف من أن مخترعاتهم ومكتشفاتهم سوف يستغلها كبار رجال الاعمال لمكاسبهم الشخصية » •

لعل حكاية بعض انطباعاتي الشخصية عن الاستاذ هولدن وعن الاستاذ « بيرنال » الذين راقبتهم عن بعيد بضع سنوات تظهر لنا على الاقل أن العلماء بشر كغيرهم من الناس ، وتوضح ما اعتقدته دائما من أننا لا ينبغي أن نشعر بالثقة في رفاقنا من بني الانسان ، مهما بلغ من ذكائهم ، ما لم نكن على ثقة من أن مباديهم يلطف من غلوائها ذلك الاحساس بالتواضع الذي يضع حدا لغلو الانسان وغروره •

ان الاستاذ هولدن يبدو لي رجلا ذا صفات عظيمة ، لعل التواضع أقلها وضوحا ، فقد اشتهر عنه أثناء قيامه بالتدريس في جامعة كامبردج أنه أستاذ غريب الاطوار الى حد ما ، يحب أحيانا أن يعلن عن بطولته ، فبينما كان يقوم ببعض التجارب في « مخبأ هولدن ضد الغارات الجوية » قبل قيام الحرب بقليل ، أعلن أن الاستاذ هولدن أصر على الجلوس في المخابىء بينما كانت المتفجرات العنيفة تلقى في منطقة قريبة •

وقد كنت ذات مساء في احدى حفلات عيد الميلاد التي أقامتها أخته « ناومي متشيسون » خلال الحرب الاهلية الاسبانية ، عندما ظهر

هولدن الذي كان قد قدم حديثا من أسبانيا . وقد بدا هولدن تعسا ضيق النفس الى أن انتهت ألعاب الاطفال وألغازهم . وأصبح في استطاعته أن ينعش الحاضرين بقصص عن مغامراته العنيفة في اسبانيا . ان الاستاذ هولدن يبدو لي شبيها بطلاب المدارس الاحداث ، فهو يخفي وراء رداء الاستاذية شغفا بالمغامرات والمخاطر العلمية ، ويبدو أنه يستمتع بمناظر العنف ومظاهره ، وأحسب أن السيدة هولدن تشير الى جانب آخر من شخصية الرجل حينما تقول : ان العلماء يرون في الاتحاد السوفيتي حقلا كبيرا يجد فيها كبار العلماء المكرمون حرية اجراء تجاربهم العلمية .

ولست أقول هذا الكلام لتشويه سمعة العلماء من أمثال الاستاذ هولدن ، وانما لمجرد الاشارة الى أنه من الخطأ أن يظن أن العلماء في اتجاهاتهم وآرائهم الاجتماعية يكونون بنفس صفات الانصاف والبعد عن التحيز التي يكونون عليها مخابرهم ومعاملهم ، وانما هو في الحقيقة عرضة لأن تضللهم عواطفهم كغيرهم من الناس سواء بسواء ، فضلا عن أن المجتمعات الموجهة فيها شيء من الاغراء الخاص للعلماء .

أما « بيرنال » فيبدو أقل فظاظة وصبيانية من هولدن ، أو قل : انه صبي من نوع آخر . انه دون شك عبقري في عمله العلمي ، لكنه يندفع مع العاطفة في الناحية الاجتماعية . انه شديد الحماس لفكرة وضع نموذج المنزل المثالي للانسان الاشتراكي ، ذلك النموذج الذي سيخلف كل الخطط الهندسية السابقة ، كما أنه مفتون بكل شكل من أشكال التخطيط للكائن البشري ، وتظهر في أفكاره الاجتماعية نزعة الى الغلو والتطرف في الخيال لعله لا يسمح بها في عمله العلمي .

اننا في مجتمعنا ننسب الى العلماء حكمة اسمى من حكمة البشر ولكن لعله من الانسب أن تقول : انهم ككل المتخصصين والهواة الفنانين ضعيفوا النزعة الانسانية الى حد ما . انهم من ناحية يظهرون حماسا

للخطط التي تسعى لجعل المجتمع حقلا واسعا للتجربة العلمية ، ولكنهم من ناحية أخرى لم يصنعوا شيئا يذكر لحماية المجتمع من سوءاستعمال مخترعاتهم ، وهم على الاغلب كلما وجه اليهم الاتهام بأنهم مسؤولون عن المخترعات المدمرة تستروا وراء الدعوى بأنهم محض علماء ، وهم لا يكادون يدركون مقدار الدين الذي يدين به المجتمع المعاصر للمواريث الثقافية الماضية ، ولا مقدار الخسارة التي نخسرها اذا تحطمت العمارة الهندسية السابقة مثلا وأصبحنا نعيش على الآلات وحدها .

لقد كان علماء ألمانيا في عهد هتلر يكرسون أنفسهم لخطط تعمل على اصابة ضعاف العقول بالعقم أو اهلاكهم ، كما كانوا يعرضون مناطق كاملة للهلاك لاجل استعمال الكائنات البشرية كحقول للتجارب. ان لي صديقا هو نفسه من العلماء ذهب الى ألمانيا بعد الحرب لكي يدرس مجهودات علماء الالمان ، وقد أخبرني أن أكبر صدمة أصابته كانت ما اكتشفه من أن الكائنات البشرية عندما كانت تهيأ للعلماء الالمان لأجل تجاربهم كانوا يجرون عليها التجارب باسراف شديد لا يرحم ، بل وكثيرا ما كانوا يجرون من التجارب ما لا ضرورة له مطلقا . ولست أعني بهذا أن العلماء في كل مكان قد يصنعون هذا ، ولكن ينبغي التنبيه الى أن العلماء لايجدون في قاعدة « العلم لأجل العلم » ما يردع عن مثل تجارب اصابة ضعاف القول بالعقم ، فاذا حدث أن عارضوا فهم لا يسيرون على الطريقة العلمية . ان العلم الحديث لم يجد سببا لمنع العلم من أن يوجه من قبل الحكومات لاغراض تجلب الدمار الهائل لكثير من الاقطار . ان العلم مجرد أداة ، للخير أو للشر ، فاذا أريد له أن يوجه ناحية الخير فلا بد أن يكون لدى الموجهين ادراك للمعنى الانساني أبعد من ادراك المجتمع العلمي الموجه ، اذ لا بد من وجود هدف في المجتمع وراء التوجيه الطيب المطلوب ، فاذا لم يوجد هذا الهدف فان اخضاع المجتمع للدكتاتورية لصالح العلم

الموجه معناه أننا نهيء الجو مرة أخرى لسوء استعمال العلم . فان توجيه العلم في روسيا بيد السياسيين .

لهذا فانني عندما أرى أناسا مثل بيرنال وهولدن وجوليوت .. كوري يصبحون شيوعيين يستولى علي الشك بأن دافعهم الوحيد لم يكن إلا الايمان الاعمى بأداة العلم . غير أن أداة العلم هذه ليس لها هدف أدبي أو خلقي ، فاذا أيد العلماء وضع هذه الاداة في يد السياسيين الذين يعتقلون معارضيهم ، بل ويصل الامر بهم الى حد اضطهاد العلماء الذين تبدو في أبحاثهم اتجاهات نحو نتائج لا تساير آراء الدولة السياسية ، فيمكن أن نقول : ان هؤلاء العلماء الشيوعيين ضحية نوع من العمى الادبي الذي لازم العلم والعلماء فترة طويلة من الزمن .

كنت خلال عام ١٩٣٠ وما وراءه ألاحظ رفاقي الشيوعيين فكنت أعجب بشجاعتهم ولا أتهمهم بالانانية ، فانهم كانوا قد ضحوا بالكثير، وكانوا على استعداد للتضحية بما هو أكثر في سبيل القضية التي آمنوا بها بعمق وقوة . لكن اذا استثنينا هذه الشجاعة وهذه التضحية فقد كان يبدو لي دائما أن أفضل صفاتهم قد وضعت في خدمة أسوئهما ، وأن شخصياتهم قد أصابها الانحلال . كانوا يؤمنون بتعليم الفقراء كيف يكونون مكافحين ، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين بمحبة المرء لجاره . كانت الحقيقة عندهم عبدا خاضعا لرضى جماعة داخلية صغيرة من القادة ، وكانوا يرون الكراهية هي الدافع للعمل . كانوا يشوهون معاني الصفات والكلمات حين يصفون بها الامم والاحزاب والافراد ، دون أن يدركوا أبدا أن سوء استعمال الكلمات يسبب الفوضى ، فكان « السلام » في لغتهم قد يعني « الحرب » و « الحرب » « السلام » و « الاتحاد » قد يعني « الخيانة من الداخل » و « الفاشية » قد تعني « الاشتراكية » .

لم يكن الشيوعيون أبدا ملزمين بأن ينموا في أنفسهم الحقد والفضول والغرور والخيانة ، إلا أن يكون ذلك لفائدة الحزب ، فحينئذ قد تصبح هذه الصفات في نظرهم فضائل .

وكثيرا ما كنت ألاحظ أن الشيوعي العطوف الانساني بعيد عن أن يكون شيوعيا مثاليا بمقدار ما في نفسه من عطف وانسانية . وانه كان يعلم ذلك جيدا .

وقد تبين لي خلال هذه السنوات أن الشيوعيين يمكن أن يقسموا بشكل تقريبي الى أصناف رأبعة : آ ــ المتمسكون بالنظريات الذين يحسون بما يفعلون بشكل عام تقريبي ، ولكنهم ينظرون الى ذلك بشكل غامض على أنه « ضرورة » . ب ــ السعداء المخدوعون تماما عن روسيا وعن الوسائل التي يستعملها رفاقهم . حـ ــ العمال الذين ليس لديهم ما يفقدون سوى الاغلال والذين يقاتلون ضد الاستغلال الرأسمالي والذين يرون الخير أهم من الحرية . د ــ رجال الشرطة والموظفون السياسيون (القومسيرون) والعملاء والجواسيس ، ولعل هذا الصنف الاخير هو وحده الذي يعلم الحقيقة الكاملة عن المحاكمات ومعسكرات الاعتقال .

لقد توقعت عندما انضممت الى الحزب الشيوعي أنني سأتمكن من معرفة ما يأتيه الشيوعيون ، وأنه سيصبح في إمكاني أن أقارن وسائلهم بوسائل الرأسماليين ، وأنني سوف أتعلم كيف أتقبل علاقة الوسائل بالغايات .

انني ما كنت أتوقع أن ينكر الشيوعيون من بيننا كل شيء عن أعمال الشيوعيين في روسيا وأسبانيا ، ولا أن يكونوا جاهلين بها تمام الجهل .

لقد سبق أن ذكرت لكم عدة أمثلة ، منها عدم اهتمام شالمرز

بالمحاكمات الدائرة في روسيا ، ورفض رفاقي الأدباءفي اسبانيا الاستماع الى حقائق تعقد في أذهانهم صور الاحداث . وفي وقت من الاوقات تجمع لدي مثالان عن نوع من السلوك ينبغي لافراد الحزب أن يتحملوا مسؤوليته ، وبدا لي كل من المثالين حجة لا تنقص . أحدهما : عبارةعن قصة حدثتني بها كاتبة أمريكية شهيرة وزوجة لرجل روسي ، قالت : ان الشرطة جاءت الى بيتها في موسكو في الساعة الثالثة من صبيحة أحد الايام وأخذت زوجها ، ثم لم تعد تره ولم تسمع عنه من ذلك الحين ، ولم تكن لديها أية فكرة عن التهمة التي وجهت اليه ، وقدكانت هي نفسها شيوعية . كانت هذه القضية معروفة جيدا لان رجال الفكر الامريكيين والبريطانيين اهتموا كثيرا بمصير هذا المسكين ، وكتبوا خطابات الى أمانة سر (سكرتارية) الكومنترن فوصلتهم الردود مع الوعد بالاستفسار عن حقيقة الامر ، ولكن أمانة السر صمتت بعد ذلك ولم تعد ترد على خطابات أصدقاء السيدة الامريكية أبدا .

أما القصة الثانية : فتتعلق بصديقي « ي » الذي كان في الفرقة الدولية . كان خال « ي » رجلا من ذوي النفوذ في الحكومة ، وكان قد طلب الى رؤساء الفرقة الاجنبية — برجاء من والدة « ي » — ألا يرسل الى المعارك .

وعندما كنت في اسبانيا ، أخطأت وذكرت ل « ي » ما فعل خاله ، فغضب غضبا شديدا ، وكان شابا شجاعا ، ففر من الفرقة ، وأتاح لهم أن يقبضوا عليه ، ثم طلب أن يقاتل كعقوبة له ، ونجح فعلا فيما أراد ، واشترك في معركة « موراتا » ، وخلال الايام القليلة التي قضاها «ي» في السجن كان موضوعا في زنزانة صغيرة جدا مع عدد من المسجونين الآخرين . يقول « ي » : وليس هذا كل شيء ، بل لقد جاء الى زنزانتنا بعض المساجين الآخرين الذين اعتبروها مكانا واسعا فسيحا

بالنسبة الى ما عرفوه من قبل ، فقد مكثوا يومين في زنزانات لا يزيد حجم الواحدة عن حجم الخزانة (الدولاب) . لم يصب « ي » بصدمة من هذه الاوضاع ولم يؤثر ذلك في فكرته العامة عن الجمهورية ، بل كان ينظر الى ما مر به من خبرة على أنها كانت شيئا مسليا .

ذكرت هذه الوقائع في اجتماع جماعة الكتاب الشيوعيين في لندن، وأوضحت لهم سبب ذكرها في هذه الكلمات : « أنا أدرك طبعا أنه ليس هناك ما يدعوكم الى تصديق هذه الوقائع بالذات ، غير أن معلوماتي تدلني على أنها تقليد متبع وأمر شائع ، فاذا لم تصدقوا ما أعلمه أمرا شائعا فسوف أدرك أنكم تجهلون أمورا كان ينبغي في رأيي أن تعرفوها تماما ، وقد أصبحت مسألة معرفتكم بهذه الامور أوجهلكم بها وانكاركم لها أو اعترافكم بها مسألة هامة جدا بالنسبة الي ، اذ لو كنتم تجهلونها أو تنكرون وجودها ولو فيما بينكم ، فسوف أشعر أن مسألة انتمائي الى حزب لا يعرف أفراده أعمال حزبهم مسؤولية لا يمكنني أن أتحملها . أما اذا اعترفتم بها بينكم ورأيتم أن من الضروري أن تنكر وجودها علنا فسوف أشعر بأنكم جادون ، ولعلي حينئذ أتقبل وجهة نظركم » .

وعندما انتهيت من حديثي ، وقف أحد الكتاب يقول : « لقد أصبح واضحا أن عقلية الرفيق « سبندر » البورجوازية تجعله يختلق قصصا من هذا النوع » ، وقال آخر : « حتى لو لم يكن ما قاله الرفيق سبندر مختلقا تماما ، فقد أصبح معروفا عنه أنه يوجه الانتباه الى هذه الاحداث التي لا أهمية لها ، لكي يحمي نفسه من مواجهة النتائج الحقيقية » ، ثم قام ثالث كانت بينه وبيني مودة وثقة وقال : « أيها الرفيق سبندر ، عليك أن تتنبه الى أن صديقك « ي » هذا كان هو نفسه في السجن حيث يزعم أن هذه الامور وقعت ، ومن المحتمل أن

يكون متحاملا ومغتاظا ، ولذلك ينبغي ألا تعطى لشهادته أهمية كبيرة » .

ولم تكن هناك جدوى من قولي بأن « ي » لم يكن مغتاظا ولا متحاملا بالمرة ، وأن هذا هو الذي دعاني الى اختيار قصته من بين القصص الاخرى التي كان من الممكن أن أذكرها ، كما لم يكن من المفيد أن أقول : اننا يمكن بناء على الاسلوب الذي كنا تتناقش به ، أن نسقط جميع جرائم الفاشية على أساس انها غير ذات أهمية بالنسبة لأعمال هتلر التاريخية ، أو على أساس أنها تستند الى شهادات أناس مغتاظين ومتحاملين لانهم كانوا قد عذبوا وضربوا . لقد اكتشفت في هذا اليوم أن هؤلاء الناس لا يرون أنفسهم مسؤولين أبدا عن أعمال القضية التي يدافعون عنها .

لقد بدأت أتساءل : كم من الشيوعيين يعرفون الشيوعية ، ولازلت أتساءل . ان غيرهم من الشيوعيين لا يقولون لهم : « ان لدينا في روسيا معسكرات اعتقال » ، بل على العكس من ذلك ، لو أومأ واحد منهم الى مثل هذا الامر لاتهموه بأنه يشغل نفسه بالتفاصيل التافهة ، هذا اذا لم يتهموه بالفاشية ، فمتى كان يمكن في كل تاريخ رجل كبوليت مثلا في الحزب أن ينتحي به رفيق له في الكومنترن جانبا ويخبره شيئا عن روسيا إلا أن يكون دعاية لها ؟

ان أعضاء الحزب يعرفون عن الاوضاع الحقيقية في الدول التي تحكمها الشيوعية أقل بكثير مما يتصوره الناس ، غير أنهم يعرفون على كل حال بعض مبادىء الدكتاتورية وقواعدها لأن هذه تعتبر جزءا من مبادئهم وأفكارهم . لقد كانت أول ملاحظة أبداها لي « م. راكوسي » نائب رئيس وزراء المجر الشيوعي هي أن حكومة العمال البريطانية حكومة « فاشية » ، فلما سألته عما يعنيه بهذا القول أجاب: « لسببين ، أولا ، لأنهم لم يملؤوا الجيش البريطاني بقواد اشتراكيين وثانيا ، لأنهم لم يضعوا أيديهم على « اسكتلنديارد » » .

ان هذا الاتجاه له دلائل قد أصبحت اليوم أكثر وضوحا مما كانت قبل اثنتي عشرة سنة ، وقد أظهرها لي « بنيس » في لقاء بيني وبينه في براغ في شتاء عام ١٩٤٦ ، حيث قال : انه يعتقد أن حكام روسيا على الاغلب ما كانوا يستطيعون أن ينجزوا ثورتهم دون الوسائل الرهيبة التي استعملوها ، ولكنه أضاف يقول بحماس : انه يشكر الله أنه لم يحتج أبدا الى استعمال هذه الوسائل ، ويأمل ألا يحتاج اليها مطلقا .

قد كنت وأنا أكتب هذه الكلمات مدركا دائما أن نقدنا للشيوعية لا يرفع شيئا من سيئات الرأسمالية ، ولقد كانت الخبرات المؤلمة في هذه السنوات كافية لان تكشف لناظري أن كلا من الجانبين ينتج الكبت والظلم وتحطيم الحريات والكثير من الشرور والآثام . غير أنه يمكن أن يقال كدفاع عن الرأسمالية : انها لكونها مستقرة من زمن طويل تستطيع أن تعطينا نغمة الحرية في الآداب والفنون وفي المساجلات بين الاحزاب السياسية ، وان كانت الرأسمالية كما تراها في أميركا اليوم ، وهي أكبر دولة رأسمالية ، لا تستطيع ، كما يبدو ، أن تقدم لنا بديلا عن الحروب والاستغلال والتدمير لموارد الثروة ومنابع القوة . ان الشيوعية لو أمكنها أن تقضي على النعرات الوطنية وتنشىء «الأميمة» وأن تؤمم وسائل الانتاج ، لكان من الممكن أن تخلق عالما لا يكون كتلة من التناقض الاقتصادي الآلي .

وعلى كل فاننا ، حتى مع افتراض ان الثورة العالمية يمكن أن تستكمل ، وأن ينشأ في العالم كله نظام اقتصادي وسياسي على أساس شيوعي ، فان صالح هذا المجتمع الجديد الخالي من الطبقات وثقافته ستبقى معلقة على افتراض آخر ، وهو أن « تذوى وتذبل » دكتاتورية الطبقة العاملة .

ان ماركس والكتاب الشيوعيين يفترضون دائما أن هذا الامر واقع لا محالة ، وهم لا يهتمون كثيرا بالكيفية التي ستذوي بها هذه الدكتاتورية وتذبل • انهم يعتقدون أن تحطيم الرأسمالية يتم طبقا لقوانين هي النتاج الآلي الطبيعي للمتناقضات داخل النظام الرأسمالي نفسه ، وأن استيلاء الطبقة العاملة على السلطة ـ وان كان الى حد ما نتيجة الارادة البشرية ـ يتبع أيضا نفس التطور الآلي ، واذن فحين تتم هذه العملية فان الضرورة الآلية لهذه العملية كلها ، عملية تحطيم الرأسمالية وقيام الطبقة العاملة ، سوف تنتهي كذلك ، ويتبعها بطريق آلي ذبول الدكتاتورية حين لا يعود للطبقة العاملة أعداء •

ان هذا القول اذا صح يعني أن الاعتراضات على الشيوعية هي اعتراضات على مضايقات عرضية موقوته • حقا انها مضايقات عنيفة بالنسبة لضحايا الثورة وضحايا الدعاية الثورية ، ولكنه مع ذلك ثمن جدير بأن يدفع في سبيل العالم الموحد الذي تعيش فيه الامم كلها في تآلف وانسجام •

أما اذا لم يكن من المؤكد أن هذه الدكتاتورية ستذوي وتذبل ، فان الانتقادات الموجهة الى الشيوعيين ووسائلهم تصبح حينئذ نقدا موجها الى دكتاتورية باقية الى الغد وما بعده الى أن يشاء الله •

والآن فان من المؤكد أن واحدا من أهم الدروس التي تعلمناها في الثلاثين سنة الاخيرة هو أن دكتاتورية تقوم في هذا العصر الحديث ، ومعها كل الوسائل الحديثة من شرطة سرية ودعاية وارهاب ••• الخ ليس من السهل أبدا أن تزاح • ان ستالين وهتلر وموسوليني وفرانكو لم تتهددهم أبدا من داخل بلادهم ثورات ذات خطر ، فأما أولئك الذين سقطوا فبسبب الدمار الشامل الذي أصاب أوطانهم بفعل القوى والدول

الاجنبية • واذن فمن المعقول أن تؤمن بأن الدكتاتورية العالمية ستكون أرسخ أنواع الدكتاتوريات وأعصاها على الازاحة أو العلاج ، ولا يمكن للمرء أن يصدق ـ في ضوء ما مر بروسيا من تجربة ـ أن الشيوعية أو أي حزب غيرها يمكن أن ينتج دكتاتوريين أو حكومات بوليسية مستبدة على استعداد لأن « تذوي وتذبل » بارادتها ورغبتها •

واذن فان دراستنا لخصائص الدكتاتوريين والقوميسيرين تعطينا فكرة عن طبيعة « الدولة الشيوعية » التي قد تستولي على السلطان غدا ، والتي لن تتنازل عن السلطان أبدا اذا استولت عليه •

لقد لاحظت بين رجال الفكر الشيوعيين خلال سنة ١٩٣٠ وما بعدها نوعا من السلوك قد أصبح اليوم في أوربا الشرقية أمرا رسميا مقررا في نقابات الكتاب التي تملي على القصصين والشعراء كيف ينبغي أن يفكروا ويشعروا • لقد كانت المشغلة الرئيسية لمجموعة الكتاب الذين التقوا لبحث مشكلة الفن والمجتمع الازلية هـي أن الادب ينبغي أن يشرح ويعرض نظريات ماركس حول سمو الطبقة العاملة وحول ضرورة الثورة • ان هذه النظرة العقلية الى المجتمع تمتد بالضرورة بعيدا وراء أي خبرة فردية ، ومجال الخبرة الوحيد هو ان تفسر وجها من وجوه خطة مقررة انتهى اليها الكاتب دون اعتماد على الخبرة •

ومهما بلغ من اخلاص الكاتب للماركسية فان تسلط نظرية معينة على عقله سابقة بكل خبرة لابد وان تكون له نتائجه الحتمية ، فانه لما كان اهم شيء هو ان يكون الكاتب مؤمنا بالنظرية الماركسية ، ينتج عن ذلك أن اكثر الكتاب ايمانا بالماركسية وتعصبا لها وهم في معظم الحالات أسوأ الكتاب تصبح لهم الافضلية على أولئك الكتاب المتواضعين الذين يعتمدون في فنهم وأدبهم على الخبرات قبل كل شيء • ان هذا يعني أن يصبح حملة النظرية والمبـدأ بشكل آلي نقادا أدبيين يحللون الادب كله ، مـاضيه وحاضره ، تبعا لآراء الكاتب وأفكاره •

لقد سمعت شاعرا شيوعيا يوضح لجمعية أدبية في « هيستيد » في الاحتفال بذكرى الشاعر « كيتس » كيف انه رغم أن كيتس لم يكن ماركسياً الا أننا نستطيع على الاقل أن نزعم انه لكونه ولد من أب سائس للخيل ، وأصابه مرض السل فلم تعالجه الدولة ، له فضل كونه ضحية من ضحايا الرأسمالية • كذلك كان هذا الشاعر نفسه هو الذي كتب حين انتحرت « فرجينيا وولف » باسلوب من يهنئها على اختيارها طريق الضرورة التاريخية، ويلمح الى أن أننا نتوقع من بقية الكتاب البورجوازيين أن يحذوا حذوها •

لقد جلست أنصت باشمئزاز الى الصياح التعسفي لذوي المواهب الهزيلة ، فشعرت بشيء من الخزي لهذا الادعاء بان نظرية سياسية معينة على المجتمع يمكن أن ترفع حاملها الى وضع يصبح فيه قادرا على رفض نتائج البصيرة العبقرية ، الا اذا أثبت هـذا النتاج أنه تطبيق للنظـرية السياسية على المادة الجمالية الفنية •

ولم يكن نفوري أقل من ذلك تجاه هـذا النقد الادبي الماركسي الكثير الذي ينظر الى الادب على أنه مجموعة من الاساطير التي يخترعها الكتاب بطريق شعوري أو لا شعوري ليخدموا بها مصالح طبقة صاعدة في التاريخ • انني أعتقد أن شعراء مثل دانتي وشكسبير ، رغم أنهم كانوا بدون شك من رجال عصرهم ومن المفكرين السياسيين ، الا أن خبراتهم لها ناحية سامية فائقة ترتفع بهم فوق المصالح الاجتماعية البشرية تماما• ان المجتمع قد يسير وراءهم في الهامات وكشوف مضيئة عن طبيعة الحياة تخرج به تماما عن نطاق مشاغل أية حقبة تاريخية معينة، فالمجتمع بهذا المعنى قد يسمو عن طريقهم ، وليست تجلياتهم وكشوفهم حينئذ مجرد أمنيات بائدة من أماني مجتمعهم •

ان معتقدات الشعراء عندي وحي مقدس وكشف عن حقيقة الحياة

وطبيعتها قد لا أشاركم الاحساس به ، ولكنني لا أحب أن أبطله ، باعتباري اياه « ظاهرة اجتماعية » • ان الادب ان كان يعلمنا شيئا فهو أن الانسان ليس سجين مجتمعه تماما ، بل ان المجتمع قد يتعلم من الفن والادب كيف يهرب من هذا السجن •

ان عدم الايمان بان الادب هو من بعض جوانبه نقل للخبرات الفريدة التي تمر بالفنان كفرد ، يعني أننا نعتبر الادب والفن مجرد تعبير عـن حاجات اجتماعية ، ولما كان الشعراء والكتاب لا يعتبرون أقدر الناس على الحكم على الافكار التي تعبر عن نمو المجتمع وتطوره ، فان هذا يعني أن أصحاب النظريات من رجال السياسة في موقف مـن يملي على الادباء ما يطلبه المجتمع من فنهم وأدبهم ، وقد وجدت أن هذا هو فعلا موقف الشيوعيين واتجاههم •

انني أذكر جيدا ذلك الاجتماع الذي عقده منظموا « مسرح المجموعة » لبحث تمثيلية شعرية من تأليفي كانت قد مثلت على المسرح هي «محاكمة قاضي » ، فقد قامت فتاة شيوعية حسنة الهندام تحتج على التمثيلية وتقول : انها أصيبت هي وزملاؤها الشيوعيون بخيبة أمل كبيرة، فقد كانوا يتوقعون أن تتحدث التمثيلية عن وضع يكون فيه الفاشيون رأسماليين والاحرار ضعافا والشيوعيون على حق ــ وهو الامر الذي يعرفونه جيدا ــ ولكن التمثيلية بدلا من ذلك أظهرت ميلا الى العطف على وجهة نظر الاحرار ، يضاف الى ذلك انه قد بدا في الفصل الاخير عنصر من التصوف ، وليس مذهب الاحرار أو التصوف هو الذي نريده من الكتاب الآن ، بل نريد الحديث عن الشيوعية المكافحة•• الخ

ان وجهة نظرها تشبه تماما وجهة نظر « هاري بوليت » الذي كان كلما لقيني يقول : « لم لا تكتب أغنيات للعمال كما فعل «بيرون» و « شيللي » و « ويردسورث » ؟ وهو سؤال لا جواب عليه إلا اذا شاء الانسان أن يجلب لهؤلاء الشعراء بعد وفاتهم خزيا لا ينفك عنهم•

لعل مثال الفتاة الشيوعية ومثال « هاري بوليت » قد تبدو أمثلة فجة ، غير أن ستالين نفسه يشكل مثالا أكثر فجاجة • وان كان أقوى فعالية وأثرا ، اذ كثيرا ما يعبر عن قدر كبير من الفجاجة والغشم بنوع من الحذق والدهاء • لقد حدث مثلا في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٤٧ أن جعل أستاذ اللغة الروسية في احدى الجامعات الكبرى ، وهو نفسه روسي شيوعي على قدر كبير من الذكاء والسحر ، يدافع عن هجوم اتحاد العمال السوفيتي على « باسترناك » و « زوشفكو » وغيرهما على أساس أن روسيا ليست في حاجة الى كتاب مجيدين • كان يقول : « ان هؤلاء هم حقا أعظم كتابنا ، ولكننا لانستطيع أن نسمح بوجود كتاب مجيدين • ان أفضل شعرائنا يكتبون القصائد التي تثير الكآبة في نفوس الناس ، لانها تعبر عن احساس انتحاري بتفاهة الحياة وخلوها من الهدف ، ونحن نريد من الناس أن يجدوا ويعملوا كما لم يعملوا من قبل ، ولذلك لا يمكن أن نسمح للكتاب بأن يقولوا : انهم ليسوا سعداء » •

ولكن لا ينبغي أن تضيع مني المسألة الرئيسية وسط هذه السخافات • قد تكون القسوة والعنف ومعسكرات التجميع وانحراف العلوم والفنون لها ما يبررها اذا كانت هذه الوسائل تؤدي في النهاية الى المجتمع « اللاطبقي » المنشود ، ولقد كانت هذه هي المسألة التي تشغل بالي دائما ، وهي مسألة ذات وزن كبير ، فانه لو صح أن الشيوعية سوف تخلق حقا مجتمعا عالميا عادلا لاصبحت كل هذه الاعتراضات ضئيلة القدر •

غير أنني مع ذلك انتهيت الى أن الاحزاب الشيوعية في العالم ، بتنظيمها الحالي ، لا يمكنها أن تخلق عالما أفضل ، بل قد تؤدي الى عالم أفظع وأشد سوءا • والسبب في هذا أن سلطة كبيرة جدا قد

تركزت في أيد قليلة جدا ، وهذه الايدي القليلة محمية من كل نقد لسلوكها وتصرفاتها — على غير الاساس الحزبي — الى حد أنه لايمكن حماية غيرهم ولا حمايتهم هم أنفسهم من أسوأ صفاتهم البشرية : الوحشية والحقد والحسد والشره وحب السلطان •

انني — لكوني لا أومن بأن النظام المركزي للشيوعيين قادر على خلق مجتمع لاطبقي ، بل ولفعل أي شيء سوى انشاء عهد من الحكم الاستبدادي الحقود الحسود — لا أشعر بأن من الواجب علي أن أتنازل عن رأيي في سبيل رأيهم ، مهما بلغ من قوة رأيهم وضعف رأيي •

ان النظام الشيوعي يصور درجة من المركزية على نطاق لم يعرف مثله الى اليوم • ان حزبهم السياسي — وهو الحزب السياسي الوحيد — هو في ذاته مركز ، ويعتمد على توجيهات عدد قليل من الرجال ، كما أن مهام الدولة الاخرى مركزة أيضا في هذا الاتجاه السياسي الموحد •

ان تمركز الفن والادب حول السياسة لن يعني في النهاية سوى الدمار الكامل للفن وللادب والبلاء العظيم لكثير من الناس ، وان كان من غير الممكن أن يصيب الخطر السلطة المركزية التي تحميها الشرطة • وفي الحقيقة ان الفنون في روسيا قد تدهورت فعلا الى حد كبير ، ومن العجيب أن الشيوعيين أنفسهم يعترفون بهذا أحيانا ، فقد أوضح لي « إيليا إهرنبرغ » عام ١٩٤٥ في باريس أن الروس لن يشتركوا في معرض للرسوم العالمية لانه لم يكن لديهم رسامون مجيدون ، ثم أضاف الى هذا أن أحسن القصص اليوم هي القصة الامريكية ، وأن روسيا لا تتميز إلا في الموسيقى ، إلا أن شيوعيا مجريا أخبرني بأن الروس قد قضوا على الادب والرسم في روسيا وأنهم دائبون اليوم في القضاء على الموسيقى •

والآن فان الفنان يمثل أسمى وعي متطور في المجتمع ، وهو لا يحمل وجهة نظر رسمية عامة مطردة عن النشاط البشري والحاجات الانسانية ، بل هو يملك بصيرة عميقة الغور يغوص بها في أعمق احساسات الناس وخبراتهم وأحوال سعادتهم أو شقائهم ، وليس معنى قولنا : ان الفنان رجل فردي انه يخلق ويبدع من حنايا نفسه فقط ولاجل نفسه فقط ، وانما معناه انه يبدع من أفق خبراته الخاصة ماله صلات عميقة بخبرات الكثيرين على مستوى يفوق مجرد التعبير عن الحاجات البشرية .

اذن فالادب والفن شاهدان على الاحوال البشرية خلال ظروف زمانية ومكانية معينة ، واخضاع الخبرة الفردية لهذا التعميم في الملاحظات والمعلومات الرسمية معناه أن نقطع عن البشرية وسيلتها الرئيسية التي تعينها على أن تكون مدركة لنفسها كمجموعة من الافراد يعيشون سويا من خلال حياة أشخاص منفصلين . انه ليصعب على الانسان أن يصدق أن السلطة المركزية لدولة تنكر على الكتاب والفنانين حرية التعبير عن انطباعاتهم اذا لم تكن منسجمة مع وجهة النظر السياسية لها يمكن أن تملك من الحيوية والقوة المعنوية ما يدخل السعادة في حياة أفرادها . ان كل ما تملكه مثل هذه الدولة هو جهاز ومنظمة تقوم مقام العيش والحياة . ان القضاء على حرية الادب والفن هو في الحقيقة نوع من الجنون ،يشبه القضاء على حرية الفرد في أن تكون له أذنان يسمع بهما الاصوات والنغمات التي يستسيغها عقله ، وأن نركب له عوضا عنهما « ميكروفونات » قد أعدت وأديرت بحيث لا يسمع خلالهما الا ما يريده له الموجهون والقادة ، أي تلك الاصوات التي أعدتها وحددتها مكبرات الدولة . ومع ذلك فان هذا القضاء على الحرية يجعلونه مشروعا ويؤيدونه بشعار يقول : ان الحرية هي

الاعتراف بالضرورة . وهذه الحرية السياسية القائمة على الضرورة يقصد بها ما تراه الدولة ضروريا لسد حاجات الانسان المعمم المجمع الذي لا فردية له . ان حرية الادب والفن تؤيد فردية كل كائن بشري ، ورغم أن الادب غير السياسة ، الا أنه سياسي بمعنى أنه لا يزال يوسع مفاهيمنا عن الحرية الانسانية ، وهذا التوسع في مفاهيمنا يغير من مفهوم الحياة عندنا من جيل الى جيل ، ويؤثر في النهاية على أهداف المجتمع السياسية .

وقد يقول لنا ناقد غير صديق : ان هذا الكلام نقد لي أنا قبل أن يكون نقدا للشيوعية ، وأنا أرجو أن يقول ذلك ، لانني قصدت أن أنتقد نفسي فيما يتصل بالشيوعية قبل أن أقصد مباشرة هذه المهمة اليائسة : مهمة نقد الشيوعية . ان الشيوعية هي الايمان بأن في الامكان تغيير المجتمع عن طريق تحويل الرجال الى آلات تقوم هي بتغيير المجتمع ، ولا يستطيع انسان ساخط على المجتمع بوضعه الحالي — مثلي — أن يتعرض بالنقد لوجهة النظر هذه ، وانما كل ما يستطيعه هو أن ينضم الى هذا الرأي ويستعمله كوسيلة لاختبار نفسيته ومعتقداته ، وهذا هو ما حاولت أن أقوم به هنا .

وأنا أستطيع حين انظر الى الوراء أن أتبين أن نقدي لنفسي بدأ منذ أول لقاء لي مع هاري بوليت حين تحدث عن ضرورة الاحساس بالكراهية نحو الرأسمالية ، ورأيتأنني في الحقيقة لا أحس في قلبي شيئا من الكراهية .

لقد كان يدفعني شعور بالذنب الشخصي والاجتماعي يجعلني أحس أولا : بأن علي أن أنحاز الى أحد الجوانب ، وثانيا : بأن في امكاني أن أخلص نفسي من فردية شاذة خارقة للعادة عن طريق التعاون مع الحركة العمالية .

لقد أصبح واضحا الآن أنه لم يكن هناك من حاجة للانضمام الى الشيوعيين فقد كنت منحازا فعلا ؛ كنت منحازا الى جانب كل من يؤمن بالعدالة الاجتماعية والحرية والصدق في الاخبار عن الوسائل الضرورية للحصول على هذه الغايات ، فان كان السياسيون لا يستطيعون أن يتبعوا جانب الصراحة والامانة دائما فان على رجال الفكر أن يؤيدوا أكثر السياسيين أمانة وصدقا ، يساعدونهم وينقدونهم ويفضحون ما قد يصدر عنهم من مظالم وأكاذيب •

ان صراع الضمائر الحرة لذوي النيات الطيبة في سنة ١٩٣٠ وما بعدها كان متركزا حول الوسائل والغايات ، فقد كان يقال : ان الانسان لكي يقوى سلطانه عليه أن يتبع وسائل فاسدة ، بينما ينكر بحمية وعنف أنه يفعل هذا • ومن واجبي ككاتب ومفكر أن أوضح هذه المعضلة •

ولقد أوضحتها فعلا ، الى حد ما ، بعد الخطأ الاول الذي وقعت فيه ، الا أنني مع ذلك كنت أؤنب نفسي وألومها ، لا على ما هو واجب فقط ، بل وما هو من دوافع الخير ، وهو الاحساس بالضيق الاجتماعي والتيقن من أن في داخليتي نفسا جموحة ترفض أن تنسجم مع متطلبات الحركة الاجتماعية •

لقد سمحت لنفسي أن أضطر الى وضع أحس فيه بالذنب لا لترددي وتقلبي فقط ، بل لفضائل الحب والشفقة والشغف بالحرية الفردية ، وهي ذات الفضائل التي دفعتني نحو الشيوعية ، اذ أخبرني الشيوعيون بأن هذه العواطف « بورجوازية » • لقد كان على الشيوعي ، بعد أن ينضم الى الحزب ، أن يقطع الصلة بينه وبين الاسباب التي جعلته شيوعيا •

لقد أصبح واضحا لي الآن أن واجبي هو أن أقرر وأوضح ما

أومن به وأؤيده دون أن أنحاز الى مذهب معين ، فليس بين الجانبين اللذين يتكون منهما التخطيط العالمي الحالي ما يمثل ما أراه الحل الوحيد لمشاكل الدنيا ؛ أما هذا الحل فهو : أن تقوم الشعوب والامم التي تحب الحرية بحركة تشمل العالم كله لتحسين أحوال ملايين البشر الذين يعنيهم الخبز أكثر مما تعنيهم الحرية ؛ وبهذا يرتفع مستوى معيشتهم بحيث يصبحون قادرين على الاهتمام بالحرية • ان مصالح القلة التي تعنيها القيم الحرة ينبغي أن تتحد وتنسجم مع مصالح الكثرة التي يعنيها الخبز والا ضاعت الحرية •